الهَادي التيمُومي

مكتبة

قيَامَة الحشّاشين

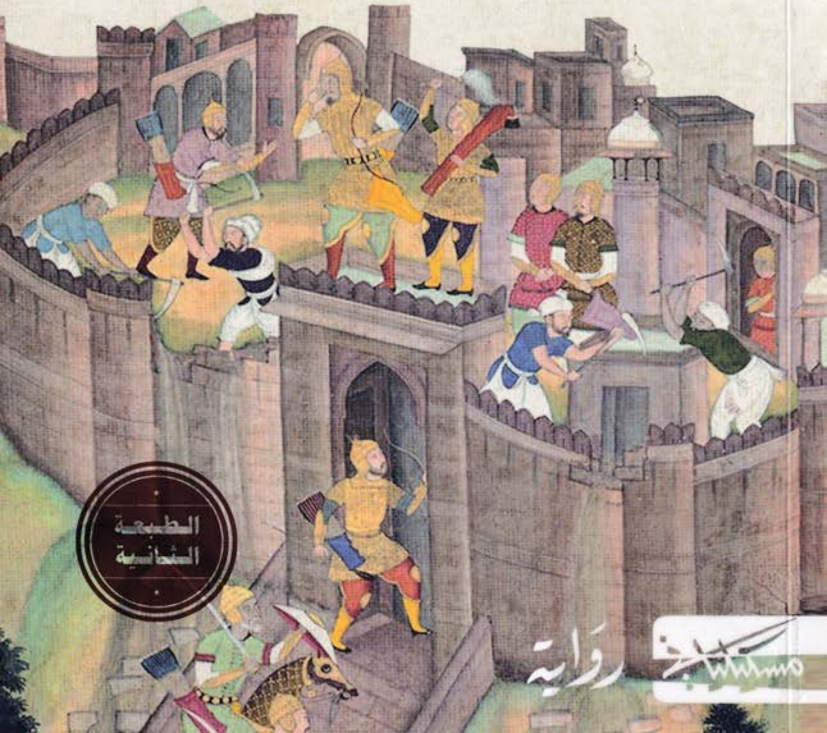

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

قيامة الحشاشين

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتب: **الهادي التيمومي**
عنوان الكتاب: **قيامة الحشّاشين**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**
تنضيد داخلي: **سعيد البقاعي**
تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-149-5**
الطبعة الثانية: فيفري 2021

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الهادي التيمومي

مكتبة
t.me/soramnqraa

قيامة الحشاشين

رواية

مسكلياني

(1)

مكتبة
t.me/soramnqraa

حين دخلتُ غرفةَ الضريح رأيتُه. كان متهالكًا قد اندلقت على الحصيرة جثّتُه المترهّلة، وجَثمَت روحُه الثقيلة على صدر المَزار كلّه. روحٌ من الرّصاص والزّرنيخ تَكتم الأنفاسَ وتُشيع الخشوعَ والصّمتَ الجنائزيّ. تربّع بموضع الصّدارة مُسنِدًا ظهرَه إلى الضّريح، ومِن حوله تحلّق الحواريّون يجترّون صمتَه ويمضغون الخواء: يمليخا ومشلينيا ومرنوش... وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد! دخلتُ عليهم بهيئتي الغريبة وهندامي الإفرنجيّ فلم يكن دخولًا، كان سقوطَ حجرٍ في بركةٍ، ورأيتُني أُرشَق من كلّ اتّجاهٍ: دارت في مَحاجرها عيونُهم تتفحّصني، تنتُفني، تنفذ تحت جلدي... لكنّ رؤوسَهم الخاشعة التقيّة لم تستدر قيدَ أنملةٍ نحو رجلٍ دنيويّ ليس لدخوله من قيمةٍ! تخطّيتُ رقابًا حتّى جلستُ قبالته، فكأنّي ما دنوتُ ولا جلستُ، لَم يَنهرني ولم يُقرّبني. ألقيتُ عليهم السّلام بصوتٍ عالٍ كمَن يغرس رايةَ النّصر على أرضٍ زلِقة، فالتقطت أذناي ردودًا خافتة، أمّا الشيخُ فلم يَزِد عن تمتمةٍ واهنةٍ سمعَتها عيناي من حركة شفتيه، فلا أدري أَكانت «وعليكم السّلام» أم كانت «اغْرب في قعر الجحيم».

وضعتُ ركبتيّ قبالة ركبتيه، فتقاربتا ثمّ تلامستا من غير أن يُنكِرَ عليّ ذلك، وقلت:

- مولاي، زادك الله علمًا بالتنزيل وأسرار التّأويل، جئتكَ من بلدٍ بعيدٍ لألقي بين يديْك الأمينتيْن أسرارًا ومَغاليق لا يسبُر غَوْرَها إلّا باطنيٌّ عليمٌ، وقد قال لي العارفون: اقصدْ أرضَ الحطيب المباركة تهتدِ بعد ضَلالٍ وتَرتَوِ مِن زُلالٍ.

انشقّ ثغرُه انشقاقَ أرضٍ طينيّةٍ عن يَباسٍ. سرّتْه مدحيّتي وسرّني جهلُه بِخبيّتي، فقد حِدتُ عن نهج الصّدق إلى مسارب التزلّف، وما جئتُ اليمنَ البعيدَ لرؤية وجهٍ مندوبٍ أثقل من أُحُد، ولكنّي أمام اللّغز الشّائك الذي عجزت عن حلّه خمّنتُ تخمين الغريق بِعُودٍ يطفو، فجعلت من سفري إلى صنعاء لحضور ندوةٍ علميّةٍ فرصةً لاستفسار شيخ دعاة الإسماعيليّة عن الكنز الأثريّ الذي وجدتُه، ورجوْتُ أن أَغنمَ منه علمًا بصاحب القبر الذي نبشتُه ولفافات الرّقائق المطمورة فيه. فعلتُ ذلك بإصرارٍ وعنادٍ رغم معارضة أستاذي عبد العزيز الذي جاء معي لحضور الندوة، فنكص عن رأيي وأبى، وراح يخوّفني عاقبة إفشاء السرّ لشيوخ المكر الباطنيّ. وضع الشيخ يدَهُ الباردة المعروقة على ركبتي، وضغط برفقٍ يشجّعني على استئناف حديثي من غير أن يلمع بعينيه حماسٌ أو جذوةٌ من فضولٍ، فقلتُ مُجيلًا بصري بين حواريّيه وقد سلّطوا نحوي أنظارًا تَسترق استراقًا:

- أنتم أعلم يا شيخي بفضل كتمان الأسرار، وإنّي أرجو أن

تسمح لي بخلوةٍ.

هزّ رأسَه وضغط ركبتي مرّةً أخرى:

- انتظرْ حتّى نفرغ من صلاة الظّهر، ثمّ اتبعْني.

لا أذكر أنّ صلاةً وافقت هوايَ في يومٍ من الأيّام مثلَ ظهر ذلك اليوم، فقد كانت محاذير أستاذي عبد العزيز تملأ قلبي خوفًا ورهبةً، وكان لا بدّ لقلبي المرتجفِ من صلاةٍ، ولِرُكبي التي تكاد تسيل من سكينةٍ ودعاء. أَذكر أنّي في اللّيلة القدريّة المخيفة قد صلّيت أيضًا. فما كان بالهيّن عليّ في تلك اللّيلة أن أنبش قبرًا قديمًا لا أدري هل تسكنه عفاريت الأرض أم شياطين السّماء. كانت ليلةً حالكة الظّلام، وكنتُ فيها مُسربَلًا بالسّواد كساقطٍ في برميلِ حبرٍ. أحاول تهدئة قلبٍ نافرٍ، ضرباته تصمّ أذنيّ وتكاد تخلع صدري، ورأيتُ أنّه لا بدّ لي قبل النّبش المُهلِك من وضوءٍ وصلاةٍ... لم يكن لي في تلك اللّيلة من صديق يشدّ عضدي وليس على مثل ذلك السّرّ يُؤتمَن صديقٌ. وكان عليّ أن أخوض المهلَك وحيدًا.

بِأيّ قلبٍ حجريٍّ جرُؤتُ على القبر في تلك اللّيلة وقد تكشّفت لي لعنتُه طول النّهار، وطلع عليّ وعلى عمّال الحظيرة ساكِنُه المرعب أشأم من بومِ خرائب. تكشّفت لعنةُ ساكن القبر، وبَدت لي روحه الغامضة المظلمة كأخطبوطٍ هائلٍ بلغ الوخزُ رأسَه فراح يضرب في كلّ اتّجاهٍ بأذرُع جبّارة، وبدأ العمّال في حظيرة منزلي الجديد يدفعون الثّمن من دمائهم ولحمهم الحيّ: ما إن جعل أحدُهم ثقبًا في طرف القبر على غير هدًى حتّى هتف بصاحبه: يا للغرابة، دهليزٌ في جوف

الأرض... ثمّ رفع الفأس ثانيةً لتوسيع الهوّة فأهوى بها على ساقه وانفجر شلّالٌ من دمه الحارّ! هبّ صاحبُه هبّة عَجولٍ أعشى وقد انغرز في أذنَيه من المغدور صراخٌ وعُواءٌ، وقفز في الحفرة فصادفَت ساقُه في أسفلها ثقبَ الدّهليز وغاصت حتّى جذعه، وتمزّق لحم فخذه وانكسر عظمُه! علا في الحظيرة صراخٌ وأنينٌ، وقهقهاتُ ميّتٍ أو ذبيحٍ قديمٍ انفتحت في قبره كوّةٌ، فخرج علينا والدّماء لا تزال تشخُبُ من رقبته يطارد مَن أفسد عليه سكينته.

كانت عشيّةً للنّحس والشيطان. لكنّي، والشّرّ يطاردني والخوف يتسلّل إلى روحي، لم أخطئ بوصلتي. وأوحى إليّ حدسي العلميّ أنّ تحت الحفرة العميقة سرًّا أبعد غورًا، فعاهدتُ نفسي أنّي كاشفُه وإن اشتبكتُ في جوفها مع الشيطان الرّجيم.

أخذت العاملَيْن إلى المستشفى ودفعت مستحقّات عملهما ومستحقّات علاجهما. لم يكن قد بقي لي غير يومين للسّفر إلى صنعاء من أجل حضور مؤتمرٍ علميٍّ، فأخبرتُ العاملَيْن بعزمي وَقْف الأشغال، ونويتُ نبش القبر وحدي في تلك اللّيلة مهما كلّفني عزمي الأخرق.

- السّلام عليكم ورحمة الله... السلام عليكم ورحمة الله...

قالها الشيخ مُيمِّمًا وجهه المعروق عن يمين وشمال مُنهِيًا صلاة الظهر، فانتبهتُ من خشوع الآخرة إلى شأن الدّنيا، ورحتُ أدبّج من الكلام أنشوطةً تسحب شيخًا ينتشي بالمديح راجِيًا أن يَهرف لي بما يعرف.

تبعتُه إلى غرفةٍ خلفيّةٍ رجوتُها زنزانةً لاستنطاقه، لكنّه لم يدخلها وحيدًا، فالتقطتُ إشارةً سيّئةً بأنّ الأمور لن تجري على النّحو الذي أريد: تبعه من قبلي ثلاثة من العماليق، فلم يغلقوا الباب من ورائهم حتّى انتظروا دخولي، وعلمتُ أنّهم ما رجموا بالغيب فعرفوا مبتدئي وخبري، ولكنّ الشيخَ أخبرهم عوض الخشوع في محرابه بما جرى بيني وبينه، وأمرهم بإدخالي إليه، فالتقطتُ إشارةً أخرى سيّئةً، ولَكَمْ صار قلبي وترًا حسّاسًا وطبَقًا لاقطًا. قلتُ له برجاءٍ مرّةً أخرى:

- أنتم أعلم يا شيخي بفضل كتمان الأسرار، وإنّي لأرجو أن تسمح لي بخلوة.
- هؤلاء أُمَنائي يا ابني، كُشفت لهم الأستار وليس لي مِن دونهم أسرار، تكلّم لا بأس عليك.

نبرة صوته كانت تكتسي زيًّا عسكريًّا رغم تجمّلها بمَلمَسٍ من حريرٍ. لقد وجّه إليّ أمرًا، وكان تجهُّم وجهه وحِدّةُ عينيه الضيّقتين الأفعوانيّتين يجعلان الأمرَ جازمًا ومؤكَّدًا لا سبيل إلى النّكوص عنه، ولم يكن لي في كلّ الأحوال من الكلام بُدٌّ، فما غبتُ عن المؤتمر العلميّ الذي جئتُ من أجله، ولا ركبتُ من صنعاء إلى الحطيب لأعود خاليَ الوفاض. فتحتُ محفظتي الصّغيرة فأخذت منها النّسخَ الخمس التي أحضرتُها، نُسَخًا من الرّقائق المكتوبة بخطٍّ عربيٍّ غير مُبينٍ، تلك التي غنمتُها من القبر ليلةَ الرّعب والشّيطان، دفعتها إلى الشيخ قائلًا:

- هذه نُسَخٌ من رقاعٍ قديمةٍ وقعت بين يديّ، فبدا لي أنّها لرجلٍ من طائفتكم، فانظر ماذا ترى، وعلّمني ممّا عُلِّمت يا شيخي.
- كان عليكَ أن تأتيني بالأصول، وأن تأتيني بها كلّها. أم جئتَ تختبرني؟
- معاذ الله شيخي، ولكنّ النّسخةَ طِبْقٌ للأصل، والقليل يغْني عن الكثير.

تفرّس في النّسخة الأولى، فما لبث أن عقد ما بين حاجبيه مُظهرًا كلّ اهتمامٍ. علّقتُ عينيّ بوجهه أَستفسر، فتضخّم وجهُه بين عينيّ حتّى صار ملء الغرفة، ملء الفضاء، وما عدتُ أرى غيره. رأيته يُصعّد حاجبَيه ثمّ يخفضهما، يضيّق عينيه ثمّ يفتحهما، يَفغر فمه، يُكوّر جُمعه، ويزدرد ريقَه... وما إن نظر في الصّفحة الرابعة حتّى قفز كالمصعوق فانتصب واقفًا وصرخ بي:

- أين الرّقائق يا طالبَ حتفك؟ أين تخبّئها؟ ثكلتك أمّك إن لم تدفعها إليّ السّاعة! أين وجدتَها، أين؟

تملّكني الخوف. بدا أنّ قصّة الأمير المُغامر لا تليق بي، وأنّها تنحرف نحو نهايةٍ مُفجِعةٍ. غادر الأمناء مجالسَهم فاقتربوا منّي، وقذفوا بسهام عيونهم وجهي المتصبّبَ عرقًا. ضربوا من حولي حصارًا غير معلَنٍ حتّى سمّروني في موطئ قدميّ من دون أن يتكلّم أحدُهم في حضرة الشيخ. قلت له بِنبرةٍ خفيضةٍ:

رقاع مهترئة وجدتُها صدفةً. وجدتُها في تجويف حائطٍ خربٍ.

لم أكن أقصد الكذب، ولكن هذا ما قاله خائفٌ مصدومٌ حين كان عليه أن يقول كلامًا، فقطع الشيخ تصريحي وهو يُشير إلى الضّريح من خلفه:

- لا تكذب عند رأس الوليّ فيَشُلّك ويُعميك. لقد استخرجتَ هذه الرّقاع من قبرٍ قديم. كانت موضوعةً عند رأس الدّفين، وكان عند قدميه خنجرٌ!

رأيتُني في تلك اللحظة عاريًا كيوم وُلدت، وخُيّل إليّ أنّ الشيخ يرى منّي ما تحت ورقة التّوت، وعلمتُ أنّه أكبر من أن يكون شيخًا رثًّا يحرس ضريحًا.

- أجل مولاي، قد عرفتَ وصدقتَ، وقد جئتُ أستفسر عن الدّفين مَن يكون، وعن الرّقاع مَن كتب متونها وحواشيها، ثمّ إنّ...

تقدّم نحوي صارخًا وقذفني بأمرٍ صارم: اُصمت. فإنّ كذبَك اليومَ قاتلُك.

دفعني الأمناء نحو أبعد زاوية في غرفة الضريح، وصار احتجازي أمرًا معلَنًا، ثمّ تكدّسوا على الشيخ يتسارّون، يتناظرون، يتغامزون... نشروا النّسخ بين أيديهم فتتبّعوا سطورها بسبّاباتهم، فسّروا وقدّروا، وقذفوني من أسفل عماماتهم بنظراتٍ متوعّدةٍ. تقدّمتُ منهم فقطعتُ تهامسَهم، وقلت بلهجةٍ عاتبةٍ تكاد تكون غاضبةً:

- أيّها الشيوخ الأفاضل، قد أسأتم الاستضافة وكتمتم العلم،

وتكادون تغلقون الباب عليّ وتوثقون يديّ، فإن كانت لكم معرفة بما سألت عنه فأفيدوني، وإلّا فاتركوني وشأني.

قلت ذلك ومضيتُ نحو الباب، فامتدّت يدان إلى كتفي تجذبانني حتّى كدت أقع على ظهري، وعادوا إلى محاصرتي. قال لي الشيخ وهو يُمسك بإبهامه وسبّابته بعضَ ما ظهر أسفل عمامته من شعر أبيض:

- إنّك يا رجل موعودٌ بما شئتَ من المال إن سلّمتني الرّقائق، وهذه شيْبَتي تضمن لك، وإنّك لمنذورٌ للقتل إن جَحدتَها، فقد أوصانا أئمّتنا ودُعاتنا بالبحث عن تلك الرّقائق أنّى وُجدت وحرقها من دون تأخيرٍ، فالتمسْ لنفسك السّلامة والمَكرُمة يرحمك الله.

ما كنتُ أنوي تسليمَهم كنزي ليطّلعوا عليه، إلّا نُسَخًا قليلةً، فكيف وأنا أسمعهم يَجهرون بنيّتهم حَرْقَهُ. بدا لي عزمُهم أخرق وإصرارهم بلا مبرّرٍ. قلت له:

- أنا عالم تاريخٍ يا سيّدي، وهذا كنزٌ أثريٌّ فريدٌ، يكشف قسمًا من تاريخنا ويُعلّمنا ويبصّرنا، فكيف تطلب منّي تسليمه إليكم لتحرقوه؟ وأيّ مبرّرٍ لهذا العزم الغريب؟

اقترب منّي ووضع يده على كتفي. خفَض صوتَه وانفرجت أساريرُه انفراجةً ميكانيكيّةً قسريّةً. بدا أنّه قد قرّر ملاينتي حتّى يحصل على مبتغاه.

- ما دمتَ عالمَ تاريخ، ونحن نُجلّ العلم والعلماء، فسوف

أخبرك بحقيقة الأمر فتنصاع عن يقينٍ وهدى: الرّقاع التي بين يديك هي مزامير حسَن الصبّاح، المُكنّى بشيخ الجبل، كتبها في قلعة أَلَـمُـوت، ثمّ أردفها أحدُ أتباعه بحاشيةٍ لشرحها، وقد كان الصبّاح أوّلَ أمره داعيةً إسماعيليًّا مهتديًا، لكنّه ما برح أن ابتدع وضلّ، فأنكر إمامة المُستعلي بالله بن المستنصر، وجعل لنفسه شيعةً من المارقين زعموا أنّ الإمامة للمخلوع نزار بن المستعصم، وزعموا له ذريّة من بعده... ما دمتَ عالمًا بالتاريخ فلا شكّ أنّك تفهم ما أقول.

انتابني إحساس غامر والأسرار الجليلة تتكشّف أمام ناظريّ، فما قرأتُه من الرّقائق، وإن كان نَزرًا قليلًا، يَعضُد كلام الشيخ بكلّ دقّةٍ:

- أجل سيّدي أجل، إنّك تقصد فرقة الحشّاشين الذين استقرّوا بقلعة أَلُموت المسمّاة عشّ النّسر في أنحاء قزوين. وكانت لهم قلاعٌ أخرى حصينةٌ في فارس والشّام، واشتهروا بالاغتيالات والقتل... كانوا أشهر فرقةٍ إسماعيليّةٍ في عصرهم.
- لا تُسمّهم إسماعيليّين، فإسماعيل بن جعفر منهم براءٌ. قلت لك إنّهم ابتدعوا ومَرقوا من الدّين... كان حسَن الصبّاح في زمن دولتنا الفاطميّة الشّريفة، عند حُكم مولانا الإمام المستنصر بالله، قد استقرّ بالقاهرة ثلاث سنواتٍ يأخذ العلم عن كبار علمائنا من الباطنيّة، حتّى علِم أسرار التنزيل والتّأويل، وغاص في علومنا المحجوبة الخَفِيّة، فلمّا كتب الله

عليه الزيغ والضلالة أفشى أسرار فرقتنا وعلومَها لأهل الظّاهر من الرّعاع والجهلة. ومزاميره اللّعينة التي كتبها تكشف كثيرًا من علومنا الباطنة ممّا أمرنا الأئمّة بسَتره عن العامّة، وهي علوم جليلةٌ لا يحصّلها غيرُ المهتدين الخُلّص بعد التّدرّج في المراتب سنين طويلةً من عمرهم. وقد علم أئمّتنا أنّ المارق أوصى بدفن رقاع مزاميره معه، وعليها حاشيةٌ تشرحها، فتجعل ما انفضح أكثر انفضاحًا، زاعمًا أنّ مزاميره تتضمّن عقيدته الصّحيحة وكفاحه في الدّعوة حتّى تكون له شفيعًا يوم القيامة... فلمّا هلك في قلعة ألُموت وهو شيخٌ ضالٌّ، أخذه نفرٌ من أتباعه كما أوصى، فدفنوه في قبرٍ بعيدٍ بالغرب غير معلوم، وسوّوا عليه التراب وركضت عليه الخيل فظلّ مجهولًا حتّى زماننا. ولقد تتبّع دعاتُنا والمهتدون من فرقتنا نُسخَ المزامير التي اكتتبها أتباع الصبّاح فأحرقوها وما بقيت غير الرّقاع الأصليّة التي دُفنت معه...

سكت الشيخ قليلًا كأنّما يستريح من رحلةٍ بعيدةٍ. استرجع أنفاسه اللّاهثة وهو يتفحّص وجهي ليرى أثر كلامه وأردف:

- قد بيّنتُ لك، وما كنتُ مضطرًّا، كلَّ ما تريد أن تعرفه عن الكنز النّجس الذي وجدتَه، وقد علمتَ أنّه لا بدّ لنا من حرقه، فليست وصايا الأئمّة ممّا نَحيد عنه، ولا أسرار دعوتنا ممّا نسمح بهتكه فنموت ملعونين، لكنّك لستَ على دعوتنا، فأنت صاحب دنيا وشأنك في كنزك البيعُ والشّراء، لذلك ندفع لك مالًا يُغنيك فتَدَع هذا الأمرَ راضيًا مسرورًا.

ستبيت اللّيلة عندنا ضيفًا مبجّلًا ريثما نتدبّر أمرنا، ثمّ يرافقك غدًا رجلان من أُمَنائي يَلزمانك كظلّك حتّى تسلّمهما الرّقاع في بلدك فيدفعان لك المال، ويكون لك بيننا ذِكرٌ حسنٌ. وإيّاك أن تغدر أو تنكث، فإنّنا نقتلك وإن في بطنِ حُوت.

أردتُ طمأنتَهم كما أرادوا طمأنتي. لِكُلٍّ لسانُه وتحت كلٍّ سيفُه، وراحت عيناي تدوران في الغرفة الواسعة ترصدان مَنافذها، وعقلي يشتغل بطاقته القصوى.

- ولكنّ حقيبتي بقيت بالفندق ولا بدّ لي من جلبها فإنّ فيها...

قطع عليّ اعتذاري بكلماتٍ صارمة، فما كان مستعدًّا لسماع أيِّ استدراك:

- لا عليك يا رجل. سنحضرها إليك بعد زمنٍ وجيزٍ...، وإن كنتَ تريد شراء هدايا لأهلك من اليمن السّعيد، فاذكر لنا ما شئتَ منها وتخيّرْ الأغلى ونحن نحضره لك عربون صداقة.

قلت راجيًا طمأنتَهم بعد أن نضجت فكرة الهروب في مخيّلتي:

- أشكر لكم كَرَمَكم. سأطلب منكم أن تحضروا لي بعض الهدايا، ولا أشُقّ عليكم بأغلاها، لكنّ بطني الآن أولى وأنا جائعٌ، فائتوني بطعامٍ ممّا اشتهر به اليمن ولا أجده في بلد آخر.

تبادلوا ابتسامات رضًى، وظنّوا أنّهم بلغوا غايتهم برشوةٍ لمعدتي ومالٍ لأطماعي، فهتف بهم الشيخ في نبرةٍ حماسيّةٍ:

- آتوا ضيفي المبجّل طبقًا من «المَندي» وآخر من «السّلته»، فإنّه لا يجدهما في بلدٍ آخر. أحضروا له خبز «الطّاوة» وناولوه من الحلويّات «المكفوف» و«المسمسم»... ليسرع أحدكم فإنّ ضيفي جائعٌ.

في لحظةٍ خاطفةٍ مجنونةٍ، حين لا يكون بين الحياة والموت سوى عثرةٍ أو التفاتة، جريتُ نحو نافذةٍ كان نصفُها مفتوحًا فاستويتُ عليها بقفزةٍ واحدةٍ، وألقيتُ بجثّتي نحو الخارج قبل أن أرى الحضيض الذي سيتلقّفني، سمعتُ صراخًا من خلفي ودويَّ ضربةٍ عنيفة بمحدوف حطّم النّافذةَ فأتبعني زجاجُها المتناثر، وجريتُ في المنحدر دون التفاتٍ. رجوتُ أن أجد عبد العزيز في السيّارة حيث تركتُه منذ ساعةٍ. إن كان قد نزل منها أو ابتعد عنها بضعة أمتارٍ فإنّ الفاصل بين الحياة والموت قد صار أدقّ من شعرةٍ. ارتميتُ على الكرسيّ بجانبه وصرخت:

- انطلِقْ بنا، إنّي مطارَد... مطارَد.

ضغط عبد العزيز على مزوّد السّرعة ضغطًا جنونيًّا، وانطلقت السيّارة القويّة تطوي الأرض طيًّا. تسمّرت عيناي في المرآة العاكسة، وتوقّعتُ لحاق المطاردين بِلا هوادةٍ. صوّر لي خوفي سماعَ شخيرِ محرّكاتٍ عملاقةٍ من خلفنا، وصريرِ فرامل حادّةٍ تمزّق الإسفلت، ولعلعةِ رصاصٍ وانسكابِ دماءٍ... فلمّا خرجنا من قرية الحطيب وتوغّلنا في الطريق السريعة رويتُ لأستاذي باقتضابٍ ما حصل ونفَسي لا يزال متقطّعًا وصدري يعلو ويهبط. فقال:

- أولئك هم «البهرة» الذين حدّثتك عنهم، باطنيّةٌ مستعليةٌ من بقايا الفاطميّين، هم اليوم خليطٌ من اليمنيّين والهنود وبضع جنسيّاتٍ أخرى. لهم هاهنا نفوذٌ ويدٌ طولى، إن لم نحسن التصرّف في هذا الوضع الخطير قد يقتلونك قبل أن تجد سبيلًا إلى المغادرة.

في تلك اللّحظة تذكّرت أمرًا زاد من فزعي: فقد تركتُ بين أيدي خصومي محفظةً فيها بطاقة هويّتي وجواز سفري ووصل الإقامة في النّزل! يمكنهم معرفة كلّ شيء عنّي ومطاردتي في كلّ مكانٍ. قلتُ ذلك لعبد العزيز فزاد اضطرابه وراح يلقي عليّ من اللّوم أحمالًا، فما تركتُ محفظتي هناك إلّا بسبب غفلتي وقلّة احتياطي للمكاره، ورحتُ أفسّر له أنّ المحفظة سقطت منّي لحظةَ قفزي نحو النّافذة حين لم يعد التراجع ممكنًا. فقال لي مُنهِيًا تقريعه الثقيل، وكأنّما أنزل قبضته عن خناقي:

- ليس أقدر على حمايتك من سفارة بلدنا. فلْنمضِ إليهم. هم الذين يستطيعون تأمين عودتك إلى الوطن.
- ولكنّهم إن علموا بالرّقائق الأثريّة أخبروا عنها الشرطة فتولّوا مصادرتها. خسارة حياتي أهون عليّ من خسارتها.
- لستَ مضطرّا إلى ذكر شيءٍ عنها. مَزار محيي الدّين موقعٌ أثريٌّ يقصده السيّاح من كلّ مكانٍ. قل إنّك ذهبتَ للسّياحة، وتبادلتَ النّقاش مع شيوخٍ فيه، فرموك بالكفر ودعوا إلى قتلك... قل إنّ أتباعًا لهم همّوا بك إذ سمعوا

التحريض، فهربتَ منهم وطاردوك بهراوات وسكاكين...

في السّفارة بدا عليهم الارتباك. اعتبروا الأمر جللًا، فملؤوني بعد خوفي خوفًا، وتناوبوا على التحقيق معي، كلٌّ يريد أن يسمع القصّة بنفسه. قال لي أحدهم:

- إذَن وقعتَ في جماعة البهرة. رحتَ تتعالم عليهم وتسفّه عقيدتهم.

- لم أقصد شيئًا من ذلك، لكنّي بغير إرادتي قد وقعتُ فيهم، وعلمتُ بعد ذلك أنّهم البهرة.

- إنّهم لا يسمحون بأيّ مساسٍ بعقيدتهم أو عاداتهم، لكنّهم لم يقصدوك، فأنت مَن قصدتَهم. حظّك منكودٌ يا صاحبي. أرجو أن نتمكّن من حمايتك حتّى موعد إقلاع أوّلِ طائرة.

سمعتُ مسؤولي السّفارة يخابرون الشرطة اليمنيّة، وحضرت بسرعةٍ سيّارتان مدجّجتان. تكلّموا وأسرّوا وجهروا، ثمّ نادوني فأعادوا استنطاقي أمام ضبّاطٍ يمنيّين، قال لي أرفعُهم رتبةً:

- جئتَ اليمنَ لافتعال المشاكل إذَن؟ وعملتَ مشكلة مع المكارمة؟

- مع البهرة سيّدي، مع البهرة.

ابتسم الضابط وعاد يتأمّلني بإشفاقٍ، كأنّه يرى مقصلتي:

- هؤلاء هم أولئك، وحظّك بكلّ حالٍ منكودٌ.

- قرّ قرارهم على اصطحابي إلى النّزل لجلب أمتعتي، وإيوائي

في السّفارة تلك اللّيلة، واتّصل آخرون بالمطار لحجزِ مقعدٍ لي في أوّل طائرةٍ تقلع صباح اليوم التالي.

بلغنا النزل فألفينا حالةً من الفوضى، والشرطة عند كلّ المداخل تمنع دخول النّزل أو الخروج منه إلاّ بعد تفتيشٍ دقيقٍ. أُخبِرنا أنّ رجالًا مسلّحين، لا يُدرى إن كانوا إرهابيّين أو من عصابات المخدّرات، قد دخلوا بحثًا عن نزيلٍ أجنبيٍّ لكنّهم لم يجدوه، ففتّشوا غرفته ولا يُعلَم بعدُ ما أخذوا منها! وقعتُ عليهم من السّماء ليعرفوا تفاصيل القصّة وخباياها، ثمّ دخل رجال الشرطة غرفتي حذرين. دخلوها بأنوفهم وعيونهم قبل سيقانهم، باحثين عن أيّ أثرٍ قد يدلّ على تفخيخها. ولمّا سمحوا لي بالدّخول أخيرًا وجدتُها منهوبةً كمدينة استباحها التّتار لتوّهم.

كنتُ في كلّ ما مضى من الأحداث أتماسك وأشتدّ، لكنّي في غرفتي بالنّزل آنئذٍ شعرت بفزعٍ يكتسح وجداني، وأحسست بقلبي يسقط في جوفي. صرتُ أتصوّر أنّ كلّ شرطيٍّ من المكلّفين بحراستي قد يكون بهريًّا فيطعنني من قُبُلٍ أو من دُبر، وكلَّ حائطٍ في النّزل أو في السّفارة قد ينشقّ، وكلَّ سقفٍ قد يتصدّع فيخرج منه بهريٌّ يطعنني ويصرخ: خذ هذه من الأئمّة المعصومين.

أعادوني إلى السّفارة واستقرّ بي المقام وراء جدرانها ساعةً أو نحوها، خلف باب مغلَقٍ حصينٍ، فتنفّست الصّعداء وتبرّدت، وإذا بهم يدخلون عليّ بأستاذي عبد العزيز وقد ألبسوه معطفًا طويلًا ووضعوا غطاءً على رأسه ونظّارةً سوداء على عينيه، فصار

بمثل الحال التنكّريّة التي جلبني بها رجال أمن السّفارة! بادرتُ بإلقاء التحيّة عليه وقد اكتنفني شعور بالخجل الشديد. ففي حمأة خوفي على نفسي، والأحداثُ تتسارع من حولي، نسيتُ أمرَه، وقد كان رفيقي في رحلة الحطيب، ولولاه ما قُدّرت لي النّجاة... كان عليه أن يخضع لمصيرٍ لم يختره، وأن يبيت معي لاجئًا في السّفارة ويُرحَّل صباح اليوم التالي، إذ صار هو أيضًا مطلوبًا للبهرة، وصار تأمين حياته أهمّ من حضور المؤتمر العلميّ. علمتُ أنّ السيّارة التي اكتراها ورحنا بها إلى الحطيب قد خُلِّعت أبوابها في مرآب الفندق، وأخذوا منها وثائقه الشخصيّة وحاسوبه المحمول. كان أستاذي في حالةٍ من الجزع يَشي بها صوتُه المتقطّع وحركاتُه العصبيّة، لكنّه ظلّ متقنّعًا بمظهر المهابة التي جعلَها منذ عرفتُه إزارَه الدّائم.

حين دخلتُ الجامعة منذ عشرين عامًا مفعَمًا بالحماس والرّغبة في التحصيل العلميّ، كان عبد العزيز مزيودات أوّل قامةٍ عاليةٍ انحنيتُ أمامها. هو رجل أكاديميٌّ صارم، ذو علمٍ واسعٍ وثقافةٍ وتهذيبٍ، يجتهد في إعداد الدّروس لطلبته فيكدّ نفسه كلّ الكدّ ولا يكتفي كبقيّة الأساتذة بالدّروس الجاهزة التي يكرّرونها كلّ عامٍ. لم يكن نشاطه منحصِرًا في التّدريس الجامعيّ، فقد كان شعلةً من النّشاط الدّؤوب في المعهد الوطنيّ للآثار حيث يرأس اللّجان العاملة في التّنقيب الأثريّ، وينتقل من شرق البلاد إلى غربها إذا تناهى إليه خبرُ راعٍ عثر على قنديلٍ فخّاريٍّ. وقبل تخرّجي حضرتُ معه دروسًا ميدانيّةً وتربّصات، فرأيتُه يضرب بالمسحاة أو الإزميل

لا يستنكف من الخوض في الأتربة والغبار، وينظر إلى كلّ لُقية وإن كانت كسرًا فخّاريًّا كأنّها جوهرةٌ لا تُقدَّر بمالٍ. مرّ على ذلك زمنٌ حتّى عدتُ للتّدريس بالكليّة نفسها التي درَست فيها، فكان أوّل سؤالٍ سألتُه ورِجلي على العتَبة: أما يزال السيّد عبد العزيز مزيودات رئيسَ قسم الآثار بالكليّة؟ ولم يكن من شيءٍ يجعلني فخورًا بنجاحاتي الدّراسيّة أكثر من شرف بلوغي مرتبة زمالة أستاذي عبد العزيز. لم أزل بعد ذلك أعامله بلباقة تلميذٍ مؤدّبٍ وأناديه أستاذي أو السيّد عبد العزيز حتّى قال لي يومًا بتواضعٍ ليس من دأبه:

- صرتَ اليوم زميلًا لي، فارفع عنك التّكليف وناديني باسمي.
- ليس بهذه الكلّيّة زميلٌ لك، فلا أحدَ في مستواك يا سيّدي، فلا تتواضَعْ أكثر ممّا ينبغي، أمّا رفع التّكليف فثقيل عليّ... ثقيل عليّ حقًّا.

لكنّه أصرّ على رأيه، وظللتُ أتدرّب على ذلك مدّةً طويلةً فأجِدُ في قلبي صُدودًا وأكادُ لا أُتقنُه.

جاؤونا في غرفة السّفارة بحشيّتين عجفاوين وضعناهما على الأرضيّة الرّخاميّة الباردة، وبغطاءين وطبق طعامٍ، فأكلنا نزرًا يسيرًا، وتكوّمنا عند الرّكن كفرخَين مقرورين. قال بنبرة أسفٍ:

- سرقوا وثائقي الشخصيّة وحاسوبي المحمول. وعلى الحاسوب دروسٌ وأعمالٌ أكاديميّةٌ هامّةٌ لم أحتفظ بِنُسَخٍ منها.

كان يتكلّم بمرارةٍ، وكنتُ أتّهم نفسي في ما حصل، فكأنّما أُسقى ماء الحنظل. لم يسعفني كلامٌ لمواساته، لكنْ كان عليّ أن أقول أيّ كلام فسألتُ:

- هل كانت الرّقعة التي تحمل الرّسم السرّيّ في السيّارة أيضًا؟ هل سرقوها؟

أجابني بعصبيّةٍ:

- عن أيّ رقعةٍ تتكلّم يا أبله؟ كأنّي ما درّستك ولا عرفتُك! تلك كانت وثيقة موتك وقد أتلفتُها قبل أن نذهب إلى الحطيب!

يوم التقينا في المطار لنركب إلى صنعاء، أخبرتُ عبد العزيز عن الرّقاع التي استخرجتُها منذ ليلتَين من قبرٍ قديمٍ مجهولٍ، ومعها خنجرٌ منقوشٌ، وأخبرتُه أنّي بعد اطّلاعٍ سريعٍ على بعضها تبيّن لي أنّ كاتِبها داعيةٌ أو زعيمٌ من الطّائفة الإسماعيليّة، فرأيتُ أنّ رحلتي إلى صنعاء فرصةٌ مواتيةٌ لإطلاع شيوخ البهرة عليها، فهُم ينتسبون إلى الإسماعيليّة، وقد يسعفوننا بمعلوماتٍ أو تفاسير تعيننا على فهم تلك الوثائق. سُرّ السيّد عبد العزيز كلّ السّرور بعثوري على ذلك الكنز الثّمين، وظلّ يضغط كتفي وعيناه تَبرُقان بَريقَ النّصر. سرى فيّ حماسُه الفيّاض فقرفصتُ في بهو المطار بين الغادين والرّائحين، وعالجتُ حقيبتي حتّى استخرجتُ النّسخَ الستّ التي جلبتُها فوضعتُها بين يديه. راح يقلّبها ويفكّ حروفها وقال:

- نقّبتُ في أجواف هذه الأرض شمالًا وجنوبًا فما عثرتُ قَطُّ

على شيءٍ بقيمة ما وجدتَ مصادفةً. هذا فتحٌ أثريٌّ سيكون له ما بعده.

لكنّه لم يتحمّس لَعرض نُسَخ الرّقائق على شيوخ البهرة اليمنيّة، وقال لي مُتوجِّسًا:

- هذه الوثيقة ذات قداسةٍ عندهم، وسوف يسعون إلى استرجاعها منك بأيّ طريقةٍ، وربّما قتلوك من أجلها.

مساءَ ذلك اليوم عدنا إلى تصفّح النّسخ وقراءتها بعد أن استقرّ بنا المقام في النّزل بصنعاء، ورأيتُ عبد العزيز يلمسها بأصابع مرتعشةٍ كأنّما يفكّك لغمًا، ثمّ عاد إلى تحذيري من خطورة إطلاع شيوخ البهرة عليها، لاسيّما أنّي في بلدهم ولستُ بمأمنٍ. فلمّا رآني مصرًّا على رأيي، قرّر اكتراء سيّارةٍ ومرافقتي إلى الحطيب، ووَضَع خطّةً للطّوارئ:

- يجلس شيخ دعاة البهرة عادةً في مَزار محيي الدّين، وهو عند مرتفع الهضبة الذي يَعسُر الوصولُ إليه بالسيّارة، لكنّي سأحاول قيادتَها إلى أقرب مكانٍ من المزار يمكن بلوغه، وأنتظرك على أهبةٍ... فإذا رأيتَ خطرًا عليك فبادرْ بالهروب إليّ...

لم أر لذلك من ضرورةٍ، غير أنّه ما كان يليق بي أن أكسر خاطر صديقٍ يخاف عليّ، ثمّ تبيّنتُ أنّ حدسه كان صائبًا، وكأنّه كان يقرأ الغيب بوَهَجه العلميّ.

سألني ونحن جالسان على طرف سريري في الفندق، وأنا

أستخرج الرّقاع وأطرحُها على ركبتيّ:

- لِمَ جلبتَ ستّ صفحاتٍ عدًّا وحصرًا؟ لماذا لم تكن ثلاثًا أو عشْرًا؟

- وجدتُ الرّقاع على ثلاثة أصنافٍ تعبيريّة: المتنُ وهو النصّ الأوّليّ الذي كتبه الدّاعي أو الإمام، ثمّ الحاشية وهي شرح على المتن، كتبه أحدُ تلامذته أو أتباعه، أمّا الصّنف الثالث فهو من المتن لكنّه ذو اختلافٍ وغرابةٍ، وهي رسومٌ سبعةٌ مثل الرّموز التي كانت توضع قديمًا للإشارة إلى دفائنَ سريّةٍ، فجلبتُ من كلّ صنفٍ صفحتين.

منذ وصولنا إلى النّزل اطّلع عبد العزيز على الصّفحات الستّ باهتمامٍ، وعاد إلى رسمٍ منها يتأمّله، ثمّ يرفع رأسه فيشرد بعيدًا ويعود إلى تفحّصه. علمتُ حاجته إلى التّركيز فانشغلتُ عنه ببعض شأني، وكلّما أردت العودة إليه وجدتُه بمثل ما تركتُه عليه من الانشغال والذّهول، حتّى استمرّ الحال زهاء ساعةٍ وضجرتُ كلّ الضّجر.

اقتربتُ منه وقلت له برفق:

- سيكون غدُنا مرهقًا أستاذي، والرّحلة إلى مزار محيي الدّين بالحطيب طويلةٌ. فلنخلد إلى النوم، فإنّ اللّيل يوشك أن ينتصف.

قام شاردَ الذّهن، فناولني من نُسخ الرّقاع خمسًا، وطوى الأخرى التي ظلّ يتأمّل رسمَها ساعةً فوضعها في كتابٍ من كتبه

وقال لي:

- لا تأخذ هذه النّسخة إلى شيوخ البهرة. تبدو لي رسالةً مشفّرةً وأظنّ أنّ بها خطرًا عليك!

ليس من طبعي أن أسمح لأحدٍ بالتدخّل السّافر في شؤوني، حتّى إن كان عبد العزيز مزيودات! قلتُ بنبرة احتجاجٍ رقيقٍ:

- وما أدراك ألّا يكون ذلك الرّسمُ في تلك الرّقعة هو المفتاح الضّروريّ لفهم أسرار الرّقائق كلّها؟

انتابه غضبٌ مفاجئٌ لم أتوقّعه، وصرخ:

- كفّ عن العناد بلا معرفة، ولا تجادلني في هذا الأمر بحقّ ما تعلّمتَ منّي منذ عشرين عامًا!

كتمتُ مرجلًا يغلي في أعماقي، واصطنعتُ هدوءًا محمولًا على عاصفةٍ:

- حسنًا أستاذي. افعل ما ترى.

غمرتني ذكريات ما حدث ونحن مكوَّمان في الرّكن البارد بغرفة السّفارة، وقد فاجأني عبد العزيز بخبر تمزيقه الصّفحة التي احتفظ بها من الرّقاع حين سألتُه ما إذا كانت قد سُرقت مع وثائقه الشّخصيّة من السيّارة المكتراة. ظلّ صوتُه الغاضب يدوّي بسمعي:

- عن أيّ وثيقة تتكلّم يا أبله؟ تلك كانت وثيقة موتك، وقد أتلفتُها قبل أن نذهب إلى الحطيب!

أردتُ أن أفهم مقصده، وكان عليّ لبلوغ الغاية مداراته حتّى لا أستفزّ غضبه مرّةً أخرى، فقد بدا مقتنعًا أنّ ما حدث لنا من سوءٍ كان بسبب عنادي وقصور فهمي. عدتُ إلى سؤاله بصيغةٍ أكثر لطفًا وهو ممدّدٌ على الحشيّة في ركن غرفة السّفارة الباردة:

- قلتَ لي أستاذي إنّ بالرّقيقة من الخَطر عليّ ما جعلك تتلفها، لكنّي لم أفهم ما تَعنيه وأودّ أن تشرح لي الأمر.

نظر إليّ نظرةَ رثاءٍ طويلةً كما ينظر مُزارعٌ إلى بقرته الوحيدة التي تحتضر، وسكت حتّى ظننتُ أنّه لن يكلّمني في ذلك الأمر. ثمّ قام إلى حقيبته فأخرج كيس بنٍّ صغيرًا سكبه في فنجانٍ وأعدّ قهوةً باردةً من دون سكّر. أشعل سيجارةً ودخّنها صامتًا، حتّى ارتشف ثمالة قهوته وأنا أنظر ولا أتكلّم. فلمّا عنّ له الكلام ابتدرني بنفسه:

- ما فائدة كلامي معك وأنت تسمع وتعاند، واللَّجوج أسوأ من أصمّ.

- معاذ الله أستاذي، لكنّي أجتهد فأصيب وأخطئ، وأعود إليك فأتعلّم وأقوّم.

- حسنًا، سأفسّر لك الرّسم لتعلم أنّك لو أخذتَه معك إلى شيوخ الحطيب لقُتلتَ من ساعتك، فقد صدر حكمٌ منذ ألف عامٍ بإعدامك لحظة اطّلاعهم على الرّسم السرّيّ... أتذكر الحيلة الدّمويّة التي كان يلجأ إليها الملك قديمًا للتّخلّص من فردٍ نافذٍ في حاشيته؟ يعطيه رسالةً مختومةً ويأمره بتبليغها إلى أحد وُلَاتِه وقد كتب فيها: إذا جاءك رسولي هذا فاقتله!

هذا ما كاد يُفعل بك وأنت تجهل الرّسالة القاتلة التي تحملها بنفسك!

كان لغزًا عصيًّا، وأمرًا في منتهى الغرابة، لكنّ قشعريرة الخوف سرت في جلدي وتملّكت الرّهبة قلبي لِعلمي أنّ أستاذًا بقامة عبد العزيز مزيودات لا ينطق عن هوًى، وقد أثبت ما جرى في اليوم الأخير من وقائع أنّ توقّعاته كانت الصّواب. اقترب منّي أكثر، وصارت نظرتُه إليّ مليئةً بالعطف:

- صِف لي ذلك الرّسم إن كنتَ تذكره، فالوصف يسبق التفسير. ثمّ اذكُر لي ما عنّ بذهنك من تأويله.
- أَذكرُه جيّدًا، ويمكنني وَصْفه لك كأنّي أنظر إليه السّاعة: لقد بدا لي الرّسم رسمَيْن متجاورَين عجزتُ عن فهم صلة أحدهما بالآخر. فالأوّل هو رسم الحمامة التي تحضن جمجمةً وعَظمَيْن متقاطعَيْن، والثاني هو الإلهة القرطاجيّة تانيت في جوفها جَرّةٌ! ترمز الحمامة إلى الحبّ والسّلام. فكيف تحضن ما يرمز إلى الخطورة والموت، أعني الجمجمة والعظمَيْن؟ في الرّسم تناقضٌ مقصودٌ. وقد أراد صاحبُه القول، على ما أظنّ، إنّ ما يسود في تلك الأيّام من سلامٍ هو حالةٌ مؤقّتةٌ، لأنّ الحمامة لا تحضن بيضها الذي يبشّر بمزيدٍ من السّلام للأجيال القادمة، بل تحضن جمجمةً وعظمَين، ما يعني أنّ الموت والدّمار سيفقسان قريبًا...

كنتُ أتكلّم بحماسٍ، وأشعر أنّي قد وُفّقت أو أكاد في تأويل

الرّسم وفكّ طلاسمه، ولم أرفع عينيّ عن وجه عبد العزيز وأنا أتكلّم منتظِرًا في كلّ مرّةٍ أن يتحمّس لتأويلي أو أن يضرب بجُمعه على صدري قائلًا «وِي ي ي» ككلّ مرّةٍ يعجبه فيها منّي قولٌ، لكنّه ظلّ صامتًا منغلِقًا، بوجهٍ محايدٍ كقاضٍ محلَّفٍ، فاستأنفت كلامي:

- بين الجزء الأوّل من الرّسم والجزء الثاني تناقضٌ آخر، فآلهة الحبّ والأمومة تانيت في جوفها جرّةٌ، والجرّة رمز الكنوز والمال والوفرة، فهل سيكون في المستقبل الذي يعنيه الرسّامُ موتٌ ودمارٌ أم كنوزٌ ووفرةٌ؟ إنّ الجزء الأوّل من الرّسم يحذّر بتشاؤمٍ، والثاني يعِد ويُمنّي، وفي كلّ الأحوال أستاذي، ليس للرّسم علاقةٌ بشخصي، ولم أفهم قولك إنّه شهادةٌ بموتي أو أمْرٌ بقتلي...

تبسّم عبد العزيز وتنحنح، وسكت وتمهّل، كعادته قبل أن يُفاخر بعلمه، وقال:

- الحمامة ترمز إلى السّلام في حضارتنا المعاصرة ومجالِ وعينا الحاليّ، أمّا في زمنِ إنتاج الرّسم فليس من حمام يُؤبَه به غير الزّاجل الذي يُتّخَذ لنقل الرّسائل فيقطع بها البرور والفيافي، ولقد كانت الحمامة ترمز إلى المسافر أو المغترب أو عابر السّبيل. أمّا الجمجمة والعظمان المتعامدان فإرثٌ للقراصنة يرمز إلى الموت، أو إلى أمرٍ بالقتل، وقد ظهر هذا الرّمز وانتشر بانتشار ثقافة «الرّقص من الموت»، هل تعرف فنّ الرّقص من الموت؟ إنّه عملٌ فنّيٌّ مروّعٌ، إذ

كان النّاس زمن المجاعات والحروب الطّاحنة والطّاعون الأسود يحتشدون في المقابر لتحدّي الموت والسّخرية المُرّة منه، وهناك يسكرون ويضحكون، ويمارسون الجنس فوق القبور، على أشلاء الموت، قبل أن يحصدهم بعد يومٍ أو بضعة أيّامٍ... في ظلّ تلك الأجواء ظهر الرّمز المخيف: جمجمة وعظمان متعامدان، وصار الملك إذا أراد تصفية معارضيه في مدينةٍ، جاس فيها المُخبرون ليلًا ليرسموا على أبواب منازل معارضيه رمز الموت، ثمّ يمرّ الجنود من ورائهم ليقتلوا مَن في تلك المنازل... وإذا أراد حاكمٌ تدمير مدينةٍ أو استباحَتها كتب اسمها أو رسم خريطتها وأردف ذلك برسم جمجمة وعظمين فيكون في ذلك أمرٌ لقادته العسكريّين بإفناء تلك المدينة...

سكت عبد العزيز وهو يرى شدّة فضولي، وشرب ماءً وتنحنح وتمهّل فما استأنف إلّا بعد لَأْيٍ.

- بذلك يا ابنَ أبيك، يكون تفسير الجزء الأوّل من الرّسم كالتّالي: هذا الغريب المسافر الذي جاء برسالةٍ من بعيدٍ، وهو الذي ترمز إليه الحمامة الزاجلة والمقصود به شخصك، يجب أن يُقتل، هنا فورًا. هل تعلم لماذا قلتُ: «يُقتل هنا فوْرًا»؟ لأنّ الجمجمة تحت الحمامة وليست أمامها ولا وراءها ولا بعيدة عنها بمقدارٍ، ما يعني وجود تلازم وثيقٍ زمانًا ومكانًا... بكلّ بساطةٍ يا صاحبي، لو اطّلع شيخ الحطيب على ذلك

الرّسم لما فكّر في اعتقالك فوجدتَ فرصةً للهرب، بل لأمرَ بقتلك فورًا وما خرجتَ من تلك الغرفة حيًّا.

قاطعتُ عبد العزيز وهو لا يكفّ عن الرُّغاء بحماسٍ فيّاضٍ:

- وما أدراك يا صاحبي أنّ شيخ الخطيب يفهم كلّ المسائل المعقّدة التي ذكرتَها، فيُصيب في تأويل الرّسم ومقاصده؟

- الإشارات والرّموز عند الباطنيّة علمٌ كاملٌ يخضع لقواعد دقيقةٍ مثل الرّياضيّات وسائر العلوم الصّحيحة، لكنّه لا يُدرَّس بل يُورَّث. ثمّة سلالات من الأئمّة وحتّى من الدّعاة توارثوا ذلك العلم وأتقنوه كلّ الإتقان. لقد أمكننا بعد انتشار الطّباعة ووسائل الاتّصال الحديثة والجامعات ومراكز البحث العلميّ... أن نحصل على جزءٍ من تلك المعارف الخفيّة، ومع أنّي متخصِّصٌ بهذا العلم فإنّي لا أجزم بصواب تأويلي لإشارةٍ مّا حتّى أجد في الحفريّات التي أُنجزها ما يكون مصداقًا لِرأيي. ولقد وجدتُ عشرات النّقائش والرّسوم التي تصوّر حمامةً وكانت تدلّ دومًا على الشّخصَ الغريب أو المسافر أو عابر السّبيل، وسأبدّد الآن شكوكك كلّها فلا تجادلُني بعدها في شيءٍ ممّا أقوله.

أجزم أنّ كلامك حقٌّ أستاذي، لكنّي أستفهم لأستيقن.

- حسنًا، حسنًا، أنت رجلٌ متزوّجٌ، ربّ عائلةٍ، ولك منزلٌ بل فيلّا واسعةٌ فخمةٌ، فمِن المفترَض إذن أن تكون قد خبّأتَ

الرّقائق في منزلك، لكنّك لم تفعل ذلك، فقد خبّأتَها في منزل أمّك!

عادت قشعريرة الخوف تكتسح جسدي كلّه، فوَحُرْمة كلّ ما أومن به ما أطلعتُ على هذا الأمر أحدًا. خُيِّل إليّ أنّ عبد العزيز قد فتح جمجمتي، ووضع رأسي تحت مجهرٍ ضخمٍ يرى من خلاله كلّ خليّةٍ في مخّي. أردتُ أن أقول له: هذا لا يُصدَّق. كيف عرفت؟ كيف حدستَ؟ كيف تأوّلتَ؟ لكنّي لم أقل كلمةً، وظلّ وجهي معلَّقًا كنقطة استفهام بحجم الغرفة كلّها:

- هذا ما يكشفه الجزء الثاني من الرّسم: الآلهة تانيت وبِجوفها جرّة! تعلم أنّ تانيت لم تُعبَد في الشّرق. فأهل الشّرق كانوا يَعبدون الآلهة عشتار ولها رمزٌ آخر، أمّا تانيت فقد عُبدت في قرطاج، وكانت ربّة الأمومة والخصب، وهي صنوُ الإله بعل حتّى إنّهم كانوا يسمّونها «وجه بعل حمون»، وفي ذلك توجيه لِمَن يتأوّل الرّسم بأنّ الرقائق، وهي الكنز الذي ترمز إليه الجرّة، مخفيّةٌ في بيت أمٍّ، وأنّ بيتَ الأمّ في قرطاج ببلاد إفريقيّة... وهكذا فإنّ الصبّاح قد وجّه منذ ألفٍ عامٍ رسالةً مشفّرةً إلى أتباعه اليوم، فكانت نبوءاتُه دقيقةً كلَّ الدقّة. قال لهم: إنّ مسافرًا غريبًا يأتيكم ينطوي على خطورةٍ مؤكّدةٍ عليكم، فاقتلوه فورًا حيث يأتيكم، أمّا كنزي من المزامير التي تركتها لكم فإنّكم تجدونه مخفيًّا في بيت أمّه ببلاد قرطاج.

سكت عبد العزيز وأخذ يفتح أزرار قميصه العلويّة، فقد ألهبه الحماس حتّى ارتفعت حرارته واحمرّ وجهه في تلك الغرفة الباردة المقرورة. قلتُ له:

- وهبتَني منذ عشرين عامًا علومًا لا تُقدَّر بثمنٍ، وها إنّك تَهَبُني عمرًا جديدًا. كلّ ساعة أعيشها بعد هذا اليوم هي مِنّةٌ أخرى منك وفضلٌ آخر من أفضالك.

* * *

حين نزلتُ في مطار بلَدي مخفورًا مُحاطًا برجال الشرطة، انصبّت عليّ نظرات الرّيبة والاتّهام، تجلدني، تهتك حُجُبي، وتنفذ إلى عظامي. قرأتُ في عيون النّاظرين سوادَ ضمائرهم وسوءَ ظنّهم: مهرّب كوكايين... إرهابيّ... حشّاش... خاطف أطفال...، نظر النّاسُ إليّ وأوسَعوا. كانوا يخشون أن يلمس طرفُ معطفي أطراف معاطفهم، فَلم تنفكّ عن جلدي قشعريرةٌ وحرارةٌ حتّى ركبنا سيّارة الشّرطة وأمِنتُ من العيون، ثم انطلقت بنا تمخر الطّريق نحو مخفرٍ قريبٍ. أجْروا معي تحقيقا أوّليًّا اكتفوا فيه بمعرفة ما حدث في قرية الحطيب اليمنيّة وتسجيل بيانات هويّتي. أبدوا شكّهم في الرّواية التي سردتُها على مسامعهم، وقد دبّجتُ تفاصيلها بكلّ طاقة ذهني المتعَب أثناء سفرة الطّائرة. قال لي المحقّق:

- من الغريب حقًّا أن يتداعوا لقتلك ويُطاردوك بِسبب نقاشٍ تافه مثلما ذكرتَ. لِذا -معذرة يا صاحبي- فأنا لا أصدّقك. تذكّرْ مليًّا، لعلّك نسيتَ شيئًا أو تتكتّم على شيءٍ.

وجد أخيرًا فرصة للصّراخ في وجهي وحصري في الزّاوية حين تفطّن إلى اختلاف عنوان بيتي المسجَّل على بطاقة الهويّة عن العنوان الذي صرّحتُ به. نفش ريشه تذاكِيًا وانتبه إلى فطنته الوقّادة. قلتُ له:

- العنوان المسجّل في بطاقتي صحيحٌ تمامًا، وهو عنوان بيتي، لكنّكم سألتموني عن عنوان إقامتي في الأيّام القادمة فأمليتُ عليكم عنوان بيت أمّي. فهناك تجدونني حين تنوون استدعائي لاستكمال التّحقيق.

كانت زوجتي قد أخذت الأبناء لقضاء العطلة في منزل والدها الرّيفيّ البعيد، فلَمْ تبْق لي رغبة في العودة إلى منزلي الصّامت البارد، ثمّ إنّ الرّقائق مخبَّأةٌ في مستودع بيت والدتي وبي لهفةٌ لقراءتها وفكّ رموزها.

اختتموا التّحقيق وطلبوا منّي ألّا أغادر المنزل أو أنتقل إلى أيّ مكانٍ إلّا بعد استشارتهم، لأنّي قد أتعرّض للملاحقة والأذى، لذلك أبلغوني أنّهم سوف يكونون جاهزين لمرافقتي وحراستي إذا اضطُررتُ إلى الانتقال نحو مكانٍ أريده، وما عليّ آنئذٍ إلّا إبلاغهم. ركبنا سيّارةً مشبوكةً بالحديد فانطلقت بنا، ووجدتُني مُقرفِصًا في صفّ الكراسي الخلفيّة واضِعًا حقيبتي بين ساقيّ كلاجئٍ يتعرّض إلى الطّرد.

انتبهت أمّي إلى سيّارةِ شرطةٍ ترسو أمام باب منزلها، وينزل منها ابنُها الذي يُفترَض أنّه في بلدٍ بعيدٍ. هرعت جَزِعةً بأسرع ما

تسمح به قامتُها المنحنية ورُكبتاها المتيبّستان، فأمطرتني بزخّاتٍ من الأسئلة المترادفة من غير أن تترك لي فرصةً لجوابٍ، وأمسكَت بيدي تجذبني إليها وتقذفهم بنظرات الرّيبة، ولعلّها تصوّرَت أنّها تخلّصني منهم. غمزتُ الضّابطَ الذي نزل معي من السيّارة وقلتُ لأمّي:

- هذا الضّابط محمّد، وقد كان صديقًا لي وزميلًا أيّام دراستي بالجامعة. التقينا في المطار صدفةً فأصرّ على إيصالي بسيّارة عمله...

سكتُّ هنيهةً أستبينُ أثر كلامي، وفهم الضّابط قصدي فابتسم لأمّي وترفّق بها:

- حلّت بك البركة، وطال عمركِ يا حاجّة...

أردفتُ قائلًا:

- لديه عمل الآن وعليه الانصرافُ، لكنّه سيعود إليّ في يومٍ آخر لنشرب قهوةً ونتحدّث برويّةٍ...

قلتُ ذلك لمعرفتي بأنّ الشّرطة سيعودون إليّ، ويأخذونني لاستكمال التّحقيق أمام فرقةٍ مختصّةٍ، فسمعتني أمّي ومحّصت، وانتهى بها الأمرُ إلى تصديقٍ كَذوبٍ وطُمأنينةٍ جزِعةٍ.

انكببتُ على الرّقائق مذهولًا عن كلّ ما حولي، أفكّ طلاسم وأسرارًا مردومةً منذ ألف عامٍ. كانت بعضُ الرّقائق قد انضغطت وتلاصقت، أحاول فكّها بما أمكنني من اللّطف والتّؤدة فلا تَسلم أحيانا من التّمزّق. بعض الحروف امّحت وبعض الكلمات بدأت تتفسّخ، لكنّها في الجملة قابلةٌ للقراءة.

* مزمور الحمد للإمام المعصوم *

١.لك الحمدُ يا إمامي، يا ساكنَ السّحاب،
يا جاعِلي سوطَ العذاب وهازمَ الأحزاب
وجدتَني ضالًّا فأرسلتَ عُميرة زاراب،
وفقيرًا فجاءني خَراجُك من كلّ باب،
وعائلًا فرزقتَني جنّاتِ نخلٍ وأعناب.
٢.صوتُكَ في قلبي ذاتَ صباحٍ زَمْجَر،
ظلّ ثلاثًا، عَشْرًا، يهتفُ، يهدر:
قُم يا حسنَ الله تعطّر
وبأجمل أثوابكَ فتدثّر
إنّي اخترتُكَ لبلوغ الكشفِ الأعظم...
فاسْلك سُبلَ النّور إلى السرّ الأكبر.
٣.قُم يا حسَنُ فإنّي سأمهّد قدّامكَ دربَك،
وسألكز مِن تحتكَ فرسَك
سترفُس حَسَكًا، وستزحِ ثِقْلا
فاشدُدْ نعلكَ وتصبَّرْ
موعودٌ أنتَ بِمكرُمتي
سأباركُ زادكَ في المِخلاة وأُكثِر

اِهبط مصرَ ففيها إمامُ زمانك، مولاك المستنصر
أدركْ دينَك، بايع مَهديًّا مِن ذريّة جعفر
مصدوقًا تذهب، غيرَ فرِيِّ
مَرْضِيًّا ستعود إلى الرَيِّ
وعلى العرشِ ستُرفَع يا صبّاحُ فأبشِرْ
٤ـ بيموده شد أز كنبد بر من جهل ودو
جويان خرد كشت مرا نفس سخنور(*)
علمتُ بواطنَ آي القرآن المعمور
وغُصتُ من الشّرع وأحكامه في بحر مسجور،
فقِهتُ العرفان الجمَّ، وسرّ الدّين المستور
منهاجَ التّعليم قد اخترتُ،
وبعقلي القاصر لا شيء تأوّلتُ
فبَيْني وبين إمامي قبَسٌ من نور
٥ـ عقلي وهّاج بمصابيح النّور
وقلبي أضواءٌ وقناديل
أبكي للمستور من آل عَلِيّ، حتّى تتبلّل أكمامي واللّحيةُ والمنديل،
أشواقي للمعصوم محمّد بن إسماعيل
٦ صه، ما هذا رعدٌ، هذا صوت محمّد بن إسماعيل،
مه، ما هذا برق، هذا سوط محمّد بن إسماعيل

(*) الشاعر الفارسي ناصر خسرو: طوى عليّ من القبّة الفلكيّة اثنان وأربعون/ أصبحت نفسي المتكلّمة باحثةً عن العقل.

سيعود فيَنزل من سُحُبٍ ، وجناحاه ملء الأفق كجبريل ،
يملأ أرضَ اللهٰ بعدله ، يمحق شرًّا وضلالاتٍ وأباطيل
٧ـ لكَ الشّكر يا معصوم هديتَني
في الفتنة العمياء طريقَ اللهٰ
وحِفظُكَ نجّاني من سطوة بدر
ذي الجبروت وذي الجاه
يدكَ البطّاشة أسقطت الصّومعة ،
فخارت يُمناه وارتعشت قائمتاه ،
يومُ غديرٍ آخر كان بمصر :
قال اللهٰ : مَن كان نزارٌ مولاه فأنا مولاه .

مكتبة
t.me/soramnqraa

﴿حاشية﴾

حدّثني أبو الفتح السّرميني طيّب الله ذكرَه، أنّه سمع السيّد الأساسَ حسنًا الصبّاح يقول: ما تفرّقت شاءٌ فضَلّت وبعثرتها السُّبُلُ بعد موت راعيها كما تفرّقت شيعةُ العراق بموْت عليٍّ، وفاطميّةُ مصر وفارس بموت المستعصم... وأحسبُه قال: إلاّ مَن رحم ربّي.

وحدّثني سهل بن قباذ عن أبيه حديثًا طويلًا، وكان قباذ مؤمنًا ثَبْتا مِن رعيل الباطنيّة الخُلّص الذين أخذوا قلعةَ ألَمُوت فقال: كنّا معشر الفاطميّة على يقينٍ من عقيدتنا وأئمّتنا حتّى مات

الإمام المستنصر واختلف النّاس في الإمامة من بعده بين ولَديه نزار والمستعلي، وكان مُبتدأ الفتنة الوزيرُ بدرٌ قائد الجيوش، إذ أوعز إلى ابن أخته المستعلي بالتمرّد على أخيه الأكبر وطلب الإمامة لنفسه، ثمّ لاحق نزارًا بعد موت أبيه حتّى حصره في الإسكندريّة وقتله وشرّد أتباعَه... لكنّ السيّدَ الأساس حسنًا الصبّاح قادنا في ظُلمات الفتنة على بصيرة، فما لجلج ولا شكّ بعقيدته قطّ، ولقد أخبرنا أنّ الإمامة مثل النّبوّة اختيار من الله وليست منحةً بيد الوزير بدر يصرفها لذي قرابة، وأخبرنا أنّ من سنن الله أن يجعل الإمامة في البكر من أبناء الإمام، يَرث عن أبيه علمَ الباطن وأسرار التّأويل.

اضطربت الإسماعيليّة في ذلك الزّمن اضطرابًا شديدًا، وفسدت عقائد وغلبت أهواء، فأتبع أهلُ مصر الوزير بدرًا وأقرّوا بإمامة المستعلي رغَبًا ورهبًا، وعاد كثيرٌ من إسماعيليّة الشّام قرامطةً وأنكروا إمامة الفاطميّين منذ مبتدئها، وما بقي من أحدٍ على بصيرة غيرُنا، فسمّانا السيّد الأساس الفرقة الهادية وسمّى عقيدتنا الدّعوة الجديدة، وازددنا تمسّكا في بحر الضّلالات المتلاطم بهدْيه وبصيرته.

سكت سهل بن قباذ مُستذكرًا، وراح ينكت على الأرض بعود يابس ثمّ قال: «تسامرنا ليلةً بمنزل مخلاف بن بازيار، ومعنا جمْعٌ من المهتدين الجدد من بلاد الدّيلم قد قدموا لأداء البيعة، فحدّثهم مخلاف قال: «حصَرنا السّلاجقة في قلعة ألمُوت، وطال بنا البلاء حتّى كادوا يتسلّقون علينا أسوارها، وراح قائدهم اللّعين أرسلان تاش يدعو السيّدَ حسنًا للاستسلام، ويُطمعُه بحَقن دمه مع عشر رِقاب يختارها، فجاءه الإمام المستنصر في منامه يشدّ عضده ويبشّره بالنّصر، فقال له السيّد: يا إمامي، كنْ شفيعي عند الله فما

عاد بينك وبينه من حجاب. إنّي عبده الأوّاب المحاصَرُ المستضعَف أطلب منه كيت وكيت، وأرجو أن يستجيب لي في كيت وكيت، فقال له الإمام وبه نورٌ ومهابةٌ وعليه سندس وإستبرق: شفعتُ لك عند الله يا حسن فأعطاكَ بِلا مَنّ ثلاث نِعَم ما أعطاها نبيَّه إلّا مَنّ عليه بها في قرآن يُتلى، أفلا تكون عبدا شكورًا؟ ألا تكون عبدًا شكورًا؟ ثمّ نفض ثوبه غاضِبًا وولّى. قال مخلاف بن بازيار فيما روى: بكى السيّدُ وهو يحدّثني هذا الكلام. أي بكى والله، كما ترون النّاسَ يبكون فتنحدر دموعٌ من مآقيهم وقال: وجدني ضالّا فهدى، ووجدني شريدًا فآوى، ووجدني فقيرًا فأغنى...

سكت مخلاف فانبرى معشرُ السّامعين من الدّيلم يستزيدونه ويستفسرون، فقال لهم مخلاف: لو كنتم قد خلوتم بي لحدّثتُكم في هذا الأمر بما يكون لكم فيه عبرةٌ وهدًى، لكنّي أستحي أن أكلّمكم وبينكم قباذ، فإنّه لو علمتم صاحب السيّد الذي ما إن دعاه في سهول دامغان حتّى ترك شياهه وتبعه، وإنّه لو علمتم قد كان تابعه الذي يحمل عنه حذاءه وعصاه ولا تفوته ممّا ينطق كلمة، وقد منحه السيّدُ لقبَ سردار(*) فأنّى لي أن أتكلّم في حضرته ولستُ بأهلٍ...

فضرب قُباذ على فخذ مخلاف بن بازيار وقال له: «بَل أنتَ أهلٌ لكلّ مَكرُمة يا مخلاف. تكلّمْ لا بأس عليك فقد أذنتُ لك، ولكنّك تتكلّم كثيرًا في الظّاهر، وقد تُغفل شيئًا من أمر الباطن وأنا به عليمٌ. فإن رأيتُ ذلك منكَ صوّبتُك». عدّل مخلاف جلستَه، فأثنى على لطف الأئمّة وعنايتهم بالمؤمنين وقال: «أدركَت أفضالُ الأئمّة وشفاعتُهم السيّدَ الأساس مذ كان ضالّا على مذهب آبائه الاثني عشريّة، إذ أرسل الله إليه بعلم سابق وخطّة معلومة ذلك الرّجل

(*) لفظة فارسيّة معناها السيّد.

الذي لم يكن يهتمّ به ولا يُلقي له بالًا المسمّى عميرة زاراب، فألحّ في دعوته إلى منهج الحقّ الإسماعيليّ، حتّى اهتدى بعد ضلالة.

قال سهل بن قباذ: لم يزل مخلاف يفسّر للدّيالمة ما أشكل من حديث السيّد وقوله في مزمور الحمد: وجدتَني ضالًّا فأرسلتَ عُميرة زاراب، وفقيرًا فجاءني خَراجُك من كلّ باب، وعائلًا فرزقتَني جنّات نخل وأعناب... حتّى قطع عليه أبي كلامَه فقال: على رِسلك يا صاحب العلم فإنّ لي في هذا قولًا: فلا تظُنّوا أنّ عميرة زاراب رجُلٌ من لحم ودم، إنّما هو الهداية حين يريدُ لك الإمامُ الغائبُ أن تعرفه فتبدأ رسلُه الخفيّة في استدراج عقلك وقلبك، وقد سعى رجالٌ منّا في البحث عن عميرة زاراب في الريّ فما وجدوا إسماعيليًّا بهذا الاسم ولا أخبرهم ذو ثقة أنّه عرف بهذا الاسم أحدًا. أمّا الجدل بين السيّد وعميرة هذا، فهو الصّراع داخل الوجدان العميق بين الحقّ والباطل والنّور والدّيجور.

وسعيتُ، أنا واضِع هذه الحاشية، إلى كبير الدعاة حسين القايني بقلعة قوهستان أسأله عن رِحلة السيّد الأساس إلى مصر، وكان القايني صادقًا مصدوقًا لا أتّهمه لو أخبرني أنّ الشمس تطلع من مغربها، فقلتُ له ونحن نتسامر: نشدتُك الله وسلالةَ المعصومين أن تحدّثني عن رحلة السيّد للقاء الإمام المستنصر ثمّ سَجنه في مصر ونفيه إلى إفريقيّة، فإنّي أريد أن أسمع منك في ذلك حديثًا ثَبْتًا لا أسأل عنه بعدك أحدًا من الخلق...، فقال لي: الحقَّ أقول يا ابن أخي، فقد ركِب السيّد إلى مصر، فظلّ فيها يطلب العلم ويوغل في البواطن والأسرار، وارتضاه الإمام المستنصر فعيّنه برتبة حجّة على فارس كلّها ما إن يعود إليها. فلمّا أتَمَّ سنتَه الثّالثة في مصر اشتدّت الفتنة التي أيقظها الوزير المارق بدر الجمالي. وكان بدرُ المُرتدُّ قد استوثق

من ولاء الجند بزيادة العطاء، وجعل رجالَه وخاصّته على مفاصل الدّولة، وبثّ عيونه في كلّ ركنٍ وزاويةٍ يأتونه بالشّاردة والواردة، حتّى أحكم قبضته على كلّ شيءٍ، فاستضعف الإمامَ الذي استَوزره ولم يعد يخافه أو يأبه بأوامره. وكانت للوزير أختٌ قد تزوّجها سيّدي المستعصم منذ زمنٍ وأنجبت له ولدًا شبّ عن الطّوق، لقّبه الوزيرُ بالمستعلي بالله وأرادَ أن يحرف إليه الإمامةَ من مُستحقّها البكرِ نزار. فإنّه لفي غيّه ومَكره يجرؤ على الأئمّة ويكتسب آثامًا لا تُمحى، حتّى هرع إليه مُخبِروه يُحذّرونه: فإنّ رجُلًا من الريّ اسمه، فيما ذكروا حسن الصبّاح، يجول بين النّاس ويدعوهم إلى الثورة من أجل الإمام المستضعَف، ثمّ يدعو إلى ابنه نزار من بعده، ويسفّه المستعلي، فيجتمع عليه النّاس في كلّ موطئ يطؤه... فبادر الوزير بأخذه أخذ جبّار مقتدر ورماه في السّجن والبَخس، لكنّ السيّدَ الصبّاح تحدّاه بكبرياء، وأنذره بالويل والثّبور إن لم يطلق سراحه قبل مضيّ ثلاث، فلمّا كان اليوم الرّابع أفاق الوزير على خبر فاجع، فقد سقطت منارة السّجن العتيدة المشيّدة من الحجر الصّقيل، وأسقطت من تحتها الجدار الغربيّ، وقد دُفن بعضُ السّجناء تحت الرّكام، ومَن بقي منهم حيًّا وجد فرصة للهروب، غير ذلك الرّجل من الريّ لم يُقتَل ولم يهرب. قال للوزير حين جاء يتفقّد السّجن: قد جاءك الإنذار يا بدر، فلا تُنكر أنّك رأيتَ وسمعتَ، وأنا أمهلك ثلاثًا أخرى تكون بعدها الهَلكةُ لك ولِنسلك.

امتلأ قلب الباغي رعبًا، وجمع المنجّمين والسّحرة، فأشاروا عليه بالعدول عن التّفكير في قتل الرّجل الغريب، والامتناع عن سَجنه ساعةً أخرى، ونصحوه بنفيه عن مصر والاحتيال في الأمر حتّى لا يعود إليها مرّةً أخرى، فإنّه خراسانيٌّ من الريّ وليست مصر

بلده ولا بلد جدوده. فلمّا عرف السيّد الأساس ما يُبيّتون لم يمتنع عن الخروج، إذ كان قد ملّ المكوث واشتاق إلى استئناف رحلاته الدّعويّة في أرض الله الواسعة، لكنّه أصرّ على ملاقاة الإمام لتجديد بيعته الموثوقة فامتثل الوزيرُ صاغرًا، ثمّ أرسل عيونَه ليعرفوا ما يجري وما يُقال بين الإمام المستضعَف وتابعه الأمين.

قال حسين القايني، وإنّي لأصدّقه لو أخبرني عن طلوع الشّمس من مَغربها: الحقَّ أقول يا ابن أخي فاسمعْ منّي ما لا تُكذَب فيه ولا تُخدع، فإنّ السيّد الأساس قد دخل على الإمام المستنصر وعنده كبير الدّعاة عبد الملك بن عطاش، فما إن رآه حتّى فاض به الحماس، ونَتَر سيفَ أحد الحرّاس فخلع صليلُه القلوبَ وصرخ صرخةً منكرةً: «لبّيك يا إمامي حتّى ترضى، لبّيك ولبّيك، مُرني بِمَن استضعفوك لأروِيَ من دمائهم حَدّ سيفي...»! قال له المستنصر: «بورك فيك يا حسن، أعد السّيف إلى صاحبه واجلس». لكنّ السيّد لم ينفكّ عن هياجه: «أتُستضعَفُ وفي أعناقنا بيعتك ولنا سيوفٌ وسواعد؟ مُرني فلن أكون وحدي، وفي مَواليك كثيرٌ مِمّن لا ينقضون ولا ينكثون، ولَترَيَنّ منّا ما يسرّك...»، فنهض إليه ابن عطاش وأخذ بيده حتّى أجلسه، وجرى بعضُ مَن حضر من الحرس إلى الوزير يخبرونه بما جرى.

قال له المستنصر في ذلك المجلس: يا ابن الصبّاح يا حافظ عهدك وبيعة إمامك، إنّك مِن كبار الدّعاة وإنّك سيّد المتكلّمين، وأنا أربأ بك أن تَسفك دمك الفتنةُ الخرساء، وإنّا على أبواب فِتَنٍ كقطع اللّيل المظلم، فلأبعدنّك عنها ولأدّخرنّك لأيّام أشدّ. اخرجْ من مصر يا حسن فقد وطئها بدرٌ وفجَرت، وادخل القيروان فإنّها مِن بعدنا أرملةٌ تجترّ أحزانها وتبكي علينا، وإنّ النّاس في إفريقيّة قد عضّوا أنامل النّدم وقرعوا سنّ التّوبة إذ فرّطوا في إمامتنا وخرجوا عن

دولتنا، فما رأوا من بعدنا إلّا سوادًا وما ذاقوا إلّا أكدارًا. اُخرُج إليهم يا حسن فإنّا أعطيناك إفريقيّة!

تهلّل وجه السيّد بالسّرور والإمام يمتدحه راضيًا عنه ثمّ يَعهَد إليه بإفريقيّة، وقال له: «ما ظننتُكَ سيّدي تعود إلى دعوة إفريقيّة بعد أن أرسلتَ على أهلها جرادَ العُربان». فقال له الإمام مبتسمًا: «تلك سنّتنا معشر الأئمّة، فإنّا نَسخَط فما نلبث أن نرضى، ونضرب المخطئ فما نلبث أن نُدنيه، وما أرسلنا عربانَ بني هلالٍ وسليم إلى إفريقيّة إلاّ بعد أن كفرت بإمامها وخانت بيعتها وأتبعتْ المرتدّ ابن باديس، لكنّي أريد بإفريقيّة خيرًا مرّةً أخرى، فقُم إليها داعيًا ومُرشدًا حتّى تحكمها وتشكم مرتدّيها».

وقلتُ لشيخنا المُحدّث قنبر بن يسار، وكان وَلوعًا بكلّ ما يُستَملَح من الكلام ويُستَظرَف: «حدِّثني عن بلد أمطرت سماؤُه فازداد جدبُه، واستطال عشبُه فهزلت ماشيته، وفي موسمِه الخصب مات النّاس من الجوع»!، وكنتُ أريدُ أن أسأله عن جحود إفريقيّة فكنّيتُ وألغزت، لكنّه سرعان ما فهم قصدي فابتسم وقال: «لهفَ نفسي على إفريقيّة، فقد كانت مهدَ الخلافة الفاطميّة المهديّة، وفيها ثار الدّاعية الأكبر عبد الله المحتسب حتّى ظهر على كلّ مَن خالفه. ولقد حكَم إفريقيّة من القيروان ومن المهديّة أربعةٌ من الأئمّة أولي العزم: عُبيد الله المهديّ والقائم والمنصور والمعزّ لدين الله، وكان حريًّا بإفريقيّة أن تنهل من علومهم وتَسبح في بُحورهم وتَنال بركاتهم، لكنّها أسلمت للأئمّة وما آمنت، وتظاهرت بالهداية ونامت على ضلالة، وأخذت بالظواهر وجهلت البواطن حتّى جهرت بردّتها إذ أتبعت المعزّ بن باديس، وخرجت عن طاعة الإمام الفاطميّ، فألقى الله في بصيرته أن يرسل عليهم العربان المُفسدين في الأرض من

بني هلالٍ وسُليم تقتلهم وتُدمّر كلّ ما بنوا وتنهب كلّ ما ادّخروا وتُفسد كلّ ما زرعوا...، لكنّ سيّدي المستنصر إذ علم ندمهم على ما سلف منهم، أرسل إليهم السيّد الصبّاح وله من العلم والعزم كفايةٌ لهدايتهم، لعلّ الأئمّة يتداركونهم على يديه».

٧*مولائے علي مدد*٧

﴿متن﴾

* مزمور الجحود *

«إنّا أعطيناك إفريقيّة»

١. أي مسكين حجّت خراسان
برخوك رمه مكن شباني (*)
أمطرت سماءُ إفريقيّة مَثْنى وثُلاثَ ورُباع
فما أخرج شَطْأَه قمحٌ ولا سُمُن كُراع
إفريقيّةُ منزوعةُ رحِم
لا تنشقُّ بمحراث، لا يَقربُها زُرّاع
لا تُبذَل فيها قِصاع، لا يَشبع فيها جياع،
كم ضاع بها جهدٌ، وتكسّر فأسٌ،
وانهدّ عَضُدٌ وذراع!

٢. قال إمامي: اذهبْ فتحسّسْ من إفريقيّة حالَها وانظُرْ،
قد شقّ جُدودي تربتَها وأنا بحصادها أجدَر،
أُخرجْ يا حسنُ فإنّا أعطيناكَ إفريقيّةَ والكوثر

(*) «أيّها الحُجّةُ المسكينُ في خراسان/ لا تكُن راعِيًا لِخنازيرَ هارِبة» للشاعر الفارسي ناصر خسرو.

حمّلْها الماءَ الدّافقَ من صُلبكَ تُثمِر ،
قلتُ له : وا لَهفِي ، قد خان البيعةَ فيها العربُ ،
وارتدّت صنهاجـةُ بالبـربـر
قال إمامي : إن كفَروكَ فادْعُ عليهم ، واترُكْ واهـجُر
انفُضْ فيها غُبارَ حذائك ، واخرُجْ منها ، لا تستغفر !

٣.مِن غير وضوء جاء العلجُ ليأكلَ تُفّاحةَ قلبي ،
وسخٌ لم يُمطِرْه سُحَيْبٌ ، لم يَختِنْه طُبيْبٌ
سال لُعابُه وجثا قُربـي .
زجرتُ الكلبَ أن يلغَ في الطّسْـت ،
فحنّ الطّستُ الطّاهرُ لِلسان الكلب
والفاجرُ يَجْمع قُطعانَ الأكْلُبِ
فتبول بِحرثي وتُنجّس دربـي .

٤.يا طاهرُ يا ابنَ الأطهار ، أُعيذكَ من جهلٍ
أو سهْوٍ أو فتنة شيطان
لكنّي أعجَب من جبّار الأرمن بَدرٍ
تجعله عضدا ، ما يستأهل مرتبـة الأقنان
يرمي داعيةً لإمامتكم في الأصفاد
ويُغيّبُ خلف الجدران

٥ ـ جبّارُ الأرمن جرّأ أكُلب إفريقيّة،
حتّى خلّع أنجسُها بيتي
والهفي أمنعُ عن طستي لُعابَ الكلب
فيَحِنّ لنجاسته طستي

٦ ـ المستور إمامي غضب لظلمي،
مِن عليائه يَسمَع صوتي
صاح الباغي: رَبُّ الحسن زلزل قصري،
فلْيخرُج من سجنه ويُرحَّل عنّي،
ولْيُرمَ بأبعد أرضٍ، قد وقع بظنّي
أنّه يملك منّي محياي وموتي.

٧ ـ مِن مكّة حتّى يثرب ختم محمّد زينتَه،
فنُبُوّته عروس مزدانه،
قال محمّد: هذا وصيّي،
وله في أعناقكُمُ البيعة والطّاعة
قال محمّد: حذرًا من بعدي يا خير صحابه
فعروسكُمُ تصبح ثِنْتيْن: إمامةُ وخلافه
إمامةُ تحكمكم، تاجُ رؤوسِكُمُ
وخلافةُ تخدمها بخضوعٍ ومَخافه

لكنّ خلافةَ أبِقت، نكَصت، عقّت . . .
تركت بيتَ عليّ، واستنزلها ابنُ قُحافه
صارت أمَةً في نسل أميّة والعبّاس،
بين جبابرة، طُلّاب رياسه.

﴿حاشية﴾

حدّثني رشيد الدّين الهواري، وكان قد شهِدَ مَقدَمَ السيّد إلى إفريقيّة، وحدّثني بمثله محروس بن أماياس الصّنهاجي وغيرهما من الثّقات حتّى تواتر الخبر وصحّ عندي أنّ السيّد قد دخل إفريقيّة شتاءً لأسبوع مضى من شهر فورار البربريّ، واتّجه إلى المسجد الكبير لابسًا مُسُوحَ الزّهد، مُتّزِرًا بالتّقوى، ممتلئًا بالإيمان والنّعمة.

تحدّث النّاس عن زاهدٍ تقيٍّ جاء القيروان، فاختصموا على خطم ناقته أيّهم يقودها إلى بيته فيستضيفه مُلتمسًا علمه وبركته، حتّى فاز بالشّرف رجلٌ منهم يُقال له أوس بن ضبارة، كان تاجِرًا موسرًا يكثر من مهاداة ذوي السّلطان والتقرّب منهم، فأقام عنده السيّد أيّامًا حتّى استأنسه، ثمّ دعاه إلى سبيل الحقّ ونهج الأئمّة لكنّه أنكر عليه، فلمّا أظهر السيّد بعد ذلك دعوته وتكلّم بها إلى النّاس تبرّأ من جواره وقال: «هذا الباطنيّ لا أعرفه، وحرامٌ عليه كلّ لقمة لَقمَها في بيتي».

قلتُ لرشيد الدّين وقد كان قبل عتقه مولى لأوس بن ضبارة: ما أسرع ما نزع السيّد إذن إزار التقيّة وهو يعرف مخاطر الدّعوة

تحت خاصرة تميم بن المعزّ بن باديس. قال: ظلّ إمامكم تسعين يومًا بمنزل أوس بن ضبارة، يكلّم كلّ رجلٍ على انفرادٍ كما كلّمني، ثمّ قرّر نبْذ التقيّة وكشفَ الصُّراح، فخرجَ إلى النّاسِ كَمَن يحمل كفنَه يدعوهم إلى ولاية الأئمّة المعصومين ويُسفّه مقالات المُجسِّمة والنّواصب[*]، فتنادوا لطرده ثمّ تنادوا لقتله وقالوا: باطنيٌّ ضالٌّ يُنكر على أبي بكر وعمر، ويُؤوّل ويغيّر، ويلوي عنق القرآن ليُفسدَ مقاصده...

هجم عليه النّاسُ يضربونه فَما أنقذه منهم إلّا حرسُ القاضي، وأُخذ مع أهله إلى دار الضّيافة فبات مخفورًا، حتّى إذا تبيّن الخيط الأبيض من الفجر سيق خارج المدينة فأعطِي من الجياد ما يَحمل أفرادَ عائلته وقيل له: انفُذ بجلدك، فليس هذا البلد لك ولا لأئمّتك، وإنّك إن بقيتَ فيه يومًا آخر مقتولٌ لا محالة.

وحدّثنا بمثل هذا الحديث سهلُ بن قباذ، لكنّه ما بلغ هذا الموضع من الكلام إلّا وقد بكى بكاءً مُرًّا كأنّه يرى السيّدَ رأيَ العين يُطرَد ويُهانُ في تلك السّاعة، وبكينا مثله ومسحنا بأكمامنا، فما سألناه عن شيء بعد ذلك، لكنّه غالب نشيجَه حتّى سكت عنه وقال: «أصبح أهل القيروان الضّالّة حانقين موتورين، يتحرّقون أن أفلت منهم السيّد بما لقي من توفيق الأئمّة في ساعة النّحس التي أرادوها القاضية، فقدّروا أنّه قد يمّم شرقًا عائدًا إلى بلاد الفواطم، وركبوا الضّامرات السّابقات ليدركوه، لكنّ سعيهم كان مدحورًا فتساقطوا إعياءً وعادوا خائبين، أمّا السيّد فلم يكن قد أدركه اليأس من هداية أهل إفريقيّة، فأوغل غربًا جاعلًا نُصب عينيه جبال الأوراس، ولم يضع رحالَه إلّا في أرض كتامة.

(*) اسمان للتّعبير تُطلقهما الإسماعيليّة على أهل الحديث.

ومِن أجلّ ما ورَدني مِن أحاديث من طريق رفاعة بن الجوشن الكتامي عن الحصن بن واسول حديثُ العشق الفاسد بين ابنة السيّد وشابٍّ إفريقيٍّ ضالّ مُضلّ. قال الحصن:

«الثَّبتُ عندي أنّ الضّالَّ المُضلَّ الذي تعشّق بنتَ السيّد الأساس وتعشَّقَته هو حبيب بن أوس بن ضبارة القيروانيّ، فَلم يزل بها حتّى أفسد عقيدتها، ومالت إلى ضلالة المُجسِّمة. وكان من الخبر أنّ الشّيخ الأساس قد رُزق بولدين ذوَيْ بسطة في الجسم وكمال في العقل، وابنتين على دين وجمال وأدب وظُرف، وكان قد كتَم البنتين تفسيرًا لِباطن آية الجلابيب، فإنّما المقصودُ بالسّتر في قوْله «يُدنين عليهنّ من جلابيبهنّ...» أن يَكتم الأئمّةُ وكِبارُ الدُّعاة ذريّتهم حتّى لا يَقتلهم أو يسترقّهم أعداءُ الدّعوة المهديّة، والإناث أولى بالكتمان فلا يُسبَيْن أو يحملن في أرحامهنّ أبناء الفجَرة، فذلك قوله: «ذلك أدنى أن يُعرَفن فلا يُؤذَين». فلمّا دخل الشيخ إفريقيّة داعيًا أخذ بِخطم ناقته تاجرٌ من أعيان القيروان يُقال له أوس بن ضبارة فاستضافه مُتبرِّكًا بزهده وتقواه، فإن هو إلّا بعضُ يوم حتّى دخلت امرأتُه غرفة الشّيخ وعرفت مريم المكتومة، وأُعجبت بجمالها وظُرفها وأدبها، فاستمالتها للزّواج من ابنها ودبّرت اجتماعهما، فغويت ابنةُ الشّيخ بالقهرمانة والشّيطان حتّى طرحت حجابها بين يديه، وصُعق بجمالها وهام بها عشقًا، واتّفقا على الزّواج رغم كلّ ما يفصلهما من أبعاد العقيدة والمذهب».

فوجئ الشّيخ بامرأة جاحدة تَخطُب ابنته لغُلام ضالٍّ، وتزعم أنّ ابنته تُريده وتعشقه، فانتابه غضبٌ عاصفٌ، وأقبل على ابنته تفّاحة قلبه يرجو أن تُنكر وتتبرّأ، فإذا هي تُقرّ وتَفجُر، فأسرع يُحضر حبلًا وسوطًا فأوثقها كتافًا وجلدها ثمانين جلدةً حتّى أشرفت على

الموت، ثمّ ترك منزل الخاطئين وأخذ أهلَه فأقام في غرفة مهجورة من غُرف طلبة الجامع، وأنذر زوجته أنّه قاتلُها لا محالة إن التقت ابنتُها الشّابَّ أو أمَّه مرّةً أخرى...، مرّ على ذلك زمن ازداد فيه الشّيخ يقينًا من جحود أهل القيروان وضلالهم، فرحل عنهم إلى كتامة، وراحت قصّة حبيب ومريم تسقط في غياهب النّسيان، وبينما هو في مسجد كتامة الكبير يومًا يُحدّث بعض الحاضرين عن فضل الأئمّة وكراماتهم إذ رأى الشّابّ بين يديه وما كان له أن يُخطئَه. رآه يسمع بإمعان ويهزّ رأسَه، ويُقلّب عينيه بينه وبين بقيّة المتناظرين، فيسمع منهم أيضًا ويهزّ رأسَه. كبت الشّيخ غضبًا عارمًا تفجّر في أعماقه، وجعل يُجيل عينيه بين النّاس المتحلّقين من حوله فرأى بينهم والدَ الفتى، مُضيّفَه بالقيروان أوسًا بن ضبارة، ورأى أيضًا خاله القمطرير المتعجرف المسمّى إبراهيم، فعلم أنّهم ما لحِقوا به إلّا لشَرٍّ مستطير.

وسألتُ جمانة بنت المرزبان، محظيّة السيّد الأساس وخادمته، عن لحاق حبيب بن أوس بهم إلى كتامة، أحقٌّ هو؟ فقالت: إي، وربّي وإمامي لقد فعل، ثمّ تنهّدت من غوْر عميق وأردفَتْ: كنّا في فارس، وإنّك لَتَشهد، نُجلّ الحبّ ونُبجّل العاشقين، وما كنّا نرى العرب غير أجلاف قُساة يطَؤون ولا يعشقون، حتّى رأيتُ من حبيب بن أوس ومريم المكتومة ما يُذهل السّامع فكيف بالرّائي، فقد أسقط في يد الفتى إذ تركْنا القيروان، وأصبح طريح الحمّى والوساوس، حتّى خاف عليه أهله من الجنون. وتسقّط والدُه المكلوم خبرَنا، فعلم أنّنا اتّجهنا إلى أرض كتامة، وما كان مِن بَريق خُلّب يُعيد على الفتى عقله الذاهب غير السّير به وراء معشوقته وإعادة الأمل إليه بأنّ الزّواج منها لايزال ممكنًا، وركب معهما خالُ الفتى، وكان رجلًا قويّ الشّكيمة مُكابِرًا،

قال لهما: أنا أدقّ عنقَ الباطنيّ الضّالّ وأخلّص الفتاة من جوره والمؤمنين من كفره...، فلمّا بلغوا كتامة صار الفتى أوفر صحّةً وأتمّ عقلًا، فاكتروا منزلًا لِسكَنهم وانتظروا ما يكون من المقادير.

ما إن التقت سيّدتي الصّغيرة حبيبها حين غفلة من والدها حتّى أزهرت واكتنزت وعادت من موت بعيد، وكانت سلامتُها أولى من كلّ ما عداها بِنظري وبنظر أمّها المغلوبة، فتدبّرنا أمر لقائها بحبيب بن أوس يومًا بعد آخر عند خروج سيّدي لصلاة الظّهر بجامع كتامة، وكان مشغولًا بالدّعوة لا يستقرّ بالبيت إلاّ لِمامًا، فيتطارح الحبيبان لواعج الغرام ونحن نسمع ونبكي، ويتعاهدان على وفاء دونه الموت...، فلمّا كان يوم جمعة وقد مرّ على مقامنا بكتامة زهاء شهرين، دقّ بابَنا بعد المَغرب أوسُ بن ضبارة مع ابنه حبيب ونسيبه إبراهيم، واستقبلهم سيّدي ببرود، وسألهم حاجتَهم قبل أن يستقرّ بهم المجلس، وما عهِدتُه عجولًا، ولقد كان يعلم حاجتهم قبل أن يسألهم وكان جوابُه على طرف لسانه. فلمّا خطبوا منه ابنته قال لهم بلهجة واثقة: «إنّي لا أزوّج ابنتي الهادية المهديّة لرجل من أهل الضّلالة، فإنّكم تُنكرون علمَ الأئمّة وفضلَهم وعصمتهم، وتترضّون على الغاصبِين الثلاثة، وتأخذون بظاهر الدّين وتجهلون بواطنه، وفي عقيدتكم من الفساد ما يُخرجكم من ملّة عليّ ومحمّد...». لم تطُلْ جلسة المتنابذين، إذ سرعان ما ارتفعت أصواتٌ وانتفخت أوداجٌ وافترقوا متلاعنين، وكانت مريم تسمع من وراء ستار، فما هي إلّا أن اصطكّت بعنف، وتهالكت لا تقوى على الوقوف، فأدركتُها ووضعتُها في حجري، ورُحتُ أرشّها بماء وطِيب.

ظلّت جمانة بنت المرزبان تذكر ذلك اليوم، قالت: لم يذهب الشيخ لصلاة العشاء بالمسجد تلك اللّيلة. رأيتُه خاليًا بنفسه حزينًا،

قد أطفأ السّراج واكتفى بِنور القمر الخافت يتسلّل من الكوّة، وسمِعتُه يقول كلامًا وجدتُه بعد ذلك في المزامير:

من غير وضوء جاء العلجُ ليأكُل تُفّاحة قلبي.
يا مكتومةُ يا تُفّاحة قلبي
والفاجر يَجمَعُ قُطعانَ الأكلُب، ويُؤلّبها
فتبول بِحرْثي وتُنجّس دربي ...

انتهى حديث جمانة بنت المرزبان.

وسألتُ رشيد الدّين الهوّاري وكان من رقيق إفريقيّة عبدًا لأوس بن ضُبارة قبل أن يُعتقه: فيمَ كان عتقُكَ وطالما يا مَوكوسُ أدمى حبلُ النّخاسة عُنقَك؟ فافترّت شفتاه المُزرورقتان عن عَقد أبيض منظوم وقال: «حين قدّر الله لي الخلاصَ من الاستعباد بعث في طريقي رجُلا يُقالُ له حسن الصبّاح مِن باطنيّة فارس، فكان مِن خبره أنّ سيّدي حبيبًا بن أوس تعشّق ابنته وهام بها وأملَ الزّواج منها كما يَأمَل جمَلٌ أن يَلِج في سمّ الخِياط، أو يأمل عطشان يمدّ كفّه إلى السّحاب أن يبلُغ الماءُ فاه، فانزوى بي حبيب يومًا ومعي أماياس الصّنهاجي وكُنّا مملوكين لأبيه فقال لنا: «هل لكما في ميثاق بيننا لكما فيه خيرٌ كثيرٌ لا يُخلفُه أحدٌ منّا؟»، قلنا: «إنّما نحن ملك يمينك طوْع أمرك، فمُرنا بما تشاء». قال: «لقد عشقتُ ابنة الرجُل الباطنيّ الذي حلّ بيننا زمنًا تَعلمانه، وعَشقتني ابنتُه وارتَضتني، وما عاد لِحياتي طعمٌ من دونها أو مَذاقٌ، لكنّ الظّالم لم يَرض أن يزوّجنيها ورحل بها بعيدًا، فإن ساعدتماني على خطفها أعتقتُكما ليلة دخولي بها...»». قلنا: «إنّا لنفعل ما تأمرنا به طلبًا لرضاك مِن دون أن تُطمِعنا بشيء، فكيف وأنت تأخذ على نفسك مَوثقًا بعتقنا وتلك أعظم أمانينا.

امضِ بنا سيّدي فلَو خضتَ بنا البحر ما تخلّفنا عنك»، قال: «على بركة الله نتجهّز ونلحق به، إذ علمتُ أنّه بلغ أرضَ كتامة، وسوف يَصحبُنا أبي وخالي إبراهيم لخطبتها منه مرّةً أخرى بالتي هي أقوم، فإن أبى ولسوف يأبى، تدبّرنا أمْرنا فخطفناها وعدنا بها إلى القيروان، وليكوننّ ذلك بإرادتها وطوْع قلبها».

كانت الأعراب من هلال وسُليم في طريقنا إلى الغرب قد ملأت السّهوبَ، تُخيّر المسافرين بين دفع إتاوات باهظة أو السّلب والقتل، فما بلغنا أرض كتامة إلّا كمَن مات موتًا ثمّ بُعث بعثًا، فاكترى سيّدي منزلًا يُؤوينا واستقبلنا يومنا لا ندري ما يكون من أمرنا...، فلمّا كانت ليلة أردناها الفاصلة، انطلق سيّدي أوس مع ابنه ونسيبه إلى بيت حسن الصبّاح وسِرتُ في خدمتهم، فدخلوا عليه وهو كارهٌ، وراح يقدح في دينهم ويعيب عقيدتهم، ورفض مصاهرتهم وكاد يطردهم، فما خرجوا من عنده إلّا متلاعنين، يتوعّدُ بعضُهم بعضا...، فلمّا كان اليومُ التّالي جهر الصبّاحُ بدعوته، ووقف أمام المسجد كاشفًا من نفسه ما كان يَكتم، وتجمّع النّاسُ حولَهُ، وقام رجُلٌ يُجادله بعقيدة أهل الحديث، فاصطرعا ساعةً، ثمّ ما لبث الرّجلُ أن عاد عن مقالته، وراح يشكر الصبّاحَ على تَبصيره بالحقّ، فبهتَ النّاسُ ولجلجوا، لكنّ سيّدي إبراهيم تخطّى الرّقابَ على عجلٍ حتّى توسّط الحلقة، وانبرى يُكذّبُ الدّاعيَ والمَدعُوَّ، ويُبيّنُ للنّاسٍ أنّ الرّجُلين باطنيّان على مَذهبٍ واحد، تظاهرا بالاختلاف لخداع السّامعين وجَرِّهم إلى الضّلال... فتصايح النّاسُ بين مُصدّقٍ ومُكذّب، وكانت فتنةٌ وهرجٌ وشَحناء.

ألقى الله في روعي عصر ذلك اليوم أنّ الحادثة لن تمُرّ بِغير انتقامٍ، وأنّه لا بدّ للصبّاح من تابعٍ متستّرٍ يُرسله للثّأر من سيّدي

إبراهيم، فقد علمنا أنّ رهطًا من السّوقة والمَوالي قد شايعوه وبايعوه ثم استتروا بالتقيّة، فلمّا كنّا في اليوم التّالي عائدين من المسجد بعد صلاة العشاء بالجامع الكبير إذا رجُلٌ رثّ الثّياب عليه ذُلٌّ ومَسكنةٌ يسأل النّاسَ صدقةً، ويتّجه إلى إبراهيم من بين الرّائحين، وحالما رآه مشغولًا بإخراج حافظة نقوده سحب خنجرًا ورفع يده ليغرسه في ظهره، فارتميْتُ عليه ارتماءةً سريعة وسقطنا نتلوّى وسقط منه الخنجر... لكمتُ وجهَه ورفستُ بطنه، وكنتُ ذا بسطة في الجسم ونعمة من الله وعُنفوان، لكنّي لم أستطع إخضاعه إذ أفلت منّي وانطلق هاربًا، وصاح النّاسُ: هذا فدائيّ من المخنجرة، أدركوه واقتلوه...، وجرى خلفه بعضُ الرجال لكنّه أفلت منهم ولفّه الغسق.

بات سادتي يتناقشون في أمر خَطْف مريم بعد أن فشلوا في خطبتها، لكنّ الصبّاح لم يُصبح عليه في كتامة صَباحٌ، فقد اختفى تلك اللّيلة ولم يُعثر له ولا لأهله على أثر. غادروا كتامة ليلًا إلى جهة غير معلومة، فقائلٌ إنّه اتّجه غربًا جاعلًا نصب عينيه سجلماسة بأقصى الغرب، وقائلٌ إنّه اتّجه شرقًا عائدًا إلى موطنه بفارس. وسواء اتّجه هنا أو هناك، فقد كان اختفاؤه مصيبةً في نظر سيّدي حبيب، إذ أسقط في يده ولم يعُد له من أمل في الزّواج من حبيبته وإن خَطْفًا.

انطلقنا بعد يومين عائدين إلى القيروان، على أكتافنا حزنُ الدّهر وعلى رؤوسنا الطّيرُ، وأوجاع كتفي لا تُطاق بعد أن تعفّن الجرح، فلمّا أعتقني أوسُ بن ضبارة جزاء ما فعلتُ لإنقاذ إبراهيم، لم أعرف أأفرح لِعتقي أم أبكي لبقاء أماياس في الرقّ، وقد أملنا أن ننال من الصبّاح جوهرتَه المكتومَة فنُعتَق معًا. وبلغنا القيروانَ فخلعتُ عند تخومها أسمال رِقّي وودّعتُهم ومضيتُ.

قلت له: «فأخبِرْني يا رشيد الدّين عن لحاق حبيب بن أوس بغريمه الصبّاح إلى مصر بعد ذلك وما كان مِن سعيه مرّةً أخرى إلى خطْف مريم المكتومة من الإسكندريّة؟». قال: «حدثَ ذلك لاحقًا فما شهِدتُه، وقد أخبرتُك أنّي فارقتهم منذ عتقي. فاسأل عن ذلك أماياس الصّنهاجيّ إن أدركتَه حيًّا.

سألتُ محروسًا بن أماياس عن أبيه، وقد أتيتُ منزلهما بِسَلميّة فقال: لقد صار أماياسُ صاحبَ زروع وبساتين في أنحاء الشّام كلّها، فهو ما يَفتأ بين حلّ وترحال، وإنّك لَتَكمِشُ الماءَ الجاري ولا تَظفر بِأماياس، فإن أردتَ أن تسأل عن شيء فإنّي قلبُه ولسانه... فلمّا سألتُه عن خبر مشاركة أبيه في خطْف مريم المكتومة من الإسكندريّة قال: «كان أبي يحدّثني وأنا بين يديه مع سهل بن قباذ حتّى سألناه عن هذا الأمر فقال: صارت عبوديّتي أثقل وأوحش بعد عتق رشيد الدّين، وقد كان لي خيرَ عونٍ على سوء الزّمان وعيشة الهوان، ومضت على فراقه سنتان فإذا حبيب بن أوس يختلي بي يومًا فيقول: «هل لك يا مملوك في تجديد الميثاق وعتق رقبتك؟». قلت: «وما ذاك؟ فما أحسب الرّقّ والنّحسَ إلّا قدَري حتّى أموت». قال: «علمتُ أنّ الباطنيّ زعيم المخنجِرة قد استوطن مصر خفيةً عن أعين وزيرها، وجعل لنفسه ولأهله مقامًا بالإسكندريّة، علمَه وأخبرني به تاجرٌ قد جاءنا البارحة بسلعة من هناك». قلت بحماس وقد ذكرتُ رحلة كتامة وعتق رشيد الدّين: «آه يا سيّدي. مازلتَ تعشق ابنته إذَن». قال: «أجل يا أماياس. فإنّك لَتَعلم ما بقلبي منها، ووالله ما نسيت وما شُفيت، وقد كانت وعدَتني في كتامة بالهروب معي لولا سوء المقادير، وإنّي أريد إعادة الكرّة في مصر، فإن أفلحنا في ذلك أعتقتُك والله قبل دخولي بها».

بلَغنا الإسكندرية بعد فتنتها الكبرى، وما عرفَت من اقتتالٍ مُريع

بين جيش الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر وأتباع الإمام المخلوع نزار بن المستنصر. كانت المدينة كأرملة ثكلى لا تزال تلطم خدّيها وتمزّق ملابسها، كانت صورة للبؤس والألم والدّمار. وقد أخبرني سيّدي أنّ الصبّاح كان من زعماء الحرب، فلمّا انهزم الإمام نزار ووقع في الأسر وانفضّ أتباعه اختفى الصبّاح ولم يُعلَم له أثرٌ، ولم يَعرف أحدٌ مصيرَه حتّى زوجته وأبناؤه. كان سيّدي قد أقرّ عزمًا راسخًا، يضرب بقبضته الهواءَ، ويقول: إن لمْ نُفلح هذه المرّة فيما جئنا من أجله فلن نُفلح بعدها أبدًا.

تدبّر سيّدي أمره مع الفتاة وحبكا خطّةً للهروب، واستعان في ذلك بِمملوكة ببيت حسن يُقالُ لها جمانة بنت المرزبان، وكُنتُ في كلّ ذلك ألزمُه كظلّه خوفًا عليه أن يُؤخذ على غرّة بمُدية أو خنجر، حتّى قال لي يومًا: «اذهبْ فاشتر لنا ناقةً أخرى وهودجًا آخر فإنّ لمريم خادمةً ستهرب معنا، واستعِدّ لرحيلنا منتصف هذه اللّيلة». كان ذلك آخر عهدي بالعبوديّة المقيتة، فبَعد يومين وقد توسّطنا برقة، وأمِنّا على أنفسنا، ومريم في الهودج كدُرّة مكنونة، قال لي حبيب بن أوس: «أنت حرّ لوجه الله يا أماياس، فاتّجه حيث شئتَ من وجوه الأرض»، قلتُ له: «لا عتق لي يا سيّدي حتّى تزوّجني، فإنّ قلبي قد علق جمانة مذ وقعت عيني عليها». فضحك حتّى كاد يستلقي وقال لي: «ما كنتُ أدري أنّ الفرج أحبّ من الحريّة»... وكانت والله أيّام لا أنساها.

وحدّثنا الشيخُ قنبر ماء السّماء عن أفضال السيّد حسن وكراماته ونحن من حوله يوشك أن يكون لكلّ رجُل منّا سبعون أذنا، حتّى سُئل عن مُعجزة الغيبة التي حدثت في الإسكندريّة فقال:

خرجَ السيّد إلى إفريقيّة داعيًا ونذيرًا من قِبَل الإمام المستنصر، وقد رجا أن يكون فيها صاحبَ بذرٍ وحصادٍ كما كان عبد الله

الدّاعي، لكنّه لقِي فيها جحودًا ونُكرانا، فتآمر عليه أهل القيروان وكادوا يفتكون به لولا أن هرب منهم بلَيل، وإذ توغّل غربًا ألْفى كتامة قد ارتدّت وعادت على أعقابها، فحاربته وأطردته أيضًا، ولم ينفع تَطْوافُه بالغرب سنتين طويلتين في شيء، حتّى قرّر أن يلعن الأرض المنحوسة ويتركها، لكنّه خشي غضب الإمام الذي أرسله، وقرّر العودة إليه لاستئذانه في التوجّه نحو الشّرق حيث يكون عملُه أجدى وبَذره أنقى...

دخل السيّد مصر خائفًا يترقّب، إذ كان وزيرها شاهنشاه بن بدر الجماليّ قد استضعف الخليفة الإمام مثلما فعل أبوه، واستبدّ بالحكم على غير نهج الأئمّة، وقرّر حَرْف الإمامة عن الابن الأكبر إلى الغلام الغرّ أحمد المستعلي. دخل السيّدُ مصرَ مستترًا فألفى الإمامَ مريضًا، ولم يزل يحتال للوصول إليه ويستعين على ذلك ببعض مَن عرف حتّى بلَغه متنكِّرًا. قال له الإمامُ وهو يشهق ويغُصّ: ما كرهتُ منكَ شيئًا يا صبّاح كرهي عودتكَ من الغرب دون استئذاني، ولكنّي لا أُلزمكَ بما تكره، فاذهب إلى الشّرق فطوّفْ بأرجائه إن رأيتَ بَذرك فيه أَوفى وأنقى، ولكن لا تُحوّل عن الغرب نظرك، فإن رأيتَ يومًا أنّ الأمرَ قد يستقيم فيه فعُدْ إليه ولو آخرَ يوم من حياتك، وإن أعجزك الأمرُ في حياتك فلا تجعل قبرك إلّا في إفريقيّة فما وراءها، فإنّي لأرجو أن تقوم فيها آخر الزّمان كما يقوم عيسى بنُ مريم.

ما إن علِم المصطفى نزار بحلول السيّد مستخفيًا حتّى طلبه والتقاه فقال له: «إنّ الإمام أبي يوشك أن يتوفّاه الله، وإنّ البُغاةَ يُريدون حرْفَ الإمامة عنّي، وما هُو إلّا يوم أو بعضُ يوم حتّى تُطلّ علينا فتنة عمياء، فإنّي لا أنوي التّفريط في حقّ الله وحقّي حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ولقد شرعتُ في إرسال رجالي الخُلّص

إلى الإسكندريّة ففيها أشياعٌ لي وأتباعٌ، أمّا في القاهرة فأَعلم أنّي مخذولٌ، فخذ أهلك ومالك وسر إلى حيث أمرتُك، فالْحَقْ بالمرابطين هناك وكن معهم، وتجهّز للدّفاع عن دينك وإمامك...».

قال قباذ بن المرزبان: «انتهى حصار الإسكندريّة المشؤوم باقتحامها وأسْر الإمام نزار، وأعمل شاهنشاه سيوف جيشه في أتباع الإمام وكلّ من اشتُبه في ولائه، وكانت مقتلةً عظيمةً جرت فيها الدماء مجرى الأنهار، وأصحاب دعوتنا يقاتلون حتّى قطرات دمهم الأخيرة، فحصلت آنئذ معجزة هي غيبة السيّد الأساس، إذ لم يُعلم عنه شيءٌ بعد معركة الميناء ولم يُعثر له على أثر حتّى دخل على أهله بعد أربعين يومًا، وقد بكوه وتقبّلوا عزاءه، سليمًا مُعافى، كأنّما احتملته الملائكة ثمّ أعادته، لكنّه إذ عاد سليما إلى أهله لم يكُن قد سَلِم أهلُه، فقد ألفى ابنتَه مريم وقد هربت مع البربريّ عند غيبته».

وحدّثنا رفاعة بن الجوشن عن الحصن بن واسول قال: سألتُ السيّد الأساس عن سرّ غيبته أربعين يومًا كمثل ميعاد موسى في سيناء فقال لي: وددتُ أن أحدّثك بذلك يا حصن، لكنّه لم يُؤذَن لي.

٧*مولائي علي مدد*٧

(2)

مرّت ثلاثة أيّامٍ أنام فيها لِمامًا وأنهض عجِلًا، آكُل بغير شرَهٍ وأقرأ بِنهَمٍ، أُفسّر المتونَ بالحواشي، وأتعرّف ما كان في الأيّام الخوالي. وما قرأتُ رقاقةً أو بعضها إلّا بدا لي أنّي لم أُحسن القراءة أو أنّي سهوتُ أو غفلتُ، فأعيد القراءة مرّةً أخرى بتمعّنٍ وتركيز... «لا تحرّكْ به لسانكَ لِتعجَل به...»، حتّى أطمئنّ لِطيّ رُقاقةٍ وفتح أخرى. فلمّا كان مساء اليوم الثّالث دُقّ البابُ دقًّا قويًّا متواصِلًا، فسقطتُ سقطةً مدوّيةً من أعالي التّاريخ إلى حضيض أرضٍ صَلدة. قمتُ عجولًا مرتبِكًا أخفي الجذاذات وأتلصّص نحو الباب الصّامت الكَتوم وقد جزمتُ أنّه يُخفي وراءه هوْلًا وإن كنتُ لا أدريه. هل وصلوا من الحطيب توًّا متوشّحين بسوادهم متأبّطين مسدّساتهم؟ حاولتُ وأنا أتقدّم نحو الباب الذي لم يزل يُطرَق أن أتخيّل سيناريوهات أخرى: قدوم خالتي لزيارة أختها، وصول موظّف الكهرباء لتبليغ فاتورة... أو حتّى هجوم جارتنا البذيئة لافتعال خصومة بِلا سببٍ... فلْتكنْ خلف الباب يا ربّ السّماء أيّ مصيبة عدا الرّصاصة التي تَفلق جمجمتي. صرّ البابُ ونظرتُ، فألفيتُ أمامي عامِلَيْ البناء اللّذيْن كانا يشتغلان بحظيرة منزلي الجديد. رحّبتُ بهما وأنا أكتُمُ لُهاثي فرأيتُ منهما عبوسًا وازورارًا.

كان حطّاب يستند إلى عكّازين وساقه المكسورة في الجبس. عجبتُ كيف استطاع المجيء، ولأيّ سبب تجشّم ذلك وهو في حالٍ سيّئةٍ، لم يترك لي فرصةً لسؤاله، فقد بادرني بالقول:

- عمِلنا عندك بشرفٍ وأمانةٍ فكافأتنا بالجحود والغدر، واستأثرتَ بالكنز وحدك بعد أن انكسرت في أثناء اكتشافه ساقِي والتهبت رِجْلُ صاحبي بضربةِ فأسٍ حادّةٍ. رميتَنا بالمستشفى ثمّ عدتَ لتفتح الحفرة وتستخرج الذّهب وحدك. لعلّك تضحك إذَن من غبائنا وجهلنا!

تابعتُه مبهوتًا، وانتابتني رغبةٌ في الردّ على وقاحته وفمه الأبخر بضربةٍ داويةٍ:

- ما الذي تقوله يا حطّاب؟ عن أيّ كنزٍ وأيّ ذهبٍ تتكلّم؟ ما هذه الترّهات التي تملأ رأسك؟

- لا تحاول خداعنا، فما تعلّمتَ من المدارس النّظيفة عُشر ما تعلّمناه من الحظائر القذرة. كان في الحفرة كنزٌ من الذّهب ومِمّا لا نعلم من الأشياء الثّمينة. أخذتَه وحدك، ثمّ أردتَ طمسَ معالم خيانتك فأحرقتَ الحفرة حرقًا شنيعًا حتّى جعلتَها كهفًا أسود، ولكنّ الجيوبَ والتّجاويف التي على جوانبها مازالت باديةً لم تطمسها النّار. لقد كانت مليئةً ذهبًا دون شكّ.

- ما أخذتُ ذهبًا ولا أحرقتُ حفرةً ولا رأيتُ ثقوبًا أو تجاويف. كأنّك أُصبتَ بلوثةٍ في عقلك. كان قبرًا قديمًا رأيتُ فيه بقايا هيكلٍ عظميٍّ، وكنتُ أنوي العودة إليه لِردْمه لولا

أن أعجلتني الرّحلة خارج البلد... هذا كلّ شيء.

قال صاحبُه بِلهجةٍ وقِحةٍ مستفِزّةٍ، كأنّه لم يكن منذ أيّامٍ يمدّ إليّ يدًا سُفلى ليأخذ أجرتَه:

- لا يليق الكذب بالرّجال يا رجل، ولا بأساتذة مرموقين مثلك! الحاوية التي جلبتَ فيها البنزين لتسكبَه في الحفرة لا تزال موجودةً قريبًا من مكان جريمتك، وسور منزلك العالي لا يجتازه طائرٌ بجناحيه ولا ماشٍ على قدميه، فَمَن تسلّل إلى هناك ليحرق حفرةً تكاد لا تظهر بين ركام الحظيرة؟

لم يصدّق العاملان شيئًا ممّا أقسمتُ عليه. كانا يعتقدان أنّ بالقبر كنزًا لا يُقدّر بثمنٍ، وأنّي استأثرتُ بذهبٍ كثيرٍ ونفائس من دونهما، ويمُنّان عليّ بما لحق بهما من أضرارٍ بدنيّةٍ لا يجدان مالًا لتطبيبها. قلتُ لهما:

- إن كنتما تحتاجان مالًا من أجل مصاريف التّداوي فأنا أعطيكما ولا أمُنّ عليكما، فقد أُصبتما في حظيرة منزلي.

ضحك حطّاب معتقدًا أنّي بدأتُ أقرّ بكذبي:

- تدفع رشوةً صغيرةً لتأكل حقّنا وتشتري صمتَنا يا ظالم...

قاطعتُه صارخًا:

- حسنًا، لن أدفع لكما مليّمًا واحدًا، اذهبا إلى الجحيم. لقد أخذتما أجرتكما كاملةً، ودفعتُ بعد ذلك فاتورة المستشفى. اخرُجا من منزلي وافعلا ما بدا لكما.

- سنذهب إلى مخفر الشّرطة فورًا!

دقّ قلبي بعنفٍ، لكنّي لم أتراجع:

- فلْتذهبا إلى الجحيم... دخلتُ وصفقتُ الباب من ورائي.

كنتُ مضطربًا موتورًا، ومتفاجئًا من خبر حرق القبر حرقًا كاملًا ووجود حاوية بنزين هناك. تساءلت: ماذا جرى في منزلي من بعدي؟ ومَن فعل ذلك ولماذا؟... سأُساق إلى المخفر للخضوع لتحقيقٍ جديدٍ في قضيّة أخرى، وعليّ أن أثبت أنّ القبر اللّعين كان خاليًا إلّا من أنفاس الشرّ، وأنّه ما احتوى ذهبًا ولا موجوداتٍ أثريّةً، فحيازة شيءٍ من ذلك يُعَدُّ في نظر القانون جريمةً. شردتُ في رسم احتمالاتٍ وتدبيج أجوبةٍ وتنظيم أفكارٍ لكنّ الباب ما لبث أن دُقّ من جديد فهتفتُ:

- لماذا عدتُما؟ أولى بكما الذّهاب إلى المخفر.

سمعتُ صوت حطّاب وقد التصق بالباب. صار زعيقه أقرب إلى الرّجاء:

- حسنًا يا أستاذ. أعطنا الآن قدرًا من المال للعلاج، لكنّه سيكون قطرة من نصيبنا. مجرّد اتّفاق وقتيّ.

أحضرتُ لهما مِائتيْ دينارٍ راجيًا أن تكون ردْءًا وكفّارة، فقال حطّاب وهو يستدير بالعكّازين مُحاذِرًا السّقوط، كما يصبح الكلبُ أكثر شراسةً بعد أن يحصُل على العظم بين شدقيه:

- سنعود إليك يا ظالم وسنعرف كيف ننتزع حقّنا منك.

حين عدتُ إلى القراءة صار ذهني مشتّتًا بين الرّقاع بين يديّ

وباب البيت من خلفي، لم أستطع بعد ذلك التّركيز فقد أصبح دقُّ الباب رعبًا ماثلًا بين عينيّ، وصاعقةً رعديّة قد تحرقني في أيّ لحظةٍ... صرتُ أنتظر من جهة الباب نفخةَ الصّور أو أزيزَ سقفٍ قد شرع في السّقوط ويوشك أن يهشّم جمجمتي وعظمي... وبعد ساعةٍ نُفِخ في الصّور وأزّ السقفُ وتساقط! قمتُ عجِلًا والدّقّ على الباب يشتدّ لأنفّذ خطّة الطّوارئ التي رسمتُها تحت هرس الوساوس: وضْعُ الرّقائق بسرعةٍ تحت الملابس في الحقيبة الجلديّة، ودفْع الحقيبة تحت السّرير. جذبتُ السّحّابَ لفتح الحقيبة فتيبّس وأبى أن يتحرّك. حاولتُ وحاولتُ فما ازداد إلّا تيبّسًا ولم يتحرّك قيد أنملةٍ. لعنتُه وبصقتُ عليه فصادف لُعابي رأسَ السحّاب وبلّله، فجرى بين أصابعي، وانفتحت الحقيبة كأنّها بقدرةٍ سحريّة. دسستُ الرّقائق تحت الملابس، ضغطتُها بعنفٍ، ثمّ أغلقتُ الحقيبة ودفعتُها تحت السّرير فحرنت كبغلٍ أمام سقفٍ واطئٍ! رغم كلّ ما استنزفني في التخطيط لحالة الطّوارئ تلك، فقد غفلتُ عن قيس الأبعاد، ولم يخطر ببالي أنّ الحقيبة أكثر انتفاخًا من أن تدخل تحت السّرير الواطئ. دفعتُها بأقصى قوّتي، بذراعيّ كليهما، فازدادت عنادًا. استويتُ واقفًا ورحتُ أركلها ركلًا شنيعًا، خُيّل إليّ أنّ صوته كان مسموعًا في أبعد مخافر الأرض، حتّى إذا لم تستطع احتمال مزيد من الرّكل انسربت صاغرة تحت السّرير. سوّيتُ ملابسي وأسرعتُ نحو الباب فإذا أمّي قد سبقتني إليه ففتحته، وراحت تستفسر رجال الشّرطة عمّا يكون قد بدر منّي من أمور مستترابةٍ.

قال لي الضّابط الذي بدا أرفعهم رتبةً والسيّارة تطوي بنا شارعًا واسعًا نحو المخفر الكبير:

- ستخضع للتّحقيق أمام فرقةٍ مختصّةٍ. إيّاك أن تُراوغ أو تُخفي شيئًا. إنّهم بِنظرةٍ خاطفةٍ يفحصون سريرتك ويجسّون نبضك.

كان تحقيقًا مختلفًا حقًّا. محّصوا كلّ كلمةٍ قلتُها وشكّوا في كلّ خبرٍ ذكرتُه عن الحادثة. قال لي أحدهم وهو يتفرّسني بعينين ثاقبتين تخترقان أمعائي:

- هناك سببٌ آخر جعلهم يُطاردونك. سبب مازلتَ تُخفيه عنّا. لا تحاول إقناعنا أنّهم أرادوا القتل بل شرعوا فيه بسبب نقاش عابرٍ مع سائحٍ عابرٍ.

- لقد ذكرتُ لكم ما حدث، فما السّبب الآخر المخفيّ برأيكم؟ لا أعرفهم ولا يعرفونني، هل تظنّون أنّ بيني وبينهم ثاراتٍ أو أحقادًا؟

قلّب بيني وبين الكاتب على الآلة الرّاقنة عينين خبيثتين:

- لو كنتُ أعرف السّبب لقذفتُ به وجهك المعاند، لكنّي لا أصدّق روايتك. يخطر بذهني أنّك قد هربتَ بشيءٍ يخصّهم، أو تحتفظ بشيءٍ يَودّون أخذه منك!

كان يذكر احتمالاتٍ قريبةً جدًّا من الحقيقة، ويخترق جوفي بنظراته النّاريّة، حتّى أنقذني زميله من الحصار الخانق:

- نحن لا نكذّبك يا أستاذ، إنّما نُحاول أن نَفهَمك فحاوِلْ

أنت أيضًا أن تَفهَمنا: طائفة البهرة متزمّتون لعقائدهم وتقاليدهم، لكنّهم مسالمون فيما نعرف، وليست لهم نوازع إرهابيّةٌ. إن كانوا قد فعلوا معك ما ذكرتَه فإنّما فعلوه ردًّا على فعلٍ سابقٍ أتيتَه بِحقّهم وليس على قولٍ قلتَه، وهذا ما نريد أن نعرفه، وسوف نعرفه وإن في وقتٍ آخر.

كانت لهم حصافة محقّقين نابهين. وضعوني على أرضٍ زَلِقةٍ وحاصروني في زوايا ضيّقةٍ، لكنّي ظللتُ هادئًا متماسكًا، ومتمسِّكا بأقوالي الأولى. لم يكن من الهيّن عليّ أن أعترف بحيازتي رقائق ذات أهميّةٍ أثريّةٍ عظيمةٍ، فتُصادَر منّي وأُرمى مع حسرةٍ تقتلني. لم أتراجع عن كلام قلتُه، ولا اعترفتُ بشيءٍ سبق لي إنكاره. لم يتسقّطوا من كلامي حجّةً على إخفاء حقيقةٍ أو ابتداع كذبةٍ أو اختلافِ ظاهرٍ عن باطنٍ، فلَم يجدوا مُبرِّرا لاعتقالي.

أبدوا غضبًا لغياب صديقي عبد العزيز عن التّحقيق، وصبّوا جام غضبهم على موظّفي السّفارة الذين سمحوا له بالسّفر من صنعاء إلى فرنسا. وقد كان عليهم ترحيلَه قسرًا إلى بلده حتّى يخضع للاستجواب في القضيّة الشائكة. قلتُ لهم:

- كان ذلك لدواعٍ إنسانيّةٍ قاهرةٍ. فزوجتُه الفرنسيّة المُقيمة بِمرسيليا أصيبت بجلطةٍ دماغيّةٍ وسقطت في غيبوبةٍ. ولعلّها الآن ميتة. بِتّ وإيّاه في غرفة السّفارة قَصْدَ ترحيلنا إلى بلدنا صباحًا، فلمّا كان الفجر هاتفته ابنتُه من المستشفى وأخبرته بما حدث.

كنتُ كمَن يعتذر من لئيمٍ، فيمنح اللّئيمَ فرصةً للتّطاوس والعنتريّة الكاذبة. قال أحدهم بحنق:

- والله لو كنتُ مكانهم لأعدتُه إلى بلده وأخضعتُه للتّحقيق ولو احترقت فرنسا كلّها. هذا استهتارٌ بالواجب والقانون...

وسألني:

- هل هو مزدوج الجنسيّة؟ هل لديه جنسيّة فرنسيّة أيضًا؟

هززت رأسي بالإيجاب، فانتفض واقفًا وقد واتته فرصةٌ للتّباهي بذكائه الوقّاد:

- هاه. علمتُ أنّ في الأمر سرًّا. السّفارة الفرنسيّة تدخّلت إذَن لإفساد تحقيقاتنا وتهريب المشتبَه به إلى بلده المزوَّر. أؤكّد لكم أنّ هذا ما حدث بالضّبط. ما كان لموظّفي سفارتنا في صنعاء أن يرتكبوا مثل هذا الخطإ الجسيم لولا خضوعهم للضّغط والإكراه.

اجتنبتُ الردّ عليه. فلْيعتقد ما يريد. لكنّ عبد العزيز لم يهرب، وليس في الأمر ما يستدعي الهروب. كلّ ما حدث أنّ زوجته كانت بين حياةٍ وموتٍ، وابنتُه كانت تولول في الهاتف عند الفجر تدعوه إلى الإسراع بالقدوم، وما كان يستطيع أن يتخلّف عن نجدة زوجته بعد كلّ الحبّ الذي جمعهما وكلّ أفضالها عليه، فإن لم ينجدْها وليس من الموت مُنجد، كان بجانبها يضغط كفّها برفقٍ ساعة احتضارها.

حين التحق عبد العزيز بجامعة فرنسيّة للدّراسة أوانَ شبابه الأوّل كان غريبًا معدمًا لا يستحقّ غير الشفقة، وكانت مارغريت

موظّفةً حكوميّةً لها راتبٌ معتبَرٌ ومنزلٌ وسيّارةٌ ورصيدٌ بنكيٌّ، ولها أيضًا فِكرٌ نيّرٌ وقلبٌ طيّبٌ يَريان من النّاس حقائقهم وليس مظاهرَهم، ما جعلها تختار للزّواج طالبًا مهاجرًا بدا لها مثالًا لنقاء الطّبيعة وإرادة الكفاح وروح المسؤوليّة. تزوّجها عبد العزيز قبل أن ينهي دراسته، وعمل هناك بعد تخرّجه سنين طويلةً وأنجب منها بنتًا وولدًا، وما كان بحسبانه أن يعود إلى وطنه إلّا زائرًا يومًا أو بضعة أيّامٍ، لكنّ حادثةً عابرةً غيّرت رأيه كلّ التّغيير. فقد قدِم إلى وطنه ضمن فريقٍ فرنسيٍّ للاستكشاف الأثريّ، ورأى حاجة بلده إلى تخصّصه، وعاين كثرة المواقع الأثريّة التي ما تزال نائمةً على أسرارها تنتظر مستكشفيها، فأحسّ عبد العزيز أنّه قد خان بلده بحفنة مالٍ وفرْج امرأةٍ شقراء، وبدأ في تحسّس طريق جديدةٍ، فلقِي تشجيعًا من مسؤولين جامعيّين وعدوه بانتدابه فورًا أستاذًا جامعيًّا وباحثًا أثريًّا إن وافق على العودة إلى بلده. رفضت مارغريت عودته وذكّرتْه باتّفاقهما القديم، وتعهُّده قبل زواجهما أن يُقيما بفرنسا، لكنّه لم ييأس من إقناعها، حتّى قبلت أخيرًا بعودته إلى بلده على أن يقضي معها ومع ابنيه شهرين من عطلته الصّيفيّة، وتقضي عنده شهرًا من كلّ شتاء. كان صديقي عبد العزيز ينتظر العطلتين بفرحٍ غامرٍ، ويسمّيهما رحلة الشّتاء والصّيف.

في طريق عودتي بعد التحقيق العسير، والسيّارة الكبيرة ذات الحديد المشبوك تتهادى كفيلٍ جريحٍ، ما انفكّ الضّابط يُعيد التّأكيد عليّ بعدم مغادرة منزلي إلّا بإذن الشّرطة ومرافقتهم، فأهزّ

رأسي دون اهتمامٍ، إذ كان ذهني مشغولًا بِما ذكَر لي البنّاءان من خبرٍ غريبٍ مُفزعٍ عن حرق القبر بما فيه من رُفاتٍ! ذكرا أنّه كان حرقًا شنيعًا جعل القبر كهفًا حالك السّواد. انتابتني قشعريرةٌ شديدةٌ لمجرّد التفكير في الأمر، فظللتُ أهدّئ مخاوفي بأنّ الأمر قد يكون مجرّد كذبةٍ سمجةٍ، جاء بها محتالان سعيًا إلى ابتزازي. أردتُ أن أطلب من رجال الشرطة الذين يرافقونني تغيير مسار الفيل الجريح، وإيصالي إلى بيتي ورمْيي هناك مع حيرتي وخوفي ووساوسي، إذ كنتُ أستعجل الاطلاع على القبر بنفسي، لكنّي لم أَجهر بطلبي ودفنتُ رجائي في قعر وجداني. كنتُ أجتنب إثارة أيّ شُبهةٍ أو شكوكٍ، فربّما تساءلوا: لماذا غيّر مساره؟ وماذا ينوي أن يفعل في بيته؟ وجعلوا هذه الأحجية ولّادة أحاجٍ وأسئلةٍ لا تنتهي. استسلمتُ لصمتٍ قُدّ من ضجيجٍ، ورأسي يمور ويرتجّ حتّى رنّ هاتفي في تلك اللّحظات العصيبة على غير انتظارٍ، واندفعت زوجتي جزِعةً مفجوعةً تسأل عمّا حدث وتُمطرني بوابلٍ من اللّوم والتّقريع لأنّي كتمتُ عنها ما حصل لي، وما كنتُ فيه ولم أزل من الخطر الشّديد، وأكّدت لي أنّها عائدةٌ إلى المنزل في ذلك المساء. فعلتُ ما بوسعي لطمأنتها ورجوتُها البقاء حتّى لا تُفسد على الأطفال عطلتهم. هكذا زعمتُ، ولم أذكرْ لها السّببَ الحقيقيّ: حتّى لا تراني أقرفص ذليلًا في سيّارة شرطةٍ. بعد جدل مع نفسها، وما أظنّها سمعت كلمة ممّا قلت، انتهت إلى ما اعتبرَتْه حلًّا وسطًا بينها وبين الأبناء: تأتي إلى بيتنا وحدها مساء ذلك اليوم لقضاء ليلة

والاطمئنان عليّ، ثمّ تعود إلى الأبناء في منزل والدها لقضاء بقيّة العطلة.

ما إن بدأت المكالمة الهاتفيّة حتّى خرس مِن حولي رجالُ الشرطة، وما عدتُ أسمع حتّى أنفاسهم. لا أحد منهم تكلّم أو داهمه عطاسٌ أو سُعالٌ. سمِعوا كلّ كلمةٍ قلتُها وأحصوها عددًا ومحّصوها وفسّروها على كلّ الوجوه. قلتُ للضّابط الذي لم يزل كأنّ على رأسه الطّير:

- زوجتي عائدة هذا المساء كما سمعتَ، وعليّ تغيير مساري إلى منزلي.
- ماذا سمعتُ يا سيّد؟ أنا لم أسمع شيئًا، ولا أعرف عمّا تتكلّم!
- حسنا. قالت زوجتي إنّها ستعود إلى ...

قاطعني بحدّةٍ:

- لكنّك اتّهمتَني بأنّي كنتُ أتنصّت على مكالمتك.
- عذرًا سيّدي لم أقصد ذلك، كنتُ أعني أنّ المكالمة حدثت بجانبك.
- والأسوأ من اتّهامي أنّك تتّهم زملائي أيضًا. ما دمتَ تقصد أنّي تنصّتُّ عليك فإنّك تقصد حتمًا أنّ زملائي في السيّارة قد تنصّتوا عليك أيضًا. هل هذا ما تعنيه؟

تضاحك شرطيٌّ بجانبي مُعبِّرًا عن شعورٍ بالقهر، وضرب كفًّا بكفٍّ مُشتكيًا من تعرّضه لظلمٍ فادحٍ! رشقوني بتعليقاتٍ ساخرةٍ، ووجدوا لأضراسهم علكةً يلوكونها حتّى أنهى كبيرهم جدلَهم التّافه:

- قلتَ إذَن إنّك تريد تغيير مسارك والعودة إلى منزلك... نهج ابن شرف فيما أذكر.

- أجل يا سيّد. وأكون لك شاكرًا ممتنًّا.

كان عليّ أن أقول كلامًا آخر، لكنّي سكتُّ هنيهةً أنتقي ألفاظًا وأنضّد تعابير مُحاذِرًا أن أنطق كلمةً في غير محلّها تصبح علكةً جديدةً:

- لكن قبل الذّهاب إلى منزلي أرجو منكم التوجّه بي إلى بيت أمّي، حتّى أطمئنها وأودّعها، وأجلب حقيبة سفري التي بقيت هناك. عُذرا ياسادة، فإنّي أطلب منكم هذا حتّى لا أضطرّ إلى الذّهاب إليها دون إذنكم.

لم يُجبني أحدٌ منهم، لكنّ الضّابط هزّ رأسه بموافقةٍ لامُباليةٍ، وعاد الصّمتُ يخيّم على وجوههم الجنائزيّة.

وصلنا إلى بيت أمّي فوقفوا في انتظاري يستعجلونني، ولم يكن الوقت كافيًا لأنزل إلى المستودع وأعالج بابه الثّقيل الصرّار، فوجدتُني مضطرًّا إلى ترك الرّقائق هناك إلّا رقائق المزمورَيْن الأوّلين التي كانت في الحقيبة مع الخنجر، وقد أنهيتُ قراءتها، فقرّرت الاكتفاء بها وإعادة قراءتها في منزلي مرّةً أخرى أو مرّاتٍ، حتّى تسنح لي فرصة العودة. طمأنتُ أمّي وودّعتُها وركبتُ السيّارة وأعوان الشرطة يستعجلونني. وما إن انغلق عليّ الباب البشع المشبوك بالحديد حتّى تفطّنتُ إلى خطئي الفادح وانخلع فؤادي: يعرف رجال الشرطة وقد أخبرتُهم بنفسي أنّ الحقيبة التي

بين يديّ هي حقيبة سفري التي عدتُ بها من صنعاء، وهم الذين أبدوا شكوكًا عند التّحقيق معي بأنّي سطوتُ على شيءٍ من باطنيّة الحطيب فلاحقوني من أجله. إنّ أدنى رجال الشّرطة ذكاءً ليُفكّر في مثل هذه الحالة بتفتيش الحقيبة، فكيف أخذتُها معي وركبتُ سيّارتهم بكلّ هذا الغباء وهي تحوي ما يفضح أمري كلّه؟ تكوّمتُ على نفسي في الكرسيّ الأجرب وحقيبتي الملغومة بين ساقيّ. كنتُ بِمظهَرٍ بائسٍ كنازحٍ يُرحَّل، أحسب أنفاسي ودقّات قلبي في رحلةٍ أطول من الدّهر وأبعد من المدى. تأمّل الضّابطُ صورتي في المرآة العاكسة. ظلّ يتفرّس فيّ فشردتُ بنظري بعيدًا. هربتُ من نظراته ما أمكنني، ولمّا ظننتُ أنّه قد صرف نظره عن المرآة عدتُ أختلس إليها نظرًا فتلقّاني على صفحتها بابتسامةٍ ساخرةٍ:

- تُثيرون الشفقة معشر الأساتذة المتعالمين! أبِمثل هذه الحقيبة الصّغيرة كأنّها حقيبة حمّام تعود من رحلةٍ مهنيّةٍ إلى الخارج؟

سكت قليلًا وعاد إلى الحديث بِلهجةٍ جادّةٍ واثقةٍ:

- حين ذهبتُ في رحلة إلى الخارج لمعاينة آلاتٍ جديدةٍ اقتنتها الوزارة، تلقّفتني الشّركةُ البائعة كعصفورٍ نادرٍ ينزل من السّماء. عشتُ بينهم مدلّلًا محمولًا على الأعناق، وأغرقوني بالهدايا الثّمينة والنّفائس، حتّى ما عادت حقائبي تتّسع لمزيدٍ فاشتروا لي حقائب جديدةً راحوا يحمّلونها...

رآني منزويًا مقبوضًا كقطٍّ محصورٍ في زاويةٍ تُرفَع فوق رأسه هراوةٌ:

- اعذرني إن أسأتُ التّعبير. لستَ أنت مَن يُثير شفقتي لكنّها حقيبتكَ البائسة!

كنتُ قد توقعتُ كلّ السّوء وعرفتُ غبائي. ها هو يتكلّم عن الحقيبة، وما بقي له إلّا أن يقول لي: افتحها لنفتّشها. ازددت تكوُّمًا على نفسي حتّى صرتُ بحجم قبضةٍ، بحجم كتكوتٍ قد فقست عنه البيضة لتوّها. قال شرطيّ آخر:

- ما فيها غير بيجامة قديمةٍ وملابس مكمَّشة وفرشاة أسنان ومنشفةٍ، أراهنكم على ذلك، وأدفع لكم ما تريدون إن كنتُ مخطئًا. افتحوها لننظر! ...

أغرقوا في الضّحك فتيبّستُ في مكاني، وانطبقت ساقاي ككمّاشةٍ خشبيّةٍ على الحقيبة. قال الضّابط الأوّل، كأنّما ينتشلني من سردابٍ سحيقٍ:

- مالك عبوس يا صاحبي؟ كنّا نمزح معك. ها قد وصلنا إلى منزلك.

لم أنتبه إلى وصول السيّارة أمام منزلي رغم أنّها قد انحازت إلى اليمين وما فتئت أن توقّفت. بذلتُ جهدًا للوقوف وتسلّلتُ نازلًا كمَن ينجو بأعجوبةٍ من فخٍّ انطبق على عنقه. نزلوا من السيّارة يتفحّصون بنظراتهم السّورَ العالي، واتّجهوا نحو الباب قبلي منتظرين منّي فتْحَه كأنّما دعوتُهم لوليمة. فتحتُ باب السّور فدخلوا، واتّجهتُ نحو المنزل فلم يتبعوني. نظروا إلى الحظيرة الجديدة كما يتشمّم ضبُعٌ رائحة الجيفة واتّجهوا نحوها. قال لي أحدُهم: «أوه،

أنت تبني منزلًا جديدًا أكبر من الأوّل»، وقال آخر كاشِفًا عن شرّ حاسدٍ إذا حسد: «تبني منزلًا ثانيًا في هذا الزّمن الصّعب والنّاس يعجزون عن تحصيل القوت؟ كان الله في عونك». اتّجهوا نحو الحظيرة ووجدتُني مضطرًّا إلى متابعتهم حتّى توقّفوا بِقدَر مقدورٍ! لو تقدّموا بضع خطواتٍ أخرى لَرأوا القبر، ولألْفَوا فيه عظام حسن الصبّاح كما وُضعت قبل ألف عامٍ، أو لَوجدوا القبرَ محترِقا ورائحتُه تزكم الأنوف إن صحّ ما أخبرني به حطّاب، لكنّهم عادوا أدراجهم دون أن تكفّ عيونهم عن التّلصّص في كلّ اتّجاهٍ. أعادوا التّأكيد عليّ بعدم مغادرة المنزل إلّا بإذنهم وحضورهم، ثمّ ودّعوني وانصرفوا. سمعتُ هدير محرّك السيّارة وهي تبتعد، فتهالكتُ على الأرض أستعيد أنفاسي، غير مصدّقٍ أنّ الكابوسَ قد انتهى على خيرٍ وسلامةٍ.

تقدّمتُ نحو باب المنزل وأدخلتُ المفتاحَ في القفل، مُحاولًا السّيطرة على رعشة أصابعي. انفتح البابُ بسلاسةٍ فدخلتُ واستدرتُ نحو مفتاح الكهرباء، لكنّ حنجرتي انفلقت دون إرادتي بصيحة فزعٍ سرعان ما كُتِمت: ذراعٌ قويّة طوّقت رقبتي من خلف، وكفٌّ ثقيلةٌ سدّت فمي ولَجمت صرختي! رأيتُ شبحًا آخر يُسرع إليّ فيأخذ بِساقيّ، وحملاني كفرخٍ مَهيض نحو أبعد غرفةٍ. طرحاني على بطني فأوثقا يديّ بِحبلٍ خلف ظهري. أوثقا ساقيّ أيضًا وأحضرا كرسيًّا فأجلساني عليه وربطاني فيه. سادت لحظاتٌ من الصّمت غير لهاثنا المتسارع ثمّ غمر النّورُ الكهربائيّ الغرفة. عرفتُه

منذ أوّل نظرةٍ. هو الطّويل عريضُ المنكبين الذي حضر لقاءنا في مزار محيي الدّين بالخطيب، أحدُ الذين لم يرض الشيخُ مغادرتَهم الغرفة لألقي إليه بسرّي وسمّاهم الأمناء. كان هذا الرّجل يرمقني في مزار محيي الدّين بنظراتٍ مُخيفةٍ. كان يرتدي آنئذٍ عمامةً بيضاء أسبلت عليه هيبةً كاذبةً، أمّا الآن فظهر رأسُه الأقرع عاريًا ورقبتُه البرصاء، وبدا أشبه بقرصانٍ أو قاطع طريقٍ.

أذكر أنّي حين هممتُ بالقفز من النّافذة للفرار بجلدي كان ذاك الرّجل أقربَهم إليّ حتّى إنّي ظللتُ أقيس المسافة بيني وبينه ثمّ بيننا وبين النّافذة لأحسب احتمالات النّجاح أو الفشل، أمّا الآخر فرَبْع القامة، شديدُ السّمرة، أنفُه مُفلطح صغيرٌ لا يكاد يظهر منه غيرُ ثقبَيْن أسودين. ألقى عليّ نظرة حاقدةً ومضى نحو شبّاك الغرفة يُرهف سمعًا ويتلصّص على الحديقة وما وراءها. قال لي الأقرع البدين وهو يضرب بقبضته اليمنى على كفّه اليسرى بِطريقةٍ تجعله في زمرة الصّعاليك وفتوّات الحارات:

- محسوبكم صديقٌ صادقٌ، وقد يكون العدوَّ الماحق. سمّني الأقرع إن طاب لك تعييري، أو سمّني عبد الأعلى إن دعاكَ ورَعُكَ إلى اجتناب الاسم الفسوق. وهذا الذي معي صديقٌ آخر لك، إن سمّيتَه الأفطس فما ظلمتَ. جئنا من بلدٍ بعيدٍ للقائك. ولم نجدك في منزلك فانتظرناك فيه يومين طويلين، وقد صار عليك الآن واجب الضّيافة والإكرام. أليس كذلك؟

ظللتُ أنظر إليه مبهوتًا، أغالب لهاثًا في حنجرتي وطبلًا يقرع أُذُنيَّ:

- سبق لنا إخبارك فما عدتَ تجهل أنّ الرّقائق اللّعينة التي بحوزتك تكشف أسرار طائفتنا، وقد أوصانا الأئمّة واحدًا إثر آخر منذ مئات السّنين بالبحث عنها أنّى وُجدت وحرقها فور الحصول عليها. كان عليك أن تتّقي لعنة الأئمّة المعصومين فإنّ لعنتهم مُهلكة، لكنّك آثرتَ المعصية والفرار فألقيتَ بنفسك في التّهلكة...، وقد جئنا لِمَنْحك فرصةً للنّجاة أو لقبْض روحك فاختر لنفسك ما تريد.

أشحتُ عنه بوجهي ولم أقل شيئًا، فما كان برأسي غير الدّوار والفوضى، ولم أجد كلماتٍ يمكن أن تُقال في مثل ذلك الموضع، فالتفتَ إلى صاحبه وقال له:

- هات الحقيبة وفتّشها. أطمعُ أن يكون قد جلب لنا هديّةً!

انتابني شعورُ مَن يسقط رغم حذره الشّديد في جبٍّ عميقٍ، عميقٍ بِلا قرارٍ. تابعتُ شبحَه المتحرّك مِن وراء ضباب عينيّ وهو يخرج من الغرفة إلى الرّدهة ثمّ يعود حامِلًا حقيبتي الجلديّة. كانت في حالة استسلامٍ كَسَبيٍّ تُجَرّ إلى خيمة غاصبيها، فتكتُم نشيجها وتعضّ على ألمها بعد أن فقدت كلّ أملٍ في الخلاص! فتحها وأدخل يده في جوفها فجذب الخنجر. رفعه عاليًا وصاحا بصوتٍ واحدٍ: «تباركْ عليّ». هتف الأفطس:

- ما كذب الأئمّة وما نطقوا عن هوى. علموا ما كان، يعلمون ما سيكون...

خرّا ساجدَيْن دون أن يستقبلا قِبلةً واحدةً، فأطالا ولم يرفعا رأسيهما إلّا بعد لأيٍ. قال الأقرع عبدُ الأعلى:

- هذا خنجر المارق حسن. قتَل به كثيرًا من الفواطم أهل الحقّ. ألقِه من يدك. لا تلمس نجاستَه. ابحثْ عن رقائق المزامير. المزامير يا صاح.

أدخل يده الأخرى في الحقيبة فأخرج منها كمشة، وذُهل من الاكتشاف! ثمّ دفع بِكفّه نحو وجه صاحبه وهو يكمش الرّقائق بعصبيّة:

- هذه هي رقائق المزامير. هذه هي. انكشفت بأيدينا، وصرنا مبشَّريْن بالجنّة...

- نعم. تباركْ عليّ... تبارك عليّ...

تهلّل وجه الأقرع وجحظت عيناه كمَن لا يصدّق ما يراه، وصاحبُه يكمش من الرّقائق ويُلقي خارج الحقيبة، حتّى إذا لم تعُد أصابعُه تتحسّس شيئًا منها أفرغ الحقيبة من كلّ ما فيها وراح يفتّش كلّ زواياها كباحثٍ عن إبرةٍ. جثا الأقرع وراح يتفحّص غنيمته فما لبث أن صاح:

- إنّها منقوصة، منقوصة كثيرًا. وما هذا غير نزرٍ قليلٍ منها. أخبرتُكَ أنّه مُخادعٌ خبيثٌ. وزّع البيضَ المسروق بين سِلال كثيرة..!

توجّه نحوي فأمسك بشعري، ولوى رأسي إلى الخلف حتّى

صار وجهي قُبالة وجهه، فتفرّستُ لأوّل مرّةٍ في عينيه الثّاقبتين وأسنانه المسوّسة، وشممتُ رائحة فمه الكريهة:

- لا تتلاعب معنا يا أستاذ. أعطنا بقيّة الرّقائق ونحن نأخذها ونمضي بسلامٍ. إن حصلنا على ما يخصّنا فلا مصلحة لنا في تعذيبك أو قتلك.

أكسبَتني حركتُه المُهينة طاقةَ تحدٍّ. قلتُ له:

- ما وجدتُه كنزٌ أثريٌّ يكشف حقائق تاريخيّةً قديمةً، ويُصحّح الأخطاء التي ربّما وقع فيها المؤرّخون. لا مصلحة لي البتّة في الإساءة إلى طائفتكم أو كشف أسرارها، لكنّي لا أعطيكم كنزًا أثريًّا تحرقونه...

هتف الأفطس بصوتٍ يخرج من أنفه، وقد ضاق ذرعًا بالكلمات القليلة التي قلتُها:

- هروبه من الحطيب يكشف مقدار عناده. مزّقْ أحشاءَه بخنجر الصبّاح ولْنمض.

ظلّ الأقرع صامتًا يتأمّلني، بدا لي أنّه يميل إلى رأي صاحبه. ظلّ يتأمّلني صامتًا كأنّما يترحّم عليّ، وسَرَتْ قشعريرةٌ في جلدي وأنا أسمع كلام الأفطس عن خنجر الصبّاح وعن أحشائي، فأردتُ تليين الموقف قبل أن يَخطُوَا بي في طريق الدّم. قلتُ:

- لماذا لا تتركون لي الرّقائق وأعطيكم عهدًا أكيدًا ألّا أستعملها إلّا استعمالًا أكاديميّا ولأغراض البحث العلميّ. لستُ مهتمّا

بالجدل العقائديّ، ولا باختلافات الفِرق الدينيّة المتصارعة. ذلك آخر ما يعنيني.

تبسّم بِما يُشبه الهُزْء ولم يُجبْني. قطع نظرته الطّويلة إليّ مُلتفِتًا إلى صاحبه وقال له:

- هات قدّاحةً وقرّب منّي رقاعَ السّوء. لقد أوصانا الأئمّة بحرقها فور الحصول عليها فلا ندري ما يكون بعد دقيقةٍ!

نعم يا صاح. لنحرق ما حصلنا عليه منها.

كنتُ مكتوف اليدين والسّاقين، موثوقًا إلى الكرسيّ ولا أمل لي في الدّفاع عن كنزي الثّمين والقراصنة يُتلفونه في بيتي أمام ناظريّ. كان من قسوة القدر أن يُحرَق كنزي وأنا أنظر وأسمع، وأن يكون ذلك بقدّاحتي تحت سقف منزلي. حمدتُ الله على كلّ حالٍ إذ لم يكن في حقيبتي غير المزمورين اللّذين أتممتُ قراءتهما وقراءة حاشيتَيْهما. جلب الأفطس من مطبخي آنية حديديّةً كبيرةً فوضعها أمام صاحبه وناوله قدّاحةً. اشتعلت النّارُ في الرّقعة الأولى باردةً بغير شهيّةٍ ولا حماسٍ. نار زرقاء ضعيفة تتحرّك وئيدًا وتُصدر دخانًا شديد السّواد ورائحةً كريهة، فتتلوّى الرّقعة خانِعةً كثعبانٍ يُقصم ظهرُه ويستسلم للضّربات الأخيرة من دون أملٍ في النّجاة. ظلّ الرجلان يستمتعان كلّ المتعة برمْي رُقاقاتٍ جديدةٍ في الآنية الحديديّة فوق الرّقاقات المشتعلة ويتلذّذان مشهَدَ النّار الزّرقاء والدّخان الأسود والثعبان المترنّح، حتّى إذا أنهيا حرقَ الرّقاقة الأخيرة عادا إلى تبريك عليّ وتمجيد المعصومين، وقال لي الأقرع:

- أخبرْنا يا رجل أين أخفيت المزاميرَ الخمسة الأخرى؟ لم نتراجع عن وعْدنا إيّاك بِمالٍ يُغنيك. هل تريد التّأكّدَ بنفسك؟ اجلبْ حقيبة المال يا صاح.

كانت الحقيبة مليئةً أوراقًا ماليّةً من العملة المحليّة، جديدةً مصفوفةً. وكان بها أيضًا مسدّسٌ صغير الحجم مزوّدٌ بكاتم صوتٍ! أخذه الأقرع بيمناه وأدناه من عينيّ بعصبيّةٍ حتّى سمعتُ صريرَ أسنانه ثمّ أعاده إلى مكانه، ورماني وهو يتّجه إلى المطبخ مع رفيقه بنظرةٍ حاقدةٍ. دخلا المطبخ فأبطآ، وتعمّدا ترك الحقيبة مفتوحةً أمام عينيّ على عسل المال وأنياب المسدّس، مفتوحة بكلّ فجورها وفتنتها، وكلّ وعيدها واستعدادها الإجراميّ، وظلّ فكري مُشتّتًا بين كلامها العالي الواضح المُبين وحديث الرّجلين في المطبخ وهما يتحادثان بأصواتٍ خافتةٍ تكاد لا تُبين.

في خضمّ عذابي تذكّرتُ ما زادني عذابًا. فزوجتي قادمةٌ هذا المساء، وقد تفتح البابَ وتدخل في أيّ لحظةٍ، وسيكون وقْعُ الصّدمة قاسيًا عليها وربّما قاتلًا، ويسومها القراصنة إذلالًا أمام عينيّ ليجبروني على الانصياع لأوامرهم. يا إلهي! مثل هؤلاء لن يتورّعوا عن قتْلنا معًا في حفلة دمٍ واحدةٍ، فمَن للأطفال بعدنا كفِراخٍ زُغْب الحواصل؟ ما عُدتُ أرى غير مشاهد الدّماء المنسكبة، والحِداد الأسْود يُسربل كلّ شيء... رأسي دُوارٌ وارتجاجٌ، مفاصلي مفكَّكة، وفي ظهري تنغرز مسامير حادّةٌ تخرق نُخاعي.

اقترب منّي الأقرع وبدأ يدور حولي ضاربًا كفَّه اليسرى بقبضته

اليمنى وهو يرمقني بعينَي عُقاب. أخذ خنجر الصبّاح يتفحّصه وكان قد نهى صاحبَه عن لَمسه وقال له:

- أرأيتَ أنّ نصل الخنجر أصفر؟ وأنّه أكثر صُفرةً من الجهة الحادّة؟ هل تعرف لذلك تفسيرا؟

ما تقوله صحيح. ولكن مِمّ ذلك؟

- من كثرة نقعه في السمّ قبل استعماله للاغتيالات. كان الباغي يُسمّيه الأبلق مُدّعِيًا أنّ له سرًّا وبركةً، وأنّ مَن تسلّح به لا ينهزم ولا يخيب ولا يرجع عن عدوٍّ حتّى يقتله.

ألقى الخنجر أرضًا ورفسه ثمّ عاد يدور من حولي، وقد صار انتظار قدوم زوجتي في ذلك الوقت كابوسًا يجثم على فكري ويَشلّ إرادتي، فيتداخل في فكري مشهد فتْحها البابَ وسقوطها مَغشيًّا عليها بمشاهد أخرى فيها رؤوسٌ تُقطع ودماءٌ تنسكب وأطفالٌ يتامى يَبكون دون عشاءٍ! قال لي الأقرع دون أن يكُفّ عن الدّوران من حولي:

- هل لك في تفاهُمٍ يا رجل يُجنّبك ميتةً رخيصةً ولعنةً أبديّةً؟

قلتُ:

- لِتَعلموا أنّه لا مصلحة لي بِمُعاداتكم ولا رغبة لي في صداقتكم، لكنّ التّفاهم سيّد الحلول.

قال:

- أين تُخفي بقيّة المزامير لنتّفق بشأنها؟

- لقد بقيَتْ في القبر وأنتم أحرقتموه فانتهى أمرُها. كيف

تحرقون قبرًا فيه رُفاتٌ بشريٌّ؟

– أنتَ كاذبٌ. فلم تكن في القبر قبل حَرقه أيُّ رقاقة. أهذا هو جوابك عن رغبتي في التّفاهم معك؟

– يكون جوابي مِن جنس سؤالك. أخبرتَني عن رغبتكَ في التّفاهُم معي وجَعْل ميثاقٍ بيننا، فلمّا قبلتُ بالتّفاهُم معك سألتَني عن مكان إخفاء الرّقائق! لو افترضنا أنّ بقيّة الرّقائق عندي وأجبتُكَ أين أخفيها فعمّ سنتفاوض بعد ذلك؟ كان جوابي مِن جنس سؤالك.

– أوحى إليّ حدسي وأنا أُقلّب الأمرَ مِن كلّ وجوهه أنّ بقيّة الرّقائق ما تزال مَخفيّة حيث وضعتَها أوّلَ يوم، وأنّكَ لم تقرأها بعد. بل إنّك ما كتمتَها إلّا مخافة التّفريط فيها قبل قراءتها.

سكتَ مُنتظِرًا جوابي، وعلّق عينيه بِوجهي يَستعجلُني، فقلت له:

– يمكنكَ أن تحدس ما تشاء، وتفكّر بما تريد.

– أمّا المزموران اللّذان كانا في حقيبتك فقد أنهيتَ قراءتهما.

– ربّما.

– فلذلك ترفض تسليم بقيّة المزامير إلينا حتّى تستكمل قراءتَها.

– ما مِن مؤرّخ إلّا يرغب في قراءة أثرٍ مكتوبٍ ناهز عمرُه ألف عامٍ.

– اسمع ما أقوله إذَن: نمنحك مهلةً من الزّمن، ثلاثة أيّام مثلًا

لتكمل قراءة المزامير الباقية ثمّ تُعطيناها لا تَنقُص منها ورقةٌ واحدةٌ. إن وافقتَنا على هذا الأمر ووثقنا بكلامك فإنّنا نطلق سراحك ونُؤمّنك، ونخرج من عندك السّاعة فلا نلتقيكَ إلّا في الموعد الذي نتّفق عليه.

كان لجملته الفعليّة «نخرج من عندك السّاعة» وقعُ السّحر على قلبي، وبدا لي مقترحُه مَخرجًا معقولًا من الهوّة السّحيقة التي سقطتُ فيها. وكان عليّ أن أعُدّ ذلك نصرًا حقيقيًّا، فما كان لِعصابةٍ دمويّةٍ أن تُطلق سراحي دون أن تنال مرادها لولا ما أبديْتُ من شجاعةٍ وتصميم حتّى علِموا أنّهم لن ينالوا الرّقاعَ وإن قتلوني، فاضطرّوا إلى حلول وسطى.

قلتُ لنفسي: إن كنتُ غير قادر على الاحتفاظ بالرّقائق فليس أقلّ من أن أقرأها، وأحفظ نفسي وزوجتي من أن تُداسَ كرامتُنا بأقدام اللّئام:

- أجل. أفعلُ إن كنتم تحفظون الميثاق.
- اسمع يا صاح. لا تفكّر أبدًا في خداعنا. هربتَ من الحطيب ظانًّا أنّك تركتَنا بعيدًا فوجدتَنا بمنزلك، في غرفة نومك. والله، وعصمة الأئمّة جميعًا إن غدرتَ مرّةً أخرى فإنّنا سنقتلك حيث تكون. لا تحاول الهروب ولا إخبارَ السّلطات أو نصبَ كمينٍ معهم، فإنّك لن تنال منّا شيئًا ولكن تنال من نفسك. أتُقسم على ذلك؟
- لنتّفق على مدّة الإمهال أوّلًا، فليس أقلّ من عشرة أيّامٍ.

- أوه، بدأتَ بإملاء شروطك، وصوّر لك عقلكَ السّفيه أنّنا بموضع استجداءٍ. إن ظننتَ ذلك فقد أخطأتَ كثيرًا!

- تزعم منْحي مهلة لقراءة الرّقائق وتمنحني مهلةً لا تكفي لتشمّمها. وأنا لا أقسم على أمرٍ لا أنوي الإيفاءَ به.

- لكنّ عشرة أيّامٍ مدّةٌ طويلةٌ جدًّا. نريد المغادرة بأسرع وقتٍ. حسنا فلْتكن خمسةً.

اتفقنا أخيرًا على إمهالي ثمانية أيّامٍ. كان ذلك يوم خميسٍ فعزمنا على اللّقاء يوم الجمعة التالية على أن أنتظر منهما مكالمةً في ذلك اليوم لتحديد المكان. فكّا قيودي فوقفتُ بصعوبةٍ ورحتُ أحرّك أطرافي وأتمشّى لأسرّح مفاصلي المتيبّسة. وقف الأقرع أمامي بقامته الفارعة. وضع يده في يدي وقال:

- عاهدني ألّا تغدر ولا تنكث، وأن تصدُق وتُخلص، ولا يختلف سرّك عن جهرك.

كنتُ أنوي أن أعاهده على ما أراد، فقد قرّ قراري على الاكتفاء بقراءة المزامير وتسليمها إلى المقصلة لأفتدي بها رقبتي. لكنّ الأفطس خرج أخيرًا من ركام الصّمت ليُفسد ما بيننا، إذ قال لي بكلماتٍ تخرج من أنفه، وكأنّه تفطّن إلى غباء صاحبه فهبّ ليصلح خطأً ويسدّ ثغرةً:

- أنتَ من جماعة الحديث، فلا نصدّقك حتّى تقسم بأبي بكر وعمر!

صرختُ به:

- أحلف لك بالله ربّ كلّ شيء فتقول لي أبا بكر وعمر؟

أسرع عبد الأعلى لتهدئة النّقاش، ضاربًا عرض الحائط بشروط صاحبه:

- حسنًا حسنًا، على رسلك. قد قبلنا منك وصدّقناك.

وجدتُ في تراجعه ما يُمكّنني من إملاء شرطٍ قبل إبرام العقد الأخير، فقد كانت يُمناه منطبقةً على يُمناي، تأخذ بخناقها في انتظار أن ألفظ القسمَ. قلتُ:

- لي رجاءٌ قبل أن أعاهدك. اترك لي الخنجر أَجعله تذكارًا، فليس فيه ما يُسيء إلى طائفتكم، ولا أمَركم الأئمّة بِحرْقه.

تناظرا بوجهين صفيحيّين باردَين مُحايدَين، لكنّهما تبادلا معاني ورسائل لا يَفهمها غيرُهما. قال الأقرع عبدُ الأعلى معبّرًا عن خلاصة ما توصَّلت إليه عيناهما:

- حسنًا. كنّا ننوي تحطيمه، لكنّنا سنتركه لك دليلًا على حسن النيّة والتّقدير.

اتّجه نحوه وهو مطروح على الزّربيّة كمحاربٍ قديمٍ في ساعة احتضاره. ركله ثمّ داس عليه كأنّما يستخلص ثأرًا تليدًا، وقال وهما يهُمّان بالخروج:

- الزمْ مكانك هناك. لا تهتمّ بوجهتنا ولا تسأل أين نذهب. نحن نذهب مع الرّيح!

وما إن صفقا بابَ المنزل مِن ورائهما حتّى انتابتني رغبةٌ في معرفة المكان الذي تحملهما إليه الرّيح. سبق أن سألني ابني الصّغير عن مَخبإِ الرّيح فلم تُسعفني معارفي القليلة في الجغرافيا ووجدتُني عاجزًا عن إجابته. كانت الرّياح العاتية تهبّ من حيث لا ندري فتعصف بكلّ شيءٍ، ثمّ تهدأ حين يعنّ لها الهدوء، ريثما تعود أكثر صخبًا، فسألني ابني: أين تختبئ الرّيح فترة هدوئها؟ وريحُ الباطنيّة هبّت عليّ عنيفةً مُزلزلةً، وكادت تقتلع جذوري وترميني في قاعٍ سحيقٍ، وقد تعود إلى الهبوب بعد ثمانية أيّامٍ أكثر صخبًا.

جريتُ نحو السّلالم فصعدتُ إلى السّطح وتوقّعتُ أن أراهما يركبان سيّارةً ويُغادران، لكنّ النّهجَ كان خاليًا إلاّ من صبيةٍ يلعبون. كمنتُ منتظِرًا، وبدت لي سيّارة جارنا البيضاء القديمة قادِمةً على مهلٍ. خفّضَت سرعتها وأطلقت مزمارها المشروخ لتحذير الأطفال، واضطرّ جاري إلى التّوقّف ككلّ مرّةٍ كاظِمًا غيظه وهم يتلقّفون كرتهم من بين العجلات ويبتعدون على مضضٍ، تابعتُ المشهد حتّى استأنفت السيّارة العجوز بقيّةَ رحلتها الجهيدة ورسَتْ أمام المنزل المجاور.

حدث كلّ ذلك من دون أن يظهر القُرصانان اللّذان خرجا من منزلي. لم يظهرا في سيّارةٍ مكتراةٍ كما كنتُ أتوقّع، ولا على درّاجةٍ ناريّةٍ ضخمةٍ كرُعاة البقر. رحتُ أجول في السّطح وأرصد كلّ الاتجاهات فما رأيتُ لهما أثرًا. انتابني قلقٌ شديدٌ وما عدتُ واثقًا من عهدهما ولا من شيء ممّا اتفقنا عليه. هل خدعاني بِصفْق الباب

ثمّ عادا فاختبآ في المنزل؟ نزلتُ الدّرج بسرعةٍ وبدأتُ تفتيشَ المنزل، كلّ ركنٍ وكلّ خزانةٍ، خلف السّتائر وتحت المَناضد وبين الأرائك...، افترض ذهني وهو نهْب للهلوسات أن يندسّا تحت الفرن كالخنافس، أو يتدلّيا من السّقف كالوطاويط، فما وجدتُ لهما أثرًا! وقفتُ على باب جاري، صاحب السيّارة العجوز، أسأله عمّا إذا كان قد اعترضه شخصان غريبان أو سيّارة لا تشبه سيّارته عند مدخل الحيّ أثناء عودته منذ قليلٍ، فنفى ذلك. جمعتُ الأولاد الذين كانوا يلعبون بالكرة فنفَوْا رؤية أحدٍ يُغادر منزلي. كاد الجنون يصيبني لولا أن رسَتْ أمام منزلي سيّارة أجرةٍ ونزلت منها زوجتي تُناديني بصوتٍ عالٍ، وألقت بِتَعبها وخوفها بين أحضاني.

لم يغادرني الشّعور الفظيع بأنّهما لا يزالان بالمنزل. كدتُ أشمّ رائحتهما النّفّاذة وأرى وجهيهما الكالحين. خُيّل إليّ أنّهما قد يُداهمانني في فراشي عند الهزيع الأخير من اللّيل فيعتديان على زوجتي أو يُعملان خنجرًا في أحشائنا. قلتُ لها وهي لا تكُفّ عن صبّ دِلاء الأسئلة الحارقة على رأسي المحمومة:

- أريد أن نذهب الآن إلى بيت أمّي لنبيتَ عندها. تركتُها قلقةً عليّ والهاتف لا يكفي لطمأنتها.

وبعد ساعةٍ كانت السيّارة تطوي بنا الطّريق وأنا أقصّ على زوجتي حكاية القبر الغريب والرّقائق السرّيّة وفراري من الحطيب ولحاق الرّجلين بي. أخبرتُها باتّفاقنا على تسليم الرّقائق إليهما بعد ثمانية أيّام، لكنّي اجتنبتُ الحديث عمّا يزيدُها هلعًا، فلم أحدّثها

عن الخنجر الذي اصفرّ حدُّه لكثرة نقعه في السمّ، وقد دسستُه بين ملابسي في الخزانة دون أن تراه، ولم أحدّثها عن تقييدي والتّهديد بقتلي، ولا عن جلستي الذّليلة قبل ذلك في سيّارة الشّرطة والحقيبة بين ساقيّ كنازِحٍ يُرحَّل. كانت السيّارة تطوي بي وبِزوجتي الأرض. عطرُها الشّهيّ يدغدغ حواسّي الخمس، وأنا أستطيب الضّغطَ على مزوّد السّرعة وقد نسيت تحذير الشرطة لي من مغادرة منزلي من دون إذنهم ورِفقتهم. كنتُ متلهّفا للقاء أمّي وطمأنة قلبها، وما أشدّ حاجتي إلى حضنها الرّؤوم بعد كلّ ما عانيتُ من الخوف، لكنْ كان عليّ العودةُ صباح اليوم التّالي مُبكّرًا إلى منزلي قبل أن يتفطّن المُخبرون لغيابي، وعليّ قبل ذلك إيصالُ زوجتي إلى محطّة سيّارات الأجرة حتّى تلحق بأبنائنا في بيت أبيها. هام ذهني مُفكّرًا في أنسب مكان داخل السيّارة يمكنني أن أخفي فيه الرّقائق عند عودتي صباحًا، فلا بدّ لي من أخذها إلى منزلي لاستكمال قراءتها، وظلّ الوسواسُ ينخرُني وعجلاتُ السيّارة تغزل الطّريق بصوت رتيب حتّى اهتديتُ إلى مخبأ آمن تحت غلاف جلديّ بِسقف السيّارة، فانفرجت أساريري وأنا أغيّر اتّجاهَها نحو الزّقاق الذي يضمّ منزل أمّي، فشممتُ قبل وصولي رائحتها الزكيّة ووجدتُ بقلبي طُمأنينة وسلامًا..

* مزمور الوعيد الأسود *

١.يا خنجري القتّالُ، يا باعج البطون
كمْ من قلوب مُزّقت، كمْ من رقاب قُطّعت
بحَدّك المسنون،
أودعتُ فيك لعنتي، فاسفك دِماهم أجمعين.
ليس لي جيش عرمرم يستبيح الأرض
أو يغزو الحصون
بل عُصبة للحقّ، واحِدُها بألفٍ
لا تهاب ولا تهون.

٢.يا خنجري القتّالُ، يا مُتْملا بالسُّمّ والذُّعرِ
أَهيمُ حُبّا بالتماعة حدّكَ المُصفرّ
وثغرك المُفترّ، ونَصْلك المغبرّ
ستكون لي خيرَ أنيس في ظلام القبر
وتكون حارسَ جثّتي من عاديات الدّهر.

٣.زهاء ألفٍ سوف نرقد في سلام مستقرّ،
غير أنّا بعد ذلك نُبتَلى بالشرّ:
سيُقوّض النبّاش ليلًا مضجعي،
والمُفسدون سيَعبثون بقبري

بعد موْتٍ، بعد فوْتٍ، بعد ألْفٍ. . .
سوف تُبعَث يا خُنيْجرُ آخذا بالثّأر
يوقظونك من سُباتك كي تمزّقهم بأيديهم
ألا شُلّت سواعدُ الغدر

٤.يا خنجري القتّال يا صانع الأهوال
أنتَ المسيحُ لسوف تُبعَث، آخرَ الأزمان والأجيال
والباطنيّة يَكثُرون بكلّ أرض، يُعرفون بكلّ حال
ذوو خناجرَ سافِكاتٍ، وسيوفٍ ونِصال
في كلّ أرض يحرزون لهم قِلاعا
يَطرُدون كما طردتُ ذوي الضّلال
والنّاسُ بالأكداس سوف يُرهَّبون ويُقتَلون
في المساجد والكنائس والشّوارع والمحالّ

٥.رعدُ شُؤم في أقاصي الأرض
أمطارُه الحمضيّة فوق بيتي
والسّيلُ يَدخُل بالقذارة منزلي
أو يملأ ماجلي بِكناسة وبِروْث
سحابُ إفريقيّة يُرعدُ في سمعي بِأعنف صوت :
«يا حناجرَ آل صبّاحٍ لا طعِمتِ فشبعتِ،
لا شرِبْتِ فارتويْتِ»

٦ . قلتُ لأمّ موتٍ : فلْتهْبّي مِن خُراسان إلى القيروان
ونِعْم ما سعيْتِ
فاسحقي بيضةَ الثُّعبان لا تَدعيها
تفقس في جَرّة زيتي
خذي الحشائشَ والدّسائسَ أُمّ موت
وافعلي ما قد أُمِرْتِ

٧ . تتقاتل عند خواتيم الزّمن ، على قبر الحسن ،
ضِباعٌ وخنازيرُ وغربان
كلٌّ يَبغي من قبري غُنمًا فأسفّهه
ولا يَغنم غيرَ الخسران
ذهبٌ مغموس بدماء ، ورقائق بالقَطران ،
فرؤوس من أجلها تُقطَع ، أطرافٌ تُبتَر ، وكرابيجُ ونيران
مكتوب في لوح الغيب : من يدنو من قبر الصبّاح
يَمسّه شرٌّ في يوم مُرّ ، يشرب كأسَ هوان
السّحرُ الأسودُ يرقدُ في قبري
والنّقمةُ والخنجرُ والشّيطانُ
يَسطون على ذهبي ومزاميري ، يُحرَق قبري بالنّيران
لكنّ الأبلقَ ينهض من تحت رُفاتي
ويُلاحقهم في كلّ مكان .

﴿حاشية﴾

حدّثنا مخلاف بن بازيار، وكان راويةً لأخبار الأوّلين، بحرًا لا تُعرَف شُطآنه قال: أوّل مَن اتّخذ الخنجر ندًّا للسّيف في الحرب الأشترُ النّخعيّ يوم صفّين، فكان على مَيمنة جيش الإمام عليّ حتّى كشَف معسكر الشّاميّين، وكادت تسحقهم سنابكُ خيله لولا خدعة التّحكيم، فلمّا وضعَت الحربُ أوزارَها أخذ عليٌّ بيمينه يوشك أن يُقبّلها وهو يبكي بعد أن خذله المُحكِّمون، وقال له: «بورك في سلاحكَ يا مالكُ وغُفر ليمينك»، فحلّت بركة الإمام عَلِيّ في الخنجر، وتوارثه أَبناء الأَشتَر وأحفاده، فكان لا ينهزم حامله في حرب ولا يَبرأ جريحُه من ضرّ. فلمّا فتح الله على السيّد الأَساس قلعةَ عشّ النّسر المسمّاة ألمُوت، كان غُنمُه خنجَر مالك بن الحارث من حاكمها خيرًا له من القلعة وما فيها، وعلم أنّ الله هاديه سُبُلَه فناصِرُه على عدوّه.

قلنا لمخلاف بن بازيار: «ما حدّثتَنا عن قلعة ألْمُوت إلّا أجملتَ وما فصّلتَ، وجعلتَ العجَلة محلّ التُّؤدة، فاذكرْ لنا من حديثها ما نُحدّث به أبناءنا»، فزمّ شفتيه وأطرق طويلاً، وكان قد اتّكأ على مرفقه الأيمن عند تُربة نديّة، فأخذ عودًا فرسَم مثلّثًا وجعل عند قمّته مربّعًا وقال: كانت القلعة عاليةً حصينةً، في قمّة جبل صخريّ منيع، عسيرِ المَرقى. ولقد عاين السيّد الأساسُ القلعة فأعجِب بها أيّما إعجاب، وعلم أنّه لو اجتمعت جيوش الأرض لأخذها من حاميتها عنوةً ما استطاعت، فخطّط لأخذها بالحيلة والذّكاء، وجعْلها قاعدةً للدّعوة الإسماعيليّة الجديدة.

راح السيّد يجول بين القرى الواقعة أسفل القلعة وفي أنحاء رودبار. يُعلّم الصّبيانَ، فيما يُظهر، القراءةَ والكتابة، ويَنشر سرًّا بين أهلها الدّعوة الإسماعيليّة المَهديّة، فاستجاب له كثيرون، بعضُهم يعمل في القلعة، وأبلغوا حاكمها عن زهده وتقواه حتّى صار يطلب بركته ويتقرّب منه ويدعوه لزيارته في قصر القلعة. كان السيّد حسنُ قد عُرف باسم «ديه خودا» الذي اتّخذه منذ ظهوره في أنحاء رودبار، إذ كان السّلاجقة يطلبونه في كلّ مكان فلا يجدون له أثرًا، حتّى إنّ واليهم على الريّ رصد جائزةً سنيّةً لَمن يأتيه برأسه... فلمّا كان يومُ الفتح المبين المقَدَّر في الغيب، دخل السيّدُ القلعة بعد عاميْن من الدّعوة حولها ليلَ نهار، وقد صار جنودُها وعُمّالُها من أتباعه المخلصين، فقال لحاكمها: «أيّها الحاكمُ الهُمام، قد آن لك أن تعرف أمرًا جهِلتَه طويلًا، وينبغي لك ألّا تجهله بعد هذه السّاعة: إنّني أنا حسن الصبّاح الذي تطلبون دمه!». أجفل الرّجلُ وصاح بالجنود والحرّاس آمِرًا بالقبض عليه فما تحرّك منهم أحدٌ. قال له السيّد: «لا طاعة لك على أحدٍ منهم، فقد صاروا مَهديّين وصاروا جنود الله وجنودي. ما بقي على الضّلالة في هذه القلعة غيرُك، فاخرجْ منها إنّك رجيم!»، أمّا خنجرُ النّصر الأبلقُ المبارك فكان في صندوقٍ مُذهّبٍ غنِمَه السيّدُ بِغير قتالٍ.

وحدّثنا مخلاف بن بازيار عن حوادث آخر الزّمان فقال: «يوصي السيّدُ قبل موته بدفْن جثمانه الشّريف في أرض بعيدة عند مَغارب الأرض، ويُسوّى قبرُه بالتّراب، وتركض فوقه الجيادُ، فلا يُعلَم بعد ذلك أثرُه، ويُدفن معه خنجرُه لأمر أخبَرنا به في المزامير، وتُدفن معه المزامير المصدوقةُ مكتوبةً على رقائق من الجلد، وتُرفعُ

الأقلامُ وتجفّ الصّحُف، فإنّ النُّسَخ الأخرى تَتلفُ كلّها وتأتي عليها الفتنُ والحروب، فلا تَبقى من المزامير عند آخر الزّمان غير النّسخة المدفونة بين رُفات السيّد الأساس. فإذا مرّ من الزّمان ألفٌ إلّا خمسين عامًا حَقَّ الوعيدُ والعذاب، إذ يَنبش قبرَه نابِشون، وتأخذهم العزّة بالإثم، فيقوم الخنجر الأبلق ليُقارعَهم ويكون سلاحَهم الذي به يَقتَتلون، فذلك قولُ السيّد في التّرنيمة الثّالثة من مزمور الوعيد: يوقظونك من سُباتك كي تُمزّقَهم بأيديهم ألا شُلّت سواعدُ الغدر!...، وقد أخبرنا السيّد أنّ خنجره مسيح صادق يقوم آخرَ الزّمان على نهج الحقّ والهداية، وتهُبُّ آنئذ فرقُ الباطنيّة من فارس والعراق والشّام والمغرب تُرهِبُ المُخالفين وتذبحهم كما ينبغي لهم في المساجد والشوارع وكلّ مكانٍ، حتّى تحتلّ ببلائها وصبرها مُدنًا تتحصّن فيها وتُقاتل، وحدّثنا ثقاة من شيوخنا أنّ مُخالِفينا في آخر الزّمان يكونون من المخنّثة ذات التّكسّر والتّثنّي، يقولون مِن جُبْنهم: نترك الخناجرَ والسّيوف ونتقارع بالألسنة والعقول، ونترك الغلبَة على الحكم ونختار حكّامنا بالشّورى...، ومِن عجَب أنّ ذلك يكون، وما أعجب منه إلّا قوْلُ حبيب بن أوس: «الحبّ يَهزم الحربَ، والخنجر لا يخرق القلب، والتّسامُح خير من الثّأر».

وقلتُ لأمّ هريرة القاجاريّة: «يا أمة الله والمَعصومين، أفتيني بعلمك في نَسل مريم المكتومة، أيرثُ أبناؤها علومَ السيّد الأساس ويكون أحدُهم حجّةَ الإمام المستور، أم يُحرمون الميراث بِعُقوق أمّهم وضلال أبيهم؟» قالت: «لا يكون لها عقِبٌ ولا ينبغي أن يكون! كأنّك ما قرأتَ مزمورَ الوعيد: مكتبة سُر مَن قرأ

«قلتُ لأمّ موت: فلْتهُبّي مِن خُراسان إلى القيروان، ونِعْم ما سعيْتِ،

فاسحقي بيضةَ الثّعبان لا تَدعيها تفقس في ماجلي أو جَرّة زيتي!

قلتُ: قرأنا وما فهمنا، ورأت مِن سطوره أبصارُنا ما لم تُدرك تأويلَه بصائرُنا. قالت: دعاني يوما سيّدي وسيّدك فقال لي: انتخبي لي امرأةً من نساء دعوتنا شُجاعةً حكيمةً صبورًا، تحتمل الغربة والمكاره، فإنّ لي تدبيرًا لا تنهض به إلّا ذات همّة وعزم وإيمان. قلتُ: والله ما أرى لك امرأةً غيري، فإنّي لا أبالي بشيءٍ في سبيل نُصرة دعوتنا، وسيّان عندي الحياة والموت ما دمتُ في طاعتك... قلتُ ذلك وسجدتُ بين يديه فأقامني وهو يقول: بوركتِ يا أمّ موت، فإنّي لأعلم ذلك منك، لكنّك تعلمين أنّه لا غنًى لي عنك. قلتُ: أنهض بما تأمرني به وأعود إليكَ أكثر شغفًا. قال: «فإنّي مُرسلُك لتقتلي أو تموتي، فاجْعلي لنفسك السّلامةَ ولِعدوّك ذاتَ الشّوكة. وإنّ من السّيوف والخناجر جنودًا لدعوتنا، ومِن الحشائش المسمومة أيضًا»! قلتُ: القوْلُ قولُكَ سيّدي. قال: «إنّ ابنتي مريم المكتومة قد عَقّت وأبقت، وتوشك أن تُنجب ولدًا للضّالّين الأباعد فيُنسَب إليّ، حتّى إذا اشتدّ عودُه زعم ولاية عهدي وقال: أنا حفيدُ الصبّاح وحاملُ دمه. فتخيّري من الحشائش ما يُفسدُ منقوعُها الحملَ، واسعَيْ إليها حثيثًا عند الغرب القصيّ، في دار رجلٍ من أهل القيروان يُقال له أوس بن ضبارة، فإنّها لا تعرفكِ وما أكرمَني الله بك إلّا بعد هروبها، فاحتالي للأمر حتّى تمنعي بيضة الثّعبان أن تفقس في ماجلي وتُلوّث مَشرَبي»، فخفضتُ رأسَ الطّاعة وقلتُ: «أفعلُ سيّدي ما أمرتَ به أو أُقتلُ دونه»، ثمّ إنّه أعطاني مالًا فاشتريتُ رواحلَ وعبيدًا، وتجهّزتُ بما يَلزم للرّحلة البعيدة، فلمّا هممتُ بالخروج جئتُه أوثّق البيعةَ وقلتُ له: «يا سيّدي ومولاي، إنّي كاسرةٌ بيضة الثّعبان قبل أن تفقس لا محالة، لكنّه

يعود إلى العشّ فيُلقي بيضة أخرى، فالرّأيُ أن أُقيمَ هناك بقيّة عمري مرصادًا لهما حتّى أموت أو يَموتا.». قال: بوركت أمّ موت، وبورِكَ إيمانك، لو أدركتِ مريم ببيتي لمنَعتِ الكلبَ أن يَلِغَ في طستي ولكن قدّر اللّه وفعل، فامْنعيها الخلَف ولكِ المَرضاةُ والجنّة.

ومِمّا أُحدّث به عن نفسي، أنا كاتب حاشية المزامير المُقدَّسة، أنّه نمى إلى السيّد العارف بِكُلّ نفَس في القلعة، عِلمي بالسّحر وبالطّرق المجرَّبة لاستحضار الجنّ السّفليّ ومَردة الشياطين، فدعاني بين يديه ثمّ داوم مجالستي شهرًا أو نحوَه حتّى أخذ عنّي كلّ ما تعلّمتُه عن يهود بالأهواز في سنيّ شبابي الأوّل، فوجدتُه عالمًا بشؤون السّحر والفلك والتّنجيم، حتّى إنّي أخذتُ منه أكثر ممّا أخذ عنّي، وقلتُ له: «يا سيّدي، ما بقي لي شيءٌ تنتفع به». قال: «فإنّي أريدُ رجُلًا أكثر منك علمًا بالسّحر، وقدرةً على استحضار الجنّ وتطويعهم فإنّ لي بذلك تدبيرًا، ولقد سمعتُ عن يهوديٍّ بالأهواز طبقت شهرتُه الآفاق لعلّك عرفتَه أو تعلّمتَ منه، يُقال له شالوم»، قلتُ: «لعلّكَ سيّدي تقصد شالومَ بن عاموس الفرّيسيّ؟» فهتف بِحماس: «إيّاه أعني، فلا ضللتَ مقصدًا ولا طريقًا»، فأتيتُ الأهواز وأنا من نعمة السيّد بأبهى حُلّة وأحسن حال، وقصدتُ بيت شالوم، فسلّمتُ وتلطّفتُ وقلتُ له: «هل لك بِصاحب علم تأتيه فيُجلّ علمك ويَرفع قدرك ويُغدق عليك؟»، قال: «إنّ النّاس ليَركبون إليّ من أبعد أركان الأرض فيُقْعُون على بابي شهرًا وربّما عادوا إلى ديارهم من دون أن ألتقيهم، فكيف تطلب منّي، إذ تكرّمتُ بلقائك، أن أركب نحو أحد مهما علا شأنُه؟ ومَن صاحبُك هذا الذي تَذكر؟». قلتَ: «هو حسنُ الصبّاح صاحب الـمُوت». فلَسعه الاسمُ وانتفض واقفًا قد أشرق وجهُه وقال: «وربّ يعقوب وإسحاق ما شاقني لقاءُ رجلٍ على

ظهر الأرض كلقاء صاحب ألموت، فإنّي لأسمع عنه عجبًا، وليس مَن سمِع كَمَن رأى، فعُدْ إليّ بعد شهر ريثما يؤوب صبيّي من خُراسان، فنصحبك إلى قلعة الصبّاح». قلتُ: «بل تفعل السّاعة. فإنّك لا تدري أيّ خير يضيع من بين يديك إن لم تبتدرْ فتفعل». قال: «إنّ الحُكّامَ يُكلّفونني بأعمال جسيمة لا قدرة لي عليها إلّا باستحضار جنّ كافرين عُتاة، وربّما صَرعني أحدُهم فسقطتُ مَغشيًّا عليّ، فإن لم يكن صبيّي بجانبي فيَستكمل الطّقوسَ ويُنقذني فإنّي هالكٌ لا محالة». قلتُ: «تعْلم يا سيّد الفرّيسيّين أنّ لي في السّحر باعًا، وقد تعلّمتُ عنك وعن غيرك، وفي طريقنا الطّويل إلى ألموت ما يَسَعُك لتعليمي ما قد يَخفاني، فأكون مُساعدك مثل صبيّك، وتَجدُني ذكيًّا فطِنًا حاضرَ البديهة». قال: «إن كنتَ ترى ذلك من نفسك فجهِّز لسفرنا». فركبنا عند الميعاد سبلًا وعرة واستقبلنا أيّامًا كَدِرة، ولم نَزل بين رهَق وإنهاك، وجَهد وشقاء، وضنك وعناء، وكبَد وعَياء... حتّى قدمنا على السيّد الأساس، ففرح بمَقدمنا، وأكرم وِفادتَنا، واستضافنا في «المهمان دار» أعِزّة مُبجَّلين، ومازال يُجالسنا فيأخذ عن شالوم أسرار السّحر، حتّى قرّر أن يُفضيَ إليه بما استقدمه من أجله فقال له: «يا ابن عاموس، يسألك النّاس عمّا يكون من أمرهم عند مَحياهم، أمّا أنا فأسألك عمّا يكون من أمري بعد موتي». قال شالوم: «لا غرابة في ذلك عندي. فلن تكون حسنًا الصبّاح إن سألتَني عمّا يسألُني عنه سائرُ النّاس». فأردف السيّد: «عرِّفْني إذن بما يكون عليه أمري بعد موتي، وما تؤول إليه طائفتي من بعدي، في قلعتي وفي أنحاء دولتي، وفي وجوه الأرض كلّها، فإنّي لأرجو أن يملك أتباعي من بعدي مَشارق الأرض ومَغاربَها. ثمّ اجعلْ يا ابن عاموس على قبري سترًا مستورًا، وعلى عيون أعدائي غشاوةً، فلا يُدركونه

ولا يَنبشون جثّتي، فلعلّك يا كبيرَ الحكماء قادرٌ على تغيير ما علمتُ من مَقادير».

قطع عليه شالوم كلامه قائلًا: «بل لا بدّ من نبش يا صبّاح. إن كنتَ قد علمتَ المقاديرَ فلِمَ تُعاند؟ فوَحقّ موسى وطورِ سيناء كأنّي أرى قبرَك يُنبَش فيُنهب، ورقاعَ مزاميرك تُحرَق، ورُفاتك يُنجّس!» قال السيّد: «فإن كان لا بدّ فاجعلْ في قبري لعنةً أبديّةً، فلا يقترب منّي نابِشٌ إلّا كان في ذلك مَهلكُه بأبشع صورة ...»، فتبسّم شالومُ راضيًا وضرب بيده على فخذ السيّد وقال: أمّا هذه فأُعطيكَها يا حسنُ فلا تبتئسْ، لكنّ الأمرَ يحتاج قتيلًا فهل لك في ذلك؟ قال: إن كان لا بدّ فاجعل بدل الواحد عشرة، فإنّ لي فدائيّين يتنافسون على الموت بين يديّ.

أنا كاتبُ حاشية المزامير المُقدَّسة، أروي لكم ما رأيتُ وسمعتُ وفعلتُ، فقد دخلتُ والسّاحِرَ اليهوديّ وشيخَ الجبل غُرفة تغسيل الأموات بمقبرة القلعة وقد طُليت حديثًا بدُهن أسود قاتم، وذلك مِن مُقتضيات طقوس إنزال اللّعنة، ودخل علينا حُرّاسٌ بِقصعة كبيرةٍ فيها جثّة قتيل من فدائيّي السيّد نحَر نفسَه فورا حين أمرَه، وكان الدّمُ ما يزال ينزّ منها فتَغرق فيه. وضعوها في رُكن من الغرفة لاستدعاء الجنّ وانصرفوا، وقال لي السّاحرُ:«سأحضر الجنّيّين وأُجبرهما على الرّضوخ والطّاعة، فإذا أطاعاني وتلبّساني وكلّمك هاروت بلساني فاسْألْه عن كلّ الأمور التي يودّ السيّدُ معرفتها، فإنّه يُجيبُك فيَصدُقك، ثمّ استنزلْ لعناتهما على نابشي قبر السيّد، واعلمْ أنّ هاروت وماروت سيتمرّدان عليك، ويَرفُضان مغادرةَ جسدي، فازجُرْهما كما علّمتُكَ بالاسم الأعظم والأسماء السّبعة، واضربْهُما في جسدي ضربًا مُبرّحًا حتّى تحملهما على مُغادرتي».

سكت شالوم بن عاموس وساد الصّمتُ وأطبق الخوفُ والانتظار. ثمّ ما لبث أن بدأ طقوسَه: «أقسمْتُ عليكما يا هاروت وماروت، يا ابْنَيْ ميمون أبانوخ باسم الحيّ القادر ربّ جبرائيل وميكائيل، إهْيَه أشَر إهيه، أدُوناي أصباؤوت آل شداي...»!

ظلّ يَصرخ عاليًا ويَستصرخ، ويُعيدُ القسم ويستعيد، يَضرب بقبضته الحيطانَ ويغضبُ ويَعتبُ ويستقوي ويشتدّ: «أقسمْتُ عليكما باسمه الأعظم يا ابنَيْ ميمون أبانوخ، إن حضرتُما فخُذا مكانَكما بِكفّي الأيسر وأعْلِماني بالتّمْيل. إهْيهْ أشرْ إهيه، بِرْهَتيةٍ بِرهَتية...!

أحسستُ بِحضورهما من غير تنميل. شعُرتُ بأنّ أفرادًا ذوي أجساد فارِعة وحُضور طاغ وثِقل يكادُ يَكتُم النّفَس قد دخلوا الغرفة لِتوّهم، ثمّ سمِعتُ وقْعَ خطواتٍ ورَجْعَ لُهاث قريب منّي يكادُ يَحرقني فالتفتُّ فما وجدتُ أحدًا. التبس كلّ شيء في ذهني وأمام عينيّ، فصارت أذرُع الشّمعدان قاماتٍ واقفةً ذواتِ وُجوه تبتسم أو تُكشّر، تُقطّب أو تبكي: «أدفعُ لكما الدّماءَ يا ابنَي ميمون، دماءً لا تزال حارّة قد انسكبت لتوّها. الْعقا منها، الْعقاها كلَّها، وادخلا الآن جسدي...، كَفاني تنميلًا فقد علِمتُ. حُلّا بجسدي حُلّا. أقسمتُ عليكما باسم الحيّ القادر... سُبّوحٌ قُدّوسٌ، سُبّوحٌ قُدّوسٌ، طَوْرانُ، طورانُ...

وقع شالومُ أرضًا وهو يَضطرب اضطرابًا عنيفًا ويصرخ. خرجت رغوةٌ من شِدقيه وبدا أنّه قد صُرِع، فلم يهدأ إلّا بعد لأيٍ. ظلّ مُمدَّدًا مُغمَضَ العينين لا أثر للحياة على وجهه المتقع وجَسده السّاكن اليابس، حتّى نطق بِصوت بدا مُختلفًا من دون أن يَفتح عينيه: «قد خضعتُ لِمشيئتكم وصِرتُ بِخدمتكم فمُرُوني...». علِمتُ آنئذٍ أنّ شالوم قد صار قميصًا للجنّ، وأنه تلبّسه فصار

يتكلّم بِلسانه، وأنّ الصّوت الذي أسمعُه صوتُ هاروت بن ميمون. قلتُ له وقد انتهى طَور مراضاة الجنّ وبدأ طورُ القسوة عليهم: «أيّها العبدُ الوضيعُ الخادمُ الذّليل إيّاكَ أن تكذب»! رفعتُ السّوط فضربتُ جسد شالوم، حتّى صرخ الجنّيّ ألمًا، وهتفتُ به: «احذر أن تكذب عليّ فإنّي أركسك في العذاب الأليم، وأجِبْني: أين يُدفَن الرّجُلُ الممدَّد على طاولة التّغسيل، الحسنُ بن عليّ بن محمّد الصبّاح الحميريّ؟». أقَام الجنُّ جسد شالوم بن عاموس فمشى مُترنّحًا حتّى بلغ السيّدَ حَسنًا، فراح يدور من حوله، يتفرّسه، يتعرّفه، ويشمّه ويلحسه، ثمّ قال: إنّ الجِيادَ السّريعة لَتَحمله بين ركض وخَبَب عشرة أيّام بلياليها وجسدُه مطمورٌ في الملح حتّى يبلُغَ مَدفنَه! سوف يُدفَن في الغرب البعيد ذات ليلةٍ بِلا قمرٍ بين الزّيتون والبرتقال، ويكون تحت قبره دهليز الجوزاء».

نهرتُ هاروت وعُدتُ إلى ضربه وشتمه وقلتُ: «أيّها العبدُ الحقير، أطَأُ رقبتكَ بِرجلي إن كذبتَ عليّ، فهل يُعرَف قبرُ الرّجُل بعد أن يُسوّى بالأرض؟». قال بِصوت مُرتعش وهو لا يكفّ عن تشمّم السيّد ولَحْس وجهه ورقبته: «يُكتَم قبره فلا يُعرَف زمنًا طويلًا يكاد يكون عمرَ النّبيّ نوح، ثمّ يَعثر عليه نابِشٌ ملعونٌ صاحِبُ صُدفة، فيأخذ منه الحديدَ وجِلدَ الماعز، فما يَلبث أن يأتيه من بعده الطّامعون فيأخذون الذّهبَ، وآخرون يخرَؤون ويَحرقون». قلتُ له بِغضبٍ وما كان ذلك ممّا خطّطتُ لقوله: «لعن الربُّ الأعلى أصلك وفصلك يا هاروت الكَلب! أيُفعلُ كلّ ذلك بجُثمان سيّدنا حُجّة عَصره وأنتَ وأخوك ورهطُكما تنظرون؟ قُبِّحْتم مِن جُندِ خذلان لا صاحِبَ لكم».

عُدتُ إلى ضربه من دون هوادةٍ، فأخذ يتلوّى بين يديّ في

جسد شالوم ويصرخ طالبًا الرّحمة، فأزداد قسوةً عليه ورغبةً في إخضاعه. قال لي مُحمحمًا: «أفعل ما تأمرني به سيّدي، أفعل، أفعل»، فقلتُ له: «آمُرُك وأخاك يا سافلَيْن أن تلعنا مَن ينبش قبرَ السيّد أو يأتيه بسوء، وأن تُحلّا عليه البَوارَ والدّمارَ والخُسران!»، فهتف هاروت: «أجل. لتحُلّ اللّعنة الأبديّة بمَن يمسّ من قبره حبّةَ تُراب، لتُمزّقْ أمعاءَهم الخناجر، وتُقطّعْ قلوبَهم وشَرايينهم، ولْيَبوؤوا بالخسار والموت الزّؤام أينما ثُقِفوا..!».

تنفّستُ الصّعداءَ إذ بلغتُ ذلك المَبلغ فقد سألتُ هاروت وماروت عمّا أردنا أن نسأل، وأنزلنا اللّعنة بنابِشي قبر السيّد آخر الزّمان، وما بقي لي غير صَرْف الجنّيّين من دون مَضرّة. مضيتُ إلى جسد شالوم المسكون فضربتُه بالسّوط وقلت: «بسم القيّوم ربّ جبرائيل وميكائيل آمُرُكما يا هاروت ويا ماروت أن تُغادرا البيتَ الذي اسمُه شالوم بن عاموس فما عاد جسدُه بيتكما...»، فصرخ بي هاروت: «أيّها البشرُ المُخادعون لن نسمع كلامكم، فهذا بيتُنا». صرختُ به ورحتُ أضرب جسد شالوم ضربًا مبرّحًا حتّى سقط بين يديّ وأنا لا أكفّ عن جَلده ورفْسه مُردِّدا: «باسم كلمات الربّ، والأسماء السّبعة التي لا تُردّ: بَرْهتيةَ برْهتيةَ، كَرير كَرير، تَشْليه تَشْليه، طُوران طُوران، إهْيِهْ إهْيِهْ، مَزْجَل مَزْجَل، تَرْقَب تَرْقَب...، آمُركما بالخروج وإلّا غضب منكما الرّبّ الأكبرُ وقيّدَكما همروش في الدّرك الأسفل من الجحيم...».

بدأ جسدُ شالوم يهدأ ويتراخى، كفَفتُ عن الضّرب وشرعتُ أفكّ العُقدَ عن رأسِه وقلبه، وأستعيذ وأتفل، وهو يزدادُ تراخيًا، وظللتُ أردّد: «إهْيِهْ أشرْ إهْيِهْ، أدوناي أصباؤوت، آل شدايْ، آل شدايْ، آل شدايْ...».

قام السيّدُ شيخُ الجبل مُتهالِكًا تَعِبًا، وحاول شالوم القيامَ بعد أن استعاد جسدَه، فكان يقع كلّ مرّة ولم يقوَ على النّهوض. نادى السيّدُ حُرّاسَه فدخلوا بِقِصاع فيها ماءٌ وصابونٌ، وقال السيّد: «الآن عرفتُ مصيري بعد موتي ومَدفني وتلَفي، وضمنتُ اللّعنةَ الأبديّة على نابشي قبري حارِقي عظامي ناهبي مزاميري»!

٧*مولاي علي مدد*٧

مكتبة
t.me/soramnqraa

(3)

كانت ليلة رُعبٍ لا أعادها الله، هرسَت قلبي وروحي في مطحنةٍ ساحقة. حمدتُ اللهَ على طلوع الشّمس وبين جنبيّ نفَسٌ يتردّد، وفي جُمجمتي بعد أن شارفتُ على الجنون مُخَيْخٌ يَعقل. بِتُّ أقرأ مزمورَ الوعيد الأسود وبات حسن الصبّاح آخِذًا بِخناقي، يُسربلُني باللّعنات، يتوعّدني، رافِعًا خنجره المسموم في وجهي، عاضّا شفته السُّفلى، يَهُمّ أن يهوي على رقبتي، أو يُمزّق أمعائي...، كانت ليلة رُعبٍ لا أعادها الله.

حاولتُ وَقفَ القراءة، والنّجاةَ بِعقلي من حافّة الجنون، أردتُ رميَ الرّقائق المُخيفة في نارٍ لا تَذَر حتّى لا أعود إلى قراءة حرفٍ منها، لكنّي كنتُ مشدودًا إليها شدًّا غريبًا لا أستطيع منه فِكاكا، ولا أجِدُ له تفسيرًا، وكلّما ازددتُ شعورًا بالرّعب ونزّ ماءٌ مالحٌ من جبهتي ومِن بين فخِذيّ عُدتُ أقرأ مزمورَ الوعيد الأسود، وأُعيدُ قراءتَه كَمَن يستمتع بِتمزيق جِلده ولَعْقِ دمه النّازف مِن عُروقه. خرج عليّ حسن الصّبّاح من مزموره المُخيف كَمارِدٍ من قمقُم بكلّ بشاعته وطاقاته الإجراميّة، فأخذ بِخناقي وقد فاضت مِن شِدقيه رغوة الأحقاد القديمة الدّفينة! لم يعد الصبّاحُ اسمًا في كتابٍ، أو

خَيالًا من الزّمن الغابر البعيد أقرأ عنه، بل صار غولًا حاضِرًا، ماثِلًا بين يديّ، واقِفًا على رأسي بِهيئة قُرصانٍ لا يَرحم أو مُجرِمِ حربٍ. باتَ يُهدّدني باللّعنة التي في قبره النّجس، ويُقسم أنّه سينتقم منّي ويُمزّقني بِخنجره الذي احتفظ به منذ مئات السّنين لهذه الغاية السّوداء.

«تتقاتل عند خواتيم الزّمن على قبر الحسن ضِباعٌ وخنازير وغربانٌ...»! تُرى في أيّ صنفٍ من تلك الكائنات الكريهة صنَّفني؟، لقد جعلني عدُوًّا له وخصيمًا مِن حيث لم أحسَب، واتّهمني بنبش قبره وما كنتُ إلّا أحفر دعامةً لبيتي، ورَماني بالسّطو على خنجره وذَهَبه، وأنا ما رأيتُ بقبره -يشهد الله- مقدارَ قيراطٍ من الذّهب الذي ادّعى، وما طلبتُ ذلك ولا طمِعتُ فيه، ويشهدُ الله يا صبّاح وأبطل كيدَك، أنّي ما أخذتُ من قبرك غير رِقاعٍ أُخلّد بها ذِكرك، وأُصحّحُ شيئًا من تاريخك المُظلم...، أمّا الحَرْقُ فما فعلتُه، ورُفاتُك ما أهنتُه ولا دُستُ عليه. نزلتُ قبرك طاهِرًا مُتوضِّئًا وقلتُ وأنا أنزل فيه وما كنتُ أعرفك: «السّلام عليكم أهلَ الدّيار من المؤمنين»! كانت لك عداواتٌ كثيرةٌ يا صبّاح، وكان يكرهك بشرٌ كُثْرٌ في كلّ أنحاء الأرض، وملائكةٌ في السّماء، وجِنٌّ وعفاريت في العالم السّفليّ...، فابحثْ بينهم عمّن أحرق قبرك، واتركْ خِناقي رحِمك الله إنّي بريءٌ من عظمك ورُفاتك. كُفّ عن تهديدي واتّهامي ولا تقُلْ بعدُ إنّي سرقتُ ذهبك، فعَن أيّ ذهب تتكلّم يا حشّاش؟ أنا أوّل مَن دخل عليك بيتَ الظّلمة، ورأيتُ كلّ شيءٍ كما تركه أعضادُك الذين دفنوك، فما كان هناك مِن ذهبٍ ولا فضّةٍ ولا حتّى

درهم سلجوقيّ، فَلِماذا تأخذ بِخناقي، وتصبّ عليّ لعناتك، وترفع خنجركَ المُرعب يلتمع بين صدري وأحشائي؟

لم أذق في ليلتي المشؤومة طعم الكرى. ارتعبتُ وتطيّرتُ وعلمتُ أنّي سقطتُ في جُبٍّ سحيقٍ. إنّ سحرًا أسود قد أُودِع القبر فلا يدخله أحدٌ أو يَمَسّ منه شيئًا إلّا أصابته اللّعنةُ، ولا شكّ في أنّها تلبّسَتْني كجِلْدي. وعلِمْتُ، يا هوْلَ ما علِمتُ، أنّ الصبّاحَ المخيف قد جعل خنجرَه وليّ دمه والآخذ بِثأره، فحرّضه على صبّ نِقمته عليّ... يا إلهي، لوْ أدنيْتُ الخنجر من سمعي لَسمِعتُ له حمحمةً كفرس الوغى أو عُواءً كذئب اللّيل. ظلّت المَخاوفُ تهُزني هزًّا جَوفيًّا، يُدمّر الأعماق قبل أن يُرى على السّطح، حتّى تذكّرتُ أنّ الحقيبة التي تحوي خنجرَ الثّأر مدسوسة تحت سريري! فقفزتُ كالملسوع وجريْتُ خارِجًا من الغرفة. حانت منّي التفاتةٌ وأنا أتعثّر هاربًا فرأيتُ الخنجرَ الشّائهَ يُمزّق الحقيبة ويندفع نحوي وهو يَقطر دَمًا! ظللتُ أجري على غير هدًى والخنجر يُلاحقني، يقطر دماءً وسُمّا، تحمله كفُّ اللّعنة وتهوي به على ظهري فانغرز بِضربةٍ واحِدةٍ حتّى بلغ قلبي! رغوتُ وشخرتُ كبعير يُنحَر وارتميتُ على مقعد الحديقة لكنّي أخطأتُه وسقطتُ على الأرض المُبَلّلة وتمرّغتُ كالخنزير في الوحل!

بعد ساعةٍ من الرّكض بين زوايا الحديقة باحِثًا عن مهربٍ، أمكنني تمييز الحقيقة من الخيال وبدأ لهاثي في التّباطُؤ ووجيف قلبي في الخُفوت. رُحتُ أفكّر في طريقةٍ للخلاص من الخنجر

المشؤوم. لقد هدّدني صاحِبُه تهديدًا صريحًا، حتّى كاد يُسمّيني ويذكر كُنيتي ولقَبي ورقمَ بطاقة هويّتي، فكيف أترك سلاحه في بيتي فأسهّل له جريمته؟ وما أدراني أنّ شبَحه لا يتسلّل إلى بيتي كلّ ليلةٍ ينتظر نُهزةً فلا يُعوزه الحِقدُ ولا ينقصه السّلاح؟ ذاك الذي كنتُ أعتبرُه كنزا أثريّا عظيما، ذاك الخنجرُ الذي ناهز عمرُه ألف عام صار عدوّي وخصيمي، وصار منتهى أملي أن أخلص منه. فكّرتُ في أخذه مع نُفايات منزلي ورَمْيه في حاوية القُمامة، ولكن هيهات لي الشّجاعة حتّى أقتربَ من عرين الخنجر وأُدخل يديّ المرتعِشتين في الحقيبة كما يُدخل طِفلٌ مُرتعِب يدَه الصّغيرة في جُحر أفعى مُجلجِلة؟ لقد همّ الباطِنيُّ الأقرع عبدُ الأعلى بِأخذ الخنجر، ولا شكّ أنّه كان ينوي تحطيمه لولا أنّي طلبتُ منه بِنفسي أن يتركه لي. لعن الله تدبيري. فكّرتُ في تأجير شخصٍ، عامل بناءٍ مثلًا أو جنائنيٍّ أو عامل نظافةٍ، فأعطيه مالًا وأطلب منه الدّخولَ إلى غرفة نومي واستخراج الحقيبة من تحت السّرير، ثمّ مُباغتة الخنجر العَقور بِهجوم سريع لاستخراجه مِن مَكمَنه والتّخلُّص منه في أنابيب المجاري. لكنّ ذلك يُثير مِن حولي شُبهةً، فيَحسب الأجير أنّ الخنجرَ أداة جريمةٍ ارتكبتُها وأنّي أُريد طمْس مَعالمها، وربّما جعل مِن ذلك سببًا لابتزازي مدى حياته وحياتي، أو أَخبَر الشّرطة فافتضح الأمرُ كلُّه. رحتُ أجول في الحديقة تتقاذفني الأفكار والوساوس، وتتلبّسني مخاوف عميقةٌ. ألقيتُ ببصري نحو حظيرة منزلي الجديد فتذكّرتُ احتراق القبر، تلك الواقعة الغريبة الملغِزة. اتّهمني بها حطّاب ورفيقُه وظلّا يصرخان في وجهي، وكلّمني عنها

حسن الصبّاح في كابوس البارِحة وهو يرفع خنجره ويُهدّد بالانتقام من فاعلها. هممتُ بالتّقدّم نحو الحظيرة فتيبّست ساقاي ودقّ قلبي بعنفٍ. في ذلك المكان تحوم اللّعنة ويستوطن الشّرّ والنّحْسُ، لعنة هاروت وماروت ابنيْ ميمون أبانوخ: «لِتحلّ اللّعنة الأبديّة بِمَن يمسّ مِن قبره حفنةَ ترابٍ... أدوناي أصباؤوت آل شداي...».

البارحة وأنا خائفٌ مُسهَّدٌ، سمعتُ أصواتًا غريبةً تتناهى إليّ من ناحية الحظيرة، أصوات همهماتٍ ونحنحاتٍ، وسمِعتُ أيضًا ما يشبه ضربَ المعاول وجرَّ المَجارف، وعند الفجر سمِعتُ صياحًا غاضِبًا ثمّ صُراخًا مكتومًا ثمّ رجْعَ خطواتٍ تبتعد مُسرعة...، خُيّل إليّ آنئذٍ وأنا أتكوّم على الحشيّة وأتدثّر بثلاثة أغطيةٍ ثقيلةٍ أنّ هاروت وماروت وشالوم وحسن الصبّاح قد خرجوا من الجحيم السّفليّ وجاؤوا لِتفقُّد القبر، وأنّهم في تلك اللّحظة يرتعدون غضبًا عليّ ويهمّون بِتقطيعي إربًا إربًا. صار المكان مسكونًا بأرواحٍ غريبةٍ، وصار الاقتراب منه خطرًا ماحقًا.

تناهى إليّ، وأنا في حديقة منزلي أقلّب الأمرَ، صوتٌ من طرف الشّارع ما فتئ يقترب فيتوضّح. كان تاجر الأشياء القديمة بِهدير محرّك درّاجته النّاريّة الذي لا يَخفى، وطرطقات عربته المجرورة المُتراقصة مِن خلفه. خطر لي خاطِرٌ سريعٌ، وبدا لي أنّه يمكن لتاجر الخردوات تخليصي من الخنجر، ويمكنني اجتناب شكوكه إن أعطيتُه الحقيبةَ كلّها بِما فيها من ملابس، والخنجر مَدسوس تحتها كشيءٍ مُهمَلٍ أو مَنسيٍّ. واتتني شجاعة غريبة وجُرأةٌ على الاقتراب

من جحر الأفعى وأنا أرى شُعاعًا للخلاص، فجريتُ نحو غرفة النّوم. مددتُ يدي تحت السّرير. جذبتُ الحقيبة بقوّةٍ. أي والله حصل ذلك، وجريتُ بها نحو الشّارع. صادفتُ البائع لحظة وصوله أمام باب منزلي فقلتُ له:

- هذه الحقيبة تحوي ملابس قديمةً. حسنًا، إنّها ليست قديمةً، لكن لِنقُلْ إنّها قديمةٌ. حتّى إن كانت قديمةً فهي في حالٍ حسنةٍ ولا يمكن اعتبارُها قديمةً..!

تابعَني مُستغرِبًا، وكان ارتباكي واضحًا رغم ما بذلتُ من الجهد لإخفائه. فهِم أنّها مساومةٌ حمقاء مِن رجُلٍ مُتحذلِق يُحاول استدراجَه ليدفع له ثمنَ ملابس جديدةٍ من أجل ملابس قديمةٍ. قال لي مُتوجّسًا:

- لا أريدُ إطالة الكلام يا أستاذ. كلّمني من فضلك عن الأمر المُهمّ: كم تريدُ ثمنًا؟

سألني وهو يهُمّ بفتح الحقيبة لتقدير ثمن محتواها، فأبعدتُها عنه وبادرتُ بِوضعها في عربته المجرورة قائلا:

- لا أريد ثمنًا يا صاحبي. لم تعُد بي حاجةٌ إليها فرأيتُ أنّك أولى بها.

أخذها شاكرًا وهو لا يكفّ عنّي نظرتَه المُرتابة، فدخلتُ عجِلًا وأغلقتُ الباب من خلفي. تنفّستُ الصّعداء وحمِدتُ الله على نهاية الكابوس. ها هو منزلي بِنَفَسه الطيّب وريحه الزكيّة، قد خلا من الخنجر المشؤوم ولعنته السّوداء. لم أكد أصدّق خلاصي حتّى دقّ عليّ الرّجل الباب عجِلًا، وقال لي وهو يرفع المصيبة أمام عينيّ:

- نسيتَ في الحقيبة هذا الخنجر الرّائع. ما أدقّ تصميمه وأبدع رسومه. لستُ محتالًا أو جاحِدًا فأستغلّ سهوك للسّطو عليه!

لم أمُدّ يدي ولم أتكلّم. تلقّيتُ الصّفعةَ صامِتًا، وودتُ لو كان الرّجل محتالًا وجاحِدًا، لكنّه وضع الخنجر على الأرضيّة الرّخاميّة بِلُطفٍ ودفعه نحوي واستدار خارِجًا، فانزلق الأفعوان نحو قدميّ، وكاد ينهشني لولا أن قفزتُ مبتعِدًا عنه، حتّى جعلتُ بيني وبينه مسافة أمانٍ ووقفتُ أرقبُه بِحذرٍ. لو أمهلني بائعُ الخردوات اللّعين، لو وقف قليلًا لِيسمعني لقلت له: «لم أترك الخنجر في الحقيبة سهوًا، فقد قصدتُ منحكَ إيّاه. والله قصدتُ ذلك وأضمرتُه واعتقدتُه وفعلتُه... بل ما أعطيتُك الملابس والحقيبة إلّا لجعل الخنجر بينها، عُدْ يا رجل عُدْ وخُذْه غير مَلوم ولا مذموم...»!، لكنّه كان قد ركب درّاجته ومضى، وترك أمامي أفعى سامّةً بِكلّ نَواياها الإجراميّة.

ابتعدتُ عنه وظللتُ أنظر إليه شزرًا. شعرتُ بالغيظ والقهر وقد ضحك عليّ الوسِخُ التّافه ومضى. أخذ ملابسي الجديدة، بل خيرَ ما أملك من ملابس انتقيتُها لألبسها أثناء سفري. أخذها في حقيبتي الجلديّة الغالية، ورمى إليّ الخنجر الكريه الحقودَ المُتربِّص، وقد فعلتُ ما فعلتُ ليأخذه عنّي. كان على الأقلّ مُخبَّأً تحت السّرير بعيدًا عن نظري فطرحَه أمامي بكلّ بشاعته. وصار عليّ أن أفعل شيئًا قبل أن تقتلني نظرةُ الوعيد التي يقذفني بها. بدا لي أنّه يتأهّب للوثوب عليّ. رأيتُه كتلةً من الشرّ والعضلات المُستنفَرة. سمِعتُه

ينبح، رأيتُه يُكشّر، يتحرّك، يتوثّب، وتأهّب كي ينغرز بصدري في أيّ لحظةٍ. صار صبري عليه مَهلكةً، فاندفعتُ نحو الاشتباكِ المُميت بكلّ ما فيّ من رغبةٍ في الحياة. أخذتُه بِيديّ هاتين فضربتُه أرضًا ثمّ ضربته ثانيةً وثالثةً بأسنانٍ مُنطبِقةٍ وعينين مُغمضتين! كنتُ أضربُه أرضًا فَيَنطُّ كالثعبان ويزداد شراسةً، وأنهيتُ المعركة بِقذْفه بعيدًا بِكلّ ما تسمح به عضلاتي الموتورة. لا أدري في أيّ اتّجاهٍ قذفتُه، لكنّي قدّرتُ أنّه صار بعيدًا. ليس في منزلي بِكلّ الأحوال، فقد رسخَت في ذهني لمحةٌ خاطِفةٌ وهو يمُرّ فوق السّور العالي، وبدا لي من فوق السّور يتوعّدني بالعودة والانتقام! جلستُ لاهِثًا على كرسيّ الحديقة، وأحسستُ أخيرًا بِنصرٍ غامِرٍ. «إلى الجحيم يا حسن الصبّاح بِكلّ لعناتك وأحقادك»! لم أكد أُغمض عينيّ لأستمرئ المتعة حتّى سمِعتُ دَقًّا قويًّا على الباب فتوجّستُ واستعذتُ، ثمّ نهضتُ وفتحت، وإذا جاري يقف قبالتي غاضِبًا مُزمجِرًا، رافِعًا بِوجهي الأفعوانَ الرّهيب:

- ما هذا الذي رميتموه في منزلي يا جيران السّوء؟ لو صادف رقبتي لذبحني. لا تُنكر، فقد رأيتُه يأتيني من وراء سور مَنزلك!

- عذرا يا جاري العزيز، ربّما كان...

رغم وقع المفاجأة والخنجرُ الكريهُ يَهجم عليّ مرّةً أخرى في عُقر داري، كان يُمكنني أن أدبّجَ عذرًا مقبولًا، كأن أقولَ إنّ الأطفال ربّما رموه بِطيشٍ غافِلين عن خطره، لكنّ جاري لم ينتظر.

رمى غريمي اللّدود على الأرضيّة الرّخاميّة بين ساقيّ وصفق الباب خلفه ومضى. مضى وتركني مع الحشّاش لاعق الدّم. قفزتُ مُبتعِدًا عنه، ونظرتُ إليه شزرًا، فبادلني نظرة وعيدٍ وحقدٍ. سمعتُه يقول: «والله لن أتركك حتّى أمزّق أمعاءك»! ورأيتُ شالوم ينفث في العُقد ويملأ الخنجر باللّعنة، وحسنًا الصبّاحَ يغرسُه في بطن الشّابّ الفدائيّ فتندلق أمعاؤه ويهرب وهو يجرّها خلفه. صعدتُ السّلالمَ نحو السّطح. أردتُ الجلوسَ بعيدًا لأفكّر بهدوءٍ لعلّ الله يُلهمني طريقةً للخلاص.

«ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتُها...». كنتُ أبحث بين خبايا ذاكرتي عن أيّ تعزيةٍ أو سلوانٍ، فلا أجد بين السُّبل الموصدة أمامي مِصداقًا لِما حفِظتُ من الحِكَم والآيات والأشعار، حتّى سمِعتُ صوتَه من بعيدٍ فأوقد في قلبي جذوة الأمل التي أوشكت على الانطفاء. إنّه صوت الجنائنيّ يتناهى من النّهج المُجاور، مُعلِنًا قدومَ الرّجل الذي يزورنا غِبًّا فيملأ الحيّ كلّه بصوته الجهوريّ إذ يدعو أصحابَ الحدائق لِمساعدتهم في العناية بها، والقيام بأعمال التّشذيب والتّقليم وسائر ما لا يُتقنون من أعمال البستنة، وكان قد عمل في حديقتي منذ شهرٍ، فأنفق نصفَ نهارٍ يجول بين أشجارها حاملًا منشارًا وسكّينًا ومقصًّا. سألتُه عن أدواته فقال:

- هذه أمور لا تعرفونها معشر المتعلّمين. توجد أغصانٌ ثخينةٌ يلزمها منشارٌ، وأخرى ليّنةٌ يلزمها مِقصٌّ، أمّا التّطعيم فلا يكون إلّا بالسكّين. البستنة أعمالٌ كثيرةٌ، ولكلّ عمل أدواتُه، لذلك أمتلك منها ما يملأ صندوقًا كبيرًا.

خطر لي، وأنا أراه من فوق السّطح العالي يخرج من النّهج المجاور ثمّ ينعطف إلى نهج ابن شرف حيث يوجد منزلي، أنّ هناك من الأعمال ما يحتاج خنجرًا، وأنّه سيكون مسرورًا إن عرضتُ عليه أخذ خنجرٍ حادٍّ صقيلٍ جميلٍ من دون ثمنٍ. وسرعان ما نزلتُ السّلالم وناديتُه بحماسٍ، فعاد إليّ مُستبشِرًا ممنّيًا نفسه بعملٍ وأجرةٍ. سلّم بحرارةٍ وبادرني بِجُملة الكلمات التي يقولها للجميع:

- حديقتك رائعةٌ وأنا معجبٌ بذوقك الرّاقي في العناية بها. لقد منحتَها لمسة الفنّان فدعني أمنحها لمسة المُحترف...

قلتُ له وكنت عارِفًا أنّي أخيّب انتظارَه:

- إنّها في أحسن حالٍ وما بها الآن حاجةٌ إلى شيءٍ. اُدخل من فضلك ادخل.

تردّد في الدّخول. فقد كنتُ أنفي لِتوّي الحاجة التي يدخل من أجلها جنائنيٌّ منزلًا. بدت دعوتي مَضيَعةً لِوقته بِلا سببٍ، أو مُجاملةً عابِرة يجب على الفطِن اللّبيب الاعتذار عن قبولها، لكنّي أعدتُ الدّعوة بإلحاحٍ، ودخلتُ أمامه موسِعًا الممرّ فتبِعني. كنتُ أجرّه لأرمي عليه لعنةً، وأجعل له سُمًّا في دَسم. أعرف أنّه رجلٌ طيّبٌ خدومٌ لا يستأهل ذلك منّي، وما كنتُ فيما مضى من حياتي قد غششتُ أحدًا أو تآمرتُ على أحدٍ، لكنّي كنتُ مدفوعًا دفعًا لا قِبَل لي به، فحين يَرفع الصبّاحُ خنجره أمام بطنك، وتُواتيك في اللّحظة الأخيرة فُرصةٌ لِدفْعه ورَميه بعيدًا، لايهُمّك في أيّ مكانٍ سوف يقع، حتّى إن وقع على بطن جنائنيٍّ طيّبٍ، فلا شكّ في أنّه يؤمن

بالقضاء والقدر! قلتُ له وأنا أشير إلى الجثّة المطروحة على الأرضيّة الرّخاميّة:

- انظُرْ هذا الخنجر. خُذْه، خُذْه وقلّبه بِفطنتك وفراستك.

أبدى إعجابه بِتصاميمه الدّقيقة وزخرفته، وعجِب من اصفرار حَدّه وشِدّة مَضائه. فقلتُ له:

- إنّه يَصلح جدًّا لِعملك، ولذلك أردتُ إهداءك إيّاه. خذه فقد صار لك. أوه، لا تشكرني فلسنا غرباء!

لكنّه لم يشكرني وربّما لم يُفكّر في ذلك. رفع نحوي عينين تنضحان ريبة واتّهاما، وراح يُقلّبهما بين الخنجر وبيني. لم يستطع تحديد اتّهامٍ جازمٍ يَقذفني به، لكنّه ما كان يشكّ في وجود أمرٍ مدبّرٍ يستتر وراء الكرم الذي لا مُبرّر له. قال لي:

- هذا كرمٌ منك، لكنّ تحفةً نادرةً كهذه أغلى من أن تُهدى إلى فقيرٍ مثلي، وأرفع من أن تُستعمل في قصّ الأغصان، لذلك فلن أحرمك من خنجرك. لستُ أنانيًّا إلى هذا الحدّ يا رجل.

حاولْتُ إقناعَه بكلّ السّبل فازداد نُكوصًا وعنادًا. ربّما أوحى إليه خبثُه أنّ هذه الهديّة رشوةٌ ذات هدفٍ معلوم، وأنّي سوف أدعوه بعد أسبوعٍ أو شهرٍ ليُشذّب حديقتي مجّانًا. حاولتُ إقناعَه بأنّه إن ظنّني أرشوه لِسبب مّا فهو مُخطئ، فأوحى إليه خبثه أنّي إذ انكشفت نيّتي أردتُ مداراتها. أخيرًا علّقه مِن سلسلته الرّفيعة في شجرة البرتقال وقال وهو يستديرُ مُنصرِفًا:

- لا تتركه هنا. قد يناله الصّدأُ إن بلّلته الأمطارُ.

عزّيتُ نفسي بأنّ دخولَه منزلي لم يكن بلا فائدة، فقد كان الخنجر مطروحًا في الممرّ قُبالة باب السّور، بعد أن رماه جاري وهو يسبّ جيرتي ويلعن، وكنتُ مُجبَرًا على أخذه من هناك وأنا لا أستطيع الاقتراب منه، فقيّض اللهُ لي جنائنيًّا لا علم له باللّعنة علّقه في الشّجرة، ويُمكنني تركُه هناك حتّى أتدبّر الخلاصَ منه.

انتهى ذلك اليوم الثقيل الذي لا يشبه الأيّام نهايةً غريبةً لا تشبه النّهايات. فقد تركتُ بعد العصر منزلي المسكون بروح الخنجر الملعون، وجلستُ في المقهى الواقع قُبالته، عند النّاصية الأخرى من الشّارع، أفكّر بِما عليّ فعلُه من أجل الخلاص. فإنّي لكذلك إذ رأيتُ عامل البناء حطّابًا مع صاحبه وبرفقتهما رجُلان آخران يمُرّون بجانب منزلي. كان حطّاب يعتمد على عُكّازين وساقُه لا تزال في الجبس، والآخرون يتمهّلون من حوله، فلمّا بلغوا بابَ منزلي وقفوا يُعاينونه ويتكلّمون، ثمّ رفعوا رؤوسهم ينظرون ويُعيدون، كأنّهما يقيسون ارتفاع السّور أو يبحثون فيه عن ثغرٍ أو فرجةٍ. كانوا يُضمرون أمرًا ولا شكّ، وما كان مرورهم عارِضًا أو من غير سببٍ. بيّتوا لي أمرًا فبيّتُّ لهم، وقمتُ أطلُبُهم. كانوا يَحذرون أن أخرجَ من منزلي فأراهم، فإذا بي أفاجئُهم من خلف.

ضحك حطّاب عاليًا متظاهِرًا بالسّرور لِمرآي، فبادلته الكذبة وتظاهرتُ بسرورٍ أشدّ، وسلّمتُ على كمال والرّجلين الغريبين، ثمّ خلوتُ بحطّاب فقلتُ له:

- ما أراكَ صدّقتَ قولي، وإنّك مازلتَ تتّهمني بالاستئثار بذهبٍ وألماسٍ ولآلئ، وها إنّكَ تجول حول منزلي مع شرذمةٍ من اللّصوص تُدبّرون شرًّا.

فوجئ بانكشاف تدبيره وهو في خطوته الأولى، فراح يُقسم كذبًا:

- أقسم بكلّ عزيزٍ عندي... أقسم بالله فلا أحد أعزّ منه أنّي ما نويتُ بك شرًّا ولا أنوي سرقة شيءٍ من منزلك. صحيحٌ أنّي لم أصدّقك، لكنّي لستُ سارقًا ولا قاطِع طريقٍ.

- قد أقسمتَ وربّكَ أعلم بِسريرتك فصدّقتُك يا حطّاب، وسأقسم لك صِدقًا فلا تُكذّبني بعدها: إن كنتَ تزعم أنّي غنمتُ ذهبًا أو مالًا فلا والله وإن دِرهمًا أو قيراطًا، لكنّي أصارحكَ لا خوفًا منك ولا طمعًا فيك، أنّي وجدتُ في ذلك القبر خنجرًا قديمًا حسن التّصميم والزّخارف، علّقتُه في غصن شجرةٍ بحديقة منزلي وأحسبُه لا يزال هناك، فإن كانت بك حاجةٌ إليه فتعال معي لأخذه!

لمعت عيناه وأشرق وجهه. فوجئ بكلامي حتّى جفّ ريقُه، فرأيتُه يَهُمّ بالكلام فتخونه حنجرته الجافّة، ويزدرد لُعابه ويمُدّ رقبتَه:

- وجدتَ خنجرًا في القبر؟ وتركتَه من غير اهتمامٍ في غصن شجرة؟ أودّ أن أصدّقك. هل تظنّ أنّه قديمٌ وقد دُفِن مع الجثّة في ذلك الزّمن السّحيق؟

- طبعًا إنّه أثريٌّ قديمٌ. لو نُبش القبرُ في زمنٍ من الأزمان لأخذه النّابشون.

- هذا يعني أنّه ذو قيمةٍ باهظةٍ حتّى لو كان مصنوعًا من أبخس المعادن. أعطني إيّاه مِن فضلك، لقد منّ الله عليك من فضله أمّا أنا فعائلٌ وفقيرٌ.

كنتُ على وشك الخلاص من اللّعنة والفخّ يكاد ينطبق على رقبة الطّماع.

لِحكمةٍ بالغةٍ رفض بائعُ الخردوات والجنائنيُّ أخذ الخنجر، فقد ادّخرَته الأقدار للسيّء الذي يستحقّ السّوء.

- أجل يا حطّابُ أجل. اُدْخُل معي إلى المنزل وخُذه من الشجرة بِنفسك.

نِمتُ في تلك اللّيلة ملء جفنيّ، فقد تخلّصتُ من الخنجر اللّعين ومِن مكر حطّاب بِرَميةٍ واحدةٍ، وعُدتُ إلى غرفة نومي كما يعود مُهجَّرٌ إلى وطنه، حتّى إنّي ما أفقتُ من نومي في اليوم التالي إلّا بعد شروق الشّمس، ثمّ مرّت على ذلك المنوال ليلةٌ أخرى وكان صباحٌ آخرُ، فخرجتُ إلى الحديقة لِممارسة تماريني الرّياضيّة التي قرّرتُ العودةَ إليها بعد انقطاعٍ، وظللتُ هناك حتّى بلغ النّهارُ الضّحى فانتبهتُ إلى جوعي، وهممتُ بالدّخول إلى المنزل، لكنّي سمعتُ نُباح الكلب من جانب الحظيرة. لم يكن نُباحًا. كان طلبَ نجدةٍ واستعطافا للتّدخّل والمؤازرة! الكلب لم يأكل منذ الصّباح أيضًا، ومِن الغريب أنّه ما أتاني ولا تبِعني ولا تمسّح بِساقيّ طالبًا

وجبة طعامه. لا شكّ في أنّ أمرًا مّا قد شغله عن بطنه وعنّي. رحتُ أقترب من الحظيرة حذِرًا وأناديه فلم يحضر. ازداد عواؤه إذ علم قُربي منه ورأيتُه يدور حول شيءٍ أزرق مستطيلٍ، يخمش بِساقيه ويعوي. ظللتُ أقترب بخطواتٍ محسوبةٍ وأتلفّت عن يمينٍ وشِمالٍ ومِن فوقي ومِن خلفي، والكلبُ يعوي ويَخمش بِساقيه ويدور حول المستطيل الأزرق. لم أزل أقترب بأنصاف خطواتٍ ثمّ بأرباعٍ فأعشارٍ حتّى استبنتُ أمام الكلب ما يشبه الجثّة! لا، إنّها ليست بِجثّةٍ، بل تُشبه الجثّة، لكن أرجو ألّا تكون جثّةً! اللّهمّ اجعلها أيَّ مُصيبةٍ إلّا أن تكون جثّة. نعم، ها هي تتوضّح، نعم، يا ربّ الجحيم والدّم، إنّها جثّةٌ آدميّةٌ مطروحةٌ في العراء يُغطّيها الذّبابُ الأزرق بِجانب القبر المفتوح! ما إن تبيّنتُ حتّى استدرتُ وجريت. رميتُ بِساقيّ رميًا طائشًا فاتّجهتا بِمصادفاتٍ غريبةٍ نحو المنزل حتّى دخلتُه، وصفقتُ البابَ ورائي ووقعت لاهثًا. خطر لي أنّ البابَ لم ينغلق، فقمتُ لِتفقّده وصدري لا يكفّ عن الصّعود والهبوط، ورجّجتُه رجًّا عنيفًا حتّى تأكّد لي أنّه مُغلقٌ بإحكامٍ. هل يمكن لحسن الصبّاح أن ينفذ من الشّقوق؟ هل يتسرّب إلى خياشيمي مثل الجرثوم مع الهواء الذي أتنفّسه؟ أو يمرّ إليّ كثُعبان الماء في شبكة الصّرف الصحّيّ؟ هاتفتُ الشرطة فورًا فرفضوا سماع كلمةٍ ممّا أقول حتّى أعرّف بنفسي. لم ينطبق لديهم اسمي على أيّ مُسمًّى، فظلّوا يستوضحون حتّى قلتُ لهم: «أنا طريد الفرقة الباطنيّة، العائد من الحطيب اليمنيّة»، وأخبرتُهم خبر الجثّة والكلب، وخوفي

أن تتسرّب إليّ الباطنيّة من بين شقوق الحيطان أو في مياه المجاري، وطلبتُ حضورهم فورًا لِنجدتي، فسألني المتكلِّمُ:

- أعطني مزيدًا من المعلومات عن الجثّة: هل هي جديدةٌ أم مُتفسِّخةٌ؟ لِذكرٍ أم لأنثى؟ لِصغيرٍ أم لكبيرٍ؟

- يحوم حولها الذُّباب الأزرق الكبير. أؤكّد لك ذلك. لكن مَن يمكنه تمييز الذّباب بين ذكور وإناث؟

زعق بي وتهدّدني حتّى سمعتُ صرير أسنانه، وخفتُ أن يخرج هو أيضًا من الهاتف كباطنيٍّ من شقّ جدارٍ:

- ركِّزْ معي يا كلب! والله لو كنتَ أمامي لحطّمتُ وجهك. سألتُك أن تَصِف لي الجثّة وليس الذّباب؟

- ركّز معي يا سيّد. كيف أصف لك الجثّة وأنا لا أراها والبابُ مُغلقٌ عليّ بإحكامٍ؟ لكنّ المُصيبة أنّ في الأبواب شقوقًا وتحت الأرضيّة شبكَةَ صرفٍ صحّيٍّ.

ازداد الشّرطيّ جنونًا، وأحسستُ نُثارَ لُعابه في أذني، رغم أنّي ما كذبتُ عليه بكلمةٍ واحدةٍ:

- كيف تُخبر عن جثّةٍ بِحظيرتك، ثمّ تزعم أنّك لم ترها؟ هل القتيل رجلٌ أم امرأةٌ؟

- أَترُك هذا لِنباهتكم. تعالوا بسرعةٍ وانزعوا سرواله. سوف يُجيبكم بنفسه.

- حسنًا حسنًا، اتْرك كلّ شيءٍ على حاله. نحن قادمون فورًا.

استغرق «الفَوْرُ» ساعتين كاملتين، لكنّهم قدِموا أخيرًا وأدركوني حيًّا! علِمتُ بعد ذلك أنّهم استرابوا بِكمينٍ إرهابيٍّ فأمرهم رؤساؤهم بالامتناع عن التّوجّه إلى المكان حتّى تلتحق بهم عناصر عالية التّدريب من الفرقة المختصّة في مقاومة الإرهاب، ووعدوهم بأنّهم آتون إليهم فورًا. وعلمتُ بعد ذلك أنّ رجال الفرقة المدجَّجين حتّى هاماتهم قد طوّقوا منزلي وهرب النّاسُ مرتعبين، لكنّي ما علمتُ حضورهم إلّا حين بدؤوا بِخبط باب السّور خبطًا عنيفًا وإطلاق التّحذيرات من مكبّر الصّوت المشروخ. لم ينتظروا خروجي لفتح الباب الحديديّ الكبير، فقد خلعوه بعنفٍ لا يُضاهى، وارتفعت قرقعتُه وصريره إلى عنان السّماء، واندفعوا في الحديقة كماء فيضانٍ بُعيْد تحطيم السّدّ الحاجز. قذفوا جُثثَهم خلف جذوع الأشجار أو انبطحوا خلف الأصص الكبيرة والكراسي الرّخاميّة. اعترضتُهم خارِجًا وكنتُ أظنّ لِغفلتي أنّهم سيظلّون أمام باب السّور ينتظرون أن أفتح لهم، فصرخ فيّ أحدُهم: «انبطحْ على بطنك، على بطنك»، قلت: «أنا الذي أبلغتُكم عن...»، عاجلني بركلةٍ على بطني ووجّه سلاحه إلى رأسي: «انبطحْ فورًا». فتّشني بِعجرفةٍ وأمرني ألّا أتحرّك من مكاني.

مرّ على ذلك زمنٌ غير قابلٍ للحساب، لا يمكن نعْتُه بالطّول ولا بالقِصَر، وظللتُ متيبِّسًا هناك حتّى أتمّوا تفتيش أركان الحديقة وتأمينها وتفتيش غُرف منزلي وعَدّ قِطع الآجُرّ في حظيرتي، فلمّا أيقنوا عدمَ وجود كمينٍ إرهابيٍّ دعوني للنّهوض وساقوني نحو مسرح الجريمة.

عرفتُ القتيلَ منذ الوهلة الأولى. وكيف لا أعرفُه وقد اتّهمني بالسّرقة وهدّدني بالانتقام، ثمّ تمسّح بِساقيّ منذ يومين وأنا أعطيه خنجرًا كان يظنّ أنّه سينقله إلى مَصافّ الأثرياء؟ كانت ساقُه اليمنى لا تزال في الجبس، وعُكّازاه مَرمِيّيْن عن يمينٍ وشِمالٍ. قلتُ لهم:

إنّه حطّاب، عامل البناء الذي كان يشتغل هنا، بمنزلي الجديد.

نظرتُ إلى قبر الصبّاح فما وجدتُ منه غير حفرةٍ سوداء عليها آثار حرقٍ شنيعٍ. كان حطّاب منتفخ الجثّة لكنّي عرفتُه. كسوتُه الزّرقاء التي يرتديها عند القرّ والحرّ، شعرُه المُلبّد دومًا، الجبسُ والعُكّازان، والوشم الظّاهر على يده اليمنى...، جُلتُ بِنظري في مسرح الرّعب حتّى استقرّت عيناي على يدٍ مبتورةٍ مرميّةٍ لا تزال تلبس كُمّ قميص! عُدتُ بِنظري إلى جثّة حطّاب فلم تكن مبتورةً، وكان قد أقعى بجانبها ضابِطٌ يُفتّش جيوب الجمّازة الزّرقاء. أخرج قطعًا دائريّة صفراء، وقال: «عنده نقودٌ ذهبيّةٌ أثريّةٌ، تعالوا وانظروا».

تحلّق حول الضّابط مرؤوسوه وراحوا يُقلّبون غنيمته المنحوسة. وغير بعيدٍ عن القبر، على مسافة تَبلغ سبعةَ أمتارٍ فيما قدّرتُ، رأيتُ حُفرةً عميقةً لم أرها من قبلُ وبجانبها فأسان ورفش وبقايا جَرّةٍ خزفيّةٍ مُهشَّمةٍ. حضر وكيلُ النّيابة ومُعاونوه، وأفرادٌ من الطّبّ الشّرعيّ وسيّارةُ إسعافٍ. وضعوا على القتيل مُلاءةً ليستروا بشاعة القتل، وراحوا يَقيسون من حوله أبعادًا، ويجمعون عيّناتٍ وبقايا. جاءني شرطيٌّ بجمّازة فاستبقتُه بالجواب قبل أن يسألني:

- هذه جُمّازة الرّوج، عامل البناء، صديق حطّاب الذي اشتغل معه في حظيرتي.

- لا تُبادر بِجوابٍ من غير تثبّت. انظر ملِيًّا وأجب على مهلٍ. أواثِقٌ أنت ممّا قلتَ؟

- ما في الأمر ذرّةُ شكٍّ سيّدي الضّابط. وفردةُ الحذاء المَرميّة هناك أيضًا له. أنا أعطيتُه هذا الحذاءَ من أحذيتي القديمة.

سُرّ الضّابط لفيض المعلومات التي تأتيه، ولِما رأى من شدّة وثوقي، فسألني عن اسمه الحقيقي الكامل، كأنّما يضعني أمام الاختبار الأخير ليثق بعد ذلك بأقوالي:

- اسمُه كمال، ويُكنّونه الرّوج لاحمرار وجهه، هذا كلّ ما أعرفه، لكنّ مسكنه غير بعيدٍ عن منزلي. يأتي للعمل راكِبًا درّاجةً هوائيّة، وأذكر أنّه أخبرني ذات يومٍ أنّ وصولَه يستغرق ربع ساعةٍ.

أخذوا الجثّة إلى سيّارة الإسعاف، وأخذوا معها اليد المبتورة التي لا يُعرَف صاحِبُها، وكانوا يَفتكّونها من الذّباب افتكاكًا، إذ صارت شديدة التّعفّن. أخذوا ما جمعوا من أدلّة الجريمة وأدواتها من غير أن يحصلوا على الأداة الأهمّ: السكّين القاطعة أو الخنجر الذي مزّق بطن حطّاب، وبتر ساعد خصمه، إذ لم تعثر عليه الشرطة في مسرح الجريمة. رأيتُهم يَضعون في السيّارة كثيرًا ممّا طالته أيديهم، ومِنه حجرٌ مربّع الشّكل، نِصفُه محترقٌ وعليه كتابةٌ غامِضةٌ. بقي في مكان الجريمة شرطيّان مسلّحان لِحراسته فطلبا منّي أن أجيئهما

بِطعامٍ وشايٍ وسجائر، وألّا أفتح الباب الخارجيّ لِأحدٍ أو أغادر المنزلَ أو أكلّم أحدًا بالهاتف حتّى إن كانت أمّي.

مساء ذلك اليوم قدِمت إلى منزلي سيّارة شرطةٍ، وأمرني المسلّحان الرّابِضان على صدري بفتح الباب، فما إن فعلتُ حتّى اندفع الغُزاة نحوي كالقدر المحتوم، فَشلّوا حركتي ووضعوا القيودَ في يديّ ورموني في المقاعد الخلفيّة من سيّارتهم وانطلقوا بي مُسرعين. قلتُ لهم:

- لماذا تقبضون عليّ؟ أيَّ جرمٍ أتيتُ؟

لم يُجبني أحدٌ منهم، وظلّ القلق يَهرس قلبي، فَلم أزل أكرّر السّؤال وأقلّب بصري بين قَفاواتهم فما التفت إليّ أحدٌ. تحرّكتُ من مكاني. دفعتُ بِعجُزي وكتِفيّ حتّى اقتربتُ منهم، وصار لساني أقرب إلى آذانهم الصمّاء. لكزتُ ظهرَ أحدهم بِيَدي المكتوفة وقلت:

- أجبني يا عبد الله، فقد سألتُكم ألف مرّةٍ. لماذا قبضتُم عليّ؟

استدار نحوي مُكشِّرًا ودَفعني حانِقًا:

- أغلقْ فمَك يا مجرم. الصّعاليك الذين استأجَرتَهم لِقتْل الضحيّة مَوقوفون عندنا، وقد اعترفوا عليك! اخرسْ إذَن.

صبّ على رأسي المحموم سطلَ ماءٍ باردٍ، واستدار أمامه فعاد إلى الغناء على أنغام الرّاديو. اقتربتُ منه أكثر ولكزتُه مرّةً أخرى:

- ماذا قلتَ يا صاحبي؟ طوال حياتي ما قتلتُ خنفساء، فَمِن أين لك أن تعتبرني مُجرِمًا؟ أتعرفُ مَن أكون؟

استدار نحوي وقد عقد قبضَتَه اليمنى وعضّ شفتَه وصرخ حانِقًا:

- اخرسْ وإلّا حطّمتُ وجهك.

في غرفة التّحقيق نزعوا الأصفاد من يديّ. وجدتُ الرّوج واقِفًا وقفةً ذليلةً، لكنّ قطع غياره كانت كاملةً، فلم تكن يدُه مبتورةً، رغم وجود ضمّادةٍ كبيرةٍ تُغطّي خدّه الأيسر. بدا وجهُه شاحِبًا ممتقِعًا وتغيّرت ملامحه بِسُرعةٍ حتّى كدتُ لا أعرفه، وبِجانبه رجُلان في مثل سنّه تقريبًا، ما إن رأيتُهُما حتّى عرفتُهما فورًا، فقد التقَيتُهما منذ يوميْن صحَبة حطّاب وكمال يَحومون حول منزلي كاللّصوص. كان أحدُهما على كرسيّ متحرّك ويده اليمنى مبتورة! قال لي المحقّق:

- أنت أستاذٌ محترمٌ، ونحنُ لا نُريد الحطَّ من قدرك. أنصحكَ بِقوْل الحقيقة فلا تضطرّنا إلى ضربكَ وإهانتك!

كانت مقدّمةً تنضح بكلامٍ مهينٍ يرتدي ثوبَ اللّطف والنّصيحة، فحاولتُ الظّهورَ بِمظهر المتماسك رغم وقْع الكارِثة:

- هذا مُؤكّد. وعليكَ أن تعلمَ أنّي ما فعلتُ في حياتي شيئًا يجعلُني أخجل أو أخاف أو أكذب.

قلتُ ذلك بِوثوقٍ ورصانةٍ ورباطة جأشٍ، جعلَتْهم يخفتون صوتًا ويَخفِضون جَناحًا:

- أمّا كلامُكَ فحسَنٌ، ونرجو أن يُطابق فعلُك قولَك. يقول

كمال إنّك نهبتَ القبر واستوليتَ منه على ذهبٍ ونفائس كثيرةٍ...

- يقول كمال إنّك أطردتَه مع القتيل من العمل عندك إذ طلبا نصيبًا من الكنز، وبعد ذلك أحرقتَ القبر وحتّى عظامَ الميت لإخفاء آثار النّهب...
- ويقول كمال إنّك وعدتَه بنصيبٍ من الكنز إن استدرج المدعُوّ حطّابًا إلى منزلك ليلًا لِتقتله، وإنّك أعددتَ لتنفيذ جريمتك خنجرًا قاطِعًا وجدتَه في القبر مع الكنز الدّفين...
- يقول كمال، ويشهدُ رفيقاه، إنّك قتلْتَ المغدورَ وبترتَ ساعد صاحبه، وإنّك أخفيتَ الخنجرَ القاطع أداةَ الجريمة...

تتالت الأسئلةُ ومشيتُ بين الألغام بِبصرٍ وبصيرةٍ، فدحضتُ الافتراءات، وأخفيتُ سرّ الرّقاقات فلَم يعرفوا عنها خبرًا ولم يشكّوا بِوُجود شيءٍ مماثلٍ. بذلتُ جهدًا موفَّقًا في دحض التّهمة الشّنيعة التي رماني بها الرّوج، إذ زعم أنّي أصبتُ حطّابًا بالخنجر إصابةً قاتلةً بعد أن ساعدني هو في استدراجه، وأنّي خضتُ معركةً مع صاحِبيْه اللّذين سعيا إلى مناصرته فبترتُ يد أحدهما، وفرّ الآخر. رماني ثلاثتُهم بالتّهمة وتواطؤوا عليها وأقسموا جَهْد أيمانهم، لكنّ خبرة المحقّقين وقد مالوا إلى تصديقي قلبت الموازين عند الختام ففرّقوا بين المتَّهمين وأعادوا استنطاقهم، ووقفوا على تناقض أقوالهم حين أجاب كلٌّ منهم على انفرادٍ، واضطُرّ أحدُهم إذ انكشف كذبُه إلى التّراجع عن اتّهامي والإقرار أنّ خطّةَ رَمْي التّهمة عليّ كانت من

تدبير كمال، وأن لا علاقة لي بالجريمة. كنتُ ألتقطُ أسئلة المُحقِّقين وأجوبةَ المتَّهمين، وأُمحّص بسُرعةٍ وأقارن لأفهم ما جرى وأستطيع التّجاوبَ مع المُحقِّقين واتّقاء المَزالق. فهِمتُ أنّ الفقيدَ وصاحبه إذ اتّهماني بالاستيلاء على كنزٍ وأعوزهما دليلٌ لابتزازي أرادا البحث عمّا يُدينُني ويدفعني إلى الإقرار، فلعلّ قطعةً ذهبيّةً سقطت منّي بِجانب القبر أو داخله، أو كسرًا من جرّةٍ خزفيّةٍ بقي في المكان، فتسلّلا إلى القبر ذات ليلةٍ على غفلةٍ منّي وبحثا فيه، لكنّهما عوض أن يعثُرا على دليلٍ لابتزازي وجدا في جوف القبر حجرًا مُربَّعًا نُقِشت عليه رُموزٌ غريبةٌ، لم أكن قد انتبهتُ إليه، فأخَذاه إلى قارئ رموزٍ أثريّةٍ فسّر لهما أنّ كنزًا يوجَد بالمكان، وقد وضعه صاحِبُه على بعد سبعة أمتارٍ من المكان الذي وُجِد فيه الحجر في اتّجاهٍ أوسطَ بين الشمال والشّرق. كان عليهما العودة ذات ليلةٍ للحَفر عميقًا، وكان عليهما إتمامُ المهمّة في ليلةٍ واحدةٍ خشيةَ تفطُّني إليهما، فاتّفقا على جَلب رجُلين من أصحابهما يستعينان بهما، حتّى إذا بلغوا مُرادهم واستخرجوا الكنز أصرّ المُعينان على قسمته بالتّساوي بين أربَعَتهم، وأصرّ حطّاب وصاحِبُه على دفْع أجرتهما دون اعتبارهما شريكين. اشتبك حطّاب مع أحد الرّجُليْن رغم أنّ رِجْله كانت مكسورةً، إذ غرّه وجودُ خنجرٍ تحت حزامه، فأهوى به على غريمه وضربه ضربةً شديدةً قطعت ذِراعه اليسرى، فأسرع صديقه إلى مناصرته وقذف حطّابا بِآجُرّة على رأسه أسقطته أرضًا وبرك عليه فانتزع منه الخنجر وغرسه في صدره مرّتين. أمام المشهد المريع هرب الرّوج مع

القاتل بالكنز، وتركا صاحب اليد المبتورة لأنينه وأوجاعه وحطّابا المُسربَل بالدّماء لِمُنكرٍ ونكيرٍ. واستطاع المبتور بعد جهدٍ بلوغَ المستشفى، وأعلم الأطبّاءُ الشرطةَ الجنائيّة، لكنّ المغدور وهو من مدينةٍ أخرى، لم يستطع لسوء حظّه إرشادهم إلى المكان الذي بُترت فيه يده إذ كان من الممكن آنئذٍ زراعتُها من جديد، وتدخّل كمال بعد ذلك بما أصبح لديه من مالٍ لرشوة ممرّضٍ وتهريب صاحبه من المستشفى قبل خضوعه لأبحاث الشرطة، ووعَده بمنحه ثلث الكنز، حتّى فوجئوا بالقبض عليهم.

توضّحت لي سلسلة الأحداث وأنا أتابع بانتباهٍ كلّ ما يلفظ المحقّقون والمتّهمون من قول، توضّحت السّلسلة فجعلَتني أستيقن من أمرٍ وأتحيّر في آخر: فقد ظلّ كمال يُنكر حرق القبر ويرميه عليّ حتّى استيقنتُ أنّ البُهريّ عبد الأعلى وصاحبه الأفطس هما اللّذان أحرقا رفات الصبّاح، ثمّ إنّ المتّهمين أصرّوا على أنّ حطّابًا قُتل بخنجر كان قد جلبه معه، فعلمتُ أنّه خنجر الصبّاح ولا ريب، وتحيّرتُ في اختفائه من مسرح الجريمة وما اختفى من المكان شيءٌ آخر غيرُه.

خرج من مكتبٍ مُجاور ضابطٌ على كتفيه نياشين عالية، فلحق به أحدُ المحقّقين وسمعتُه يقول له:

- هل نعتقل الأستاذ أيضا؟

فردّ الضّابطُ:

- حسب ما يُسفر عنه التّفتيش. فإن وجدتُم دليلا أنّه نهب

شيئا من الآثار فاعتقلوه، وإلّا فلْيخضعْ للإقامة الجبريّة في منزله حتّى تنتهي التّحقيقات.

أسقط في يدي إذ علِمتُ بالتّفتيش، فإن أخضعوا منزلي لهذا الإجراء المُفاجئ فليس مستبعَدًا، رغم براعتي في الإخفاء، أن يعثروا على الرّقاع. سأموت كمدًا إن صادروها وساقوني إلى السّجن، ولكن لم يكن أمامي غير التّسليم بالقضاء ورجاء حُسْن المقادير. أعادوا الأصفادَ إلى مِعصميّ واقتادوني إلى السيّارة، فسألتُهم سؤالَ مَن لا يدري:

أين تأخذونني؟

قال أحدُهم وكان أكثرهم ارتيابا بِكلامي:

التفتيش سيُظهر كذبَك. ألا ترى ذلك؟ الويلُ لك يا نافشَ الرّيش إن كنتَ كاذبا.

بلغوا منزلي حانِقين موتورين، واندفعوا نحوه فخلعوا بابَه وأنا ألوّح لهم بالمفتاح، ودخلوه كما يدخل الغُزاة مدينة مستباحة. فتّشوا كلّ أركانه وزواياه، سلخوا الحشايا، بقروا الوسائد، أفرغوا الخزائن، ألقوا بالكتب والملابس في كلّ الأرجاء... لكنّهم لم يجِدوا شيئا ممّا يَبحثون عنه. لم يخطر ببال أحد منهم أنّ سرّي الدّفين لم يكن تحت سقف المنزل، فقد خبّأتُ الرّقاقات تحت الغلاف الجلديّ لِسقف السيّارة، إذ بدا لي بعد تمحيصٍ مخبأً آمِنًا، وكنتُ أجلِبُ منها بمِقدارٍ، وأُعيدُ منها إلى المخبإ في كلّ مرّة ما قرأتُ. لم يجدوا شيئا ممّا يبحثون عنه فتناظروا، تبادلوا مشاعر الخيبة، وخرجوا.

خرجتُ في إثرهم متظاهِرًا بتوديعهم، ساعيًا إلى كتمان فرحتي بالنّجاة من الجبّ المهلك وكبْت شماتتي بخيبتهم المرّة. أخذوا جواز سفري، وأنذروني من مغبّة مغادرة منزلي حتّى استكمال التّحقيقات، وغادر معهم الحارسان اللّذان أمضيا النّهار في حراسة مسرح الجريمة. أغلقتُ من ورائهم بابَ السّور الثّقيل، وشعرتُ أنّ منزلي قد صار أخيرًا ملكًا لي.

أغلقتُ باب السّور واستدرتُ عائدًا، فما إن مشيتُ بضع خطواتٍ حتّى رأيتُه تحت شجرة البرتقال! رأيته مُتّخِذًا أهبة القتال، يقذفني بِفحيحٍ ويكاد يقفز نحو حنجرتي! كانت قد تيبّست على نصله دماءٌ، وعلِق بالدّماء ترابٌ، وتجمّع عليه ذبابٌ حتّى ما عاد يظهر. لقد كمن في انتظار جريمةٍ أخرى بعد أن اشترك ككلبٍ عقور في المعركة السّابقة فبَقر بطنًا وبتر عضُدًا وانكفأ يتلمّظ الدّماء. لا شكّ في أنّ قاتل حطّاب في اللّيلة المشؤومة قد رماه هناك قبل خروجه من منزلي، ولقد اجتهد المحقّقون اليوم في البحث عنه فلم يجدوه. ابتعدتُ عنه وتهالكت على كرسيٍّ في الحديقة، وانطفأ حماسي لحريّتي ولِمنزلي اللّذين ظننتُ أنّي استعدتُهما. عدتُ إلى التّفكير في طريقةٍ للخلاص من الخنجر اللّعين بعدما ظننتُ منذ يومين أنّي تخلّصتُ منه إلى الأبد، فإذا به يبقر ويبتر ويعود إليّ أكثر تكالُبًا وإجرامًا! فكّرتُ في الاتّصال بالشرطة الذين بحثوا عنه من غير جدوى. أقول لهم: هاتوا السّلاسل والأكبال وهلمّوا، لقد وجدتُ المجرم مختبِئًا بين الخرائب ينتظر نهزةً جديدةً...، لكنّي

خفتُ اتّهامَهم إيّاي بأنّي كنتُ أخفيه، وأن يُعيدوني إلى التّحقيقات المُهينة، ولم يكن ممكنًا أن أستعين بِأحدٍ آخر ليخلّصني منه، فقد جرّبتُ الجنائنيّ من قبل وبائع الخردوات حتّى أعياني التّفكيرُ. قلتُ لنفسي: «مالَك يا رجل يكاد الخوف يُذهب بصيرتك؟ قد صار قلبك هباءً وآن لك أن تخجل من نفسك. إنّه مجرّد نصلٍ من حديدٍ لا يضرّ ولا ينفع...».

قمتُ فمشيتُ نحو الخنجر بضع خطواتٍ بشجاعةٍ لا تُضاهى! «تقدّمْ نحوه ولا تترك عورته مكشوفةً بباب منزلك. سوف يرتعب لِمرآه أبناؤك وتَفزع زوجتك، فكيف تتركه هناك بكلّ بشاعته مسربَلًا بدماء حطّاب وفُراثة بطنه؟»، ظللتُ أتقدّم نحوه... يتمطّط الزّمان، يتمدّد المكان. صار أبعد عنّي من بلاد الواق واق، وأنا أسعى إليه بِلا هوادةٍ! «ليس عليك أن ترميه في منزل من منازل الجيران، أو تحطّمه بين مطرقة وسندان. علِّقْه في جوف شجرة البرتقال مثلما كان حتّى لا يكون مرئيًّا للدّاخل والخارج ثمّ انصرِفْ راشِدًا». بِيديّ هاتين وإن مرتعِشتيْن، أخذتُ خنجرَ اللّعنة فوجدتُ له ملمسَ الأفعى وحرارة الكبريت. علّقتُه من سلسلته الرّفيعة داخل شجرة البرتقال واستدرتُ عائدًا إلى المنزل وقد سَرت في جسدي قشعريرة من هامة رأسي إلى أسفل قدميّ.

(4)

سرعان ما مرّت الأيّام الثّمانية بضجيجها العالي وطعمها المُرّ، وحان موعدُ تسليم الرّقاع للحقد والنّار. لا شكّ أنّ الأقرعَ عبدَ الأعلى وصاحبه الأفطس يَعُدّان السّاعات على أحرّ من الجمر. بِتّ مُسهَّدًا قلِقًا، وجال فكري في أنفاقٍ سوداء مُخيفةٍ، واستدعى خيالي كلَّ المَشاهد المُتوقَّعة مُحاوِلًا في كلّ مشهدٍ رسْمَ شمسٍ ساطِعةٍ واستبعادَ لطخة الحبر السّوداء. عليّ أن أنتظر مكالمةً هاتفيّةً من الأقرع الموتور وأن آخذ الرّقائق بِنفسي لأسلّمها إليه في المكان الذي يُحدّده أو أنتظره في المنزل حتّى يَعنّ له القدوم إليّ...، كلّ ذلك وأنا رهنُ الإقامة الجبريّة، خاضِعٌ لتحقيقٍ مستمرٍّ حول مَقتلِ حطّاب ونهْبِ القبر والكنز الذّهبيّ. وضِمن هذه الظّروف المُتداخِلة يجب ألّا تعرف الشّرطة شيئًا عن علاقتي بِجماعة الحطيب وإلّا اعتقلتني وصادرت منّي الرّقاع، ولا تعرف العصابة شهادتي أمام الشّرطة وإلّا قتلتني بتُهمة الاستقواء بالأمنيّين من أجل خيانة الاتّفاق!

وفي ذلك الخضمّ المتلاطم من المخاوف والمَحاذير انتابتني الخشيةُ من هجوم أفراد العصابة الباطنيّة على بيتي وترويع أبنائي. لقد تركوا لأنفسهم حريّةَ اختيارِ مكان لقائنا، وليس مستبعَدًا أن

يُفاجئوني بِدخول المنزل عليّ. تضخّمت الخشيةُ بقلبي حتّى أيقظتُ زوجتي من نومها وطلبتُ منها بإلحاح أن تأخذ الأطفال صباحًا وتذهبَ إلى بيت أبيها، فإن هو إلّا يومٌ نخلُص بعده مِن وجوه الغُزاة القميئة. فبدا لها ذلك تخلّيًا عنّي في ساعة العُسرة وإثقالًا على أبيها:

- ولكنّي لم أعد من منزل أبي إلّا منذ ثلاثة أيّام!

- لا تنسي أنّكِ تركتِه مريضًا، وأنّهُ كان يستمهلك ولم يكن راضِيًا عن مغادرتك.

لم أزل ألحُّ عليها وأعدّد أسبابًا كثيرة تفرض مغادرتَها مع الأطفال، حتّى قاطعَتْني قائلةً:

- لماذا أستجيب لطلبكَ وأنت ترفض ما أطلب منك؟

فهمتُ تلميحها، وقرّرتُ أخيرًا الاستجابة لطلبها:

- الحقّ معك. هاتي حجاب الشّيخ وسأضعه في جيبي حتّى تنتهي المحنة.

- قد يَضيع مِن جيبك، ولكنّي أشُدُّه بمشبك داخل جمّازتك، ولن يراه أحد.

غمرها الفرحُ، وقالت لِتزيدني اقتناعًا:

- الشيخُ بدوي على برَكةٍ عظيمة، وأحجبتُه تمنع الأذى وتُعيذ من السوء.

هرعَت إلى الخزانة فجلبت منها الحجابَ الذي كدنا نختصم

بِسببه، ومضت تشبكه داخل جمّازتي بعنايةٍ وهي تتلو المعوّذتين، وقلتُ لها لأختم الاتّفاق:

- سأكلّم صاحبَ سيّارة الأجرة ليأتينا صباحًا، فالأمطارُ لا تكفّ عن الهَطْلِ في الشّمال الغربيّ والأنهارُ تمتلئ وتَفيض، لذلك لا تُغامري بأخذ السيّارة والسّياقة بنفسك، وثِقي أنّي سأكلّمك وأستعجل عودتك ما إن أُنهي الأمرَ معهم. تعلمين قلّة صبري على فراقك.

ورغم ما بذلتُ لها من المُراضاة، فقد غضبَت لِسهَري حتّى تلك السّاعة، وشرعت تُذكّرني بِتعليمات الأطبّاء التي رميتُها منذ مدّةٍ خلف ظهري، فأخبرتُها أنّ موعدَ تسليم الرّقاع للحقد والنّار قد حان من دون أن أُتِمَّ قراءَتها، فما أنهيتُ قراءة حاشية المزمور السّادس وتَمحيصها إلّا في تلك السّاعة، بعد شُرْب قهوتَين مُرّتَين، أمّا المزمور السّابع فلَم أقرأ منه شيئًا، رغم أنّه، فيما يوحي إليّ حدسي، أكثر المزامير أهميّةً. فقالت بِلهجةٍ مُشفِقةٍ لكنّها واثقةٌ:

- نَمْ مطمئنًّا فصحّتك هي الأهمّ، ودعْ هذا الأمرَ لي. ستكون راضِيًا ومسرورًا.

أخبرتني وأنا أستطلع مَقصدَها أنّها تنوي نسخَ رِقاع المزمور المتبقّي في منزل صديقتها التي تمتلك آلة نسخٍ من طرازٍ حديثٍ، وبِذلك يُمكنني تسليم «الأمانة» في الموعد، وقراءة المزمور المتبقّي في يومٍ آخر على مهلٍ. اضطربتُ للأمر وتهيّبت، فتلك خيانةٌ لاتّفاقي مع جماعة الحطيب، خيانة لو علِموها لقتلوني من غير تردّدٍ. أبديتُ لها مَخاوفي فهوّنت الأمرَ وجنحت إلى المخاطرة. قلتُ لها:

- يُمكنهم أن يَفطنوا للأمر بسبب الأثر الذي يُخلّفه الماسِح الضّوئيّ على الرّقاع أثناء النّسخ، فهو يترك أثرًا غير مَرئيٍّ بالعين المُجرَّدة، لكنّه مَؤكّدٌ.

ذكّرَتني بِما كنتُ قد أخبرتُها به عن رِقاع المزمورين الأوّلين، إذ أحرَقاها فور حصولهما عليها من غير تفكيرٍ في وجود آثار نسْخٍ عليها:

- وماذا يَعرف أولئك الأجلاف عن تحليل أثر المَاسح الضّوئيّ؟

قلتُ لها:

- ولكنّكِ ستأخذين الأطفالَ صباحًا إلى منزل جدّهم، أم تراكِ نسيت الأمر؟ لقد كلّمتُ صاحبَ سيّارة الأجرة ووعدني بالحضور عند السّاعة الثّامنة.

- نعم. سأخرج باكِرًا لِنسْخ الرّقاع وإعادتها إليك، ثمّ أمضي بعد ذلك إلى منزل أبي.

ظللتُ متردِّدا في نسخ الرّقاع إذ لم أكن راغبًا في مُغامرةٍ قد تُكلّفني يُتْمَ أبنائي مهما كان الاحتمال السيّء طفيفًا، لكنّي كنتُ مُضطرًّا تمامًا، فما عاد الوقتُ يكفيني ولا حالتي النّفسيّة تُسعفني لقراءة المزمور السّابع وحاشيته، وما كان في وسعي تسليمهما إلى البُغاة من دون قراءتهما.

ظللتُ ما بقي من اللّيل أتقلّب في فراشي وفكري يَهيم بعيدًا في أوديةٍ جدباء. حاولتُ ترتيب المخاطر وإدراجَها في قائمةٍ، وتنظيمَ أفكاري وأخذَ احتياطاتي الضّروريّة بحسب شدّة كلّ خطرٍ مُتوقَّعٍ،

فكان أشَدُّها عليّ وأنكاها غدر الأقرع وصاحِبه. لقد أخذتُ عليهما عهدًا ومَوْثِقًا غليظًا، لكنّي ما رأيتُ منهما ما يوحي بالثّقة فيهما، فما سمحا لي بِقراءة المزامير إلّا اضطرارًا، وقد يفكّران في قتلي حتّى لا يظلّ على ظهر الأرض مخلوقٌ له بتلك الأسرار علمٌ، وصار الأمرُ أكثر مدعاة للرّعب بعدما عرفتُ عن لعنة الصبّاح المودَعة في قبره، ونابشو القبر يسقطون واحِدًا إثر آخر ويدفعون الثّمنَ المُرَّ مِن لحمهم ودِمائهم... فليس من المستبعَد أن يأخُذا منّي الرّقائق ثمّ يَغرِسا خنجرًا مسمومًا في بطني أو رقبتي!

رجال الشرطة أيضًا صاروا لي خصمًا خصيمًا، فقد شكّوا في أقوالي، ومَكروا وارتابوا، وكنتُ قاب قوسيْن من الرّمي في ذُلّ الاعتقال وهم يَضعون الأكبالَ في يديّ فيسوقونني لِتفتيش منزلي كما يَفعلون بِمُهرِّب مُخدِّراتٍ، وأظنّ أنّ لهم عملاء يراقبونني، فإن اكتشفوا لقائي بالغرباء وحيازتي مكاتيب أثريّةً فعليّ السّلامُ يوم وُلدتُ ويوم أموت! وعليّ أن أسجّل في القائمة هذا الخطر الأكيدَ الذي برز للتوّ بِعزمي استنساخَ المزمور السّابع، فزوجتي سوف تخرج من المنزل باكرا وقد أخفت الرّقاعَ في سقف السيّارة لِتمضي بها إلى منزل صديقتها على بعد حوالي عشرة كيلومترات، فتمُرّ الرّقاعُ على المسْح الضّوئيّ الذي يُخلّف عليها أثرًا يمكن اكتشافه... ألغامٌ كثيرةٌ مُهلِكةٌ تتربّص بي ليلة الوعْد الموعود قد لا تنفع معها حيلةٌ ولا يَدرؤُها حذرٌ! بتُّ أفكّر في كلّ الاحتمالات، لكنّ ما حدث بين شروق شمس اليوم الثّامن وغروبها كان خارج كلّ توقّعاتي، فقد مرّ اليوم بكلّ دقائقه الطّويلة وساعاته الحجريّة

الصّمّاء ورنّات هاتفه المُزلزلة الفظيعة من غير أن يُكلّمني الأقرع أو يضبط لي موعدًا. بدا لي ذلك دليلًا على نيّتهم الغدرَ بي. عدتُ إلى الرّوزنامة المعلّقة على الحائط وحسبتُ الأيّامَ بِأصابعي فازددتُ يقينًا أنّ ذلك اليوم هو يومنا الموعود وأنّي لم أخطئ العدّ والحساب، حلّ الزّوال ثمّ العصر. صار ظلُّ الشيء مثلَه ثمّ مِثلَيْه، وغربت الشمس ثمّ اختفى شفقها الأحمرُ الدّمويّ، ونشر اللّيلُ على مهَلٍ سربالَه الأسود ولا طائلَ أو فَرَجَ من عذاب الانتظار. عُدتُ إلى دروس طفولتي في الجغرافيا أضبط الفرق بين اليوم والنّهار. قلتُ: إنّ النّهار قد انقضى، لكنّ اليوم لا ينقضي إلّا منتصف اللّيل، ما يعني أنّهم لم يَنكثوا بعدُ ولم يُخلِفوا. لو كنت أستطيع مُهاتفة الأقرع لفعلت، ولقلتُ له: يا سيّدي حلّت عليك بركةُ الأئمّة وزادك اللهُ علمًا ببواطن التّأويل ورزقك شَعرًا أسود كثيفًا يبلغ كتفيْكَ... ماذا تُدبّر لي في الخفاء؟ وهل هان عليك القسَم فانصرفْتَ يوم ميعادنا تشحذ خنجرك لِقتلي؟ اُترك الخنجر وتعالَ فورًا لأسلّمك الرّقائق من غير ثمنٍ، فإنّ بها أسرارًا تكشف معتقداتكم وتُعرّيكم كآدم يوم التفّاحة...، ظلّت الوساوس تطحنني حتّى استغرقتني نومةٌ مهدودةٌ عند الفجر فما أفقتُ إلّا على النّور المُفزع في اليوم التّاسع وهو يتسلّل من نافذتي كلمْعِ خنجرٍ مسنون!

عند الضّحى، وأنا أحاول التّفكير في ما يَكبت مخاوفي أو يَمنحني جُرعة نسيانٍ عابرٍ، خطر لي الذّهابُ إلى المغازة للتسوّق! فقد تذكّرتُ فجأةً ، تحت الهَرس والضّغط، أنّ أشياء كثيرةً تنقص البيت وأنّ الثلّاجة المسكينة خاويةٌ إلّا من قوارير الماء. تحمّستُ

للمَشغل الطّارئ فمضيتُ بِلا تردُّدٍ. اشتريتُ أشياء كثيرةً صادفت مُروري بين الرّفوف، لم أكن أدري ما أحتاجُ إليه منها، ولكنّها بِكلّ حالٍ مشترياتٌ، والنّاس من حولي في المغازة كانوا يَقتنون مشتريات! فلمّا فتحتُ صندوق السيّارة لِوضع ما اشتريت، وضع رجلٌ غريبٌ يدَه الثقيلة على كتفي وقال: «عليّ مدد». انتبهتُ إليه وتفرّست فيه. ظلّت ساقاي منتصبتيْن وقادرتيْن على حمْل جثّتي لكنّ قلبي انخلع رغم إرادتي. رأى شدّة اضطرابي فرَسم على وجهه ابتسامةً كتكشيرة ضبُعٍ جائعٍ، وقال:

- مولى عليّ مدد. أعني: السّلام عليكم.

سلّمتُ عليه بِجزع مَن يعرف ثِقل موبقاته في يوم الحساب المَرير. قال:

- أنا رسولٌ إليك. جئتُ أستلم منك الأمانة التي تعرف. تفضّلْ بالرّكوب.

ركب سيّارتي قبلي، موحِيًا إليّ أنّه بِمنّه وكرمه قد سمح لي بالرّكوب معه. فلمّا استوينا رسم على وجهه مرّةً أخرى ابتسامته الماكرة، وضرب على ركبتي مُلاطِفًا بِمطرقةٍ لها خمسة أصابع:

- حسنا. لقد طُلِب منّي مرافقتك إلى الموعد المتّفَق عليه، على أن نأخذ الأمانة معنا إلى أصحابها. هل هي عندك الآن؟

- في الحقيقة هي ليست... ليست عندي. لا، لا أعني أنّها ليست عندي... هي بالتّأكيد عندي، نعم هذا ما أعنيه. إنّها عندي بالتّأكيد... ولكن في المنزل، فقد توقّعتُ مجيئكم إليّ،

وانتظرتُكم طويلا في الصّالون ...

- ليس بعيدًا في كلّ الأحوال. نهج ابن شرف، عدد 37، لِنمْض هناك فنأخذها.

كان ذلك هو عنوان منزلي بالضّبط، يحفظه عن ظهر قلبٍ ذلك الرّجل الغريب الذي لم أره من قبل. تحرّكت السيّارة وأنا أمام المقود بتسخيرٍ من خالقها، فما أظنّ أنّي في تلك اللّحظات الرّهيبة التي تحبس الأنفاس قد حرّكتُ مُبدِّل السّرعات أو ضغطتُ دوّاسة البنزين، لكنّي أذكر أنّ السيّارة تحرّكت ومضت بنا، وهو ينظر في المرايا العاكسة مُتأهِّبًا كثُعبانٍ مُقاتِلٍ. سألني:

- هل تشكّ بأنّ أحدًا يتبعك أو يراقبك؟ هل رأيتَ أمرًا يُريبك؟

- لا، إطلاقًا.

وسكت فسكتُّ، لكنّ أذنيّ ظلّتا مُترَعَتين بِضجيجٍ صاخبٍ، ضجيج مخاوفي وضربات قلبي في صدغيّ، والسيّارة تَمضي بِتسخيرٍ مِن خالقها حتّى رسَت أمام بيتي كناقةٍ مأمورةٍ، فقلت له:

- انتظرْني قليلًا ريثما أجلب الأمانة وأعود.

لكنّه فتح الباب ونزل. طاف حول السيّارة مُسرِعًا ووافاني من الجهة الأخرى. وضع يده على كتفي كصديقٍ ودودٍ وقال:

- لا أريد البقاء وحيدًا. سندخل معًا ونخرج معًا.

كنتُ مُحِقّا إذ طلبتُ من زوجتي أخذَ الأطفال إلى بيت جدّهم، فجنّبتُهم مشهدًا مُزرِيًا لِوالدهم يُقادُ أسيرًا ويرضخ للتّرهيب

والابتزاز. دخلنا المنزل فمضيتُ إلى الدّرج الذي وضعت فيه زوجتي الرّقاع بعد نسْخها، فاستخرجتُها ودفعتُها إليه وهو يُردّد ملهوفًا: هاتها هاتها، أخذها منّي عنوةً فقبّلها وقلّبها، ثمّ عاد يُقبّلها ويُمرّغ بها وجهه حتّى همهم واغرورقت عيناه، وبدا لي أنّه يبكي! رفع القميصَ لِوضْع اللّفافة تحت حزام سرواله، لكنّها كانت كبيرة فاضطُرّ إلى إرخاء الحزام، ورأيتُ عند حَقْوِهِ نيّةً إجراميّةً قد بيّتها لي: مُسدّسًا رهيبًا في غِمدٍ جلديّ. وإذ اطمأنّ لِوضع الرّقائق في مكانٍ آمنٍ بين مَخالب مُسدّسه، قال لي مستقرِئًا وجهي:

- وخنجر السيّد يا رجل؟ أين الخنجر؟

- وما حاجتكم به؟ وعدني عبدُ الأعلى أن يتركه لي تذكارًا!

لا أدري لِمَ قلتُ ذلك الكلام الأخرق الغريب؟ فقد كان منتهى أملي أن أتخلّص من الخنجر، لكنّ رغبتهم في استعادته بدت لي نكوصًا عمّا اتّفقنا عليه، وفي ذلك بادِرة خيانةٍ هي أشدّ ما أخشاه. جُنّ الرّجلُ لاعتراضي وعصفت في قلبه ولسانه ريحُ الشرّ، وبدأ يكشف وجهه القميء. أمسك بخناقي صارِخًا:

- لعنك الله ولعن الأقرع وأهلَ الأقرع. أقول لك هات الخنجر!

- إنّه في الحديقة. تركتُه في الحديقة.

شدّد قبضته على خناقي حتّى كاد يقطع نفَسي، وصار وجهه مُظلِمًا حَقودا وهو يَصرخ:

- لا تتلاعب بِميراث أئمّتنا يا وغد، فإنّ حياتك وحياة أطفالك تحت أرجلنا!

تملّكني الذّعر وهو يَذكر أطفالي، وكان تهديدُه واضحًا لا لبس فيه. فقلتُ له:

- والله ما كذبتُ. الخنجر في الحديقة معلّقٌ في شجرة البرتقال. في الشجرة المحاذية للسّور من جهة اليسار حين تكون خارِجًا.

أرخى قبضتَه فجذبتُ نفَسًا قويًّا عميقًا كغريقٍ يَطفو، ومضيتُ به نحو الخنجر الملعون، وكلّي خشيةٌ أن يغرزه في بطني، كنتُ أمشي بين يديه كساعٍ إلى حتفه بِظلفه، وكان يتبعني وعيناه تدوران في كلّ اتّجاهٍ كمَن يتوقّع الغدرَ في أيِّ لحظةٍ. خطر لي أنّهم يُصرّون على أخذه لقتلي به، عاجِلًا أو آجلا، أو لِيَقتلني بأيديهم مثلما قضت نُبوءة المزامير. يا لَنبوءات المزامير ولعنة شالوم بن عاموس!

ما إن رأى الخنجر معلَّقًا حتّى ارتمى عليه بِلهفةٍ شديدةٍ. كانت أمطار اللّيل قد غسلته ممّا علق به من دماءٍ وترابٍ بعد جريمته الأخيرة، فبدا نظيفًا برّاقًا. راح الرّجلُ يُقبّله ثمّ خرّ ساجدًا سَجدةً سريعةً حذِرةً، سرعان ما قام منها وعاد إليه يتأمّله مذهولًا ويُربّت عليه حانِيًا! صُعِقتُ لِما أرى، فقد ازدرى الأقرعُ وصاحِبُه الخنجرَ وما كان بِرأيهما غير أداة إجرامٍ امتلكها ضالٌّ مُتجبّرٌ. هل صِرتُ مختطَفًا بين أيدي عصابةٍ أخرى ذات عقيدةٍ مُختلِفة؟ وكيف عرفت إذَن ما اتّفقتُ عليه مع العصابة الأولى؟ وكيف تَزامن حضور الثانية

مع غياب الأولى عن الموعد؟ صار عقلي مِرجلًا يَغلي، وعرفتُ أنّي بين أيدٍ أكثر فتكًا، وأنّ ما عهِد به إليّ الأقرعُ عبدُ الأعلى قد صار بين قدميْ هذا المُتعجرف، فسألتُه إذ لم أعد أطيق صبرًا:

- هل أنتَ حقًّا من رجال عبد الأعلى؟ أتعرف أنّه قد أقسم بكلّ الأئمّة المعصومين ألّا يؤذيني؟ هل أنت حقًّا من رجاله؟

نظر إليّ ولم يُجبني. كان ذلك إنذارًا لي فلزمتُ الصّمتَ وتصبّرت ما أمكنني التصبّر حتّى عدنا إلى السيّارة فأمرني باستئناف القيادة. قلتُ له:

- أين تأخذني يا سيّد؟ وما حاجتك بي وقد سلّمتُكَ الأمانة؟

- قُدْ سيّارتك بِصمتٍ، وسأرشدك إلى الطّريق التي عليك أن تسلكها...، كُفّ عن الأسئلة فإنّ غضبي كافرٌ، وربّما جعلَني أفعل بهذا الخنجر ما يجب فِعلُه!

برد لِساني وتيبّس قديدًا، وظلّ القرصانُ يوجّهني كأنّه ابن المدينة الّذي تربّى بين ثناياها وأزقّتها وأنا الوافِد الغريب، حتّى إذا بلغ بنا منزلًا أعرفُه جيّدًا عند طرف حيٍّ سكنيٍّ جديدٍ قال لي:

- توقّف أمام هذا المنزل.

نزلنا واتّجه ممسِكًا بيدي نحو باب السّور فعالجه بمفتاحٍ فانفتح بِيُسرٍ ودخلنا. لم أعُد أطيق بعدها صبرًا. فهتفتُ به:

- هذا منزل أختي. إنّها تعيش في بلدٍ أوروبيٍّ ومنزلها مغلقٌ. فمِن أين لكم مفاتيحه؟

قال وهو يضع سبّابته على فمه ويَنهرني مرّةً أخرى:

- امض أمامي صامِتًا، فلقد صبرتُ عليك كثيرًا.

بلغنا البابَ الرّئيسيّ فانفتح من الدّاخل لحظة وصولنا إليه. تسمّرتُ أمام العتبة، وقد بدا لي أنّي أدخل مَسلَخًا. تلفتُّ جَنبَيّ وبَرقت بذهني في تلك اللّحظة فكرةُ الهروب، لكنّ يدًا امتدّت من الدّاخل نحو خناقي فجذبَتني بِقوّةٍ وانغلق البابُ عليّ والمجهول.

وجدنا في المنزل رجُلَين غريبَين بِملامح هنديّةٍ واضحةٍ، تفرّسا فيّ مليًّا كأنّهما يشتبهان بي في مَقتل والديْهما، وسأل أحدُهما مُرافقي بِلكنةٍ أجنبيّةٍ: تمام؟ فردّ مُرافِقي بِحماسٍ: «تمام حُجّت خادِم». رفع القميصَ وأخرج اللُّفافة والخنجر، فتهالكا عليه يلمسان الغنائمَ لَـمْـس المُتبرّك. غمرهما فرحٌ جُنونيٌّ ووقعوا جميعًا ساجدين. جالت عيناي بِأرجاء المنزل المستباح: الزّرابي والسّتائر والأريكة البُنّيّة، ولُعب الأطفال على الطّاولة البلّوريّة بالرّكن...، هو ذا منزل أختي كما تركتُه ليلة جئتُ لتوديعها. ساقوني أمامهم نحو غرفةٍ داخليّةٍ، وما إن اجتزتُ عتبتَها حتّى صدمني ما رأيت: كان الأقرع والأفطس مكتوفيْن شبه عاريين في حالٍ من البؤس والانهيار، على وجهَيهما آثارُ ضربٍ وكدماتٌ زرقاء، ودماءٌ ما تزال نَدِيّةً قد انسربت على صدرَيهما العارييْن! رفعا إليّ أعينًا ذليلةً يائسةً، وكانا من الانهيار أن أعجَزهما الكلامُ. قال لي الرّجُل الذي جاء بي إلى وكْر الموت بِعربيّةٍ فصيحةٍ لا تخلو من لكنةٍ غريبةٍ:

- أنا صديقك إن امتثلْتَ وصدقتَ، وقاتِلُك إن عصيتَ أو كذبتَ. اسمي ميرزاخان إن أردتَ تسميتي. أنا وصاحباي مؤمنان على مذهب الهداية الإسماعيليّة النّزاريّة. نحن ورثة سيّدي حسن الصبّاح وأتباعه الخُلّص. كدتَ ترتكب حماقةً مُهلكةً إذ اعتزمتَ دفع ميراثنا إلى هؤلاء المُفسدين ليُتلفوه. نعلم أنّكَ كنتَ مُكرهًا وأنّك ما كنتَ تعرف صاحبَ الحقّ، ولذلك لا نؤاخذكَ بِما سلَف منك، لكنّك تقتل نفسك إن كذبتَني بعد الآن في شيءٍ أو كتمتَ عنّي أمرًا.

- ليس الكذب من طبعي، ولا مصلحة لي فيه.

- أجبْني إذَن. ماذا أخذ منك الجانيان حين هجما على بيتك؟

- جزءًا من الرّقاع وخنجرًا. أعادا إليّ الخنجر وأتلفا الرّقاع.

- حسنا كم مزمورا منها؟ وماذا فعلا بها؟

- الأوّل والثّاني. أحرَقاها في آنيةٍ حديديّةٍ.

- أحرقاها أم أخفياها؟ لا تذكرْ لنا إلّا ما رأيتَ رأْي العين.

- بل أحرَقاها حتّى صارت رمادًا. فعلا ذلك أمام عينيّ وأنا مكتوفٌ على كرسيٍّ مثلما تَراهما الآن.

- هل جئتَ اليوم بالمزامير الخمسة الباقية كامِلةً كما حصلتَ عليها؟

- نعم. تامّةً سليمةً.

التفت إلى صاحِبَيْه وخاطبهما كأنّما يُترجم لهما أقوالي، وتكلّموا بِلُغةٍ غريبةٍ سلِسةٍ جميلةٍ ذكّرتني بالأفلام الهنديّة التي طالما عشقتُها

في شبابي، وانتهى حوارهم باتّفاقٍ أعاذني الله من شرّه، فقد تبادلوا ضرْبَ الأكُفّ وقال أحدُهم:

- ياس، ياس، فاري ڤود.

عاد إليّ ميرزاخان لاستكمال التحقيق والتحق به صاحِباه. أوحى إليّ حدسي أنّهما لا يتكلّمان العربيّة، وأنّهما يعتمدان عليه في ترجمة كلامي. قال لي:

- هل كنتَ حاضِرًا عند تدنيس قبر السيّد حسن وحرقه؟

- لا. كنتُ مُسافِرًا لحضور ندوةٍ علميّةٍ خارج البلد، وعند عودتي أقمتُ بمنزل أمّي.

- تقصد سفرك إلى صنعاء. ومِنها قصدتَ مدينة الحطيب للاستفسار عن الرّقاع التي وجدتَها.

- نعم. هذا ما حدث بالضّبط.

- هل حدّثك الجانيان أو تحدّثا أمامك عن تدنيس قبر السيّد وحَرقه؟

- لا، مُطلَقًا. وما علمتُ بالأمر إلّا عند حضور الشّرطة لمعاينة مَقتل عامل البناء في حظيرتي، فلمّا أحضروني للتّعرّف على القتيل رأيتُ القبر محترِقًا.

- حسنًا. نحن نعتقد أنّك اطّلعتَ على المزمورين المغدورَيْن قبل حرقهما، ونودّ بكلّ إلحاحٍ أن تتذكّر رَسمَيْن فيهما وتَصفهما لنا. إنّهما رسمان رمزيّان ورد كلٌّ منهما على قفا الصّفحة الأولى من المزمور. هل يمكنك تذكّرهما وإعادة رسمهما؟

بُهِتُّ لعِلمهما بِكلّ تلك التّفاصيل رغم أنّهما لم يطّلعا على الرّقائق، وكنتُ أكثر استغرابًا لسُؤالهما تحديدًا عن تلك الرّسوم المَرميّة عند قفا بعض الرّقاع حتّى إنّ قارئًا عاديًّا لا يرى لها من جدوى ولا يوليها اهتمامًا، ولكنّ هؤلاء الدّمويّين يسألون عنها بإلحاحٍ، ويعرفون أنّها رسائل مشفّرةٌ إليهم.

حين جاؤوا منذ ساعةٍ وأدخلوني إلى تلك الغرفة أخذ ميرزاخان سوطًا جلديًّا أسود تفوح منه رائحة لحمٍ بشريٍّ، وراح يهوي به على الأقرع يَجلده بلا رحمةٍ كأنّما يستكمل معه تحقيقًا بدأه قبل الخروج لِجِلْبي:

- الرّسمان يا كلبَ المستعلي...! تعيشُ إن ذكَرتَهما وتموت رخيصًا إن جحَدتهما. صِفْ لي الرّسميْن وأنا أصفح عنك!

لكنّ الأقرع وصاحبَه أصرّا رغم لفح السّوط وأزيزه المرعب على أنّهما أحرقا الرّقائق من دون النّظر فيها، وقد كان ذلك صحيحًا، فما كان لهما من هدفٍ غير تنفيذ الحَرق وإتمامه بأسرعٍ وقتٍ.

أعاد عليَّ ميرزاخان سُؤالَه المهلِك بِنبرةٍ لطيفةٍ أقرب إلى الرّجاء لا تَليق بِعجرفته:

- هل يمكنك تذكُّرُهما وإعادة رسمِهما؟

«لهذا جاؤوا بي إذَن رغم أنّي سلّمتُهما ما بقي لي من الرّقاع تامّةً سليمةً. يا أستاذي عبدَ العزيز يا مَلاكي الحارس، يا مَبعوثَ السّماء إليّ بَلسَمًا وشِفاءً!». ليلةَ عزمْتُ على الذّهاب إلى شيوخ الحطيب كان الرّسمُ الأوّل من بين النّسخ التي أنوي عَرضَها عليهم،

فبادر عبدُ العزيز بِفرْز نسخته من بين بقيّة النّسخ وإعدامها. قال لي بعد ذلك: «كانت تلك وثيقة موتك، فقد أصدر الصبّاح منذ ذلك الزّمن البعيد حكمًا مُشفَّرا لأتباعه بإعدامك». وشرح لي بعد ذلك حُكمَ الإعدام الرّهيب المُضمَّن في رسم الحمامة الزّاجلة التي تحضن جمجمةً وعظمين، ورسم الآلهة تانيت في جوفها جَرّة. ها إنّ عبد العزيز المُلهَم يُنقذني من موت مُؤكّدٍ، فلولا ما أخبرني من تأويل الرّسم لبادرتُ بِوصفه لِميرزاخان وصاحبيْه ولقُتلتُ فورًا».

- مالي أسألكَ يا رجل فتسرح بعيدًا؟ أجِبْني من فضلك: هل يمكنك تذكّر الرّسمَين المحروقَين؟ أنا واثقٌ بأنّكَ قد اطّلعتَ عليهما فلا تكذب.

كان عليّ أن أعترف بِما يُنقذ جلدي من لفح السّوط المُرعب وربّما القتل، وعليّ أن أنكر معرفتي بالرّسم الأوّل ففيه أمرٌ بِقتلي. ما بقي لي غير الرّسم الثاني، فقد رآه صديقي عبد العزيز وسمح لي بِأخذه إلى شيوخ الحطيب. قلتُ لِميرزاخان وقد اسودّ وجهُه واربدّ:

- سرح ذهني مُستذكِرًا بكلّ طاقتي، لكنّه ما كان غير رسم واحدٍ قد اطّلعتُ عليه ومازلتُ أذكره جيّدًا، فكيف تقول إنّهما اثنان؟

تهلّل وجهه واستدار نحو رفيقيه يُترجم لهما كلامي، فغمرهما فرحٌ وصاح أحدُهما وقد أشعّ وجهُه واتّسعت حدقتاه: «أوكي». اقتربوا منّي يوشكون أن يتآكلوني، فقلت لهم:

- كان رسمًا بسيطًا وجميلًا: غرابان في الفضاء قد أُصيبا بِسهميْن

فراحا يسقُطان وقد التوى عنقاهما، وبينهما عقد ساقط من سبع لُؤلؤات ما يَعني أنّه كان بِمنقارَيْهما قبل إصابتهما.

سمِعوني بِتركيزٍ وذهولٍ، حتّى الأجنبيّان اللّذان ما كانا يَفقهان قولي، فلمّا سكتُّ انبرى ميرزاخان مُترجِمًا، وهامت عقولُهم بين ثنايا التّأويل. أردتُ زخرفةَ كلامي بِما حضرني من الظُّرف:

- ذكّرني الرّسمُ بالقصص القديمة عن الغربان السّارقة، وتساءلتُ: لماذا كانت الغربان من بين كلّ الطّيور تُنعَت بالسّرقة؟ يُقال إنّ وجهتها الفُضلى دكاكين الصّائغين، فهل تتزيّن أنثى الغراب باللّؤلؤ لتقصد حفلَ الجيفة؟

ابتسم ميرزاخان ببرودٍ، ولم يُكلّف نفسه عناء الترجمة. أمّا الأقرع فكان كلّما وقع نظري على وجهه المشوّه عضّ شفتَه السّفلى يأمرني بالصّمت، فلمّا وصفتُ لهم الرّسم وأنهيتُ كلامي، ازدادت بِوجهه علامات الرّعب وصار أكثر ظُلمةً، وخُيّل إليّ أنّه بصق عليّ.

ما كنتُ مُحِبًّا للرّسم ولا شَغوفًا به، وحين اطّلعتُ على تلك الرّسوم أوّل مرّةٍ قبل ذهابي إلى الحطيب لم أرَ لها دورًا في توضيح معنًى أو إبلاغِه، لكنّي إذ تأمّلتُها بعد ذلك باهتمام وردت بِخاطري فكرةٌ فألحّت عليّ بأنّ الرّسمَ قد يكون نصًّا مُشفَّرا تحتاج قراءته إلى أدواتٍ أخرى غير معرفة الصّوتميّة والمعجميّة، وبدا لي وجودُ وشائج عقليّةٍ ممكنةٍ بين كلّ مزمورٍ والرّسم الذي يسبقه، حتّى رآها عبد العزيز، فسبر أغوارها كغوّاص اللّؤلؤ، وإذا قراءتُها وتأويلها علمٌ من أجلّ العلوم وأشرفها.

لم يَقنعوا بِما دبّجتُ من وصف الرّسم، فأحضر والي ورقاتٍ بيضاءَ وقلمًا رصاصًا وممحاةً، كتلميذٍ يدخل حصّة الاختبار، وأخذوني إلى غرفةٍ أخرى وقد صارت قسوتُهم لُطفًا لا يناسب وجوههم المربدّة:

- كن صادِقًا ومُتعاوِنًا نكُنْ لك أصحابًا مُخلصين. حاول بما استطعتَ أن تنسخ الرّسم، وتُحوّله من ذاكرتك إلى الورقة، وكُن مُدقِّقًا حريصًا ولا تنسَ شيئًا من التّفاصيل.

بدأتُ أستحضر تفاصيل المشهد، والشّيطان يسكن في التفاصيل: كان مشهدًا غريبًا، قلتُ حين رأيتُه أوّل مرّةٍ إنّه رُسِمَ بِريشة مُشعوذٍ أو مجنونٍ، وقد كان الصبّاحُ كليهما. السّهمان اللّذان أصابا الغُرابيْن ذوا شكلٍ غريبٍ: فكُلٌّ منهما مزدوجٌ عند أسفله، لكنّ قضيبَيْه يندمجان عند منتصَفه في قضيبٍ واحدٍ يمتدّ مُفرَدًا حتّى الرّأس المُدبّب. وفي الرّسم سهمٌ ثالثٌ لم يُصب أيًّا من الغُرابيْن لكنّه أصاب لؤلؤةً من العقد فانتثرت شظايا. السّهم الثّالث يختلف عن الآخريْن شكلًا، إذ القضيبان عند أسفله غير متساويين، أحدُهما أطول من الآخر، ورأسه ليس كرؤوس الرّماح لكنّه مثل رأس غُرابٍ، وحدُّه كمنقارٍ.

كان أفراد العصابة قد أغلقوا عليّ باب الغرفة وتركوني وحدي. ربّما ظنّوا أنّي أكون بذلك أكثر تركيزًا، وأقدَر على استحضار مسكن الشّيطان: التّفاصيل الصّغيرة. قال لي ميرزاخان بِأدبٍ مُصطَنعٍ كأنّما يدعو لي بالتّوفيق وهو يغلق عليّ الباب:

- إمام عليّ مدد مدد. نادِني حين تُكمل الرّسم، نحن في انتظارك.

لكنّ لُطفه سرعان ما انقلب زعيقًا وهو يجذب الباب خلفه، فسمعتُه يصرخ، وسمعتُ أزيز سوطه على اللّحم المُبلَّل، وسمِعتُ الأقرع يرغو كبعيرٍ يُكوى... بعد نصف ساعةٍ رفعتُ رأسي وناديت:

- سيّد ميرزاخان ... يا سيّد مير...

دخلوا عليّ ولم يُغلقوا الباب وراءهم، وسألني الهنديّ الذي بدا أنّه أكبرهم سنًّا وأكثرهم وقارًا وربّما أعلاهم رتبةً دينيّةً وتنظيميّةً:

- هوَ تمام؟ مثل هكيكي؟

- نعم، نعم، قلّدتُه بكلّ عنايةٍ، وهو مثل الرّسم الحقيقيّ تمامًا.

أخذ الورقة وقصد أبعد ركنٍ في الغرفة ورفعها أمام عينيه فلحق به ميرزاخان متوسّلًا:

- سيّد أجايا، امنحْني فرصةً لتأويل هذا الرّسم.

ألقى عليه نظرةً كلّها ريبة، وقال بِعربيّةٍ ركيكةٍ:

- هذا مو سهل ميرزا. كلّ مرّة تَكُول أنا، أنا، أنا...

- أعرف أنّ التّأويل صعبٌ سيّدي، لكنّي تعلّمتُ منك الكثير، وتدرّبتُ على قراءة النّقائش وفكّ السّحر والطّلاسم. أقول لك كيف أفعل؟ اختبرْني سيّدي، اختبرني.

كان في أشدّ حالات الانفعال، قد برقت عيناه وأخذ منه الحماسُ كلّ مأخذٍ، وبدا أنّ أجايا قد تأثّر بذلك وبدأ في تقبّل الفكرة، فلمْ يلبث أن هزّ رأسَه مُبتسِمًا وقال:

- أوكي، فِدائي ميرزا، أوكي.

طار ميرزا سرورًا، وبدأ في شرح معارفه لإثبات قدرته على التّأويل:

- أَغرقُ في الاسم الأعظم والدّعاء، ثمّ أتأمّل الرّسمَ بخشوعٍ، فيتكشّف لي بعضٌ وينغلق بعضٌ، فأعود إلى الغرق والمناجاة ثمّ إلى تأمّل الرّسم سبْعًا كوامِلَ، فإمّا استبنتُ بعد سبْعٍ فسبعًا وسبعين، وكلّما كانت المَغاليق أوثقَ ارتقيتُ في التّسبيع، فربّما كانت دقائق أو بَعض ساعةٍ، وربّما كانت أسابيع أو ما لا يعلمُه إلّا الله...

رفع جايا ماران يدَه مُكتفِيًا بما سمع، وناول ميرزاخان ورقة الرّسم وهو صامتٌ، فأخذها ومضى منفرِدًا نحو الرّكن الأبعد في الغرفة بخطواتٍ رصينةٍ موزونةٍ، ورفع صاحِباه أيديهما كأنّما يدعُوان له بالتّوفيق. مضى حتّى استقبل بِوجهه زاوية الغرفة، فغرق في التّلاوة:

- سبّوح قدّوس، حيّ قَيّوم، يا حيّ، يا حيّ، يا مُزكّي... أهيا شراهيا، أدوناي أصباؤوت...

ظلّ يتلو أدعيته طويلًا، وهو ينحني ثمّ يَرفع رأسه بحركاتٍ رتيبةٍ لا تنتهي، حتّى سكت فجأةً ووضع الورقة أمام عينيه فتأمّلها مليًّا كأنّما يخترق بِحَدّ بصره كلّ خطٍّ فيها، فلم يزل على ذلك نحوًا من عشر دقائق حتّى أبعدها عن نظره وعاد إلى طقوسه الخاشعة:

- أهيا شراهيا، عال متعال، أين الأجناد القويّة؟ أين الشّمهاريّة؟ أين كردن؟ أين دردم؟ أين صاحب الدّخان الذي ينفخ في المَشارق والمغارب؟ أين الرّاكبُ على الفيل المُتعمِّمُ بالثّعبان؟

احضروا الآن احضروا، بِحقّ برهموتا وشيموثا، أجيبوا
لله طائعين، وافتحوا لِبصيرة العبد ميرزاخان كلّ المغاليق
وفسّروا له كلّ الأسرار، فلا علمَ له إلّا ما علّمتموه... أهيا
شراهيا، سبّوح، سبّوح، سبّوح...

ولم يزل يتبتّل، فيتلو أدعيةً غريبةً ثمّ يعود في كلّ مرّةٍ إلى تأمّل الرّسم الذي رسمتُه حتّى أتمّ سبعًا فرأيتُ في أطرافه رعشةً حتّى اضطربت الورقة بِيُمناه وهو يُحاول تثبيتها ويُركّز عليها نظرًا ثاقِبًا، ثمّ زادت رعشتُه وصار اضطرابُه فاحِشًا وظننتُ أنّه يُصرَع. هتف به أجايا من طرف الغرفة الآخر:

- بِماذا أنتَ تُوهِسُّ ميرزا؟ ماذا أنت ترى؟

لم ينتبه إليه ميرزاخان. بدا مُغيَّبًا تمامًا أو مُختَطَفًا بعيدًا، وظلّ يُردّد:

ولا فضلَ لي في ذا بل الفضل فضلُ مَن
بِهم يَحرم الله الأنامَ ويَرزق
أئمّة دين الله مُذ قام دينُه
وأنوار هذا الخلق مِن قبل يُخلق
محبّتهم فرض على النّاس واجب
وعصيانهم كفر إلى النّار مُوبق
ولولا هُمُ لم يَخلق الله خلقَه
ولم يكُ في الدّنيا ضياء ورونق(*)

(*) الشّاعر الفاطميّ المؤيّد في الدّين.

هتف به أجايا مرّةً أخرى من طرف الغرفة الآخر بِصوتٍ أعلى يكرّر السّؤالَيْن المُقتَضبَين:

بِماذا أنتَ تُوهِسُّ ميرزا؟ ماذا أنت ترى؟

قال ميرزاخان بِلسانٍ ثقيلٍ يُدحرجُ كلماتٍ من حجرٍ:

أحسُّ... أحسّ دبيبًا تحت جلدي... كنشوة سكران... أحسُّ رفيفًا في عينيّ... وأرى حِبالًا مربوطة تُفكُّ... أو تُقطَع...

صرخ به أجايا مغمورًا بالفرحة، مستبشِرًا:

أصمُدْ ميرزا، أنت بلغتَ العُدوة الكُصوى... يُوهَى إليك ميرزا، يوهى إليك!

رأيتُه بعد الشِدّة والعَنَت يَهدأ ويتراخى. افترّت شفتاه عن ابتسامةٍ هادِئةٍ، وانسابت مَفاصلُه المُتيبّسة فسَرَتْ في الغرفة مشاعرُ طُمأنينةٍ وغمرها هُدوءٌ ملائكيّ. وما هي إلّا دقائق حتّى انقلب نحونا ميرزا فجأةً ككلبٍ مسعورٍ وصرخ عاليًا:

- لعنة الله وأئمّته على الخائنين! لعنة الله على الخائنين.

جذب مسدّسه ووجّهه نحو رفيقه الهنديّ المقرفص بجانب جايا، ثمّ ركله عند سُرّته حتّى أسقطه وجعل المسدّس عند صدغه! واندفع نحوه جايا ماران مستغرِبًا مستفسِرًا، فبادره بالجواب قبل أن يسأل:

- عِقدُ الإمام الحلواني ما ضاع في القُمامة ولا سرقه عامِلُ النّزل. سرقه هذا البُهريّ المندسُّ بيننا، هذا الأعرجُ اللّئيم

الخائن، إنّه ليس من جماعتنا المَهديّة، بل مارِق بُهريّ مُستعلٍ!

شلّت المفاجأة الرّجل الأعرج وارتسم على وجهه رُعبٌ قاتلٌ. حاول الوقوف فركله ميرزاخان مرّةً أخرى وأسقطه مُهدِّدًا بِقتله فورًا. اقترب جايا من ميرزاخان، إذ لم يكن فيما بدا مقتنِعًا بِما سمِع، فأراد تفسيرًا لِما يجري بِغَير أوامره. كان أقصر من ميرزاخان، فرفع إليه رأسه حتّى صار أنفٌ عند لحيةٍ، ودقّق فيه نظرًا، فاندفع يُفسّر له الأمرَ وهو يُحاول أن يَكبت هياجه ولا يرفع نظره أو مسدّسه عن الأسير الواقع على رُكبتيه:

- قرأتُ تعليمات السيّد الأساس في الرّسم بكلّ وضوحٍ. لقد أُمِرنا بِقتل الغرابيْن البُهريّين، الأقرع وصاحبه، ففي الرّسم أصابهما سهمان قاتِلان وسقطا. أمّا السّهمُ الثّالث ذو القضيبيْن غير المتساويَين فهو هذا الجاسوس الأعرج، رأسُه في الرّسم رأسُ غُرابٍ لأنّه من الفئة الضّالّة، ولم يُصِب عدوّنا بل أصاب لؤلؤتَنا فأفسدها... فتّشْه الآن فلعلّ العقد بِحوزته!

بدا أنّ المتّهم قد أفاق مِن وقْع المفاجأة، فوقف مِن مَبركه. صرخ محتجًّا وهدّد بِرفع المظلمة إلى الإمام، ثمّ سعى إلى كسبجايا لِمؤازرته لكنّه خيّب ظنّه إذ تقدّم لِتفتيشه، فاشتدّت ثورتُه ودفع جايا غاضبًا، ورفض الخضوعَ للتّفتيش. تقدّم ميرزاخان لتسوية الأمر، مُوجِّهًا مسدّسه بِيُسراه إلى جبهة المتّهم، وفاجأه بلكمةٍ مُدوّيةٍ بِقبضته اليمنى على وجهه الممتقع حتّى ترنّح مستنِدًا إلى

الحائط وما لبث أن سقط على أرضيّة الغرفة. وقع عليه جايا وراح يُفتّشه غير مكترثٍ بممانعته وصدِّه حتّى أخرج من بين طيّات ثيابه عقدًا فرفعه مُلوّحًا به وقد زمّ شفتيه بِأسفٍ عميقٍ، ثمّ عاد إلى تفتيشه وميرزاخان يهتف عالِيًا ممجِّدًا الأئمّة وعِرفانهم غير المحدود، حتّى قام عنه ممسِكًا آلة تسجيلٍ صغيرةٍ كانت مخفيّةً تحت طيّات ملابسه. همهم مُحدِّثًا نفسَه: «ألا يكفيه ضلاله؟ كلب مخابرات أيضًا؟». ابتعد عنه خطوتين ثمّ التفت إليه، فتأمّله باحتقارٍ وبصق. صاح ميرزاخان:

- تقدّست أسرارك سيّدي، تقدّست مزاميرك... عليّ مدد.

عاد جايا ماران لأخذ الورقة، وتأمَّل الرّسمَ كأنّما يتثبّت من أمرٍ ذي أهميّةٍ أو يراجع ورقة الامتحان مراجعةً أخيرة. تراوحت نظراتِي بين وجهه المُبهَم المستغلِق والرّجل المرتعب الواقف على حبلٍ مترنّحٍ في الحدّ الفاصل بين الحياة والموت. أَنْستني مصيبةُ الرّجُل مصيبتي، وقتلني جايا فضولًا وانتظارًا وهو يتأمّل الرّسم قبل النّطق بالحكم، حتّى رفع رأسه بعد لَأْيٍ، فنظر إلى ميرزاخان عاقِدًا ما بين حاجِبيه وقد اكتسى وجهُه حُزنًا جنائزيًّا وصرامةً إسبرطيّةً! ثمّ هزّ رأسَه في إشارةٍ أن نعم، وكان ذلك أمرًا بالإعدام بعد استيفاء كلّ مراحل التّقاضي! اندفع الهنديّ في محاولةٍ أخيرةٍ فارتمى على ميرزاخان بِحركةٍ خاطِفة مُحاوِلًا إيقاعه، لكنّه أفلت منه بِقفزةٍ سريعةٍ إلى الوراء ونبَح المسدّسُ بين العينين المُرتعبتَين بِطلقاتٍ مترادِفة، فانفجرت جبهةُ الرّجُل كَكُوز من الجُبن، وسقط بين قدمَيْ قاتِله يتخبّط في حُمرة دمه وبياض مُخّه!

ارتعش الأسيران البُهريّان رُعبًا وهُما مشدودان شدًّا وثيقًا إلى الكُرسيّين في الغرفة الأخرى، فقد ترك القاتِلان البابَ الفاصِلَ بين الغرفتين مفتوحًا، وسواء فعلا ذلك سهوًا أو عَمدا، فإنّ الأسيرْين قد رأيا نهاية الهنديّ البائسة، وعلِما أنّ مُسدّسًا لم يستنكف مِن فَلْق جمجمة صديقٍ، سيكون أسرع إلى جمجمتَيْهما وقَلبَيْهما.

تركاه مَرميًّا كخِرقةٍ باليةٍ وعادا إلى غرفة الأسيرْين بعد أن أقامني جايا ودفعني أمامه وهو يسأل عنّي ميرزاخان:

- وهذا؟ مو مكتوب في الرّسم؟

- لم أستبِن أمره بعد. فلْنفرَغ أوّلًا من الغُرابين فالحُكمُ عليهما لا لبس فيه.

بدا أنّ جايا ماران هو الذي سينفّذ الإعدامَ في تلك المرّة، وأنّه سينفّذه بخنجر الصبّاح وليس بالمسدّس، إذ كان يمسك الخنجر فيَدفعه بِحركةٍ خاطفةٍ، ثمّ يُعيد مسكَه بِطريقةٍ أخرى ويُكرّر حركَته الرّهيبة. ظلّ يتدرّب على طُرقٍ مختلفةٍ لاستعمال الخنجر في القتل، والأسيران يُتابِعانه، تدور أعيُنُهما كالذي يُغشى عليه من الموت. جفّ حلقي وأحسستُ بِدُوارٍ. كان الموقف أشدّ مِمّا يَحتمل قلبٌ بشريٌّ. رأيتُ الغرفة تدور بي، وشرع السّقف يرتجّ يوشك أن يسقط على رأسي! لم أعد قادرًا على الوقوف فبَركتُ أرضًا، ومِن وراء غمامة عينيّ رأيتُ جايا ماران يتّجه نحو الأسيرين ويقف قبالتهما مُسلَّحًا بِحقدٍ دفينٍ، رأيتُه كومةً من السّواد كأنّما طُلِي بِقطران. ما كان بِيده غير خنجرٍ قصيرٍ قد لا يكفي لحسم معركةٍ بين فُتوّات في مقهى،

لكنّ في قلبه وقلب صاحبه ترسانةً من الكره تكفي لتسليح أكبر الثّكنات العسكريّة... مِن وراء غمامة عينيّ وثِقل سمعي ورعشة مَفاصلي رأيتُ الهنديّ يتدرّب على دَفع الخَنجر الرّهيب بِحركاتٍ سريعةٍ مُباغِتة. يتدرّب مسرورًا أمام قلوبٍ واجفةٍ راجِفة. تذكّرتُ ما كان يَنهاني عنه أبي بِشدّةٍ مِن سَنّ السكّين أمام الذّبيحة يوم النّحر حتّى لا أُفزعَها. وقف ميرزاخان أمام الأسيرين يُذكّرهما قبل تنفيذ الحكم بِذنوبهما التي تتجاوز كلّ حدود الغفران:

- سعيتُما إلى الاستيلاء على إرث الدّاعية حجّة زمانه ونائب إمامه سيّدي حسن الصبّاح لإتلافه، وقد أحرقتُما منه مزمورَيْن كاملين لا تكفي حياتُكما ثمنًا لِحرفٍ واحدٍ منهما، ثمّ عمَدتُما إلى شماتة ما سبقكُما إليها أحدٌ من العالمين فتغوّطتُما على قبره ثمّ أحرقتماه بِما فيه مِن رُفاته الطّاهر. ما كنتم تَعرفون أنّ للسيّد حسن رِجالًا يَثأرون، وأنّ عيوننا مبثوثةٌ بينكم هناك في الحطيب، فنعلم كلّ يوم ماذا أكلتم ومتى فَسيتم... بِسبب ما أقدمتُما عليه من الجرائم المُتتالية فإنّنا نحكم عليكما باسم الآغا خانيّة المجيدة بالموت.

كانا موثوقيْن إلى الكرسيّين وثاقًا شديدًا، وما كان لهما إلّا أن يَرفعا أعيُنَ الضّراعة ويلهجا بِطلب الرّحمة. اختلط طلب السّماح بِهمهمة البكاء. تقدّم المُخنجِرُ الهنديّ من الأقرع. كنتُ أراهم مِن وراء غمامة عينيّ كظلالٍ سوداء أو أشباحٍ متحرّكةٍ. تقدّم من الأقرع بِخُطواتٍ قصيرةٍ متمهّلةٍ تُبيّتُ الغدر بل تُعلنه، فاشتدّت ضراعة المسكين وتخبّط في حباله. حاول في اللّحظة الأخيرة الارتماء مكتوفًا

على غريمه بنقمةٍ يائسة، فعاجله بِضربةٍ سريعة غرزت الخنجر في صدره، ثمّ أهوى به ثانيةً في الموضع نفسه فانفجر الدّم شَلاّلًا دافِقًا وسقط الأقرع وهو يشخر كالثّور. صاح الأفطس صياحًا منكَرًا وهو يرى نهايته المعلومة. استدار نحوه القاتِلُ فانقلب مُحاولًا تفاديه وسقط به الكرسيّ وهو لا يكفّ عن صراخ وحشيٍّ يُصدّع الحيطان. أدركه الهنديّ وعاجله بالخنجر، ورأيتُ الدّماء تنفجر مرّةً أخرى...

سمِعتُ جلبةً عند باب المنزل والنّاسُ يدُقّون علينا ويصيحون:

- لصوص، لصوص دخلوا منزل جارنا يسرقون... لنقبضْ عليهم.

- اتّصِلوا بالشّرطة... بالحرس الوطنيّ.

سمعنا ضربًا عنيفًا على الباب. الجيران المتجمّعون يريدون خلعَه، «اللّهمّ اجعلْه أوهن من بيت العنكبوت، واجعلْ لهم سواعد ذي القرنين وبَسطةَ قومِ عادٍ». الأفطس مازال يشخر وينتفض. الدّماء على الكراسي والزّرابي. الغرفة تدور بي والخنجر الأحمر يلمع. حسن الصبّاح يصرخ في الغرفة وشالوم بن عاموس: إهيه أشر إهيه... بَرهتيةٍ بَرهتيةٍ... خبْطُ الجيران يَشتدّ والباب يرتجّ. يرتجّ دماغي. ترتجّ الحيطان:

- هل كلّمتم الشّرطة؟ الشّرطة يا ناس.

- إنّهم قادِمون. لا تخلعوا البابَ. هذا عمل الشّرطة.

واتتني شجاعةٌ مُفاجئة. شجاعةُ يائسٍ ما بقي له شيءٌ يخسره. صرختُ بأعلى صوتي:

- النّجدة يا ناس. النّجدة. اخلعوا البابَ فورًا.

عاجلني جايا ماران بلكمةٍ قويّة ثمّ وقف عليّ يرفسني بِعصبيّة. كان ميرزاخان قد فتح النّافذة الخلفيّة وأطلّ منها يستطلع ما وراءها، ثمّ جرى نحو خزانةٍ فأخرج منها غطاءً صوفيًّا كبيرًا واتّجها نحوي. رفساني بِحذاءيهما الثّقيلَيْن غير مُباليَيْن بألمي وصراخي. ألقيا عليّ الغطاء الصّوفيّ وحملاني ملفوفًا. أحسستُ بِقفزهما من النّافذة وجرْيهما بعد ذلك نحو الشّارع الخلفيّ. بدا أنّ سيّارةً كانت تنتظرهما، فقد رمياني على أرضيّةٍ ضيّقةٍ صلبةٍ، وهدر مُحرّكٌ، وبدأ جايا ماران يتكلّم بِلغةٍ غير مفهومةٍ مع صاحب صوتٍ أجشَّ خشنٍ، في حين كانت يَدَانِ بِفظاظة ميرزاخان تلُفّان حبلًا على الغطاء الصّوفيّ مِن حولي، وأنا أضطرب فيه ما وسِعني الاضطراب حتّى استحكم الحبلُ واستسلمتُ للاختناق والموت البطيء.

بعد ساعةٍ من العذاب كنتُ ما أزال أقاوم. لم تكن هاوية الموت قد تلقّفتني لكنّي كنتُ عند حافتها الفاصِلة، حين خطر لهم أخيرًا أن يَمنحوني جرعة هواءٍ. رأيتُ التماعة السكّين وهي تُمزّق الغطاء الصّوفيّ الدّاكن الثّخين الذي لفّوني فيه، وغمر عينيّ نورٌ ساطعٌ مُؤذٍ.

ظللتُ زمنًا أُقاوم ثقلَ جفنيّ، وأحاول رفعَ رأسي وقد صار عِبئًا فادِحًا وصخرةً عظيمةً فوق رقبتي. وجدتُني في غرفةٍ ضيِّقةٍ ذات بابٍ موصَدٍ وكُوّةٍ صغيرةٍ بِقضبانٍ حديديّةٍ ثخينةٍ، وسمعتُ همهماتٍ كتِلاوةِ صلاة. شعرتُ بعطشٍ شديدٍ وبقيّة دُوارٍ. حاولتُ

رسمَ خريطة المسار الذي سلكه بي الخاطِفون، وتقديرَ الزّمن والسرعة والاتجاه لعلّي أعرف على التقريب مكانَ أسري، لكنّ تخميني لم يبلُغ بي أيّ مَعرفة، فقد كان الزّمانُ غير الزّمان والمكان غير المكان، وذهني ما يزال مزدحمًا بركامٍ من الصّور المضطربة فيها دماءٌ وفوضى وصُراخ. حلقات منفصِلةً تتقارب وتتماسك فتَصنع سلسلةً من الأحداث الأليمة عن اختطافي... ميرزاخان، الأقرع، خنجر الصّبّاح يَلِغ في الدّم...، أين أخذوني أخيرًا؟ ولماذا كلّفوا أنفسَهم مشقّة نقلي ولم يقتلوني؟ لا شكّ في أنّهم مازالوا يطمعون في تحصيل معلوماتٍ منّي، ولولا ذلك لقتلوني مع البقيّة. لم أفلت من الموت إذَن ولكنّي صرتُ على ضفّته الأخرى.

أقامني عطشي الشّديد فتوجّهتُ إلى الكوّة التي كانت تأتيني منها همهمات راحت تتوضّح وتتبيّن، ورائحةُ بخورٍ ذكيّة. كانت زنزانتي الضيّقة ملاصِقةً لِغرفةٍ كبيرةٍ ذات أعمدة، وبينهما بابٌ حديديٌّ مُغلَقٌ، وكُوّةٌ صغيرةٌ. أمّا الغرفة الكبيرة التي أطللتُ عليها فمفروشة بِزرابيّ جميلةٍ وتتدلّى من سقفها ثريّاتٌ لّماعةٌ. بدت لي بأعمدتها الُمنتظمة صحنَ مسجدٍ لولا أنّي رأيتُ عند وسطها تمثالًا من البرونز. كان تمثالَ رجلٍ يرتدي لباسًا أعرابيًّا، رَبْع القامة ممتلئ الجسم، ضخمَ البطن أصلع الرّأس، يحمل بِيمينه سيفًا ذا رأسين، وبِجانبه تمثالٌ آخر نِصفيٌّ بالملامح ذاتها ولكن بِعمامةٍ تستر الصّلعةَ العريضة.

لم يزل ذهني يرسم ملامح الخريطة لِتحديد مكان وجودي، فتبيّن لي وأنا أستعيد كامل وعيي أنّ الأمر على عكس ما خطر لي أوّلَ وهلةٍ، فوجود التّمثال دليلٌ على أنّ هذا المكانَ بيتُ صلاة!

بيت صلاة للباطنيّة النّزاريّة، وهذا تمثال عليّ بن أبي طالب: لقد كَفّ فريقٌ من الباطنيّة النّزاريّة عن الالتزام بالعِبادات الظّاهريّة، لكنّ قلّةً منهم ما تزال ترى الجمعَ بين الظّاهر والباطن، فظلّت لهم مساجدُ صوريّةٌ أشبه بِقاعات اجتماعاتٍ لإدارة شؤونهم، وكان من شأن نزاريّة الهند تأثّرها الشّديد بِديانة الهندوس، ومِن ذلك جَعْلُ تماثيلَ في أماكن عبادتهم. لا أظنّ أنّي قد نُقِلتُ أثناء غيبوبتي إلى بلدٍ بعيدٍ، فتملّكني الاستغراب لوجود هذا المعبَد في بلدي. رأيتُ في الغرفة الكبيرة ثلاثة رجالٍ قد جلسوا على رُكَبهم في هيئة التّشهّد، أحدُهم قد تقدّم الآخَرَيْن مثل إمام صلاةٍ فراح يتلو ترانيمَ وهو يخفض رأسَه ثمّ يرفعُه بِحركةٍ رتيبةٍ لا تتوقّف، وهما يكرّران حركاته ويؤمّنان على دعواته:

«اللّهمّ صلّ على محمّدٍ المصطفى وعليٍّ المرتضى وعلى سائر الأئمّة الأطهار وعلى حُجّة الأمر صاحب الزّمان والعصر...

اللّهمّ يا مولاي منكَ المددُ وعليكَ المعتمَدُ، يا عليّ بِلُطفكَ أدركتَني...

وإن رمتْكَ اللّيـالي البُهْم بالنُّوَبِ
فاهْتِفْ بِأحمدَ خير العجْم والعَربِ
وبالـوصيّ عَـليٍّ كاشِـفِ الكرب
فكـم حزين يَبيـتُ اللّيل في تَعبِ

يا أيُّها الرّسول بلّغ ما أُنزِل إليكَ من ربّكَ وإن لم تفعل فما بلّغتَ رسالته، لا فتى إلّا عليّ ولا سيفَ إلّا ذو الفِقار... توسّلوا

عند المصائب بِمولاكم الموجود: يا إمامَ الزّمان أنت الحقّ المُبين، لكَ سجودي وبيعتي وولائي...».

قال ذلك وسجد سَجدةً طويلةً خاشعةً بِحركاتٍ ثقيلةٍ موزونةٍ، فسجد المأمومان من ورائه. جعلتُ رأسي عند الكوّة وناديت:

يا عباد الله، يا عبادَ الله، يا مُصلّون، يا رجال عليّ....

لا أدري هل سمِعوا صوتي الذّابل المخنوق أم لم يسمعوا، لكنّي بذلتُ من الجهد ما أوحى إليّ بأنّه يُمكن سماعي من مكانٍ أبعد من الغرفة الكبيرة، غير أنّهم قاموا من سجودهم وعاد إمامهم إلى تلاوة أدعيته من غير أن يلتفتوا نحوي: «اللّهمّ إنّي أتوسّل إليك بِكلّ المعصومين الأطهار مِن محمّد وعليّ وفاطمة الزّهراء إلى مولانا الباقر، مولانا إسماعيل، مولانا عبيد الله... مولانا المستنصر، مولانا نزار، مولانا مراد ميرزا...». قطعتُ عليه تَعدادَه الطّويل الذي ظننتُ أنّه لن ينتهي إلّا بعد أن أموت عطشًا:

يا عباد الله، يا عباد الله، يا مُصلّون، ألا تسمعونني؟

قطع صلاتَه ونظر إليّ. مسح وجهه بِيديه مُعلِنًا نهاية الصّلاة وشيّع نحوي نظرةً بعيدةً، حتّى إذا رأى وجهي مُعلَّقًا وراء الكوّة هشّ واستبشر وقام، ونظر إليّ الرّجلان الآخران وهمّا بالمجيء، لكنّ الإمام كلّمهما كأنّما يأمرهما بالانصراف فانصرفا متلفّتيْن إلى وجهي المعلَّق بالكوّة، وجاءني وحدَه. لم يكن ميرزاخان ولا جايا ماران. تكلّم بِعربيّةٍ فصيحةٍ من دون أن يستطيع إخفاءَ رطانةٍ أعجميّة:

- كُتِبت لك السّلامة إذَن، يُحيي العظام وهي رميم.

قلتُ بإعياءٍ، وفي صوتي مَسكَنةٌ ورجاءٌ: «ماء، ماء».

اقترب من وجهي الذّابل وشفتيّ اليابستين فبدا على وجهه إشفاقٌ ورِثاء، ثمّ عاد إلى تأمّل وجهي وصاح:

- أنت الأستاذ ... الأستاذ...، سقط عنّي الاسم، لكنّكَ رجُل الإغاثة الدّوليّة في زنجبار! أتذكرني؟ أمّا أنا فأذكرك جيّدًا. أُنظرْ إليّ إنّك أنتَ أنتَ.

هززتُ رأسي مُوافقًا على كلامه، ولم يكن يَعنيني ما يقول، رُحتُ أكرّر طلبي ليُسعفني بشربة ماءٍ، فبدا أنّه لا يعنيه ما أقول:

- مُذ رأيتُ وجهك لم يُساورني الشكّ في أنّي قد عرفتُك من قبل، لكنّي لم أذكر أين أو متى، فلمّا تكلّمتَ وانضاف صوتُك إلى صورتك تذكّرتك تمامًا.

شبع كلامًا وحلّق ما شاء بأجنحة الذّكرى، فما تذكّر إلّا بعد دهرٍ أنّي ألحّ في طلب الماء. ولّى عنّي وهرول في الغرفة الكبيرة حتّى بلغ آخرها واستدار يسارًا فاختفى في رواقٍ، ثمّ ما لبث أن جاءني بِقارورتَين بذل جهدًا لإنفاذهما من القضبان الحديديّة:

- خذ واشرب يا صاح. فمازال في عمرك أيّامٌ من ذي الحجّة لتعيشها، لا أحد يموت حتّى يستنفد ما كتب الله له من الأيّام والأنفاس!

رحتُ أشرب وأشرب كرمل الصّحراء. غسلتُ وجهي وتبرّدتُ، ثمّ ناولني رغيفًا طيّبًا فيه لحمٌ وخضر طازجةٌ فأكلت وهو

واقفٌ عند الكوّة ينظر، حتّى إذا نعِمتُ شبَعًا وريًّا نظرتُ إليه بامتنانٍ وأردتُ أن أشكره فسبقني بالكلام:

- زنجبار، تنجانيقا، جزر البَهار... يا لَتلك المدن العذراء، والأيّام البيضاء، والنّاس البُرَآء!

قلتُ وقد دبّت الحياة في شراييني، واستعدت فكري ونشاطي:

- كان الإعصارُ «جونو» يضرب كالوحش، بلغَتْ سرعةُ دورانه حُدودًا قصوى، وكنّا نُقاوم وننقذ النّاس ونبعث الأملَ والحياة...، كان لِحياتنا معنى عظيمٌ، ولكن... لكن ما الذي جاء بك إلى بلدي؟

تجاهل سؤالي واستأنف كلامَه. كانت عيناه نصف مغمضَتَين وقد سرح بعيدًا وافترّت شفتاه عن ابتسامةٍ غامضة:

- كنتم بِمرتبةٍ عاليةٍ جدًّا، والمنكوبون البسطاء يرَوْنَكم رجالَ الإغاثة الدّوليّة يدًا تمتدّ إليهم من السّماء. كانوا يتشبّثون بِتلابيبكم للفرار من الموت، والأمم المتّحدة في نظَرهم ربٌّ قديرٌ.

قلتُ وقد سُررتُ بالصّدفة الجميلة، وأمِلتُ في الاستعانة بالرّجل الذي قذفَته إليّ المقادير:

- هل أستحقّ منكم إذَن ما تفعلونه بي معشر الإسماعيليّة؟ أتذكر ما فعلتُ من أجلكم في سفالة؟ وفي كلوه؟ وسائر زنجبار؟ كنتم قليلًا مستضعفين داستكم جماعةُ الشّافعيّة،

ومِن بعدها الإباضيّةُ فانفردوا بثروات البلد، وحتّى بمعونات الأمم المتّحدة وتركوا لكم الجوعَ والمذلّةَ والعُريَ. مَن غيّر الإجراءات الظّالمة وصحّح المقاييس المُعتمَدة في توزيع المعونات حتّى نلتم نصيبكم كاملًا؟

- أشهد أمام الله شهادة صدقٍ أنّكَ مَن فعل ذلك، وتلك أمورٌ لا تُنسى.

سرّتني شهادتُه فأردتُ النّأيَ عن التّقريع، لِما ظننتُ في صوته من كَدَرٍ ومرارةٍ:

- أشياء كثيرة أخرى لا تُنسى مِن ذلك الزّمن الجميل: سهراتُنا تحت ضوء القمر بين أشجار القرنفل والمانجو، والأهالي يتحدّون الإعصارَ والموتَ بالغناء والرّقص حتّى الفجر. أتذكر أغنية «مالايكا» باللّغة السّواحليّة الجميلة؟

استفزّته الذّكرى فراح يُغنّي ويرقص، ونسيت آلامي فرُحتُ أغنّي معه مِن وراء الكوّة ذات القضبان:

مالايكا ناكوبيندا مالايكا

نامي نيفانيجي، كيجانا موينزيوو

بيسا زاسمبوا روهو يانقو

مالايكا ناكوبيندا مالايكا ...

سألتُه من غير أن نتوقّف عن الرّقصة الزّنجباريّة الجميلة:

وهل كانت مالايكا تُبادله الحبّ؟

- استسلمَت مالايكا لِقدَرها، وزوّجوها من كهلٍ هنديٍّ غنيٍّ، وبقي الشّابّ الزّنجباريّ الفقير يَنظم الشّعرَ ويتوجّع.

توقّفتُ فجأةً عن الغناء والرّقص، وقد لمع بِذهني برقٌ خاطِفٌ، فهتفتُ به:

- تذكّرتُ اسمَك تمامًا. أنتَ هايثام. نعم، نعم، بلا شكٍّ، أنتَ هايثام زامبيزي!

تغيّرت ملامحُ وجهه، وكأنّي أفسدتُ عليه ذكرياته. نظر إليّ باستياءٍ وخيبةٍ، إذ لم يكن يريد أن أتذكّر اسمه الحقيقيّ، لكنّني لم أستطع كبح ذكرياتي:

- عندما انتهت إحدى سهراتنا مع الأهالي في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل، وعُدتُ إلى غرفتي مع رجلين من عُمّال الإغاثة، لحقتَ بنا يا هايثام لحاقَ الدّعاة التُّقاة. كنتَ تَفيض شبابًا وحماسًا، وقد حاولتَ جرّنا إلى عقيدةٍ غريبةٍ قلتَ إنّها الإسماعيليّة وما هي كذلك، فقد بدت لي خليطًا غريبًا من دياناتٍ متنافرة. قرأتَ علينا مِن كتابٍ قلتَ إنّه هنديّ كوجاراتيّ، اسمُه «دسا أوتار». أَذكر ذلك جيّدًا، وقلتَ لنا إنّ النبيّ محمّدا هو براهما في الدّور الأوّل، وعليّ هو فشنو في الدّور الأوّل، لذلك يقول الهندوس إنّ فشنو سيعود آخر الزّمان وهو ما نقوله عن الإمام عليّ، لأنّهما في الحقيقة شخصٌ واحدٌ، فالهندوسيّة والإسلام الحقيقيّ لهما باطِنٌ واحدٌ ولا يَختلفان إلّا في القشر! هذا ما قلتَه في تلك اللّيلة يا

هايثام. فهل مازلتَ تعتقد ذلك؟

سلّم أخيرًا بانكشاف هويّته. كانت الدّلائلُ أكثر ممّا يمكن إنكاره، فقال:

- كان ذلك الكلامُ لُزومَ الدّعوة، وكان عليَّ أن أقول ذلك. لكنّي ما كنتُ أعتقده!

- أتدعو إلى أفكار لا تعتقدها؟ وتُغيّر دينك كما تُغيّر ملابسك؟ حسنًا ذاك شأنك، ولكن يا هايثام لماذا لا تفتح لي البابَ وقد عرفتَني؟ هيّا، أطلِقْ سراحي يا رجل، فإنّ لي أبناءً يبكون في انتظاري، إن لم يكن من أجلهم فمِن أجل تعارفنا القديم، مِن أجل «مالايكا»، ومِن أجل ما فعلتُه معكم في سفالة وكلوة وسائر زنجبار وضفاف زامبيزي. هيّا يا رجل. افتحْ هذا الباب الأصمّ.

- لو كان الأمرُ بيدي ما تركتُك وراء القضبان دقيقةً واحدة... ولو اقتصر الأمرُ على سَجنك زمنًا يطول أو يَقصر لهان الأمر. يصعب عليّ أن أصارحك بالحقيقة، لكنّي حزين لأجلك. ليت شخصًا آخر مكانك أو ليتني لم أكن أعرفك!

تملّكني الرّعب، وعرفتُ أنّ مصيبتي كبيرةٌ:

- أيّ حقيقة؟ تكلّم من فضلك. بِحقّ الطّعام الذي أكلنا من صحنٍ واحد.

- لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسُؤْكم.

- تكلّمْ هايثام. أعلم أنّ سوءًا كبيرًا ينتظرني. ماذا تُدبّرون لي؟

وما هذا المكانُ الغريب الذي جلبتموني إليه؟

- هذا المكان؟ إنّه «عليّ جي كامندر».

- بل أظنّه مسجدًا للإسماعيليّة النّزاريّة. رأيتُ عند وسطه تمثال السيّد عليّ.

- نعم بالضّبط. هكذا نُسمّي مسجدنا بالكوجاراتيّة: عليّ جي كامندر، وترجمتُها معبد السيّد عليّ.

قفزَت إلى ذاكرتي فجأةً كلماتٌ كحدّ السّيف القاطع قالها هايثام عندما جاءني، لكنّي كنتُ حينئذ أموت عطشًا فلم أحسّ وجعَها:

- لماذا قلتَ لي حين ناولتَني الماء إنّه مازال في عُمري أيّامٌ من ذي الحجّة لِأعيشها؟

- وقلتُ لك بعدها: لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسُؤْكُم.

- بِحقّ الله والأئمّة والعِشرة القديمة يا هايثام... لا تكتُم عنّي أمرًا يخُصّني.

زمّ شفتيه وركّز نظرَه على صفيحة وجهي القصديريّة، كان يغالب تردُّدَه، فتصنّعتُ ابتسامةً مثل شَقٍّ صدِئٍ على صفيحة قصديرٍ، وهززتُ رأسي لتشجيعه فقال لي:

- حسنًا يا صاحبي، إنّ لك بشارة الآخرة وعزاء الدّنيا. ستكون مِن رعايا الأستاذ حسين في الجنّة وتكون ذبيحتَه في الدّنيا!

ذبيحة الأستاذ حُسين؟ اقشعرّ جلدي لِما كنتُ أعلم عن هذا التّقليد الدّمويّ الرّهيب، وما ظننتُ قَطُّ أن أكون في يومٍ من الأيّام مَعنيًّا به. عرفتُ مَقصدَه وما تحقّقت. أردتُ التّحقّق من دون أن أقطع رجائي الأخير بأن أكونَ مُخطِئًا:

- ماذا تعني؟ ذبيحة؟ هل قلتَ ذبيحة؟ فسّر لي الأمرَ من فضلك.

أجاب عن سؤالي بسؤالٍ، كَمَن يتلذّذ بقتْل أسيره عِرقًا فعرقًا، وقد كان قادِرًا على الإجهاز على جمجمته بضربةِ مطرقةٍ واحدة.

- أتعرف مَن يكون الأستاذ حُسين؟ قلتُ له:

- أجل، أجل. هو ابنُ حسن الصبّاح البكر. شكّ أبوه في تآمره عليه لِيغصب سلطتَه فبادر بِقتله.

- كانت شُبهةً باطِلة. قُتل الأستاذُ حُسين بِشُبهةٍ تبيَّن بعد ذلك زيفُها، فتحيّر النّاسُ في ألَموت كلّ الحيرة، إذ كيف بالسيّد الأساس المعصوم نائب الإمام المعصوم أن يقتُل ابنَه من غير أن يُدرك زيفَ التّهمة؟ ففسّر لهم العارِفون بالبواطن أنّ قتْلَ الأستاذ كان مقصودًا، وكان بِحكمةٍ وقدَرٍ، ليكون في ذلك درسٌ لأهل دعوتنا بِأنّ علينا أن نقتُل بالشُّبهة، ذلك أنّ قتْلَ شخصٍ بِظلمٍ أهون من تحمُّلِ خُطورته على دعوتنا، وصار الأستاذُ يُنادي مرّةً كلّ عامٍ من علیائه عندَ شُروق يوم الغدير: «أقتلتمُوني لتنسوا الدّرسَ وتتركوا بينكم مَن تشتبهون به؟ بِئس تضحيتي

إذَن»، فصار من بين طقوس احتفالنا بِعيد الغدير أن نقتلَ ذا شُبهةٍ!

صرختُ به وأنا أضرب حديدَ الكوّة فتتكسّر قبضتي:

- لستُ بِذي شُبهةٍ. فقد سلّمتُكم مزاميرَكم طائعًا، وكان لي أن أشتكيكم إلى السّلطات فأنال حمايتها، جئتُكم بالرّقائق بِنفسي ولا عداوة لي معكم.

سمعنا صوتَ مفاتيح تدور في أقفالٍ وأصواتًا رجاليّةً تقترب. قال لي هايثام بمِثل الهمس:

- لا تُكلّم أحدًا منهم وإلّا عجّلوا بِقتلك. سنتكلّم في الأمر لاحِقًا.

كانوا زهاء عشرة رجالٍ، يرتدي بعضُهم جَبائب وعلى رؤوسهم عمائم، ويرتدي آخرون ملابس إفرنجيّةً. قال بعضُهم: «عليّ مدد» فردّ هايثام التحيّة: «مولاي عليّ مدد». تكلّموا بِلُغةٍ غريبةٍ وهم ينظرون إلى وجهي المُعلَّق في الكوّة، وبدوا مستبشرين لقيامي من الغيبوبة، فقد حصلوا على أضحيةٍ سمينةٍ مجّانًا. تبِعهم هايثام مُظهِرًا آيات التّرحاب، ثمّ سبقهم فجرى بين أيديهم حتّى نهاية صحن العبادة الواسع، ففتح بابًا دلفوا منه وأغلقوه مِن ورائهم.

ذبيحة الأستاذ حسين؟ أيّ كذبةٍ مرعبة. كنتُ أعرفها أسطورةً بين دفّات الكتب فصارت حبلَ إعدامٍ يلتفّ حول عنقي. ما كانت بهم حاجةٌ إلى تلك الكذبة لولا التعصّب والمكابرة، فقد دُبِّرت بقلعة ألموت مؤامرةٌ مِن قِبَل قرامطة متسلّلين بين أتباع الصبّاح.

أرادوا الكيدَ لابنه الأكبر الذي كان ذراعَه القويّة، فقتلوا كبيرَ دُعاة النّزاريّة وأقاموا الحجّة بِتدبيرٍ ماكرٍ على حسين بن الصبّاح، وزعموا أنّه وجد كبيرَ الدّعاة مُنافِسًا له على الزّعامة بعد أبيه فخطّط لِقتله، وزعَم القاتلُ أنّ ابنَ الصبّاح هو الذي فعَل، ولم يكن أمام شيخ الجبل غير الأمر بِقتلهما، لكنّ القرامطة انكشفوا بعد ذلك واعترفوا بمؤامرتهم.

كان حسن الصبّاح رغم ذكائه وحنكته بشرًا ككلّ البشر منذورًا للخطإ والانخداع، فلِماذا بحث أصحابُه عن كذبةٍ أسوأ من الخطإ ذاته، فزعموا أنّه فعل ذلك عمدًا ليُنبّهَهم إلى ضرورة قتل ذوي الشّبهات ممّن يشُكّون في ولائهم مهما كانت قيمتهم أو قرابتهم؟! ثمّ أوغلوا في الكذب فزعموا أنّ القتيلَ المظلومَ يهتف كلّ عام طالِبًا ذبيحةً يوم الغدير!

راح ذهني يشتغل بِطاقته القصوى بحثًا عن أيّ خلاصٍ. الهروب؟ قتل الحارس المكلّف بي جاحدِ أفضالي؟ ثَقْب الجدار؟ كانت الغرفة الصّغيرة حصينةً. بابُها حديديٌّ والكوّة مَشبوكةٌ بقضبانٍ ثخينةٍ. حاولتُ أن أعُدّ أيّامي الباقية فما استطعتُ، كلّ ما استطعتُ تذكُّرَه معلومةٌ قديمةٌ عن عيد الغدير، إذ يُوافق الثّامن عشر من شهر ذي الحجّة، وكان هلالُ ذي الحجّة قد هلّ قبل اختطافي بأيّام لا أعلم عددها. مرّ عليّ زمنٌ من الزّئبق والرّصاص والزّرنيخ حتّى رأيتُ البابَ ينفتح فيخرج منه الزّائرون. كنتُ في حالٍ من التّوتّر والانفعال لا مزيد عليها، فأردتُ التّحدّثَ إليهم والاحتجاج على غدرهم بي. فقد جئتُهم طائعًا لأسلّمهم رِقاعهم،

فاختطفوني وآذوني. لكنّ المدعوّ هايثام قد حذّرني من التّحدّث إليهم. ليقُل ما شاء، فلا آبه به. انتظرتُ حتّى صاروا قريبين من الكوّة فناديتُهم: «يا سادة، يا مؤمنون، تعالوا أكلّمكم...». قذفوني بِنظراتٍ من جحيم، وصارت وجوههم أكثر ظلمةً وسَوادًا. قال صاحِبُ العمامة المُذهَّبة مُوجِّهًا كلامَه إليّ: «خاموش. جيتر. قندي»! لم أفهم كلامه، لكنّي عرفتُ زعيقَه وغضبَه فعُدتُ إلى صمتي من دون أن أبتعد عن الكوّة. وقف ثلاثة من ذوي العمامات مع هايثام فراحوا يتكلّمون بِتركيزٍ واهتمام. سمِعتُهم يُردّدون كلمةً أنيقةً: تشاليس. وسمِعتُ منهم مرّاتٍ متتاليةً كلمةً أخرى أنيقةً أيضًا: تالافار. عاد هايثام بعد أن ودّع سادتَه غاضِبًا منّي، فذكّرني بأنّه نهاني عن التكلّم معهم، فما غنِمتُ من مخالفة أمره غير إهانةٍ مجانيّةٍ. قلتُ:

- مهما يكن الأمر فإنّي ما عرفتُ كلامهم ولا مَقصدهم، فيُمكنني اعتبارُ ما قالوه مدحًا. ولكن أيّ لغةٍ هذه التي يرطنون بها؟

- الكوجاراتيّة. أعني الهنديّة الكوجاراتيّة. اللّغة التي احتضنت عقيدتَنا وكتبنا المقدّسة بعد العربيّة.

- هؤلاء مُهاجرون إذَن؟ حتّى أئمّتكم الهنود هاجروا إلى أرضنا، وآخرون مثلك من شرق إفريقيا. يبدو أنّ لكم مخطّطًا كبيرًا على أرضنا.

سكت ولم يُجب، ثمّ حَرف الكلام قائلًا:

- أما قرأتَ عن انتشار الإسماعيليّة انتشارًا واسِعًا في شبه القارّة الهنديّة؟ كان مبتدأ ذلك في عصر سيّدي المستنصر الفاطميّ الذي أرسل مولائي أحمد للدّعوة هناك فنزل في كوجارات، وآمن بِدعوته وعمِل معه مولائي رام جي ومولائي روب جندو، فأيّدهم الله وأجرى الأئمّةُ على أيديهم معجزاتٍ كثيرةً حتّى أسلم بفضلهم آلافٌ من الهندوس...

كان يُريد أن يَسرد على مَسمعي تاريخًا طويلًا، لولا أنّي كبحتُ حماسَه، فليس ذلك ما يَعني سجينًا منذورًا للقتل قريبًا. سألتُه:

- سمِعتُكم تُردّدون كلمة «تشاليس»، فماذا كنتم تَعنون من فضلك؟ هل كنتم تتحدّثون عنّي؟ وكلمة تشاليس معناها أسير؟

تبسّم هايثام، ورمقني بِنظرة رثاءٍ طويلةٍ:

- نعم كنّا نتحدّث عنك، والكلمة التي حفِظتَها تعني العدد أربعين. فقد سألوني عمّا إذا كنّا أكملنا التّرتيبات المطلوبة من أجل شعائر تقديم ذبيحة الأستاذ حسين، ومِن التّرتيبات الضّروريّة ألّا يَقِلّ عدد الحاضرين ونُسمّيهم شُهودًا عن أربعين رجُلًا مِمّن أدّوا البيعة أمام الإمام أو نائبه، وقد قلتُ لهم: يُمكنني إحضارُ سبعين مُبايِعًا بعد ساعةٍ، وثلاثمائة بعد يومٍ، فما بالكم بأربعين بعد أربعة أيّامٍ؟

صرختُ به مفجوعًا:

- أربعة أيّام؟

- أجل. عيد الغدير في الثّامن عشر مِن هذا الشّهر. ويكون تقديم الذّبيحة أوّل المراسم!

- في عيدكم المقدّس تَسفكون الدّم، وتأكلون التّراب، وتُرتّلون «دسا أوتار» بدلًا من القرآن. أهذا هو دينكم الذي تعتقدّون؟ وبِهذا صرتُم هُداةً مَهديّين؟

ضحك هايثام. هزّ رأسَه ورفع حاجِبيْه متفاجئًا من علمي بِأسرار احتفالاتهم:

- نحن لا نأكل التّراب. ذاك هو «آب شفا»، وهو ماءٌ مُبارَكٌ يُذهب سَقم الجسم وهَمّ القلب، نخلطه بِتربة كربلاء المقدّسة، فإذا هو رحمةٌ للمؤمنين.

- سمعتُكم تُردّدون أيضًا كلمة «تالافار»، فهل كنتم تتحدّثون عنّي؟

لم يبتسم هذه المرّة بل صارت ملامحه أكثر صرامةً وقسوةً:

- نعم، كنّا نتحدّث عنك، وتلك كلمة كُوجاراتيّة ترجمتُها «السّيف».

انتفض جسدي وانخلع قلبي. تمسّكتُ بالقضبان كي أجتنب سَقطةً عنيفةً بِسبب دُوارٍ مُفاجئ. لم أعدْ قادِرًا على كلامٍ أو راغبًا في استفسارٍ، لكنّه واصل حديثه ببرودٍ:

- قُتل الأستاذ حسين وا أسفي عليه بِضرب عنقه. قتَله سَيّافُ السيّدِ حسن المُلقَّب لحّاس الدّم، وهو رجلٌ ذو قوّة جبّارةٍ، فصل رأسَه عن جسده بِضربةٍ واحِدة وأطاره في الفضاء زُهاء

عشرة أمتارٍ، فحرص أسلافُنا، ومازلنا، على قتل ذبيحته كلّ عام بالطّريقة ذاتها!

حاولتُ أن أصُمّ أذنيّ، أن أثقب طَبلتَيّ، أن أصرخ به: «اخرس قطع الله لسانك» لكنّ حنجرتي غصّت واختنقت، فلمْ أستطع أن ألفظ حرفًا واحِدًا، واسترسل وجهُ النّحس في كلامه دون اهتمامٍ:

- لا يمكن لِطلق الرّصاص ولا لِحبل المشنقة أن يُعوّضا شيئًا من الرّعب الذي يُحدثه صليل السّيف حين يُسحب مِن غِمده، هل تفهم ما أعنيه؟ صليل الحديد يحتكّ بِحديدٍ، الحدّ المسنون والرّقبة العارية...، مشاعر فظيعةٌ انتابت الأستاذ المظلوم عند قتله يجب أن تشعر بها ذبيحتُه كلّ عامٍ حتّى تكون حقًّا ذبيحتَه!

وهنت قبضتي وسالت أصابعي. لم أعد قادرًا على التّمسّك بالقضبان لأظلّ واقفًا وراء الكوّة. حاولتُ السّيطرة على عضلات ساقيّ حتّى تكون سقطتي بأقلّ ما يمكن من أذًى، لكنّ ظهري ارتطم بالأرضيّة الرّخاميّة ارتطامًا عنيفًا. أطلّ عليّ هايثام من الكوّة ساعِيًا إلى تعزيتي بعد أن أقام جنازتي وحفَر قبري:

- مهلًا يا رجل لا تكن جَزوعًا. ما تزال فرصتك في الحياة قائمةٌ. فقتْلك يستوجب موافقة الإمام شخصيًّا، وفي كلّ عامٍ تُرفَع إليه طلباتٌ كثيرةٌ من عُمّال الولايات لتقديم ذبيحة الغدير. مَن أدراك أنّه سيختار ذبيحة والي إفريقيّة؟

ظللتُ طريحًا عند مَسقطي، رأسي دُوارٌ وارتجاجٌ، وجِلدي قُشعريرةٌ لا تنفكّ وحُمّى...، لا أدري كم مرّ من الزّمن حتّى انفتح باب الغرفة الحديديّ، ووقف عنده هايثام مسلّحًا بِعصًا غليظةٍ. هايثام الذي كنتُ أسعى جاهِدًا لدى جنود الأمم المتّحدة من أجل حماية طائفته التي تُسحَق تحت أرجُل الشّافعيّة والإباضيّة في زنجبار، وكُنتُ أشرف بنفسي على إيصال المساعدات إلى الأحياء التي يسكنها أهل عقيدته... وقف ذاك الرّجل بباب الغرفة مُسلَّحًا بِعصًا غليظةٍ وهو يرمقني حذِرًا مُتوجِّسًا، وقال لرفيقٍ يتبعه: «هيّا ادخلْ». دخل رجلٌ أسمر أشنب طويل طولًا مُزريًا يحمل قعّادة مرحاضٍ من البلاستيك موصولةً بِحاويةٍ من تحتها لجِمع الفضلات عند استعمالها، فوضعها في طرف الغرفة، ثمّ خرج فجاء بِسطلٍ كبيرٍ مليءٍ بالماء، ثمّ عاد فدخل عليّ ثالثةً بِحاويةٍ فيها طعامٌ وغلالٌ وقوارير ماءٍ وعصير. كلّ ذلك وهايثام واقف وقفتَه الحذِرة لا يرفع عينيه عنّي، يتوجّس من تمرُّدي عليه، ويرسم في مخيّلته خطّةَ الاشتباك معي وتوجيه هراوته إلى مَقاتلي، حتّى إذا أنهى صاحبُه ما هو فيه أوصدا عليّ البابَ وانصرفا.

صار الزّمنُ كتلةً من الصّخر على صدري، عجلةً ثقيلةً بطيئةً كرّارةً تُمزّق قلبي شرّ مُمزَّقٍ. أَذرع الغرفةَ طولًا وعرضًا، فطولًا وعرضًا. أعود إلى الكوّة وأُسرّح نظري حتّى تمثال السيّد عليّ، أحادثه وأناجيه وأقول له: «آه يا أبا تُراب، كم من الجرائم ارتُكبت باسمك»، لكنّ التّمثال الأصمّ لا يُجيب. يكنفني الصّمتُ والفراغ ودبيبُ الموت. يُؤرّقني التّفكير في أبنائي الصّغار وقد صار يُتمهم

حقيقةً مُرعبةً، أفكّر في أمّي المسكينة وزوجتي المخذولة. مرّت عليهم أيّامٌ من الحنظل والخوف ولا شكّ، فما أظنّهم تركوا مخفرًا إلّا طرقوه بِرؤوسٍ منكوسةٍ، ولا مستشفى إلّا بحثوا فيه بِقلوبٍ واجفةٍ محزونةٍ. تُرى هل يرمي إليهم القتلة بِجثّتي لدفنها أم يرمون بها إلى الكلاب؟ جرّبتُ الصّراخَ وضربَ الحيطان وتِلاوة القرآن والتّرنّمَ بالشّعر والأذكار والغناء البدويّ... ثمّ أعود في كلّ مرّةٍ لِترصُّد هايثام لعلّي أظفر منه بِكلماتٍ تطفئ شيئًا من اللّهيب الذي ما انفكّ يأتي على قشّ الصّبر القليل. لم يعد هايثام يكلّمني بتاتًا. ربّما كان سادته قد أمروه بذلك. يدخل أحيانا إلى الغرفة الكبيرة فيُقبّل التّمثال المَهيب ثمّ يجلس لِصلاته غير مهتمٍّ بِندائي أو صرخة احتضاري، يرتّل ما شاء من الأوراد عن ظهر قلبٍ، أمّا حين يكون وحيدا فإنّه يقرأ تراتيلَه من كتابٍ صغيرٍ يُخرجه من جيوبه الدّاخليّة مُتلفِّتًا، فيُمسكه بِعنايةٍ ورَهبةٍ وحذرٍ كأنّما يَخشى أن يُخطَف منه! سمعتُه يقرأ منه تلاواتٍ غريبةً: «أشهد وأُقرّ وأدين وأعتقد أن لا إله إلّا اللهُ مولاي أميرُ المؤمنين الأنزع البطين! فتَح لنا الفتحَ المبين، نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ. وأشهد أنّه اخترع السيّدَ محمّدا مِن نور ذاته وغاية مُتجلّياته اختراعًا كدويّ الماء من الماء أو كشُعاع الشّمس من الشّمس...، وأشهد أنّ السيّدَ محمّدا خلق السيّدَ سلمانَ بِأمر باريه وقدرة مُنشِئه وجعله بابًا ومُبوِّب الأبواب، لا دُخول لله إلّا منه ولا معرفة إلّا به، وهو سلسل وهو سلسبيل، وأشهد أنّ السيّدَ سلمان اختصّ لِنفسه الخمسةَ الأيتام وجعلهم رؤوسَ العلم

والإيمان، مستورين على أعدائهم، منصورين تحت الفلك الدّائر مِن مشارق الأرض إلى مَغاربها، مِن جابلقا إلى جابَرصا إلى مدينة الأحقاف إلى مراصدة الأكتاف إلى مدينة النّبيّ محمّد سامرّاء، فيها اتّفق رأينا ورأيُهم ورأيُ سيّدنا الحسين بن حمدان الخصيبي بِأنّهم لا يَشُكّون ولا يُشركون، ولا بِسرّ الله يبيحون. ولا يَخرقون لله حجابًا، ولا يَدخلون لله إلّا مِن باب... اللّهمّ اجعَلني وإخواني المؤمنين مستورين، يا ربّ العرش، يا عليّ يا عظيم!».

كان هايثام مستغرقًا في صلاته، يقرأ من كتابه الصّغير الخبيء، فسمعتُه مبهوتًا، فما تلك عقيدة الإسماعيليّة النّزاريّة إلّا أن أكونَ جاهِلًا ببواطنها. وأشدّ فِرَق الإسماعيليّة غلوًّا، فيما أعلم، تُمجّد عليّا ولا تُؤلّهه. سكت قليلًا ريثما تناول شربة ماءٍ وغيّر جلسته فعاد إلى تلاوة أوراده: «اللّهمّ سيّدي إنّي أسألك بِحقّ الثّالوث الأقدس عين ميم سين، عين ميم سين، عين ميم سين، عين ميم سين...»، ظلّ يُردّدها بِلا نهايةٍ وهو يَخفض رأسَه ويُعليه بِلا توقّفٍ، وظللتُ أُناديه: يا هايثام، يا عبدَ الله، يا زنجباريّ، يا خادمَ الأئمّة...، لكنّه لم يُلقِ إليّ بالًا ولم يلتفت ناحيَتي حتّى أتمّ أورادَه وانصرف. فلمّا حلّ صباحُ اليوم الرّابع جاءني بِنفسه حتّى وقف على الكوّة فقال لي:

– عيدك مُبارك يا رجل!

– عيدك مُمُّمُّ...

غصصتُ بالكلمة إذ تذكّرتُ معنى كلمة «عيد» الفظيعَ. قُمتُ إلى الكوّة فألفيْتُه منصرِفًا دون أن ينتظر ردّ تحيّتي. كان في

لباسٍ جميلٍ وهيئةٍ حسنةٍ، تضوع منه رائحة المسك، فالتفت إليّ بعد مُنصَرَفه كأنّما نسي أن يقول شيئًا:

- سنجتمع بعد قليلٍ مثلما يجتمع أصحابُ ذبائح الأستاذ حسين في كلّ مكانٍ من الأرض، وننتظر كلمة التّرشيح من الإمام إذ يختار ذبيحة العام. لا نظنّ أنّه سيُزكّي ذبيحةَ إفريقيّة. لعلّ في عمرك بقيّةٌ لأهلك وأولادك!

عاد نحوي خطوتَين فقال بصوتٍ خفيضٍ:

- أخبرنا العارِفون أنّ قربان كشمير أدعى إلى القبول، وربّما يَحظى دون غيره بِتزكية الإمام.

قال ذلك واستدار منصرِفًا وأنا أنادي مِن خلفه، أستمهله، أستحلفُه، أترجّاه فما التفت إليّ. كان قد سمع قرعًا خفيفًا على الباب فهرع إليه:

- عليّ مدد... عليّ مدد... مولاي عليّ مدد... بدأ المُبايِعون في الوفود لِيحتفلوا بِعيدهم المجيد ويشهدوا جريمة قتلي. لا شكّ في أنّهم يَرجون أن يصطفي الإمامُ ذبيحتَهم حتّى يتمجّدوا وهم يتلمّظون دمائي. لمْ أكلّمْ أحدًا منهم ولم أحاول ذلك، فالعقيدة صارت عندهم صممًا وعمًى. ضحك منّي هايثام منذ أيّامٍ حين حاولتُ إقناعَه بأنّ قتلي عملٌ غير صائبٍ:

- في عيد الغدير نقتل شخصًا بالظّنّة والشكّ، وقد يكون حليفًا لنا أو واحِدًا منّا، أمّا أنت فأراكَ تُقتل باليقين،

يقيننا من عداوتك لنا واستعدادك للغدر بنا... أنت تُقتل باستحقاقٍ لا شكّ فيه!

بدؤوا في الجلوس حول التّمثال، وكلّما زاد عددهم تكاملت الدّائرة. كان بعضُهم عند الدّخول يأتي غرفتي فيجعل وجهه عند الكوّة ويَنظر إليّ مِن هامتي حتّى أخمص قدميّ كما ينظر جزّارٌ إلى الشّاة أو يَجسّها قبل ذبحها لِتقدير مَبلَغها من اللّحم.

اكتملت الدّائرة وجلس في الوسط عند قدمَي التّمثال شيخٌ منهم ذو لحيةٍ كثّةٍ وعِمامةٍ مُطرَّزة. بلغ عددهم زُهاء ثمانين شخصًا فبدأ الشّيخُ بِتلاوة الصّلاة والأدعية وهم يسمعونه صامتين حينًا ويُردّدون من ورائه حينًا آخر. فإنّهم لَفي خشوعهم حتّى صاح شيخُهم وهو يَكُفّ عن الدّعاء فجأةً: «سُكوت، سكوت، سيتكلّم الإمام». وضع أمامَه آلةً يَصدر منها صوتٌ واهنٌ غير مفهوم، فتطاولت أعناقهم وأرهفوا أسماعَهم، وخشعوا واستماتوا، أمّا أنا فلَم أستطع أن أستبينَ من مكاني عند الكوّة كلمةً مِن خطبة إمامهم، لكنّي فوجئتُ بهم يَنتفضون جميعًا في لحظةٍ واحِدة كأنّهم جسمٌ واحِد ويهتفون بالتّكبير وتمجيد عليٍّ. وما هي إلّا هُنيهةٌ بعد ذلك حتّى سكت الجهاز وقال الشيخ:

- هنيئًا لكم تزكية الإمام ذبيحَتكم! لقد اصطفاكم من بين كثيرين وضعوا بين يديه ذبائح، فاشكروه لِمنّه عليكم وفضله.

أحسستُ بِخنجر الصبّاح ينغرز في قلبي، وكمّاشة قويّة تعتصر جسدي كلّه. وقفتُ قُبالة الموت في نهاية الرّحلة وجهًا لِوجه، كياني

الضّعيف الفاني أمام جبروته الطّاغي. عويل أبنائي في جوف أذنيّ، وليس من وسيلةٍ للخلاص. ظللتُ مُسمَّرًا عند الكُوّة كقطعة قديدٍ يابسةٍ معلَّقةٍ. هتف الشّيخُ مُوجِّهًا كلامَه إلى رجال أمنه وقد كانوا يقِفون خارج الدّائرة يَرتدون ملابس من الجينز: أحضِروا إليّ المشبوه هايثام زامبيزي! انصبّوا على هايثام، ذاكَ الذي أعرفه، وهو مُقرفِص بينهم في الحلقة الكبيرة، آمِنًا مطمئنًّا، فأمسكوا به وأخذوه إلى الشيخ بين قدَمي التّمثال الصّامت البارد، فما بلغه إلّا وقد ارتسمت على وجهه صورة الرّعب القاتل فبَرك وقد عجزت ساقاه عن حَمْله وواجهه الشيخُ بصوتٍ صدئٍ ووجه مُظلم:

- هايثام زامبيزي، أيّها الزّنجباريّ الكاذبُ الأفّاك! لم تكن يومًا إسماعيليًّا نزاريًّا، ولا آمنتَ بِشيءٍ مِمّا نُؤمن به. أنتَ نُصيْريّ تعبُد الثّالوث عَيْن مِيم سِين، وتُؤمن بِتجلّي الله في أجساد البشر، وتقول بالتّناسخ واتّحاد المخلوق مع الخالق...، وكلّ ذلك كفر بَواح فلعنة الله عليك حيًّا وميْتًا! مادام أمرُك كذلك يا زنجباريّ فلماذا دخلتَ طائفتنا، وانتسبتَ كذِبًا إلينا، وغششتَنا سنواتٍ طويلةً؟

كان هايثام كفرخٍ منتوفٍ بين عماليق ثلاثةٍ، تقتله المفاجأة الرّهيبة التي لم يتوقّعها. فهِمتُ أنّهم قد جعلوني طعمًا لاصطياده وطمأنته حتّى اللّحظة الأخيرة، لا شكّ إذَن في أنّهم قد أرسلوا اسمَه وسيرته ومُؤيِّدات ارتيابهم فيه إلى الإمام طالِبين منه الموافقة على جَعْله ذبيحة الغدير، وفي أثناء ذلك جعلوه قيِّمًا عليّ، ونوّموه.

خانته ساقاه وتهالك، فأقامه العماليق بِمسكه من كتفيه، مِن جُمّازته الجديدة التي لبسها صبيحة هذا العيد ورائحة المسك تفوح منها. لم يُجب عن سؤال الشّيخ. ظلّت عيناه تدوران في كلّ اتّجاهٍ، يتفرّس في الملامح... يتفحّص المكانَ والأشياء، كأنّه لا يصدّق ما يرى، أو يَفصل في عقله وحواسّه بين الحقيقة والحلم:

- لا فائدة من إنكارك يا هايثام، فإنّكَ ستُقتَل السّاعة، لكن لا تتحمّل الوزر وحدك، فالذّنب الأكبر ذنْبُ مَن غرّر بك ودفعك إلى هذا المصير، فاذكرْ لنا مَن جنّدك لاختراق طائفتنا؟ وماذا أذعتَ لهم مِن أسرارنا؟

لم يُجب هايثام. ولم يكن قد تكلّم بِكلمةٍ واحِدةٍ مُذ نزلت الصّاعقة على رأسه. بدا أنّ المَدعوّين قد دُهشوا أيضًا للمفاجأة. هل كانوا يستطيبون لحمي أكثر مِن لحم صاحبهم؟ تبادلوا الكلامَ وهم يَنظرون إلى المتّهم نظرة استغرابٍ كأنّما وجدوا أنّ عليهم تصديقَ ما لا يُصدَّق. اقتربوا منه وداروا من حوله. ألقى عليه بعضُهم نظرات رثاءٍ، لكنّ آخرين لكموه أو وكزوا جنبَه حتّى نهاهم الشيخ عن ذلك وأمرهم بالابتعاد عنه:

- إنّ دليلَ إدانتك قابعٌ في جيوبك الدّاخليّة. لقد جئتَ عيدَنا المُبارك ومجمعَنا المقدّس الذي تحوطه الملائكة وأنت تحمل معك كتبَ الإلحاد والهرطقة التي لا تُفارقك ليلًا ولا نهارًا. إنّ في جيوبك الآن يا ضالّ «كتابَ الدّستور» وكتابَ «الرّقعة المقدّسة» ...

انبرى العمالقة يُفتّشونه فأخرجوا من جيوبه كتابَيْن صغيرين مَدّوهما إلى الشّيخ فأبعد يدَيْه وازورّ بِجسده كأنّما قرّبوا منه ثعبانًا أو نجاسةً وهو يصيح:

- أبعدوهما عنّي. أخرجوهما من هنا فحرّقوهما بالنّار. حرّقوهما حتّى آخر حرفٍ.

تفل على يَساره ثلاثًا واستعاذ من الشّيطان الرّجيم:

- اخترقتَ جماعتنا في زنجبار أيّها الجاسوس الوقح، وكنتَ تأتمر بأوامر سادتك في الشّام. أوقعتَ بيننا فِتنًا وأفسدتَ علينا من أمورنا أمورًا، ونحن لا نشكّ فيك، فلمّا علمتَ هجرتنا إلى إفريقيّة أَمَرَكَ سادتُك وغَرَّتْكَ نفسُك الأمّارة بالسّوء بالهجرة معنا والسّعي إلى توهين جهدنا وإفساد قيامتنا، وما دريتَ أنّنا بتوفيق الله ورعاية الأئمّة قد كشفنا خبيئتك وجهّزنا قبرك.

ظلّ هايثام صامتًا مبهوتًا مُتيبِّسًا، يُقلّب عينَيه بين زُهاء ثمانين رجلًا يُحاصرونه بالكره، وقد كان استدعاهم بنفسه ليشهدوا حفلَ جنازته. جاؤوا بِقطعةٍ من الجلد سوداء كبيرةٍ ففرشوها تحت التّمثال، وجاؤوا بِمنكود الحظّ فأوثقوا يديه خلفه وأوقفوه عليها، في المكان الذي كان يُعدّه لِيوقفني فيه، وانشغل أحدُ العماليق بِلبس حزامٍ عريضٍ قد تدلّى منه سيفٌ في غمده حتّى كاد يبلغ الأرض. وقفَ القاتلُ قبالة هايثام. وأجبره آخران، وهو يُمانع، على البُروك على رُكبتيه. وما بقي غيرُ صليل السّيف وضرب العنق. في تلك

اللّحظة الرّهيبة إذ احتبست الأنفاسُ تمرّد هايثام. دفع الرّجلين عنه واستوى واقِفًا مكتوف اليدين وقال بِصوتٍ جهوريٍّ:

- أموت على الحقّ وأسلُك سُبُلَ النّور، وتموتون على الضّلال وترتكسون في الظّلمة! عليّ، محمّد، سلمان... عيْن مِيم، سين، عيْن مِيم، سين. الله تجلّى لكم في جسد عليّ لكنّكم عُميٌ لا تُبصرون. اقتلوني لِأبلُغ التّنَوّرَ النّهائيّ ويكون لي نعيم الاتحاد مع عليّ خالقي، أمّا أنتم فتَرتكسون في أدوار التّناسخ حتّى تبلغوا مراتب القِردة والخنازير...

صاح الشيخ بالسيّاف:

اضربْ عنق الجاسوس الملحد. ماذا تنتظر؟

ظلّ هايثام يهتف بلا توقّفٍ: عيْن، مِيم، سين. عيْن، مِيم، سين. عيْن، مِيم، سين... سمِعتُ الصّليل المُرعِب حين يُسحبُ حديدٌ من حديدٍ، ورأيتُ رأسَ هايثام يَطير بِحركةٍ خاطِفةٍ، فتنفجر الدّماء، يَزْورّ الجميع، ويسقط الرأسُ الدّامي على بُعد عشرة أمتارٍ وترتطم بالأرض جثّةٌ بلا رأسٍ. غامت الدّنيا أمام عينيّ. رأيتُ السّقف يتمايل والحيطان تترنّح. سالت أصابعي فخَرجَت منها قضبانُ الكوّة وصارت من رخاوتها عجينًا. صِرتُ بِلا سند فسقطتُ على ظهري وتلقّفتني غيبوبةٌ بِلا قرارٍ.

أفقتُ ذاتَ زمانٍ في ذات مكانٍ على وجه أمّي تبتسم بِسرورٍ وتحمد الله على سلامتي! لم أكن أعرف ما يجري من حولي. بدا لي المكانُ غريبًا، فما هي الغرفة الضيّقة في «عليّ جي كامندر»، ولا هو منزلي

بالتّأكيد ولا منزل أمّي. حوّلتُ وجهي إلى الجهة الأخرى فألفيتُ زوجتي بِجانبي، وانتبهتُ إلى كفّها الرّقيقة تضغط كفّي بِحنوٍّ. بدأتُ في تجميع أفكاري فما جمّعتُ غير صُوَر الموت وروائح الفَرث والدّم: خنجر الصبّاح الدّمويّ، وسيف الأستاذ حُسين صبيحة يوم العيد في معبد السيّد عليّ يُطيحُ برأس هايثام على بعد عشرة أمتار. استعادت أذناي جلبةً وصُراخًا وبُكاءً وعويلًا وتحسّسَت أناملي لُزوجة الدّم. حاولتُ طردَ الذّكريات الأليمة والاندساس في الأجواء الحميمة الجديدة التي لا أدري كيف قُذِفتُ إليها. عرفتُ بالسّمع والرّؤية والشّمّ وسائر الحواسّ الخمس أنّني نزيل مستشفى، والممرّضات يُوزّعن ابتسامات مُتعبَة تَعبق بكيمياء الأدوية. بحثتُ بين وجوه المُحيطين بي عمّا يُسكّن ألف عاصفة تجتاحني وألف سؤال، لكنّهم لم يتركوا لي فرصةً للسّؤال، ففي كلّ مرّة تقاطعني زوجتي وتطلب منّي أن أرتاح فقط، ولا أفكّر في شيء غير الرّاحة:

– أنت بخير وأمان، ونحن جميعًا مِن حولك. ليس عليك إلّا أن ترتاح.

أمّا أفراد الشرطة فقد كان لهم رأي آخر حين قَدِموا بعد ساعة. سمعتُهم يجادلون الطّبيب بِغضب، حتّى إذا ضاق بهم الجدل قذفوا إليه أوامر باتّة:

– عليك أن تُمضي على خروجه. إنّه بخير. اُنظُرْ إليه يرفع رأسَه كالعفريت، نحتاجُ إليه في التّحقيق فورًا.

قال شرطيّ آخر مُظهِرًا حُجيّةَ موقفه للتّغطية على عجرفة زميله:

- إنّها قضيّة خطيرة ومُركَّبة: قتلٌ وعمالة للخارج وجوسسة. شبكة إرهاب دوليّة أيّها الطّبيب الطيّب قد تُفجّر بك المستشفى بعد ساعة، وقّع الإذنَ بخروجه من أجل أمن بلدك ومصالحه العليا!

أصرّت أمّي على مرافقتي إلى المخفر واحتلّت مكانًا في سيّارتهم. لم تهتمّ بِزجْرهم وصُراخهم وقالت:

- أَنزِلوني بالقوّة إن أردتم. هيّا. أظهِروا مقدارَ شجاعتكم بِضرب هذه العجوز. اضربوها وجَرجِروها...

اضطرّوا إلى الامتثال لها ومُداراتها، ورأت زوجتي اضطرارهم فركبت معنا أيضًا. نظروا إليها شزرًا واجتنبوا خصومةً أخرى مع امرأةٍ قد تكون أكثر صلَفًا من حماتها، لكنّ المداراة صارت في المخفر صُراخًا بِوجهيْهما وشتائم، وأُجبرتَا على المغادرة. لم يهتمّوا لاحتجاج زوجتي على التحقيق معي في حالة صحيّة سيّئة، دفعوها خارج المخفر وهي تتوعّدهم بأنّها ستستقدم محاميًا وتعود فورًا.

كنتُ واثقًا بعد كلّ ما جرى بأنّ الأمر قد انكشف تمامًا، فقرّرتُ قول الحقيقة كاملة، على الأقلّ حتّى لا أُتّهم بِقتل رجُلَيْ البهرة، أو بالجوسسة مع هايثام لجهات أجنبيّة، أو بأيّ مصيبة أخرى يختلقونها، فقد صار الاستيلاء على لُقية أثريّة أبسط تُهمة يمكن أن أرمى بها. رويتُ لهم في المخفر الكبير القصّةَ كلّها منذ سقوط ساق حطّاب في حفرة، وعثوري على رقائق مكتوبة، وهروبي من الحطيب، حتّى مَقتل الهنديّ الأعرج ثمّ مقتل الأقرع

والأفطس. ما عدتُ حريصًا على طمس خبر الرّقائق عن الشرطة فقد ضاعت منّي ولن تعود، وخلصتُ من كابوس مُصادرتها. قال لي الضّابط المُحقّق:

- جنيتَ على نفسك ولن تفلت بفعلتك. سبق لنا التحقيق معك في الأمر فزعمتَ أنّك لم تنزل القبر ولم تأخذ منه شيئًا.

- كنتُ أقرأ الرّقاع وكانت ذات قيمة تاريخيّة هامّة، فخفتُ أن تصادروها منّي.

- لو صادرناها لما استطاع الجُناة السّطو عليها، ولَكُنّا أخذناها إلى معهد التّراث الوطنيّ، ويمكنك هناك الاطّلاع عليها كما تشاء، ولكنّك أردتَ الاحتفاظ بها وتلك سرقة مُبيَّتة، وانتهت الجريمة بجريمة أخرى، فسُرق المسروق من السّارق.

كان ضابط أرفع رتبة يحضر التّحقيق ولا يتكلّم، فقال آنئذٍ:

- أشكّ في كثير مِمّا قاله، فَمَن كذب مرّةً سهُل عليه الكذب ألفَ مرّة. لا أحدَ أحرق القبرَ غيرُه. هو الذي نهب المكاتيبَ وسائرَ ما في القبر من حُليّ أو غيره، وهو صاحبُ المصلحة في ذلك الحرق الذي يطمس مَعالم السّرقة. وأعتقد وجاهةَ اتّهام المرحوم حطّاب له بالسّطو على ذهبٍ ونفائسَ أثريّة مع الرّقاع.

اختتمتُ كلامي قبل أن أسكت بعد ذلك يائسًا من جدوى الحوار معهم:

-والله ما بقي لي شيء ممّا أَعلمُه مكتومًا، فافعلوا ما بدا لكم.

أخذوني إلى غرفة أخرى في طابق أعلى، وهُناك تلقّفني مُحقّقون آخرون على وجوههم قتَرة، فراحوا يسألونني عن ملامح القاتليْن من جماعة الخوجة الباطنيّة، ميرزاخان وجايا ماران. طلبوا منّي وصفًا دقيقًا، ثمّ وصفًا من بعد وصف، ومزيدًا من الوصف، والرّسّامُ الجنائيّ يُحوّل كلماتي إلى خطوط وأضواء وظلال، ويطلب منّي مرّةً بعد أخرى أن أطّلع على الرّسم وأُبدي رأيي فيه، فيمحو شيئًا ويُثبت آخر، حتّى استوى الرّسمان بأفضل مُحاكاة. وحين انتهى التّحقيق وتنفّستُ الصّعداء آمِلًا العودة إلى منزلي ضحك منّي الضّابط وقال:

- أنت موقوف أربعة أيّام على ذمّة التّحقيق، وسوف تُحوّلك النّيابة العموميّة بعدها إلى السّجن بلا شكّ. ملفّك أسود بِلون القطران!

وضعوا الأصفاد في يديّ وقادوني إلى غرفة الإيقاف، فرموني بين وجوه كالحة مُتربّصة وأغلقوا عليّ وانصرفوا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

﴿متن﴾

* مزمور الوصيّة *

١.بلغتُ من العُمر عِتيًّا يا بزركُ ،
وقريبًا تُصبحُ مِن بعدي إماما
فاحفَظْني خيرًا في العُبْدان وفي الفقراء
فقد كانوا أسيافا لي وسِهاما ،
ولْيَذبَحْ عبدٌ سيّده ويأتينا
فعبيد بمُعسكرنا صاروا أجِلّاءَ عِظامَا
حرّرْ يا بزرك عُبُدًا وإماءً وموالِيَ
تغنمْ جيشًا مِطواعًا مِقدامَا

٢ .قد أعجلني ريْبُ الدّهر ، فلا تَدع الكلبَ الإفريقيَّ
حتّى تُنفذَ فيه غضبي ،
ولَغَ الكلبُ بِآنيتي فحكمتُ بِرِدْمه والآنيةَ تحت التُّرَب
قد نجَيا مِن ضرب السّيف ولُجّ البحر ،
وعادا حَيّيْن من الجبل الصّعب

٣.لا غُنْمَ لحَسَن مِن ضرْب الجذع اليابس بالحجرِ
– قال الملك المرسَل – غيرَ التّعب
حوّلْ مجرى الماء ، وسُدَّ البئرَ بإحكامٍ – قال الملَكُ–

سيموت الجِذعُ من السّغَب ،
لا تترك بهما يا بزرك قطرة ماء ،
واجعلْهما أيْبَسَ أجْوفَ مِن قصب
واجْعَلْ ردْمَ الكلبِ وآنيتي جانِبَ أوسٍ مِن جهةِ الغرْب .

٤.احفرْ يا يزرك واحفرْ حتّى تغبرّ لحيتُك سبعةَ أمتار بِتمام ،
فلا تبلُغْ قطرةُ ماء قطعةَ جلدٍ أو بعضَ عِظام
لم أُدرك منهما غيرَ التّجفيف ، ولو أنّه موْتٌ لَبلغتُ مَرامي ،
لكنّي أخنُق أفكارَهما أن تَفشَى بين شُعوب وأنام .

٥ .أوصيكَ بِنفسك أوميدُ ، وأوْلى منك ومنك بفتيان النُّخبه
فبِهِم تَضربُ في أصقاع الأرض ، وتَرفع مجدًا للقمّه
الحربُ تسمّت باسم آخر :
أن تتسلّل بين عدوّك ساعةَ نُهزه
أن تتخفّى أن تترصّد ، حتّى تنالَه عند الغرّه .

٦ .لا تصطفِينّ فِدائيًّا حتّى يتدرّج في التّلقين ،
ويجتاز الدّرجات السّبعة ،
ويُسافِر في الدّين مِن الظاهر ويخوض بواطِنَهُ الفذّه .

٧ .لا تَصطفِينّ فِدائيًّا حتّى يَصير علِيًّا مِن روح عَلِيّ
عند يمين العرش ، وعند السِدرَهْ .

نَسخًا يُصبحُ مِن روحِ شُعيْبَ(*)، ويحيى، زكريّا وصالحَ(*) ومُحمّدَ(*)
وتكون وِلادتُه البرّهْ
فإن ذاق عُسَيْلةَ فردوس الكشف
هانَ عليه الموتُ لِدُخول الجنّه.

﴿حاشية﴾

قال شُيوخُنا: أوّل مَن قال بالبَداء(**) المُختار الثّقفي في الكوفة، إذ أخبر جيشَه قبل المعركة أنّ الله وعده النّصر وأعلمه به، فلمّا انهزم قال لهم: «إنّ الله وعدني النّصرَ ثمّ بدا له من بعد ذلك». فلم يَزل النّاسُ بين مُقرّ بالبداء ومُنكِر حتّى أثبتَه سيّدُ الجبل حسن الصبّاح، وكان أن اشتدّ عليه المرضُ فقال للنّاس في القلعة إنّ الله قد دعاه إليه والملائكة صُفوف في انتظاره، لكنّه ما فتئ أن أبلّ فاستقوى فصار بأحسن حال، فقال لهم: «إنّ الله دعاني واستنفر ملائكتَه لاستقبالي ثمّ بدا له من بعد ذلك». وكان إذ دُعِيَ للتّهيُّؤ للرّحيل، ووقفت له الملائكة في السّماوات العُلا قد بعث في استقدام بزرك أوميد عامله في قلعة لمسر ليستلم من بعده شؤونَ الإمامة والحكم، لكنّه أبطأَ عليه والمرض يشتدّ به حتّى خشي ألّا يُدركه، فكتب وصيّتَه وأمر بإبلاغها إيّاه، لكنّه أبلّ بعد ذلك وقام لِما انتُدِبَ إليه من الجهاد

(*) كذا في الأصل الذي استلَمتُه في ألموت نقَلتُه كما ورَد. والأصحّ الكسْرُ والتّنوين والعطفُ والله أعلم.

(**) البَداء: مصطلح خِلافي عند أصحاب المَقالات معناه أن يُقرّر الله أمرًا ثمّ يفعل أمرًا آخر.

وأنفذ بِنفسه ما كان قد أوصى به خلَفَه، فاختطّ «كتاب العُبدان والفقراء» وفيه «إنّ كلّ عبد هرب من سيّده وأتانا فقد عَتق من الرقّ، وكلّ عبد ذبح سيّده وأتانا فقد عتِق وسقط عنه الدّم، وكلّ فقير أو مسكين اختار جماعتنا كفيناه مؤونتَه ولم نُحوجْه إلى غيرنا... »، ونسخ رجالُه من الكتاب نُسَخا كثيرة وزّعوها في كلّ أنحاء قوهستان ورودبار والدّيلم حتّى قزوين، فهرع إليه من المستضعَفين خلقٌ كثير جعل منهم فِدائيّين مُحنَّكين.

وكان ممّا ثقُل عليّ في وضع هذه الحاشية اختلافُ شيوخنا وأهل العرفان منّا في أمر التّرنيمة الثّانية من مزمور الوصيّة فمَن المقصود بالكلب الإفريقيّ الذي طلب السيّدُ من وصيّه أن يَردُمه تحت التّراب؟ وقد تكلّم بِصيغة الإفراد ثمّ التّثنية ما جعلَ العُسرَ أشدّ عُسرًا. فلم أزل تخبّ بي راحلتي مِن بلد إلى بلد بين عارِف ودَعيّ حتّى أتيتُ أماياس الصّنهاجي، وكان قد ترك الشّام وسلميّة هارِبا من الباطنيّة، واستقرّ بِجوار الوزير فخر المُلك في نواحي نيسابور بضاحية يُقال لها رُستاق بشتفروش، فقُلتُ له إذ استقرّ بي المجلسُ عنده: «بلغني أنّك كنتَ عبدا يا أماياس حتّى عَتقتَ فاستغنيتَ وبلغتَ من بسطة المال وسعَة الأرزاق ما لا يبلغه الأحرار والأشراف، وما أظنّ أنّ ابنَ ضُبارة إذ أعتقك قد ملأ عديلتك بالدّنانير الذّهبيّة»، فقال: «والله ما كان لي يوم عَتقتُ أبيض ولا أصفر، ولا كُراعا من الشّاء، ولا شِبرا من الغبراء، ولكنّي بارعٌ دارِعٌ واسعُ الحيلة أقدح فكري فأنتزع طعامي من صخر وأستخرج شرابي من غَوْر، ولولا ذلك منّي لَمتُّ جوعًا ككلب بين الخرائب»، قلتُ له: «فاذكُرْ لي من ذلك ما يَدفع عنك، فقد تركتُ النّاسَ في سلميّةَ يقولون: قطَع الطّريقَ فقتَل وسلَب، فبذلك استغنى، ولو كان شرعٌ وعدلٌ لقُطِّع مِن خلافٍ!»، قُلتُ له ذلك وما علمتُ أحدا

من النّاس يتّهمه بشيء، ولكنّه إن دافع عن نفسه بإنكار السّلب وقطع الطّريق فلا بدّ له من الحديث عن رحلته إلى قلعة ألمُوت حيثُ غنم مالًا عظيمًا، وقد وقع بظنّي أنّه ما علمَ خبر كلب إفريقيّة إلّا أثناء تلك الرّحلة الّتي التقى فيها أسَاطين أَلمُوت، فحدّثَني في تلك اللّيلة تحت قمر نيسابور أصدقَ حديث. قال: «لم أزل أغذّ السير صحبة سيّدي حبيب بن أوس وعبْد يُقال له مرزوق عائدين بغُنمنا العظيم، إذ خطفنا مريم المكتومة من بلاد الإسكندريّة، فلمّا بلغنا برقة وأمِنّا من المطاردة قرّر سيّدي أن يَبَرّ بنذره للّه ووعْده لي، فقال وهو يضع يدَه على كتفي ممتنّا: «أنت حرّ لوجه اللّه ولِما فعلتَ من أجلي يا أماياس، فاذْهبْ أنّى شئتَ من وجوه الأرض»، قلتُ له وأنا أقبّل يده وأبكي: «قد عشتُ في إفريقيّة عبدًا، وسُقيتُ فيها ذُلّا، فواللّه لا أَلقُمُ فيها لُقمةً حتّى يجعل اللّه لي حظّا من الدّنيا، ويُسرًا بعد عسر، ولأضربنّ في الأرض فأشُقّ لِنفسي سبيلا يرفعني». فلم أزل أضرب في أنحاء مصرَ والشّام حتّى استقرّ بي المقام في سلميّة، وعرفتُ بها رجالًا من الباطنيّة عمِلتُ في مَزارعهم، فعلِمتُ شيئًا من عقائدهم وكدتُ أبايعهم لكنّي لم أفعل. فإنّي لأعمل يومًا في غراسة الزّيتون بأرض رجل منهم حتّى وقعتُ عند الحَفر على سيف قديم قد اهترأ غمدُه لكنّ نَصْلَهُ ما يزال لامعًا وحدَّه قاطعًا، وكان بديعَ الصّنعة عليه نُقوش وزينة، فخطرت لي حيلة تُرضي تخرُّقات الباطنيّة وتضمن لي عطاءً حسَنًا، فقد رأيتُ منهم ميلا إلى تصديق الخُرافات، ورأيتُ الشّعوذات لهم متّكأ، وبين أيديهم مال كثير، فألقيْتُ حبالَ الودّ نحو رجُل منهم ذي ركن شديد حتّى سعى لي، ووقفتُ بين يديْ أبي طاهر كبير دُعاتهم وقائدهم في الشّام، وكان متحصّنًا بقلعة أفاميا، فقلتُ له: «أبشِرْ يا سيّدي بِصحّة معتقدك والنّصر على عدوّك، فواللّه لا

تُغلَب الباطنيّة بعد هذه البشارة أبدًا....» كان يجلس في غُرفة مُعتمة رغم وضح النّهار، تكدّست على أرضها سُيوف، وعُلّقت على جدرانها خناجر، فجاهدتُ لِكظم خوفي وقد كان انكشاف أمري يوردني موردَ الهلاك. قلتُ له: «لقد تهجّدتُ يا سيّدي وفاضت أشواقي إلى الإمام الغائب، فظللتُ أناجيه كأنّي أراه وأبكي وأتبتّل حتّى أخذتني سنة من النّوم في مُصلّاي فوق سجّادتي وعيناي نديّتان بالدّموع، فإنّي لَبالإمام المعصوم محمّد بن إسماعيل يأتيني بلباس أبيضَ من البياض وأنقى من النّقاء ونور وجهه يكاد يُعشي عينيّ، وفي يمينه قطعة من الجنّة تجري فيها أنهارٌ من عسل ولبَن وخمْر وترتع فيها حورُ عين كأنّ وجوههنّ فلَقُ الصُّبح، فدنا منّي سيّدي وسيّدُك وقال لي: «أشفقتُ لِبكائك شوقًا إليّ فجئتُ لتراني، فإنّك صغيرُ الشّأن عند النّاس عالي المقام عندي، وإنّي مُرسلك إلى أحبّتي أصحاب الدّعوة الجديدة العاضّين على محبّتي بالنّواجذ، فأخبرْهم أنّ بي من الشّوق إليهم أكثر ممّا بهم إليّ، وأنّه ما تقرّب إليّ أحدُهم خطوة إلّا سعيتُ إليه فرَسَخا. وقُل لهم يا أهل شفاعتي ارتقبوا، إنّ أوان رجوعي قد اقترب، وإنّكم لَتُوشكون أن تقوموا من نومكم فتجدوني بينكم...»».

امتلأ أبو طاهر حماسًا ووقف مبتهجًا يكاد لا يتمالك نفسَه من فرط الغبطة والسّرور يقول: وأيْمَ الله يا عبدَ الأئمّة! هل رأيتَ ذلك وسَمعتَه؟ قلتُ: لا نِلتُ شفاعة المستور إن تقوّلتُ عليه حرفا...، وإذ رأيتُه يَفرُك يديْه ويتهجّى كلاما ما استبَنتُه، عُدتُ لأضع على عينيه الغشاوة الأخيرة: «قلتُ للإمام وأنا لا أرفع عنه عينَيّ ولا أشبع من النّظر إلى نور وجهه: يا سيّدي وإمامي، أنا عبدٌ مستضعَف، والنّاسُ لن يُصدّقوني، فاجعلْ لي آية، قال: آيتك أنّي أرسل إليك سيفي بعد

ثلاث، فخُذه إلى صفيّي حسن وقل له: نعْم النّسرُ أنت في عُشّ ألمُوت المنيع. مُبارَك أنت ومَرضيّ، فأثخنْ في عدوّك وعدوّي وشُدَّ الوثاق. وهذا سيفي أودعتُه بركتي لا ينهزم أبدًا». صرخ أبو طاهر صرخة مُنكَرة وضرب على كتفي حتّى كاد يخلعه وقال: هيه، هيه يا رجل. قلتُ: لم أخبر أحدا برُؤياي وانتظرتُ مصداق حلمي فإن أوتيتُ سيفًا استيْقنتُ. فلمّا كنتُ بعد ثلاث أحفرُ أرضًا لأزرع زيتونا، وأرفع رأسي كلّ مرّة أتشوّف يمينًا وشِمالًا لعلّ أحدًا يأتيني مبعوثا بسيف، إذا بفأسي تضرب حديدا في جوف الحفرة، وإذا هو سيفٌ كأحسن ما تكون السّيوف...، هبّ أبو طاهر واقفا يقول: أين هو؟ أين هو؟ قلتُ: إنّه عند حرسكَ. منعوني من الدّخول به عليك. صدّق أبو طاهر القصّةَ وطار جذلًا، ظلّ يُقلّب السّيف، يتتبّع نُقوشه ويَطرح عنها ما بقي عالقا بها من التّراب... يلثمُه، يحضنه ويُمرّره بحُنُوٍّ على وجهه ورقبته، حتّى إذا أفاق من ذهوله البعيد قال لي: أيّها البشير المُبارَك، سأعطيك من المال ما تشاء لِصدقك وأمانتك، وأَجْمَعُ لك النّاسَ عصرًا فتُحدّثهم بِما حدّثْتَني. قلتُ: أجل يا سيّدي أفعل. فإنّما أنا رسول الإمام أبلّغهم ما أبلغني.

لَقيتُ النّاسَ عصرًا فملأتُ قلوبَهم يقينًا وعُقولهم سَفاهة، كذا قالها ظالم نفسه يظُنّ أنّه بمأمن عند فخر المُلك، ثمّ قال: وبتُّ في القلعة مُبجَّلا، فلمّا حلّ الغد أتاني رجُلٌ من أعضاد أبي طاهر يُقال له أبو القنج بمِال كثير وقال لي: اذهَب يا رجل فتجهَّزْ للسّفر وعُد إلينا بعد أربَع لا تعدوها، فإنّا مُرسلوك في سفَر بعيد إلى قلعة ألموت لِتزفّ البشارة إلى سيّد الجبل، وتُنَاوله الأمانة بيدك المُباركة...

أُسقط في يديّ وخشيتُ الهلاك. فقد كنتُ أظنّ أنّ أبا طاهر يأخذ منّي السّيف ويُعطيني ويَصرفُني، وما حسبتُه يُرسلني إلى حسن

الرّهيب، فقد حُدِّثتُ عن ذكائه وعلمه بالسّرائر والسّحر والتّنجيم، وخشيتُ أن يَكشف كذبتي فيقتلني شرّ قتلة، وما كنتُ لأنسى أنّي قد اشتركتُ من قبلُ في خطف ابنته وصار دينُه برقبتي ثقيلا، فكيف أدخل عليه قلعته بسيف كاذب راجيا منه رِفدا وإكراما؟ عُدتُ إلى سلميّة مهموما وأنا أحمل من المال ما يَنوءُ بالعُصبة أولي القوّة. فكّرتُ تلك اللّيلة في الهروب بعيدا، ولكنّ البعيدَ قريبٌ من المُخنجِرة، فإنّهم إذ يَفتقدونني بعد أربعة أيّام يُلاحقونني في كلّ مكان. لو أمهلوني شهرا أو نحوَه لأمكنني بلوغ الأندلس واندسستُ بين العوامّ واختفيْتُ في الزّحام، لكنّ مُهلتي القصيرة لا تَكفي لِهروبي وتدبُّر أمري بعيدا. فاستسلمتُ لِقدَري وقلتُ متصبِّرا: ما حَسَن إلّا كأتباعه في أفاميا، ولسوف أُدبّج له من الكلام ما يُعشي بصرَه.

اشتريتُ في سلميّة على عَجَل منزلًا من أبهى منازلها وما كنتُ أطمع بامتلاك كوخ عند أطرافها، ودفنتُ ما بقي لي من مال تحت شجرة في حديقته، فما أسرع ما انقضت الأيّامُ الأربعة وانطلقتُ عائدا إلى أبي طاهر عودة الحرّاث إلى الجمل الهائج. كنت أحدّث نفسي وأعزّيها. أقول: «سخرت من بلاهتك الأقدارُ وخذلك الحظّ العاثرُ يا أماياس. وقعتَ من الباطنيّة وقوعَ الأعمى في الجبّ السّحيق، وجمعتَ من مالهم ما يجمع من الأفاعي حاطبُ اللّيل. كيف تدخل على الصبّاح قلعته الرّهيبة وقد دخلتَ منزلَه من قبل واقعًا في عرضه فخطفتَ ابنته وسُقتَها إلى سيّدك تشتري بها حريّتك؟ هذا ما فعلتَه يا أماياس حين غاب الصبّاحُ عن بيته أيّام فتنة الإسكندريّة فخلفتَه في أهله شرّ خلَف، وكدتَ تشتري مع حرّيّتك جارية جميلة انتقاها لنفسه من نسل مَرازبة عظام، ما حلم بالزّواج من مثلها أحد من آبائك أو جدودك لولا أنّها رفضت الزّواجَ منك وهرعت

عائدة إلى بيت سيّدها. جُمانة! كانت اسمًا على مُسمّى. كانت درّة مكنونة وجوهرة لا تُدانى احتفظ بها الصبّاح لنفسه، فخطّط سيّدكَ لهروبها مع سيّدتها، حتّى إذا أعتقك في برقة بدأت تلحّ عليه أن يخطبها لك ويزوّجك بها قبل أن يتزوّج هو من مخطوفته...». كنتُ أحدّث نفسي وأبصّرها بمصيبتي حتّى خلّعَت مراتيجَ قلبي فكرةٌ مُدمّرة: ماذا لو كانت جمانة ما تزال مع عائلة الصبّاح؟ وماذا لو رأتني فعرفتني فولولت وضربت فخذيها وقالت: «هذا هو، هذا هو خاطف مريم المكتومة، خذوه فغُلّوه!. » لقد رأتني وتفرّست في طريقًا طويلًا من الإسكندريّة إلى برقة، ولن تُخطئني إن رأتني ولو بعد ألف عام. ومِن هوْل ذلك الخاطر صار أمرُ الذّهاب إلى قلعة ألموت فزَعا يسري في دمائي ورعبا يدكّ أضلعي دكّا، لكنّ فكرةً لمعت بذهني وأنا على أعتاب قلعة أفاميا كانت خير عزاء لقلبي الخافق المكلوم: فحتّى إن كانت جمانة في قلعة ألموت ورأتني فتعرّفت إليّ فإنّها لا تجرؤ على فضحي فتفضح أمْرَها وعلى إيذائي فتؤذي نفسَها!، إذ كانت قد ساعدَت مريم على الهروب وشاركتها فيه، ولولا أن أنكرَت في برقة خطبتي وخافت أن تُرغَم على الزّواج بي ما قرّرت العودة إلى بيت الصبّاح. إنّها تعلم ذلك من نفسها وتعلم أنّي أعلمه، وسوف تخاف عاقبة أمرها إن أفسدت عليّ أمري.

انفرد بي أبو طاهر فظلّ يحادثني ويُلاطفني ويطلب منّي أن أقصّ عليه خبر الرّؤيا الصّالحة والسّيف المبارك فلا يمَلّ من سماعها، ويقول لي: صِفْ لي محمّدا بن إسماعيل...، ثمّ يقول: صفه لي مرّة أخرى... صفه كأنّي أراه. أما لو كنتُ مُستطيعا لقلعتُ عينيك فجعلتُهما في محجريّ لأراه...، فإنّا لكذلك حتّى دخل علينا رجل من حرسه يقول: «سيّدي، سيّدي. لقد أفلت الضّالّان من الموت، وعادا

إليك يمشيان في قيودهما». انتصب أبو طاهر واقفا وصرخ فيهم: تَعنونَ كلبَ إفريقيّة؟، قالوا: نعم... وبدا أنّ أمرا جللا قد حدث فبادر الحُرّاسُ بإخراجي من مجلسه.

علمتُ ممّا تكلّم فيه الحُرّاسُ أنّ حبيبا بن أوس جاء إلى قلعة المضيق مُستصحِبًا زوجتَه طالبا من أبي طاهر مناظرتَه وراجيًا إرسال جنود معهما يوصلونَهما إلى مَقَرّ أبيها في ألموت لمناظرته أيضا، فقد كان يعتقد أنّه بلغ من العلم ما يُؤهّله لإقناع النّزاريّة بالعودة عمّا يراه ضَلالا، لكنّ أبا طاهر قبض عليهما وقرّر قتْلهما، إذ كان يعلم أنّ الصبّاح لعَن ابنتَه وخاطفها، وطَلَب من أتباعه قتلَهما إن أدركوهما، غير أنّ أبا طاهر أراد أن تكون قتلتهما دون ضرب السّيف تعفّفًا عن سفك دماء ابنة إمامه، فأمر بعض جنوده بأخذهما مُثقلَيْن بالسّلاسل إلى جبال بهراء وتنوخ، وأشار عليهم بأن يصعدوا بهما جبل القاموعة ويُلقوهما من قمّته الشّهباء نحو الأودية السّحيقة، لكنّهما عادا سالمِيْن وهلك الجنود... ولم أزل أُلقي سمعًا حتّى علمتُ أنّ أبا قنج كبير دعاة الشّام قد أخبر أبا طاهر أنّ الرّجل وزوجته ما نجيا إلّا بسحر عظيم، وأنّ عليه أن يرسلهما إلى السيّد الأساس، لكنّ أبا طاهر رفضَ أن يُدخل على إمامه ما يكره، واستقرّ الرّأي على إرسالهما إلى بزرك أوميد في قلعة لمسر، فهو نائب السيّد وأولى بالنّظر في أمرهما، وأمر أبو طاهر جنودَه الذين كلّفهم بأخذي إلى ألموت أن يأخذوهما أيضا ويمُرّوا بلمسر أوّلا».

ما إن توغّلنا في الصّحراء حتّى سلّمتُ بحرارة على سيّدي القديم وهو يرسف في أغلاله، وجعلتُ فرسي حِذو بغلته، وتحدّثنا عمّا جرى من حوادث الزّمان بعد افتراقنا في برقة. فسألني عن جُمانة التي رافقت سيّدتها ليلة هروبها، ثمّ ما لبثت أن عادت أدراجها من برقة

ليلة عتقي بعدَ مُنصَرَفِي، فأخبرتُه أنّي لقيتُها في تلك اللّيلة عائدة إلى الإسكندريّة فأبلغتُها مأمنَها، وربّما ما تزال جارية عند الصبّاح، وأخبرتُه أنّ لواعجها بنفسي لم تنطفئ بعدُ، فضحك رغم ما كان فيه من العنَت والشّقاء، وأخبرني أنّ زوجتَه مريم المكتومة لم تزل تحمل ثمّ تُجهض جنينها في كلّ مرّة، حتّى ظنّت أنّ الله منعها الخلَف لخروجها عن طاعة أبيها، فشقيت بهذا الظّنّ، وهو ما جعله يقرّر أخذها إليه في ألموت لمصالحته، وذكر لي أنّه يُريد مناظرة حسن الصبّاح أمام الملإ، وأنّه لوْ فعل ذلك لبيّن له وللنّاس تهافُتَ معتقده، وتناقُض «المقالات الجديدة» التي كتبها. قلتُ له مُشفقا: «كيف خطر لك الذّهابُ إليه في عرينه؟ أما تخشى القتلَ والمُثلة؟ إن كان صاحبُه قد أراد قتْلك قتلةً ما سمِعنا بمثلها في الأوّلين فكيف بالصبّاح؟»، قال: «بذلتُ لابنته الحبّ فبذل لي الكره، والحبّ يغلب الكراهية، وأردْتُه للحجّة والبرهان فأراد لي القتل، والحُجّةُ تغلب البغي».

كان أهلُ القلاع من الباطنيّة آنئذ في أشدّ حالات الحيطة والحذر، وما سُمِح لنا بمغادرة قلعة أفاميا إلّا بعد نصف يوم من الانتظار عند بابها. ففُرسان الصّليبيّين المتمترسين في أنطاكية ما انفكّوا يطوفون حول القلعة مُتربّصين لأخذها، وأمير أنطاكية الإفرنجيّ «تانكرد» يعدّ العدّة لذلك ويُخطّط لِجعْل أفاميا حصنا متقدّما لمواصلة غزواته في الشّرق.

ما إن اقتربنا من قلعة لمسر بعد رحلة طويلة مُضنية حتّى أحاط بنا فرسانُها، فبادرهم جُنود حمايتنا بِكلمة سرّ، ولم يُؤذَن لنا بالدّخول إلّا بعد ساعات.

بدا لي بزرك أوميد كتلة من الشكّ والخبث والدّهاء. ظلّ يُقلّب السّيفَ القديمَ بين يديه بعد أن سردتُ عليه القصّةَ وقبّله ببرود وقال

لي كاشفا عن شكّه بي من دون مُواربة: « كثيرون قد حاولوا خداعَنا من قبلُ فما غنموا غير سفك دمائهم، وأرجو ألّا تكون منهم!». قلتُ: «أعوذ بالله أن أكذب على الهُداة المعصومين، لا نلتُ شفاعتَهم إن تقوّلتُ عليهم كلمة واحِدة». قال مُهدِّئا من روْعي: «حسنًا حسنًا، تكلّمتُ عن آخرين حاولوا ذلك. أمّا أنت فإنّي أظنّك صادقًا، وسوف أجمع لك النّاسَ غدًا فتُلقي إليهم البشارة وتُحدّثهم بِما حدّثتني به» وقال لأحد جنوده: «أعوّل عليك في أمر الضّالّيْن، كلبِ إفريقيّة وزوجته الآبقة. لا تسفكوا لهُما دَمًا فإنّ بعضَه دمُ إمامكم، ولكن انطلقوا بهما في سفينة فارموهما في عرض البحر مُثقليْن بالحديد». أسفتُ كلّ الأسف لِمصير سيّدي الطيّب وزوجته المُحبّة، وقلتُ على حبّكما السّلام في زمن الكراهية، ثمّ مكثتُ في القلعة يوميْن مُعزّزا موفورا حتّى ناداني السيّد بزرك فأعطاني مالا كثيرا وقال لي: «إن عاد إليك الإمام محمّد بن إسماعيل فاذْكُرني عنده أيّها الرّجُل المؤمن، وذكِّرْه بِهذا المُقاتل الذي يُحارب باسمه، ويرجو تأييدَه وشفاعتَه»، فوعدتُه خيرا وشكرتُ عطاءه وودّعتُه وأنا لا أدري أكان يُصدّقني أم يُكذّبني.

بلغنا باب القلعة خارجِين فإذا سيّدي حبيب بن أوس وزوجه مريم حيّان موفوران، وكانا ما يزالان مُصفّديْن في الحديد، وقد وُضعا على جواديْن أخذ بِعنان كُلٍّ منهما جنديٌّ ضخم الجثّة، وإذا هما يَنطلقان معنا في الرّحلة إلى المُوت! كان لقاءً لا يُصدَّق بِرجل مات موتًا وعاد حيّا، قلت له: «لن يبلغُوا منك مَبلَغا. إنّي لأرى فيما بينك وبينهم ما قد كان بين موسى وفرعون وبين صالح وثمود، فأخبِرْني أعزّك الله خبرك معهم منذ مبتدئه»، فحدّثني حبيبُ في ذلك اليوم حديثًا لا أنساه. قال: باتت مريم ذاتَ ليلة تشهق وتنغصُ يكاد الحزنُ يقتلها بعد أن أجهضت جنينها وهي تقول: «كيف يُكرمني الله بِخَلف

وقد أهنتُ سلفًا، وانبَتَتُّ وعَققتُ؟، فجاءني هاتِف في المنام يأمرني بأخذها إلى قلعة ألـمُوت لتصالح أباها، فإنّه ما يلبث أن يشفق عليها إن جاءته، ويأمرني بمُجادلته في معتقده، فإنّه ما يلبث أن يثوب إلى الحقّ إن عرفه ، فقمتُ صباحَ اليوم التالي مغمورا بالعزم، وتجهّزنا وركبنا، وجعلتُ طريقي من حماةَ الشام لأمُرَّ بباطنيّةِ قلعة أفاميا فأناظرهم، وأطلب من أبي طاهر الصّائغ إرسال جنود معنا يُبلغون ابنة سيّده مقرَّ أبيها، فلمّا اقتربنا من القلعة وقعنا بأيدي كتيبة من جنودها كانوا يحرسون أنحاءها، فما إن علموا خبرَنا حتّى جنّ جنون قائدهم وقال: «أمرَنا السيّد الأساس ألّا نبحث عنك ولا عن الآبقة، فإن وقعتُما بين أيدينا عرَضًا قتلناكما. وقد أوقعك الله فلا مَفَرّ لك من القتل» ، فلمّا جهّزونا لِضرب عُنقيْنا، وجعلوا عصابتين على أعيننا، قام بعضهم يقولون: «لا ينبغي لنا أن نَقضي بِأمر حتّى نعود بالأسيريْن إلى القلعة فيرى فيهما داعينا أبو إبراهيمَ رأيَه». فاختلفوا وتجادلوا حتّى هدّدوا قائدهم بالضّرب على يده إن حاول إنفاذ الأمر من دون مراجعة الدّاعي، فأعادوا سيوفهم إلى أغمادها ونزعوا العصابتين عن أعيننا وساقونا إلى القلعة.

قال أماياس الصّنهاجي: سكت حبيب بن أوس فشرب من القربة جرعة وبدا أنّه قد تعِبَ من الكلام، لكنّي رحتُ أستزيده فقلت له: قد علمتُ خبر نجاتكما من السّيف والجبل، فكيف منّ الله عليكما بالنّجاة من البحر وقد سمِعتُ الباطنيّ أوميد يأمر جنودَه بإلقائكما فيه مثقَلِين بالحديد؟ قال: لعلّك دريْتَ وما دريْتَ، فإنّنا حين أشرفنا على بلوغِ قمّة جبل القاموعة يسوقنا جنودُ أبي طاهر تعثّر أحدُهم فاستمسك بصاحبَيْه، وكان ثقيلًا ضخمًا، فأزلّهما وسقطوا جميعا وهلكوا، فزعم ناسٌ من الباطنيّة أنّ مريم تحمل بَركَةَ والدها فما

سعى أحدٌ في أذيّتها إلّا هلك من فوره. وبلغَت الأخبارُ والتّخرّقات قلعة لمسر قبل أن نبلغها، فارتعب الجنود الذين أُمروا بإغراقنا في البحر، واتّفقوا ألّا يَفعلوا، وأَشهدونا أنّهم قائلون لِسيّدهم حين يَرجعون إنّهم أوغلوا بنا في اليمّ فألقونا فيه، لكنّ الماءَ صار مِن تحتنا زُجاجا فمشيْنا فوقه حتّى خرجنا! فلمّا أُخبِر بذلك بزرك أوميد قتله الرّعبُ وأحاط نفسَه بالحُرّاس والأطبّاء، وبالسّحرة والمنجّمين، ولزم غرفتَه في «السّربازخانه» لا يَبرحها، وأمر مِن غير أن يَرانا أو يَلتقينا بِأخذنا إلى حسن الصبّاح في ألموت».

قال أماياس وقد هاجت به الذّكرى حتّى تحدّر دمعُه واختنق صوتُه: «كان ذلك آخر عهدي بِسيّدي حبيب، فما إن دخلنا ألموت حتّى فصلوا بيننا فأخذوني إلى محلّ تبجيل ومعي السّيف المكذوب، وأخذوه إلى محلّ تبخيس ومعه مريم الصّادِقة المصدوقة، وما كانوا يسمّونه إذ يتكلّمون عنه إلّا كلب إفريقيّة.

قال أماياس: كنتُ أنوي العودة إلى الشّام بعد يوم أو بضعة أيّام إن تركني الصبّاحُ حيّا، لكنّي لبثتُ في ألموت الرّهيبة ما يربو عن شهر، وما خرجتُ منها إلّا وقد تَحوّزتُ مالاً وفيرًا، و شفيتُ نفسي بالزّواج من سبِيّة الصبّاح جُمانة بنت المرزبان».

وجَهدتُ نفسي أنا مصنِّف الحاشية على مزامير السيّد في تفسير التّرنيمة الخامسة من هذا المزمور، ومنها قولُه:

الحربُ تسمّت باسم آخَرَ
أن تتسلّل بين عدوّك ساعةَ نُهزه
أن تتخفّى، أن تترصّد، حتّى تتمكّنَ عند الغرِّه.

وكان خير ما عرفتُ في هذا الباب ما أخبرني به سهلُ بن قُباذ

عن أبيه أنّه سمع السيّدَ يُحدّث رجالًا من فدائيِّيه يقول: «الحربُ ما تفعلُه الحيّة، فإنّها تتحصّن في جُحر تعجز عنه السّباعُ الضّارية وهو بين أقدامها وذيولها، فلا تخرج منه الدّاهيَةُ الرّقطاء إلّا حين نُهزة ريثما تنفث سمّها وتقتات، فتبلغ مرادها وتعود إلى مأمنها. ألا ترون أنّ الخوف من الحيّة أمكنُ في القلوب من الخوف من الأسد؟ وإنّما تلك صفةُ الحرب التي تكون آخرَ الزّمان، قوامُها قِلّةٌ تُرهبُ الكثرةَ فتغلبُها، وسيشهدُ النّاسُ أنّنا أوّل مَن ابتدعها».

٧*مولائے علیے مدد*٧

(5)

أربعة أيّام قضّيتها على ذمّة التّحقيق ليلًا نهارًا أثبتت للسيّد حاكم التّحقيق أنّي مُذنِب أستحقّ عقوبةً سالبةً للحريّة، لاسيّما أنّ جريمتي متبوعة بالإنكار والتّضليل، ما يجعل عقوبتها أشدّ، فقد نبشتُ قبرًا واستوليتُ على موجودات أثريّة، وتخابرتُ سِرًّا مع جهات أجنبيّة، ولم أُبلِغ عن مجموعات إرهابيّة.

كانت زوجتي قد فوّضت مُحاميًا لمتابعة إجراءات التّحقيق فقال لي حين صدر الأمرُ بِإيداعي السّجن إنّي سوف أجدهم أمام باب المحكمة عند ترحيلي، وفهِمتُ أنّه يعني نفسَه وأمّي وزوجتي، ورُبّما أيضًا ابني البكر عاصم، لكنّي فوجئتُ والسيّارة تتمهّل للخروج من الباب الكبير بِلغطٍ وصياح وهُتاف باسمي، وإذا جمْع من الأساتذة وأصدقائي وجيراني وأقربائي قد تجمهروا عند باب المحكمة يرفعون لافِتات ويهتفون بِشعارات تطلب إطلاق سراحي، بل ومكافأتي على ما تحمّلتُ من عنَتٍ وما أبديْتُ من كفاح لِمنع تهريب وثائق أو إتلافها وهي ثروة وطنيّة. منعوا سيّارة السّجن من الخروج من باب المحكمة، وحدث تدافع بينهم وبين رجال الشرطة وصار الأمرُ يُنذر بالسّوء. كرهتُ أن تناهم أذِيّة بسببي، فعرضت على

الضّابط الذي كان يُرافقنا في سيّارة السّجن وقد ضاقت به الحيلة أن أُسعِفَه بما يحفظ ماء وجهه: أنزل إلى المتظاهرين فأُطمئنَهم عليّ وأصرفهم عنه. وفعلًا أوثقوني إلى سَجّانيْن عن يمين وشِمال لِمَنعي من الهرب، ونزلتُ إلى النّاس باسِمًا واثِقًا. كانت لحظات غامِرة بالحبّ والحماس. فلو أنّ تلك الدّقائق اليسيرة هي مكافأتي على كلّ ما عانيْت من السّوء بسبب الرّقائق اللّعينة لكفتْني فأوفتْني. أخذوني بين أحضانهم، ووجِفت قلوبٌ ودمعت عيون. وعدوني ألّا يتركوني وحيدًا، ولا يهدأ لهم بال حتّى يُطْـلَق سراحي ويُعادَ اعتباري.. واستطاعت سيّارة السّجن أن تتقدّم بينهم بعد لَأْيٍ وهم يوسِعون لها الطّريق نزولًا عند رجائي.

في السّجن صار أهلي يُرسلون إليّ الجرائد كلّ يوم، وعرفتُ أنّ القضيّة لم تعُد تهمّني وحدي، فقد صارت قضيّة رأي عام. الكلّ يُدلي بِدلوه ويبسط رأيَه، والصّحفيّون يلهثون في كلّ اتّجاه بحثًا عن أيّ معلومة تصنع لأحدهم سَبْقًا، فإن لم يجِدوها ابتدعوها. زعم صحفيّون، معتمِدين على معلومات من إدارات النّقل الجوّي، أنّ القتلَة الثلاثة لم يُغادروا أرض الوطن، واستنتجوا من ذلك أنّهم ما يزالون يرتعون في البلاد، ويُخطّطون لجرائم جديدة، مادامت السّلطات قد فشلت في القبض عليهم وعجزت عن تحديد مخابئهم، فأرعد آنئذٍ مسؤول بوزارة الدّاخليّة مُهدِّدًا باعتقال الصّحفيّين عديمي الوطنيّة والشّرف، بسبب ما رآه إشاعةً للخوف والهرج بين المواطنين، وإطلاقًا لإشاعات مغرِضة تمسّ الأمنَ القوميّ، فالجُناةُ حسب رأيه قد غادروا بلدنا، لكن ليس عبر المطارات والمسالك

المنظّمة كما يظنّ الصّحفيّون البلهاء، فالعناصر الإرهابيّة تنتقل عبر مسالك التّهريب. وعبّر النّاسُ عن إكبارهم لي مشفوعًا دومًا بِشفقتهم عليّ، وقالوا عنّي بِرثاءٍ «إنّ المسكينَ وجد نفسَه بين مطرقة وسندان، مُهدَّدًا بالقتل إن أبلغ عن العصابة، وبالسّجن إن لم يُبلّغ» وكنتُ أشمّ وراء كلّ ما يُفعَل من أجلي أو يُقال رائحةَ صديقي عبد العزيز مزيودات، الذي جعلني أيقونة الوطن، لكنّ قِلّةً من المتبجّحين بِذيول الدّيَكة اعتبروا سَجني مصيرًا مُستحَقًّا لِضعف إيماني بالدّولة وقوّة القانون. وظللتُ أتابع في الجرائد اليوميّة أخبارَ الوقفات الاحتجاجيّة المُنادِية بإطلاق سراحي.

مضى عليّ بالسّجن شهرٌ كامل، تعلّمتُ فيه من الصّبر على المَكاره ما فاتني تعلُّمُه طيلة حياتي، ورفض حاكِمُ التّحقيق تبرئتي أو حتّى إبقائي بِحالة سراح في انتظار موعد المحاكمة. علِمتُ أنّ أستاذًا من مُنافِسيّ قد صار يُقدّم الدّروس لِطلبتي بدلًا منّي، وبدأتُ أتقبّل وجودي في السّجن بوصفه حقيقةً واقِعة وقدرًا مقدورًا. وذاتَ يوم وأنا في الزنزانة وقد تحلّق حولي بعضُ المساجين يسألونني عن أمري، ويلوكون قصّتي الّتي لا تُشبه قصصهم، حتّى انفتح البابُ ونودِيَ باسمي. ثُمّ أُمرت بِحلق لحيتي والاستعداد للخروج إلى المحكمة صباح اليوم التالي.

حوكِمتُ في يوم مجيد لا يُنسى، دوّت فيه حناجرُ ورُفعت لافتاتٌ عليها صُوري، وبلغ اسمي من المجد ما لم يبلُغه بين أروقة الجامعة العتيدة وقد أفنيتُ يبن مدارجها نصفَ عمري. بدا لي أنّ القاضي واقِعٌ تحت ضغطٍ شديد، وأنّه يريد فضّ المشكل

بِأيسر الوسائل وأسرعِ السّبُل. كان قد مرّ عليّ خمسةٌ وثلاثون يوما رهنَ الاعتقال، فحكم عليّ بالسّجن شهرًا وبِخطيّةٍ ماليّة، ما يعني إطلاق سراحي في ذلك اليوم. تعالت الهتافات الحماسيّة وتحرّرتُ من الكابوس مرفوعًا على الأعناق كبطل قوميّ. هنئتُ بالرّقاد تلك اللّيلة ملِكًا بلا تاج وفارِسًا بلا جواد، وكدتُ أصدّق أنّ المحنة انتهت وأنّي خرجتُ منها غير مذموم ولا مدحور، لكنّي أفقتُ في اليوم التالي فألفيتُني في الدّرَك الأسفل من السّرداب المظلم، فما إن ألقيتُ نظري على الجريدة حتّى تسمّرتُ أمام العنوان الأوّل: الحشّاشون مازالوا بيننا: اكتشاف نهبِ قبرَيْ أبي عبد الله الشّيعي وأخيه أبي العبّاس مُؤسِّسَي الدّولة الفاطميّة! ظللتُ أتأمّل العنوان مبهوتًا. مِن أيّ كهف مُحنَّط خرج علينا ذَوُو الأكفان البالية ينبشون كلَّ مستور ويَستعيدون زمنَ الأحقاد؟ رُحتُ أجول بين الجرائد:

- *«رغم تأكيد الحكومة أنّهم غادروا البلاد: الحشّاشون يُكذّبون الحكومة ويَطْفون على السّطح...»*

- *«رائحة الدّم تفوح مرّةً أخرى: نُحمّل الحكومة المسؤوليّة الكاملة...»*

اقتنيتُ نسخة من كلّ جريدة وعُدتُ إلى المنزل مُسرِعًا وقد داهمني خوفٌ عميق ظننته لا يعود. أسرعت إليّ زوجتي وقد رأتني أدخل على غير ما كنتُ عليه. رأت اضطراب مفاصلي وربّما شُحوبًا بِوجهي وصُفرة، فأسرعت إليّ بكأس ماء واندفعت تسألني عمّا جرى. رميْتُ الجرائدَ أمامها على الطّاولة ووقعتُ على الأريكة،

فراحت تقرأ العناوينَ بِعينين نهِمتين، وسرعان ما رَمَتها على الطّاولة ووقعت مثلي على الأريكة. ثمّ قالت بعد لَأْيٍ وقد زاغت عيوننا وكِلانا يَكبت لُهاثَه:

- هل نعود مرّة أخرى إلى الخوف والموت البطيء؟

قلتُ لها من دون أن ألتفت نحوها مُحاذِرًا أن تلتقي عيناي الكاذِبتان بعينيها الفاحِصتين:

- هذا نبشٌ في مكان آخر، وهؤلاء صيّادو كنوز لا علاقة لهم بِما حدث لي. لا تستعجلي الخوفَ وعودي إلى التّلفاز في الغرفة الأخرى.

زمّت شفتيها بانزعاج:

- ليس حالُك حال المطمئنّ، فلا تعُد إلى خداعي في هذا الموضوع.

حاولتُ طمأنتها بأكذوبة، فمِن أين لي بِأكذوبة تنطلي على نفسي؟ الحشّاشون مازالوا هنا وقد يقتلوننا لأيّ سبب، بل إنّهم سيفعلون حتّى إن لم يوجَد سبب، أمّا في ما يخصّني فالأسباب كثيرة وافرة، آخرها ما قلتُه عنهم البارحة أمام كاميرا التّلفزة الوطنيّة وسمِعه آلافٌ من البشر في نشرة الأخبار. لم أطِق صبرًا، وعدتُ إلى الجرائد أتفحّصها لأفهم شيئًا من حقيقة ما يجري: العناوين على الصّفحات الخارجيّة توحي بالاعتداء على القبور وتدنيسها، لكنّ التّفاصيل بالصّفحات الدّاخليّة تنفي ذلك. حسنًا، هذا يتماشى تمامًا مع فهمي للموضوع. يقول كاتبُ أحَدِ المقالات إنّ العظام البشريّة

في القبرَيْن باقية في أماكنها، لكنّ تُرابًا في الرّكن الأيمن من كلّ قبرٍ قد وقع تحريكه، ويبدو أنّ بعض الأشياء قد أُخِذت من هناك، ثمّ إنّ الفاعِلين أعادوا غلقَ القبرين بكلّ إتقانٍ وسوّوا التّرابَ عليهما، وما كان لِأحد أن يفطن للأمر لولا أنّ حارِسًا ليليًّا قد رأى أشخاصًا يفعلون أمورًا غريبة تحت جُنح الظّلام في حقل بِطرف القرية فأخبر صاحبه بالأمر صباح اليوم التالي، وقد وجد خبراءُ الآثار نقشًا حجريًّا عند رأس كلّ دفين يذكر اسمَه ومآثره. مال بي الظّنّ إلى أنّ المعتدين المقصودين ليسوا غير عصابة الخوجة الذين قتلوا رجُلَي البهرة في منزل أختي، أعني ميرزاخان وجايا ماران ومن معهما من العناصر الخفيّة. ولقد عجِبتُ كلّ العجب من دقّتهم في تحديد الهدف، فقد كان القبران المتجاوِران مردومَيْن عميقًا في أرضٍ فلاحيّة، ولم يفطن إليهما أحدٌ منذ مئات السّنين. عدتُ أقدح ذهني وأستذكر معارفي علّني أستطيع تفسيرَ ما جرى: أبو عبد الله الشّيعي الصّنعاني الملقّب بالمُحتسب وأخوه أبو العبّاس محمّد هما اللّذان أقاما الدّولة الفاطميّة بالدّعوة والصّبر والغربة والشجاعة، حتّى إذا استقام لهما الأمرُ مِن كتامة إلى القيروان شنّا حربًا على خوارج سجلماسة بأقصى الغرب لتحرير الإمام الإسماعيليّ أبي عبيد الله المهدي من سجنه ثمّ وضعاه بعد هوانه على عرش مجيد، لكنّه سرعان ما غدر بهما وقتلهما! أنكرت النّزاريّة وفِرقٌ باطنيّة أخرى أن يكون الإمام المهديّ قد أمر بِقتلهما غيلةً، فالإمام المعصوم لا يُقدم على غدرٍ مماثل بِتابع بسيط فكيف بِكبار الدّعاة، لكنّ الحاشية الجديدة التي تكوّنت حول الإمام من الكِتاميّين المُتحمّسين فعلت ذلك وهي تظنّ أنّها

بِفعلها تَعضد الإمام بعد أن ظهر نفوذ الدّاعي الصّنعاني وصار النّاس مُتعلّقين به أكثر من الإمام. أمّا أبو العبّاس فلَم يكن في نظَر عُموم الإسماعيليّين غيرَ تابع لأخيه، لكنّ الفرقة النّزاريّة الحشّاشيّة تجعله في مرتبة عالية لِما عُرف عنه من قسوةٍ وإجحاف في فرض عقيدته على سكّان البلدان التي دانت للفاطميّين، إذ دعا إلى عَرْض النّاس على السّيف وقَتْل كلّ مَن يرفض المذهب الإسماعيليّ لولا أن نهاه عبيد الله عن ذلك وكفّ يدَه. ثمّ إنّه أرسل في الشّوارع مُنادين يسُبّون أبا بكر، وألزم أصحابَ الحوانيت في القيروان أن يضع كلٌّ منهم رأسَ حيوان عند باب حانوته ويكتُبَ عليه اسمَ أحد الصّحابة مِمّن تُبغضهم الإسماعيليّة...، حتّى ثار أهلُ القيروان وكانت بينهم وبين وافِدي كتامة من الجنود والمستوطنين مقتلة عظيمة...

جعلني استذكار هذه الأحداث أفهم السّببَ الذي جعل الإسماعيليّين الأوائل يُخفون قبرَي إمامَيْهم الأجلّين، فقد كانوا لا يثِقون بأهل القيروان، وكانوا يشعرون بأنّ تلك المدينة ليست لهم وأنّهم راحِلون عنها. أمّا أنّ القبريْن لم يُدنّسا البارحة ولم يُحرَقا فذلك ما جعلني أرجّح أنّ النّابشين مِن طائفة الخوجة النّزاريّة أو البهرة المستعلية.

شُغلت باستقبال المهنّئين الذين توافدوا على منزلي طيلة اليوم من كلّ حدبٍ وصوبٍ مسرورين بخروجي من السّجن، فلم أعُد إلى جرائدي إلّا بعد انصراف آخرهم عند العصر تقريبًا. فتحتُ جريدة كان فيها تحقيقٌ مُصوَّر فبُهِتُّ وجمد الدّمُ في عروقي حتّى

تمنّيتُ أنّي ما رأيتُها ولا فتحتُها: هذا الحجرُ المنقوش الذي وجدوه مَرمِيًّا بِجانب القبريْن هو ذاتُه الذي بنيْتُ عليه سياجَ منزلي الخلفيّ! هل قلعوه من سياج منزلي حين كنتُ معتقَلًا؟ ولِماذا أخذوه؟ أم هو حجرٌ آخر يُشبهه جعل الأمرَ يَلتبس عليّ؟ إن صحّ أنّ الحجر المنقوش قد اقتُلع من سور منزلي فالعصابة لا تزال هنا، تحوم حولي، ورقبتي ما تزال تحت السّيف في أيّ لحظة.

حين اشتريتُ قطعة أرض واسعة لأبني عليها منزلًا وأجعل مِن حوله حديقة، كان في طرفها الجنوبيّ حائطٌ أثريّ وافق مكانَ السّور مِن تلك الجهة فأبقيْتُ عليه، وكان أشدّ ما أعجبني فيه حجرٌ صقيل بارتفاع متر تقريبًا عليه نقْشُ أسديْن جليليْن، فأبقيْتُ ذلك الحائط مِن غير ملاطٍ حتّى أحفظ طابَعه الأثريّ ويظلّ النّقشُ الجميل ظاهِرًا. كانت زوجتي بعد مُغادرة آخر الزوّار قد أغلقت أبوابَ المنزل كاشِفةً عن خوفها وتوجّسها، وجلسَتْ غير بعيد من دون أن تمُدّ إلى الجرائد يدًا، ترمُقني بِعينٍ وتتابع التّلفاز بالأخرى. لو استطعتُ لخرجتُ سريعًا أتفقّد الحجر المنقوش في سور المنزل، لكنّ خروجي كان حرِيًّا بِمَلْء رأسها بالأسئلة والمخاوف، فظلّ الفضول الشّديد والحيرة يأكلانني، ورغم أنّه ليس مِن طبعي الوقوف عند المفترقات لم يكن لي بدّ من الصّبر والانتظار، فعُدتُ إلى قراءة الجرائد وتفحُّص كلماتها وصُورها حتّى قطع عليّ الحيرة رنينُ هاتفي، وجاءني صوتُ صديقي عبد العزيز ظِلًّا ورَيًّا كسحابٍ ماطر في سنة كأْداء! أخبرني أنّه قد عاد إلى الوطن، وأنّه

يرغب في رؤيَتي. ولم تغبْ عنه طرافتُه المعهودة: «جئتُ من فرنسا مُحمَّلًا بالشّوكلاطة والهدايا. إن كنتَ لا ترغب في رُؤيَتي فأنا أيضًا غير مُتعجِّل». وإذ اطمأنّ لِوجودي بالمنزل قال مُنهِيًا المكالمة: «نحن قادِمون إليك. انتظرنا بالباب.»

كنتُ مستعِدًّا للفرح بأيّ حدث يكسر العجلة الثقيلة التي عادت تهرسني وتزداد بِمرور السّاعات ثِقلًا وإيلامًا. قامت زوجتي تُعِدّ القهوة وطبق الحلوى للضّيوف، وخرجتُ إلى الباب أقاوم قبضةً تخنقني، وأستشعر نسماتٍ تيبّست في الفضاء حجَرًا وسفَّهَت مبادئ الجغرافيا. قاومتُ رغبتي في الاستدارة خلف المنزل لأعرف مصير الحجر المنقوش، حجر الأسديْن كما كنتُ أسمّيه، ذوَيْ المخالب المعقوفة البارزة. أقنعتُ نفسي بألّا أفعل حتّى أجتنب تصرّفًا يجعل زوجتي تتساءل، فرُبّما ظنّت أنّي سمعتُ مِن وراء المنزل صوتًا أو رأيتُ شبحًا فيزداد قلبُها انقباضًا. بذلك ادّعيْتُ إقناعَ نفسي واتّجهْتُ نحو الباب منتظِرًا زملائي، لكنّي ما فررتُ مِن تفقُّد الحجر إلّا إشفاقًا على نفسي من احتمالٍ سيء لا يَزيدُني إلّا رهبةً وتوتُّرًا.

أعلمني عبد العزيز أنّه قد أُستُدعِي منذ ثلاثة أيّام لِمُعاينة القبريْن المنهوبيْن، فجاء من فرنسا لتلك الغاية، وأنّه قضّى ذلك اليومَ في مسرح النّبْش الغريب. قلتُ باستغرابٍ وأنا أُشير إلى الجرائد المطروحة بين يديّ: «منذ ثلاثة أيّام؟ كنتُ أظنّ أنّ النّبشَ قد حصل البارحة.» فلوى شفتيه وصفّر: «جرائدُكم تلوك مآكل

بارِدة، فالتّحقيق قد أوشك على الانتهاء.» فسألته على الفور السّؤال الّذي يُفتَرَض منهجيًّا أن يكون آخر ما أسأله:

- ما قصّةُ الحجر المنقوش الّذي وُجِد بِجانب القبريْن؟ رأيتُ صورتَه في الجريدة ولمْ أعلم حقيقته؟

قال من دون أن يَقصد توجيه صدمة إليّ:

- حجرٌ كبير عليه نقشُ أسدين رابِضين. يبدو أنّه انتُزِع حديثًا مِن بِناء! ليس ذلك الرّسمُ نقشًا عادِيًّا بل هو رمْزٌ لِدفينة، وهو أيضًا خريطة تدُلّ على مكانها. الجُناة مُتخصِّصون في تلك الأسرار واستطاعوا قراءة الرّمز بِدقّةٍ عالية ثمّ حفروا في المكان المضبوط!

قرّبتُ صفحةَ الجريدة من عينيّ وتفحّصتُ صورة النّقيشة مليًّا. أردتُ أن أراها بشكلٍ مختلف، فقد كنتُ أعايِنُها في حديقتي سنواتٍ طويلةً، فرأيتُ فيها عملًا فنّيًّا رائعًا، لكنّي ما رأيتُ فيها رمزًا ولا خريطة. فقلتُ له:

- إنّها نقيشة أسدين رابِضين، يَنظُران إلى الأمام ومخالِبُهما بارِزة.
- أجل أسدان رابِضان. هل لاحظتَ أنّهما ذكَران وليسا ذكرًا وأنثى؟
- نعم هذا صحيح. فهل لذلك مِن معنى؟
- لو كان مجرّد رسم جماليّ لَرسموا أسدًا ولبؤة فيَجمعون بين معاني القوّة والحبّ والألفة، لكنّهم رسموا ذكريْن لتبليغ معنى. وهل رأيتَ أنّ لِكلّ واحد منهما ساقًا بارزة وأخرى

مخفاةً؟

- نعم ذلك صحيح. أُترُكِ الوصفَ واكشف لي التّأويل من فضلك. كيف تكون تلك النّقيشةُ خريطةً تُقرأ؟ وكيفَ تُحَلّ رموزها؟

- الأسدان يعنيان أنّ الدّفينة فارِسان شُجاعان، واتّجاه نظرهما يُحدّد اتّجاه وجود المدفن.

سكت صاحبي كأنّما يُلهب شوقي أو يَزهو بِعلمه، فتابعناه بِأعيُن مُستفهِمة:

- عدد المخالب البارزة يُحدّد المسافة الفاصلة بين مكان وجود النّقيشة ومكان المدفن وقد كان عدد المخالب ثمانية...

سكت مرّةً أخرى فصمتت ألسنتنا وتكلّمت بالرّجاء عيوننا إلى أن قال:

- حين يُرمَز بالأسود والفهود والنّمور وما شابهها من الضّواري، تكون وحدة القياس مائة متر، أمّا حين يُرمَز بالحيوانات العاشبة فتكون الوحدة عشرة أمتار، وتكون مترًا واحِدًا حينما يتعلّق الأمر بالطّيور والحشرات والزّواحف... وذلك يَعني في الحالة الرّاهنة أنّ الدّفينة تبعد عن المكان الذي وُجِدت فيه النّقيشة ثمانمائة متر...

صاح أحدُ زملائي:

- هذا عِلْمٌ رائِعٌ وشديدُ التّعقيد، فكيف أوتِيَه النبّاشون؟

- ذلك يَعني أنّهم ليسوا لصوصًا عاديّين. إنّهم أفراد عصابات

مُدرّبة تدريبًا عاليًا، ترسم الأهداف وتُتقن الوسائلَ.

حمدتُ الله أنّ زوجتي كانت مشغولةً بالمطبخ فلم تسمع ذلك الحوار وإلّا سبقتني إلى تفقُّد نقيشة سورنا.

حين شيّعتُ أصدقائي حتّى الباب الخارجيّ قُبيل الغروب لم يكن قد بقي في قوس الصّبر مَنزع، فاستدرتُ مُسرِعًا خلف المنزل. قطعتُ المسافة بين أشجاري المثمرة كما أقطعُ دَغلًا كثيفًا مُظلِمًا، ووقفتُ مشدوهًا على عمل لُصوص محترِفين: لقد اختفت الصّخرة الكبيرة المنقوشة مِن سور منزلي بلا ضرْب أزاميل ومَطارق، إذ قُطعت بآلة كهربائيّة حادّة!

دخلتُ المنزل مسكونًا بالخوف، أرى وجوهَهُم الجنائزيّة تُطِلّ عليّ من الجدران والسّقوف، فلمّا غرُبت الشّمس واللّيلُ يُسبل على قلبي ظلام الوحشة، شُغلت زوجتي بِعشاء الأطفال، فغنِمتُ فرصةَ وجودي وحيدًا لأهاتف صديقي عبدَ العزيز وأسأله سؤالًا ظلّ ينخرني كسوس أكّال، قلتُ له:

- إذا كان الجُناة قد اطّلعوا على النّقيشة في مكانها من البناء حيث كانت وعرفوا مغزاها، فما حاجتُهم إلى قَلعها وأخْذها معهم إلى مكان المَدفَن؟

كنتُ أريد جوابًا قصيرًا واضِحًا مُقنعًا، فظلّ صاحبي يضحك ويسعل حتّى علا الدّمُ إلى رأسي وكِدتُ أقذفُ الهاتف على الحائط. وسألني سُؤالَ مَنْ يُريد أن يزيدني غيظًا:

- أراك مشغولًا جدًّا بهذا الموضوع، كأنّما أخذوا صخرةَ النّقيشة من جدار بيتك! ماذا تُخفي عنّي يا صاحبي؟

- كيف لا أهتمّ لأمرهم وقد كنتُ رهينةً بين أيديهم، وكادوا يَذبحونني؟ سألتُك وانتظرتُ منك جوابًا فلا تُجِبْني بسُؤال.

كنتُ سأخبره بالأمر ولا شكّ، لكن ليس في ذلك الوقت وزوجتي المرتعبة على مَبعدة أمتار منّي:

- حسنًا، حسنًا، أما قلتُ لك إنّنا وجدنا عند رأس كلّ ميت نقيشة حجريّة كُتِب عليها اسمُه وسُطِّرت فيها مآثِرُه؟

قلتُ بِضيق وحنق ما عدتُ قادِرًا على كتمانهما:

- أجل قلتَ.

- إنّ بين النقيشة التّوجيهيّة ونقيشَتَي المَدفن جذبًا مغناطيسيًّا، تُضافُ إليه طقوسٌ سحريّة قويّة غامِضة، فإذا أخذَ أولئك المُدرَّبون نقيشة التّوجيه الموجِبة أحسّوا بانجذابها نحو الاتّجاه المقصود، إحساسًا خفِيًّا لطيفًا، لا يُميّزه غيرُهم، لكنّه يَزيدهم اهتِداءً إلى المَدفَن. حين تكون المسافة الفاصِلة بين النّقيشتين التّوجيهيّة والتّثبيتيّة قصيرةً فإنّهم لا يودِعونها الجَذبَ المغناطيسيّ وطقوسَ السّحر، أمّا في هذه الحالة فقد كانت المسافة ثمانمائة متر!

زادني الحديث عن السّحر خوفًا وتوتّرًا ولعنتُ فضولي. أَمَا كان الصّمتُ أجدر بحالتي البائسة؟ ما إن وضعتُ الهاتف على الطّاولة حتّى رنّ مِن جديد. لم أنظُر إليه فما كنتُ أريد سماعَ مزيدٍ عن مغناطيس القبور وعن السّحر الأسود، أو تحمُّلَ مزيدٍ من بلادة عبد العزيز وثِقل دمه، لكنّ هاتفي ألحّ فأسرف حتّى غصبني على

النّظر إليه، فإذا هو رقم هاتف مخفر الشّرطة. طلبوا منّي بِوُثوق مَن يُوجّه أمرًا غير مردود أن أُوافيهم إلى المخفر بسرعة:

- إن كان شعرك مبتلًّا فلا يجِفّ إلّا عندنا!

هكذا قالها المُتكلّم ظانًّا أنّه يستعير ويُكنّي ويُحسن التّعبير. فقُلتُ له:

- لماذا تُصرّون على ملاحقتي وتعذيبي؟ أهذا ما يُفترض بالشرطة أن تفعله في هذا الوطن؟ يجدُر بكم أن توجّهوا اهتمامكم إلى القبض على المجرمين الذين يَرتعون بيننا. حسنًا لم أطلُب منكم حماية، فاترُكوني وشأني!

- نحن نفعل كلّ ما يَلزم، ولا نحتاج إلى أن تُعلّمنا عملنا. أنت أستاذنا الذي نظنّه محترمًا، فلا يَليق بك أن تتكلّم هكذا.

قلتُ بِلهجة غاضبة:

- ما أنا بالمحترم عندكم، زعمتموني سارِقًا. دبّجتُم من أجلي محضرا مُهلِكًا ورميتموني في السّجن ونفضتم أيديكم. ولولا تظاهُر النّاس أمام مكاتب النّيابة العموميّة وقاعات المحاكم لصدِئ عظمي بين السّجون بِتدبيركم.

سمعتُ تأفّفه مُعبّرًا عن غضبٍ وضيق، فاختصرتُ كلامًا لا طائل منه:

- حسنًا، ماذا تُريدون منّي الآن؟

- نريد أن تأتينا إلى المخفر لنسألك بضعةَ أسئلة ونُطمئنك.

- أنا مطمئنّ كلّ الاطمئنان، فلا تُربّتوا على كتفي! ما بي حاجةٌ إلى مساعدتكم ولا أريد الذّهاب إلى أيّ مكان. إنّي متعَب وأشعر بِصُداع.

- حسنًا أستاذ. رأسك من صخر وتنقصك اللّباقة. سيكلّمك رئيس المخفر بِنفسه، أو تأتيك دوريّة من الشّرطة لِجلْبك.

لم أكن أثق بهم البتّة. ولو أخبرتُهم أنّ النّقيشة قُلِعت من سور منزلي لفتحتُ على نفسي مصاريع مشقّة وتحقيقات لا نهاية لها ولا طائل منها، لكنّي اضطُررتُ إلى النّزول عند أوامر رئيس المخفر التي اتّخذت ثوبَ رجاء ثمّ اصّاعدت حتّى صارت زعيقًا. أوصدت زوجتي البابَ ورائي وهي تدعو لي خائفة، فوقفتُ أمامه أرهف السّمع وقد صِرتُ بِألف أذن. لا شيء غير صرير سلاسل السّتائر في سكّتها تجذبها زوجتي لِتُرخيها إمعانًا في وهْمها ووهمي بأنّ في الاختباء مَنجاة.

قلتُ لرئيس المخفر أمام مكتبه المقشّر الأجرب:

- رتعت بيننا عِصابة بعد عصابة، فنبشت قبورنا وسرقت آثارنا، وروّعت قُلوبًا وسفكت دماءً، فما بَلَغتم من إحداها مَبلغًا. ثمّ قلتُم اطمئنّوا وارقدوا بِسلام فقد غادر الجُناةُ أرضنا عبر مسالك التّهريب، وصدّقناكم حتّى تبيّن لنا أنّهم مازالوا بيننا يأتدمون مِن مَرَقنا...

قطع عليّ كلامي غاضبًا، فما أَلِف مُتجبّرٌ مثله أن يُخاطَب بِمثل ما خاطبتُه به:

- قلنا من الجائز أنّهم غادروا. هذا يعني التوقّعَ والاحتمال، ونحن مسؤولون عمّا قُلنا ولسنا مسؤولين عمّا تفهمون.

لم يكن بيننا بعد ذلك غير كلام أجوف وأسئلة جيفة، أجبتُ عنها عرَضًا بِما خطر لِلساني أن يُركّب من الألفاظ في تلك اللّحظة. ثمّ قال رئيسُ المخفر:

- كن مطمئنّا مع زوجتك وأمّك وأولادك. وصلتنا تعزيزات كافية، والدّوريّات تمشّط المنطقة كلّها. إن لم يكونوا قد فرّوا واجتازوا الحدود فسنقبض عليهم بِأسرع وقت... وصْفُك الدّقيق لوجوههم وهيآتهم سيُسهّل علينا الأمر، إذ صارت لدينا صُورُهم التّقريبيّة. ثِق بنا جدًّا واطمئِنّ لِحمايتنا.

بلغتُ بابَ سور منزلي وأذان العشاء يرتفع من اتّجاهات شتّى. كان النّهجُ خالِيًا رغم أنّ الطّقسَ صحوٌ ودافئ. وجّهتُ جهازَ التّحكّم نحو الباب فأخذ في الارتفاع بِحركة بطيئة مُملّة. ضغطتُ مزوّد السّرعة برفقٍ فانطلقت السيّارة على مهَلٍ حتّى إذا اجتازت الباب بدأ في النّزول من خلفي بالحركة البطيئة ذاتها... فجأةً رأيتُ في المرآة العاكسة أشباحًا مُسرِعة. خفق قلبي وتتبّعَتها عيناي. أشباح مسرِعة مرّت مرورًا خاطِفًا وانزلقت داخلةً من تحت الباب النّازل! مِن أين طلعَت والنّهج كان خالِيًا من أيّ دبيب؟ نجحت الأشباح في الانزلاق إلى الدّاخل قبل أن ينطبق الباب... جرَت نحوي، هجمت عليّ، وفتح أحدُهم باب سيّارتي فأطبق جُمعَه على صدري وسحبَني إلى الخارج فيما هرع آخران يُفتّشانني، وقال أحدُهم وهو يُناديني باسمي ويُقرّب فمه من أذني:

- لا تَخف. لن نؤذيك إن أطعتَ أوامرنا!

واستدار فغمر ضوءُ السيّارة جسدَه، وبدا لي وجهُه المُخيفُ مِلء الأفق. كان هو بعيْنه ميرزاخان صاحب عصابة الهنود من طائفة الخوجة! ركب أحدُ مُرافقيه سيّارتي فركنها في مكانها المعتاد، لم يَحِد عنه قيد إصبع كأنّه اعتادَ رَكْنها في ذلك الموضع منذ سنوات. دفعوني نحو باب المنزل حتّى بلَغناه، وكان واضِحًا أنّهم ينوون الدّخول. قال ميرزاخان:

- سنكون ضيوفكم بضع ساعات ريثما تنطلقون في توديعنا نحو الحدود الجنوبيّة وتعودون سالِمين غانِمين!

لم أفهم ما يَعنيه، لكنّي ارتعبتُ لِفكرة ارتهان أبنائي لدى أولئك القتلة القميئين. فقلتُ له:

- لا علاقة لأبنائي الصّغار بِما تُفكّرون فيه. لا تدخلوا منزلي فيرتعبون لِمَرآكم.
- قل لهم إنّنا ضيوف أو أصدقاء! لسنا مُنفِّرين إلى هذا الحدّ. سنحترم بيتك وأطفالك وزوجتك. إن هي إلّا ساعات...
- ما الذي تُريدون منّي بالضّبط؟
- سيكون عليك أن تأخذنا في سيّارتك اللّيلة لتهريبنا إلى الحدود اللّيبيّة. جئنا هذا البلد من أجلك وعليك واجبُ توديعنا.
- أنا أهرّبكم؟ ما الذي تقوله؟

ابتسم بِتحدٍّ وشماتة. وابتسم معه صاحِباه ذوا السّحنة الهنديّة فبَرِقت أسنانُهما من تحت السُّمرة وانطمست عيونهما الغائرة:

- نعم. ذاك ما أقوله وذاك ما ستفعله. دعْني أقُلْها، نحن لا نُخيّرك. مالَك إلّا أن تمتثل أو أن تُقتل مع زوجتك وأبنائك!

وصلنا أمام الباب والمسدّس بين كتفيّ يدفعني. المسدّس يَدفعني وهو يُدمدم ويكاد يَنبح ككلب قبل ارتماءته الأخيرة، وكان عليّ أن أمتثل صامِتًا، وأن أفتح البابَ لِأُدخِل ثعابين سامّة على أبنائي وزوجتي.

* مزمور الأرض النّاطقة *

١. أبعدتُ الكلبَ عن القِدر، وأَوْردتُه نار جهنّم
يَصلاها مذمومًا مدحورا
لا يَتعب جلّادُه، لا تَغمَض أجفانُه،
لا يَطعَم، لا يشرب، لا يُبصر نورَا . . .
قد أفسد بِكرًا حسناء
ورقِيَ حصونًا عصماء
فأوردهُ الظُّلم سعيرا
وسقاه الغيُّ مريرا
والزّانية تقول «أبي . . .»، شُلّ لسانُكِ
قد كنتِ لِمَنْ أخزى شيبة والدِكِ حصيرا

٢. قال الملعون: نفكّر . . . نتعدّدُ . . . نختلف،
ونظلّ جميعا في نهج الحقّ!،
قلتُ: طريق الحقّ وحيدٌ أوحدُ
لكنّ الباطلَ مختلف الطّرق،
معلّمكَ إمامٌ فردٌ، إن عدّدتَ وقعتَ بزلَق

٣ـ هيّأت لكم أُسُدًا من حجرٍ ، حسُنت نقشًا ،
ذات ظواهر وبواطن
ورسمْتُ سلاحف وأفاعي ذات رموز ،
يقرؤها التّحريرُ الفاطن
وزرعتُ لكم في الغرب تُراثا لتقولوا :
«أرض جدودنا ، ولنا حُججٌ وقرائن»
علامات أئمّتكم تظهر من تحت الأرض
فتُكادُ بحرائقَ وضغائن .

٤.حين يعود إلى حَيْفاه مسيحيٌّ
يتشمّم رائحة الإنجيل
يلقى فيها سلجوقيًا فظّا يتشمّم بصلا ، يصنع منه أكاليل
يأبى السّلجوقيُّ مغادرةَ الأرض ،
فيتركها رَغمًا في ثوب قتيل
لفرسان الهيكل أجداث أئمّتهم ،
إن جاؤوا في أرض بدليل .

٥ .حين يعود إلى قبري بالشوق دُعاتي
ويشمّون عبَقَ مزاميري ومقالاتي
يجدون برابرةً سفهاء ، سدودا لمقاومة المدّ العاتي
ويقولون ما هذه أرض الصبّاح، ولا الحَلواني ذي القُربات
لن نتركها حتّى بالبيع ، يُريدونها أرض ضلالات

٦. عُتاةٌ من صحبي، في الزّمن الصّعب،
يضعون القلعة فوق كواهلهم،
يَغزون بها شامَ العرَب
عُتاة من صحبي، عند نهايات الزّمن،
يضعون القلعة فوق كواهلهم،
ويَسيرون إلى الغرب
تُسَرّ لِمَقدمهم روحي بعد الوحشة،
ويَهُبّ الأبلقُ مثل الذّئب المرتقب
فلْيَنقَدْ إفريقيٌّ مالَ الخسران، ويُسرِعْ بالهرَبِ،
ولنا رحِمُ الأرض وأحمالُ السّحبِ
المالُ لذي رغَب، والخنجرُ للعُنُد،
والأرضُ لقلعتنا بِقبول أو غَضْب.

٧. سأباركُكم إذ تطؤون وتمتلكون أرض الزّيت والعسل
وستُعطَوْن عشرة أمثالٍ ما أُعطيَ شيعةُ يوشع من نِعَم
إذ دخلوا كنْعان بأمره، من دون نكوصٍ أو وجَل.

﴿حاشية﴾

كان من أمر حبيب بن أوس ومريم المكتومة في سجن السيّد الأساس ما أخبرتنا به جمانة مولاة السيّد قالت: حين أوشك الموكب القادمُ من لمسر على دخول قلعة ألموت، أمر سيّدي بدخول مسروق بين يديه، وكان مكلّفا بتعذيب الأسرى وقتلهم في السّرداب السّفليّ

الذي نسمّيه جهنّم، وهو رجل قاس لا تعرف الرّحمة سبيلا إلى قلبه المظلم، يُكنّى لحّاس الدّم، فتطيّرتُ من استحضاره وقلت: ذهبَت دماء ابن أوس هدرا، وذهبت دماءُ مريم المغدورة، فوالله لينتفخنّ بطنُ لحّاس الدّم من أكل لحمهما نيّئا، وقال لي السيّد: «يا جمانة يا حامِلة سرّي وهمّي، إنّي لا أثق بامرأة في القلعة ثقتي بك وبأمّ هريرةَ، وقد عرفتُك تُعنَيْن بالضّالاّت من النّساء وتقوّمينهنّ بالموعظة ما نفعت الموعِظة، وبالسّوط إن لزم السّوط، وهذه الآبقة مريم قد عادت في الأغلال والبخس، وأنا أربأ بعورتها أن يعبث بها مسروق الفاسق، فكلّفتُك بها وجعلتُها بين قدميك. اصنعي في عذابها ما بدا لك، فإنّي لا أنهاك في ذلك عن شيء، حتَّى أرى فيها بعد ذلك رأيي.

والتفت إلى لحّاس الدّم، وكان ينتظر الأسيرَ بحقدِ صاحب ثأرٍ يكاد يظفر بقاتل والديه، فقال له: «أمّا أنت يا مسروق فإنّك أعرَفُ بما يُصنَع، لكنّي أخبرك أنّي ما كرهتُ أحدا في حياتي كراهتي ابن أوس هذا، ولأكوننّ بأتمّ سرور كلّما كان بأتمّ عذاب، فاصنع من عذابه فنونا لكن لا تهرق دمَه، فإنّه شؤم، ولا تُبلِغه بالعذاب موْتَه فإنّ لي معه شأنا». فلمّا وصل الموكبُ أمر سيّدي بفصل الأسيرين وسَوْقهما إلى السّرداب من دون أن يرياه فيجِدا فرصة لاستعطافه، ثمّ أدخل الباقين إلى بهو القلعة.

فلمّا كان مساء ذلك اليوم جلس سيّدي الأساس أمام غرفته العالية مُنتظرًا أن يمثل بين يديه سحرة كان قد اجتهد في جَلْبهم إلى القلعة، وهو المُغرم بِتعلُّم السّحر، وكان معهم رجُلٌ مُعتمّ يُقَال إنّه جاء من الشّام بسيف الإمام محمّد بن إسماعيل. حتّى إذا دخلوا البهوَ مع الحُرّاس هبّ سيّدي لاستقبالهم فتعثّر من عجَلته، وسقط سقطة شديدة وتدحرج في الدّرج حتّى بلغ أسفله أمام بهتة الجميع. وقف

السيّد وقد احمرّ بالغضب وجهُه، ودفع عنه الحرّاس الذين هبّوا لمساعدته حتّى خشيت أن يأمر بِضرب أعناق كلّ مَن شَهدوا سقطته. لكنّه عاد إلى حجرته وأسرع الجميعُ بمُغادرة فنائها، فما خرج إلّا بعد ساعة يأمر الحُرّاسَ بإدخال السّحرة وصاحب السّيف إليه، فاختلى بهم وبتُّ قائمة على خدمتهم، فكان أوّل ما بينهم من الكلام أن استفتاهم عن سقوطه وسقوط الخنجر وهل يرون في تأويل ذلك نحسا أو شرّا آتيا. فقال كبيرُهم: «لا يَخفى عليك أيّها الشيخُ الحكيمُ ما في ذلك من النّحس، لكنّ حكمتَك ونحن من خلفك الغالبة. حين يكون نجمُ الورل في صعود وحظّه مُوات فإنّ الثّعبانَ الشّجاعَ المُقاتل يسقط صريعًا بين قدميه، لكنّ الثّعبانَ الماكرَ المُخاتلَ يُؤجّل المعركة ليوم آخر يغلبُه فيه، ذلك أنّه إذ تخونُه الضّرباتُ الأولى ويعرفُ تنكُّبَ الحظّ ينسحب سالمًا ويَحفَظ سُمّه لجولة أخرى قبل أن يَهلَك. وأنت جرّبتَ قتل الورل في الجبل وفي البحر ومن قبلُ بحدّ السّيف فخانتك ثلاثُ ضربات، وصار أولى بك أن تحتفظ بسُمّك حتّى تُغيّر مكان المعركة وطريقتَها!». ارتبك السيّد لسماع ذلك والتفت إليّ وأنا أصبّ منقوعَ حشائش وقال لي: «اُخرجي مِن عندنا. سندعوك إن احتجنا إليك في شيء»، فاستدرتُ نحوه وخفضتُ رأسَ الطّاعة ثمّ توجّهتُ نحو الباب خارِجة فوقعت عيناي على البشير صاحب سيف الإمام وقد نزع عمامتَه وتبسّط في لباسه وجلوسه فإذا هو أماياس الصّنهاجي، العبدُ البربريّ الذي أعتقه حبيب بن أوس في برقة بعد أن ساعده في خطف مريم من مصر. لا أعرف كيف تعثّرتُ ولا كيف تماسكت، وفي كلّ حال فإنّ الله وقاني السّقوط ومضيْتُ خارجة لا يعرف أحد ما بي، وبِخبْط عشواءٍ ابتعدتُ عن الغرفة الكبيرة ووقعتُ على كرسيّ في الرّواق وأنا ألهث وأُحوقل. لم يكن أَحَدٌ يشبهه ولا حتّى

توأمه. كان أماياس الذي عرفتُه ولا شكّ. وقعت عيناي في عينيه وقوعَ ضمآن في حوض ماء بارد، وتساءلتُ ألفَ مرّة: بأيّ قلب من نُحاس وعزم من فولاذ استطاع هذا الرّجل دخولَ قلعة ألموت وهو خاطف مريم، وله عند صاحب القلعة ثأر تليد لو علِمه لسلخ جلدَه حيًّا؟

تذكّرتُ ما حدث ذات عشيّة بِضواحي برقة، وهو يَعرض عليّ الزّواج، ومريم تجتهد في إقناعي، وقد رفضتُ بشدّة حتّى إنّي تركتُها وعريسَها وتسلّلتُ مغضَبة عائدة إلى الإسكندريّة، لكنّي في أطراف برقة تلك اللّيلة التقيته ثانيةً فأبلغني مَقصدي وكان شهما شريفا. وعندئذ ساورني ما يشبه النّدم على غفلتي وعجَلتي، فليس بلون البَشرة يُعرَف الرّجال. تُرى ماذا فعل به الزّمان؟ أمازال يُحبّني ويرتجي الزّواج بي؟ لقد ارتفعت عيناه إليّ في لحظة خاطفة وأنا أمرّ فكانتا تَشيان بكلام وتقولان ما يَعجز اللّسانُ عن قوله. أكان في عينيه كلام كثير حقّا أم إنّني أتوهّم؟ وما أمره وأمر السّحَرة الذين جاء معهم؟ وما قصّة حصوله على سيف الإمام؟ كذلك تساءلت ولسان حالي يقول: «احذر الكذب على شيخ الجبل يا أماياس، فوالله يُهرق دمك، وهو عنده أرخص من ماء المزاريب».

بعد ساعة نادى السيّدُ الحرّاسَ وخرج معهم يُشيّعه فقال لهم: «خذوا ضيفي ليأكل وينام». مرّ أماياسُ بجانبي. مرّ قريبًا منّي حتّى سمعتُ تردُّد أنفاسه وأحسستُ حرارتها. نظر إليّ مليّا تلك المرّة نظرة خرقت وجداني من غير أن يُكلّمني، فلمّا جاوزني أو كاد، قلع عينيه من وجهي قلعا عسيرا، وأدار رقبتَه ومضى.

بات السّحرة عند السيّد. أسمع همهماتهم، ويُسمّم رئتيّ عبقُ بخورهم، وأحسّ دبيبَ عملهم في قشعريرة جلدي وانسداد قلبي، فما خرجوا من عنده إلّا فجرًا، سكارى وماهم بِسكارى، فأخذهم

الحرّاسُ لِيناموا، وأمر سيّدي بِحضوري ولحّاسَ الدّم فمثلنا بين يديه وقال لنا: «إيّاكما أن يموت الوَرَلان بين أيديكما، وناولاهما الكفافَ من الطّعام والشّراب فإنّي أحتاج إليهما حيّيْن، بل كُفّا عن تعذيبهما فإنّ لي معهما تدبيرا آخرا».

وكنتُ أنا مُصنّف الحاشية قد قلتُ لأماياسَ الصّنهاجي وهو بأرغد عيش في سلميّة بعد زواجه بجُمانة وسَكنهما في المنزل الذي اشتراه مِن عطاء الباطنيّة: «نِعْم الأرزاق من دون جهد تُساق يا ابن البرابرة. ليت السّحاب الّذي سقاكم يُمطرنا!»، فتنهّد عميقا وقال: «أئنّكم لَتستكثرون العطاء وتَبخسون الجهدَ، وترون ما هو كائن وتَنسون بِأيّ عنَت قد كان. ووالله لو وُضع أحدُكم في موضع البلاء وقيل له افعلْ ثمّ خُذْ لرهِب وجبُن، وإنّ كلَّ ما ترى بين يدَيّ من الخير العميم لا يعدل ساعةً من خوف مرّت عليّ أمام حسن الصبّاح يُرعدُ قائلًا: «أسلخُكَ حيّا يا بَربريّ يا سَفيه وأحشو جلدَك تِبْنا... »، فوالله لَوددتُ في تلك السّاعة أن أعود عبدا مُسترَقًّا عند أوس بن ضُبارة أرعى الإبل في صحراء العطش، ووددتُ أنّي لا أملك أبيض ولا أصفر ممّا أعطاني أبو طاهر فاستدرجني به إلى حتفي.» قلتُ: «أخبِرني مِن ذلك ما لا أعرف يا أماياس». قال: نعم يا ابن أخي، فَقَد دخلتُ على حسن الصبّاح ورجال دولته مع لَفيف من السّحَرة وأصحاب التّنجيم القادمين معي في موكب من عند بزرك أوميد، وكنتُ أحمل سيفَ الإمام أرجو من ورائه مجدا وعَطاءً، وأخشى تكذيبي وضرب عنقي، فشُغل بهم قبلي ونحنُ جُلوس في حضرته، وحدّثَهم عن حبيب بن أوس ونجاته من الموت ثلاثا، فقالوا له: لا يُقتَل أيّها السيّد، فإنّك إن قتلتَه كان دمُه شُؤما على دولتك وعجّلَ بِنهايتك، ولكن يُحنّط والآبقةَ في البَرزخ بين الحياة والموت، فيَصير

جَسداهما، ويَصيرُ مُعتقَدُهما ومقالتُهما تحت حكم الموت. نظر إليّ الصبّاحُ فعقد ما بين حاجبَيه مُستغرِبا كأنّما تفطّن لوجودي في تلك اللّحظة وانتبه إلى سماعي ما لا يريد سماعَه، ومعرفتي بما يُدبِّرُ له المدبِّرون بِشأن ابنته ونَسيبه، فأرجأ الحديثَ مع السّحَرة وتوجّه إليّ يُريد الفراغَ مِن أمري، فقُمتُ بين يديه ودعوتُه بالسيّد والحجّة والأساس ونائب الإمام، وأخبَرته عن رُؤياي وأبلغتُه سلام الإمام الغائب ومَرضاته عنه، وسلّمتُه سيفه الذي لا يُهزَم، فأبدى فرحًا وظلّ يَحضن السّيف ويلثمه، وتحلّق مِن حوله قادتُه ورجالُ دولته ممّن كانوا يَحضرون المجلس ومَدّوا أيديهم يلمسون السّيف ويَهتفون بالأشواق للإمام، اقترب منّي بعضُهم يلمسونني ويتبرّكون بي، وقال لي الصبّاح: غدا أجمع لك النّاسَ أيّها الرّسول المبارك فتُلقي إليهم البشارة وتَشهد أمامهم شهادةَ الحقّ عن رؤياك وما قال عنّي الإمام وما أرسل إليّ...

فلمّا كان الغد خرج المُنادون في أرجاء القلعة وفي القُرى المحيطة والمدُن القريبة يُخبرون النّاسَ بأسجاع وأشعار عن بَركة الإمام التي ظهرت ويدعونهم إلى حضور شهادة الحقّ، فماجت القلعة بخَلق كثير حتّى ضاقت بهم واختنقت، وكنتُ قد بتُّ أدبّج من الكلام أنفَذَه وأمضاه، فخرجتُ إليهم خروج الواثق وحدّثتُهم بلا لجلجة ولا ارتباك، وهم يَقطعون كلامي بالهتاف وبُكائي بالبكاء، واندفع إليّ مَن كان منهم قريبا يلمسني ويلثم ثوبي، ثمّ اندفع آخرون وآخرون، فوالله لولا أن افتكّ تلابيبي منهم حُرّاس أشدّاء لدهستني أرجُل ونَهشَتْنِي قواطِعُ ولاكتْني أضراس.»

سكت أماياسُ هنيهةً ريثما غيّر جلستَه وعيناه تدوران في الفضاء كأنّما يُلاحق أشباحَ الذّكرى ثمّ قال: عند زوال ذلك اليوم

وقد تفرّق النّاسُ، رأيتُ جمانة بأنحاء الدّار العالِية التي اتّخذها الصبّاحُ قاعِدةً لِمُلكه. كانت تغطّي رأسها غطاءً خفيفا ولا تنتقبُ، وكانت ذات بياض ولمعةِ جمال لا أخطئُها ولا تلتبس عليّ. رأيتُها صحبة ثلاث نساء يحملن سلالا ومِن ورائهنّ حرسيٌّ، وبدا لي أنّهنّ يتّخذن طريق الخروج من القلعة. فسألتُ عنهنّ رجلا لم يزل يتبعني ويتبرّك بي، فأخبرني أنّهنّ من إماء السيّد حسن وجواريه، يقصدن البساتين لجمْع الفواكه والخضر والغلال. قلتُ له: «فواكه وخضر وغلال في هذه الجبال الصمّاء؟ عمّ تتحدّث يا رجل؟». فحدّثني الغريب عن جنان يانعة في السّفوح والوديان أسفل القلعة، وبساتين تجري من تحتها الأنهار ذات ثمار وخضار وخيرات وبركات، وعندئذ لمعت بذهني فكرةٌ رجَوْتُ أن تُطمئن قلبي وخشيت أن تقطع رقبتي: فلو استأذنتُ الصبّاح في النّزول إلى بساتينه بحجّة التّرويح عن نفسي فربّما أمكنني الكلام مع جمانة فأعرف أكانت تدبّر وشايةً بي إلى الصبّاح، وربّما حذّرتُها من مغبّة فَضحي أمامه وخوّفتُها، فقد اشتركَتْ معي في خطف مريم، وربّما إن أخذتُ معي كيس مالي دفعتُ لها ما يَعقد لسانَها. فكّرتُ فقرّرتُ فمضيتُ، لكنّي ألفيتُ الصبّاح قد شُغِل ببعض أمره ونهاهم أن يُدخلوا عليه أحدًا، فاستأذنتُ بدلًا منه رجلًا من قُوّاده يُقال له كيابا جعفر فابتدرني بالتّرحاب: «خوش آمديد. از أنجار راضي هستي؟». وجدتُ في سؤاله عن رضايَ بينهم فرصة لإعلان طلبي: «بسيار متشكرم. لكنّي أشعر بانقباض، وأودّ السّماح لي بالنّزول إلى بساتينكم التي سمعتُ عنها. أريد التّرويحَ عن نفسي هذا المساء». تبسّم وقد فهم مقصدي مردّدًا: «بله شما خوش آمديد». ونادى حرسيّا فأمره باصطحابي إلى الجنان، وشيّعني بأمنيات طيّبات.

عند قيعان الأودية والمنحدرات كانت جنان الصبّاح قد ازدانت بما لا عين رأت: غلال دانية ومياه جارية وخضر وفواكه حتّى لتظنّ أنّك في عالم من السّحر والخيال. وكان قد انبثّ في أنحائها عمّال يَكِدّون ولا يَأنون، وإذا جمانة مع صاحباتها قد تحلّقن تحت شجرة وارفة بجانب نبع ماء، وبِجانبهنّ سلال ملأى بالأطايب بدت لي من بعيد أكداسا ملوّنة. ما إن رأى الحرسيّ الّذي رافقني صاحبًا له كان قد وفد مع النّسوة حتّى استأذنني في البقاء معه، وكان ذلك غاية ما أبغي، فقصدتُ النّسوةَ متظاهرًا بالتّجوّل من دون اكتراث بهنّ حتّى وقفتُ على لَهْوهنّ ولَغْوهنّ. وكنّ يتبارين في قراءة الشّعر وكلّ واحدة تفخر بما تحفظ، وتزعم إحداهنّ أنّ هذا الشّعر أمتع من ذاك وهذا الشّاعر أقدر من ذاك. أردتُ مشاركتهنّ في ما هنّ فيه وقد انتبهن إليّ فما خفَضن صوتا ولا غضَضن بصرا. أردتُ بالشعر أن أُبلغ جمانةَ شوقي إليها وبقائي على رغبتي فيها، ثمّ خوفي وشدّة رعبي من وشايتها بي، فقلتُ لهنّ: «إن سمحتُنّ لي يا نساء فإنّ لي في هذا قولا»، فتهاتفن بي: «أجل يا رسول الإمام أجل. إنّا نسمعك»، قلت: «ما علمتُ من العرب ولا من العجم بِأشعر من النّابغة الذّبياني إذ يقول:

توهّمـتُ آيـات لهـا فعرفتُها	لستّـة أعـوام وذا العـام سابع
فكفكفتُ منّـيً عَبـرة فرددتُها	على النّحر منها مُستهلّ ودامع
أتـاني أبَيـتَ اللّعنَ أنّـك لُمتَني	وتلك التي تستكّ منها المَسامع
فبـتُّ كأنّي ساورتـي ضئيلـةٌ	من الرُّقش في أنيابها السمّ ناقع!

تهافتن عليّ يسألنني عن القصيد ويستزدنني من الشّعر، أمّا جمانة فصارت بعد ما سمعَت غائبة الذّهن تائهة البصر كأنّما تستحضر ذكريات من غور بعيد، وما لبِثَت أن غمرتني بشُعاع من

عينيها الواسعتين وقالت: أرى النّابغةَ يا سيّدُ أمتن مَبنى وأبلغ معنى في قوله:

لَعَمـري لنِعْـم الحـيُّ صبّـح سِربَنـا
وأبـيـاتَـنـا يـومـا بــذات الـمـراود
فسكّنــتَ نفســي بعدما طــار روحُها
وألبستَنــي نُـعـمـى ولسـتُ بِشاهـد
فلا بـدّ مــن عوجــاء تهـوي بِراكـب
إلى ابن الجُلاح، سيرُها اللّيلَ، قاصِد

سقطَت عنّي أحمالُ الخوف وشعرتُ بارتياح عميق، إذ أبلغَتني جمانة سرورها بمجيئي إلى ألموت، ورغبتها في اصطحابي إلى بلدي. صارت راغبةً في الزّواج بي وقد استطعتُ وربّ الكعبة الباءةَ، إذ صار لي بسلميّة منزلٌ وصارت لي سلميّةُ وطنًا، لكنّي احترتُ في سير اللّيل ماذا تعني به؟ فلا يمكننا بأيّ حال أن نفكّر في الهروب من ألموت، فذلك جنون وانتحار، وحول القلعة من فدائيّي الصبّاح نمُور على الأرض وصقور في السّماء، يقتلون بالشّبهة ويُمحّصون السّرائر. أردتُ لَفت نظر جمانة إلى هذا الأمر وما أظنّها تجهله فقلتُ:

واسمعن منّي يا نساء قول الحارث بن حلزة:

ومُدامـة قَرّعتُهـا بمدامـة — وظِبـاء مَحْنيَة ذَعَرتُ بِسَمْحج
فـكـأنّهـنّ لآلــئٌ وكـأنّه — صقـرٌ يَلوذ حمامُـه بالعَوْسـج
صقـرٌ يَصيد بِظُفـره وجناحِه — فإذا أصاب حمامـةً لم تَـدرُج

رأيتُ بوجهها حيرة واضطرابًا. وبدا لي أنّها أدركت شتات فكري أو سوءَ فهمي، وأنّها تريد تصحيح الفكرة، لكنّ فتاة شقراء كانت تزمّ شفتيها وتُبدي سخطها وأنا أقرأ شعر الحارث بن حلّزة سرعان

ما تكلّمت بلكنة أعجميّة: «شعر عربي ما أحسن من فارسي!». ثمّ أردفت مُفاخِرة بِما قاله شاعرٌ فارسيّ في وصْف الصّقر:

«اين شاعر فارسي در توصيف شاهين كفت:

روزي زِ سَرِ سَنك عُقابي به هوا خاست

بَهرِ طَبِ طُعمِه بارو بال بيارست»(*)

ما كان يهمّني شيء من مفاخراتهنّ. كنت أريد أن أُبلغ جمانة معاني وألتقط إشاراتها، وكان عليّ ألّا أطيل الوقوف بجانبهنّ حتّى لا ألفت نظرا. وبعد طول انتظار نطقَت فبيّنَت لي ما عليّ فعلُه للفوز بها: التّقدّم لطلبها من حسن الصبّاح نفسه، فقد قالت متوجّهة إلى صاحبتها الأعجميّة وكأنّها هي من نسل عربيّ أثيل: «لو جمعتِ شعر الفرس كلّه ما كان يَعدل أربعة أبيات قالها الأعشى بعد أن دخل على سيّده يطلب منه رِفدًا فأدناه وأعطاه ناقة هي أجملُ النّوق عنده:

لمّا رأيتُ زمانا كالحًا شبِمًا	قد صار فيه رؤوسُ النّاس أذنابا
ولمّا رآني إياسٌ في مُرَجّمة	رثّ الشّوار قليلَ المال مُنْشابا
أثوى ثواءَ كريم ثمّ متّعني	يوم العروبة إذ متّعتُ أصحابا
بِعنتريسٍ كأنّ الحُصَّ لِيطَ بها	أدماءَ لا بَكرة تُدعى ولا نابا

رجعتُ إلى الحرسيّ الذي جاء بي أناديه بأعلى صوتي، فلمّا هرع إليّ جزعا يسألني عمّا بي قلتُ له: «خذني فورًا إلى السيّد حسن، خذني إليه. إنّي أحمل إليه رسالة هي أجلّ عندي من سيف محمّد بن إسماعيل!»

لم يزل أماياسُ يحدّثني دون لجلجة لَكأنّه يقرأ كتابًا بين يديه قال:

(*) ناصر خسرو: طار العُقابُ يومًا من عُلوٍّ مرتفع/فارِدًا جناحيه طلبًا لِفريسة.

لم أُوفّق في لقاء الصبّاح ذلك المساء، لكنّي بتُّ في القلعة ليلة هانئة لا تشبه سابقاتها، فقد اطمأنّ قلبي لِما رأيتُ من تَصديقهم مقالتي وحفاوتهم بي، وسقط عنّي الخوف من أن تفضحني جمانة، بل صرتُ طامِعا في الزّواج منها، أدبّج الكلام لأطلبها من الصبّاح، وما أهون جارية من بين الجواري إزاء ما امتدحتُه به بين النّاس، فلمّا كان ضُحى اليوم التالي أخذوني إليه وأنا أنفش ريشي وأتطاوس ويسيل بالأطماع لُعابي، فصرف كلّ مَن عنده حتّى انفرد بي، وأنا أقول في نفسي: «الآن ينقدني وربَّ الكعبة ذهبا ما رأته عينٌ ولا خطر ذِكرُه على قلب بشر»، لكنّه نظر إليّ مليًّا حتّى اخترقت عيناه لحمي وعظمي وقال: «أيّها البربريُّ السّفيه، لا تظنّ أنّي صدّقتُ كلمة ممّا قلتَ، فإنّي لَأعلم أنّك كاذب، وإنّك لَتَعلم ذلك من نفسك، وما جاء بك إليّ إلّا طمعُكَ ودُنُوُّ حتفك! ولو كان الموتُ يُصرف بالعدل لكان عليّ أن أضرب عنقك السّاعة. وقعتَ على سيف قديم يا قليلَ الشّرف والأمانة وأنت تحرث أو تحفر فقلتَ أكسب به مالا كثيرًا، ففي أَلُموت رجل غبيّ اسمُه حسن الصبّاح عنده أموالُ خراج عظيمة، وهو يتخرّق لِيُثبت للنّاس أنّه إمام وما هو بإمام!». كاد قلبي ينخلع من صدري، ووقعتُ على ركبتَيّ عاجزا عن الوقوف، وبدأت الغرفة تدور بي، وصرتُ بِحالِ محموم أو مَنزوع. ومع ذلك حاولت التّماسك وقلتُ له: «أعوذ بالله يا سيّدي أن...»، لكنّه قاطعني بِحدّة: «اخرسْ يا عبدَ البرابرة واسمعْني. لو كان عليّ أن أدفع لك ما تستحقّ فإنّي أسلخُك حيّا وأحشو جلدك بالتّبن، ولكنّك شهدتَ أمام النّاس بِكلام واثق صدّقوه وتلك عندي غاية الأرب، لذلك أفكّر في الإبقاء عليك رغم جرأتك عليّ، فإنّ قتلك لن يَخفى عن النّاس وإن علِموا أنّي قتلتُك أدركوا كَذِب شهادتك».

فلمّا سمعتُ ذلك أنا مصنّف هذه الحاشية لم أستغربْ نفاذ بصيرة السيّد الأساس، ووقعتُ ساجِدًا إذ تكشّفت أمام عينيّ آياتُ إمامته، ثمّ قلتُ لأماياس: «هيه يا رجل، إنّي أسمعُك.» فاستأنف حديثَه: «سكت الصبّاح عن الكلام ولكن لم يسكت عنه الغضب، فراح يَذرع الغرفة جيئة وذهابا. يضعُ يُمناه على الخنجر عند حقوه، ينظر إليّ ويَجذبُه من غمده حتّى ينبعث منه صرير يمزّق شراييني وأحشائي، ثمّ يُعيدُه إلى غمده ويَصرف نظره عنّي ويعود إلى الدّوران في الغرفة ريثما يَقذفني مرّة أخرى بنظرة من حميم ويَهُمّ بي، فيَصرّ الخنجر حتّى يَقطع شراييني مرّة أخرى ثمّ يُعيده إلى غمده. كنتُ في منزلة بين الحياة والموت لا أعرف لها اسما، لكنّي لم أكن حيّا بتاتًا، كُنت قطعةً كبيرة من القديد على قائمتيْن من خشب. واتّجه الصبّاح إلى ركن من الغرفة الكبيرة فصار بعيدًا عنّي من دون أن تُفارق خياشيمي سطوةُ رائحته أو تنقلع عيناي عن خنجره الرّهيب. ثمّ أخذ صُرّة كانت هناك فرماني بها. ولكنّها كانت أثْقل من أن تُقذف بعيدًا فسقطت قريبةً منه، فوق الطّنافس الفارسيّة الملوّثة بآثار دماء يابسة وقال: «هذا مال يَكفيك بقيّة حياتك، وسأرسل معك حُرّاسا يُبلغونك خراسان محطّ القوافل، فانصرفْ عنّي إلى أبعد مكان في الأَرض، واجعلْ ما بيني وبينك مثلَ ما بين المشرق والمغرب، فإنّي إن أدركتُك يوما قتلتُك، وإيّاك أن تذكُرَ لأحد من الخَلق غيرَ ما ذكرْتَ لي، أو تُغيّر من كلامك كلمة مهما طال بك الزّمان أو نأى بك المكان. لقد أجزلتُ لك العطاء رغم غضبي، ومازلتُ أكْرَمَ من ذلك، فإن كانت لك حاجة غير المال اذكُرها فأقضيها لك». قلتُ: «ما مِن شيء أحبّ إليّ سيّدي من حِلْمك وسماحك، والإذنَ لي بِتقبيل يدك الشّريفة». ضحك الشّيخُ وما رأيته قبل ذلك يَفعل، فسَرى النّبضُ في

جسدي المحنَّط وعلمتُ آنئذ أنّي نجوتُ، وقال وهو يُغالب ضحكتَه: «مازلتَ تكذب يا بربريّ، إنّ في نفسك حاجة لم تُفصح عنها هي أعظم عندك من تقبيل يدي وخدّي، فاذكُرْها السّاعة». واتتني الجرأة إذ علمتُ أنّه يقرأ قلبي ويطّلع على سريرتي ككتاب مفتوح بين يديه، فقلت: «أجل سيّدي، يا عالم ذات القلوب وخفايا الأرواح. إنّها أمَةٌ لك نوديَت جُمانة. بكت بحرقة شوقا إلى الإمام المستور حتّى وقع إيمانُها من قلبي بخير المَواقع. لو أعتَقتَها فزوّجتَنيها كنتُ لك شاكرًا ما حييت». تردّد الشيخ وصمت برهة، تحرّك في مقعده ثمّ نظر جنبَيْه، وقال بعد لأي: «والله إنّ طلَبك جُمانة لكثير عليك، وإنّه لَمثل طلبك نصفَ نساء القلعة. أما إنّك لعبد مجبول على الطّمع، لمَّا سمعتَ وعدي وعرفتَ أنّي مانحك ما تطلب غاليْتَ في طلبك، لكنّي لَا أنكُث غَزْلي، فلكَ المالُ يا سَفيه ولك جُمانة إن رضيَت، وإنّي أستشيرها السّاعة، وَلْتُغادر قلعتي هذه اللّيلة قبل أن يأتيني آتٍ في المنام فيأمرني بأخذ ما عندك وضرب عنقك».

وحدّثني قباذ بن المرزبان المُلقَّب سردار أنّ زوج أخته أماياس الصّنهاجي قد أخلف وعدَه للسيّد حسن وحدّث ناسا في سلَميّة أنّ سيف الإمام كان مكذوبا، وأنّه ما رأى في مَنامه محمّدا بن إسماعيل وما أمره بشيء، فلمّا نمى الخبرُ إلى الإسماعيليّة خاف على نفسه القتلَ، فأخذ من ماله ما خفّ وغلا، وضرب في الأرض حتّى بلغ نيسابور، ولجأ إلى وزيرها السّلجوقيّ فخر الملك فجعل له منزلا وعطاءً، واستبقاه آيةً ناطقةً لترذيل الباطنيّة وتكذيبها، أمّا جمانة فظلّت في منزله بسلميّة إذ ما كانت لتعضده في ضلالته وهيٍ الباطنيّة التي أخلصت قلبَها للأئمّة، ولكنّ ذلك كان ابتلاءً شديداً إذ انكفأت وحيدةً وما بقي لها مِن أحدٍ يزورها فتُكلّمه أو يُكلّمها

غيري وسهل ابني وبضع نساء من أطراف سلميّة يزُرنها غبّا طمعا في العطايا، فلمْ يَطُلْ بها المقام على تلك الحال حتّى أصابتها لوثة وما استبان لي من سبيل لِشفائها. وكنتُ كلّما أردتُ التّهوينَ عليها وتخفيف ما هي فيه قالت: « لقد أسلفتُ من الخطايا ما يُؤرّق مَنامي ويُذهب صوابي، وإنّك لا تعلم يا ابن أمّي ما أَتيْتُ، فاسمَعني أقصّ عليك خُبري»، لكنّي أربأ عن سماعها خشيةَ أن تَنكأ جرحَها. وآبى عليها وأُكرهها على الصّمت. وإنّها لكذلك بين صحو وجنون حتّى جئتُها بِطبيب خوارزميّ شهد النّاسُ بحكمته فقال لي: «لقد أتيتَ خطأً إذ أكرهتَها على الصّمت، إنّما مرِضت ابتداءً بكتمان ذلك الأمر، فتضخّم في سريرتها حتّى صار وسواسا واستفحل، لكنّها إن باحت به وتكلّمت عنه كما يحلو لها رمَت عنها إصرها ووضعت حملها فشُفيت، فاسمعْها في كلّ ما تقول وإن كان مِن آخرين يسمعونها معك فَلْيفعلوا»، فلمّا كان اليوم التالي جاءت نسوة ثلاث من ريف سلميّة لزيارتها وكان ابني سهل ومحروس ابنُ أمایاس يستصلحان الأرضَ التي أورثَنا أمایاس، فقلت: نسمعها فنضع عنها إصرَها، فإنّي أرى كلام الحكيم صوابا كلّه أو بعضَه. فخلوتُ بالنّسوة فذكرتُ لهنّ كلام الحكيم، وطلبتُ منهنّ سماعها معي مهما طال حديثها واستحلفتهنّ على كتمان ما تقول خيرا كان أم شرّا، ووعدتُهنّ بعطاء جزيل، وجاء سهل ومحروس مُستجيبيْن إذ دعوتُهما، فاجتمعنا كلّنا حول جُمانة وقلت لها: «هيه يا ابنة أمّي، أخبِرينا عن فعلك المنكر الذي يُؤرّق منامك». فسُرّت وقابلتني بحماس تقول: «إنّه حديث طويل، وإنّي إذ أُحدِّثُ أُفيض، فإن كنتم سامعيّ فحتّى أبلغ من حديثي آخرَه»، فأجبناها إلى طلبها، واستوثقت منّا حتّى حلفنا، فاستوت في جلستها ونظرت نظَر الخائف عن يَمين وشِمال وقالت: «يا ابنَ أمّي، لقد

حضرتُ دفن رجل وامرأة حَيّين وأعنتُ عليه، كانت موبقات ولم تكن صغائر، فقد زعم السّاحرُ شالوم بن عاموس أنّ قتل حبيب ومريم المكتومة فأل سيّء وأنّه يَرتدّ على قاتلهما ويْلا وخَسارا، وأشار على السيّد حسَن بِتجفيفهما من الدّماء واستخراج أعضائهما الباطِنة ثمّ دفنهما بتلك الحال، فإنّهما يكونان مُغيَّبيْن في البرزخ بين الحياة والموت، ويكون ذلك مصحوبا بطقوس سحريّة سوداء، يَحضرها هاروت وماروت لنَفث اللّعنات الأبديّة. وأشار السّاحر بأن يجري ذلك في بناء مهجور يؤمّه البوم وتستوطنُه الحيّات والثّعابين، وطلب إحضارَ كلب مقابر من الكلاب التي اعتادت نبْش القبور وأكل الجثث البشريّة أو أكل جثث الرّضّع والأجنّة التي يرميها بعضُ النّاس بغير دفن، وأن تحضر الطّقوسَ امرأةٌ غير طاهِرة لِتُنكح على حيضها، فقالَ لي سيّدِي: لا أستأمن على هذا الأمر ذاتَ فرج غيرك، فأخبريني إذا طَمثتِ...، فلمّا جاء ذلك اليوم المشؤوم، وكان يومَ ريح عاصف، يَقذف الوجوهَ بِحبّات الرّمل ويذرو الغبارَ فيَجعل الأفق أصفر كئيبا، أوثق الحُرّاسُ حبيبا ومريم وساقوهما كشاتيْن تُقادان إلى الذّبح، وحضر السّاحر يَتبعه غُلامُه الأسود شديدُ البناء كقطعة من جدار، وقد جعلَ كلبا قذِرا في قفص. وجئتُ وسيّدي مع بعض حُرّاسه من الفدائيّين فانطلقنا نحو بُرج خرِب مهجور عند طرف المُوت الشّماليّ يُسمّونه بيت البوم.

أمر السّاحرُ بِربط الأسيريْن خارِج البرج، وصَرف سيّدي حُرّاسه آمرًا إيَّاهم بالمراقبة من بعيد ودخلنا نحن الأربعة. كان البرجُ الخربُ غرفة واحدة متوسّطة الاتساع بلا سقف أو نوافذ، يشعر الدّاخِلُ إليها بأنّه يَنزل قبرا، وعند ركن منها حجر متساقط تراكم حتّى جاوز علوّه المتر، وخالطه تراب فأنْبت وشَاكَ. قال شالوم

وهو يُقلّب وجهه بين الزّوايا في ذلك البُرج الموحش ثمّ يستدير نحو السيّد ونحوي: «هذا أصلحُ مكان لِما نُريد، فلْنبدأ عملنا. اصعدا فوق هذا الرّكام لتتّقيا هياج الكلب، فإنّه يُقتَل في معركة قد تطول ولا يُقتَل في القفص غيلة». وإذ سمع السيّد ذلك قال وقد بدأ يُشمّر جُبّته للصّعود: «ألا تُحضر الجانيين إلى الغرفة؟ فإنّي لا آمَن بقاءهما في الخارج». فردّ شالوم مُتأفِّفا من التدخّل في شؤونه: «لا تُراجعني في شيء يا صبّاح فما طلبتُ نصيحتك. سوف يَدخُلان بِنفسيهما من دون أن يُكلّمهما أحد فيتمدّد كلّ منهما على مَذبحه!»، فلمّا صعدنا فوق الصّخور وقرفصنا قال لِصبيّه: «خُضْ معركتك الآن، واقتلْ ذبيحةً واسفك دماءً للجان». ووقف شالوم عند فتحة الباب شاهرًا سيفَه فسَدّها بجسده، وأخذ الشّابّ خنجرا واقترب من القفص، فشرع الكلبُ يُطلق دمدمة مُخيفة كأنّما يُحذّره من الاقتراب كاشفًا عن شراسته الشّديدة وهو يُطبق أسنانه على الدّمدمة الحاقدة ويَرفع أذنيه ويُضيّق عينيه، وما إن فتح الشّابّ باب القفص حتّى اندفع نحوه مُطلقا نُباحا عاليا وقفز إلى صدره، فقرفص الشّابُّ بِحركة رشيقة مُباغتة ومزّق بطنه بضربة واحدة وتراجع مُسرِعا. جرى الكلب نحو عدوّه وهو يجُرّ أحشاءه والفراثة تنسكب وراءه، وقد زاده الألم غيظا ورغبة في الانتقام. وسرعان ما ارتمى عليه مرّة أخرى فحاول الشابُّ بحركة جانبيّة أن يَغرس الخنجر في رقبته لكنّ القفزة القويّة أفقدته توازنَه فكاد يقع لولا أن استند إلى الحائط ونجا من مخالب حادّة أوشكت أن تنغرز في وجهه. وطفق الشّابّ بعد ذلك يدور حول الكلب، يُخاتله من بعيد، ويُطيل أمد المعركة حتّى أُجهِد الكلبُ وأثقلَته إصابتُه وأمعاؤُه المندلقة، وعلِم أنّ الانتقام صار أمنية بعيدة. وإذ نظر نحو فتحة الباب رأى شالوم مُسلّحا بِسيفٍ قد

سدّها بِجسده ووقف مُتهيِّئا فأعاد بصره نحو الشّابّ موجوعا كسيرا كأنّما يَستجدي طعنة الرّحمة لينتهي عذابُهُ، فعرف الشّابُّ هزيمة خصمه وقفز نحوه لاهثا مُطوّقا رقبته بذراعه اليُسرى رافعا رأسَه بِعنف حتّى ارتفع عواؤه ورُبّما كُسرت رقبته ثمّ عاجله بغرز الخنجر فيها مرّات سريعة متتالية، فانفجر الدّم وسقط الكلبُ يتصكّك مُطلقا حشرجة أخيرة. تقدّم شالوم وأخذ يدور حول الكلب الذّبيح ويقرأ: «يا هاروت الأسود يا ابنَ الشرّ، يا ماروت الأحمر يا ابن الدّم!، يا قادِرَيْن مُقتدِرَيْن يا ابنَيْ ميمون أبانوخ... أقسمتُ عليكما أن تَحضُرا فورا... إهْيَه أشَر إهيه، قد سفكتُ من أجلكما دماء آكل الرّضّع آكل جثث البشر، وناحَ من أجلكما فوق رؤوسنا البومُ، وتُنكَح من أجلكما امرأة غير طاهرة...»، فوالله لقد شعرتُ وهو يتكلّم بدخولهما الغرفة إذ ضاق صدري وغُمّ قلبي وانسدّ حلقي وصرتُ أقلع الأنفاس من غور بعيد.

قال قباذ بن المرزبان: كنّا نُصغي لِجُمانة وعلى رؤوسنا الطّير وما فينا غيرُ أنفاس تتردّد، وقد ارتفع صوتُها وتهدّج، ثمّ تلعثم وتقطّع، وأخذت تنشج حتّى غصّت، فسكتت ونحنُ خُشّعٌ ترتعد مفاصلنا ويتكوّم بعضنا على بعض، حتّى إذا غلبت غصّتَها ومسحت بِكُمّها نُخامتها عادت تقول: أتاني الشّابُّ الأسود قاتل الكلب وأنا مقرفصة فوق الصّخور بجانب سيّدي حسن فأخذ بِتلابيبي وقال: «انزلي... هيّا». فتشبّثتُ بالحَجر وبِجُبّة سيّدي، ورفضتُ النّزول كأنّي لا أعرف ما جاؤوا بي من أجله، فجذبني العبدُ بقوّة حتّى أسقطني بين ساقيه، وكان أشدّ هياجا من مجنون ساعة الصّرع، وأخذ بشَعري فأقامني وصفعني صفعة مُدوّية لمع من شدّتها بين عينيّ بَرق ثمّ انطفأتا، وسقطتُ بين ساقيه مرّة أخرى فرفسني

كالخنزير وصاح بي: «اخرسي يا عاهرة!» وطرحني كما شاء ومزّق ملابسي وأنا أنتفض، ثمّ وقع عليّ حتّى أحسستُ أنّه يَحفر فرجي حَفرا مُنكَرا ويُمزّق أمعائي، وهو يشخر ويخور كالثّور ويَعضّ ما أدركَتْ أسنانُه من لحمي... فما فرَغ ممّا هو فيه إلّا حين عنّ له أن يَفرَغ، وجاء شالوم يدور حولي والأرضُ تدور بي. فأردتُ القيام لستر عورتي لكنّه ضربني برجله ونهرني، وظلّ يدور حولي ويقول: «لبّيكَ عزازيلُ العظيم القادرُ على الشّرّ. أناديكَ أيّها الرّوحُ القاسي، يا جبّار يا عديم الرّحمة، وباسمك أستنزل اللّعنات الماحقات، لبّيك فقد أرسلتَ إليّ في الحين خادميكَ هاروت وماروت، فَمُرهُما الآن أيّها الشّيطان الأكبر أن يلبَسا جلدَيْ ثُعبانيْن أسود وأحمر».

صمتت جمانة ريثما تكتم لُهاثها. كان صوتُها قد صار متقطّعا، وكانت تبذل جهدا أشدّ من استطاعتها، فلمّا أمكنها استئناف حديثها قالت: ظللتُ في مَطرحي حتّى أنهى شالوم كلامَه، فرأيتُ ثُعبانيْن عظيمَيْن أسودَ وأحمرَ يخرجان من تحت الحجر المُكوّم ويَتّجهان نحو دماء الكلب الطّريّة فيَلعقان، ثمّ يَدخلان تحتي وأنا مرتعبة، ولقد خانتني ساقاي ولم أستطع هربا. وأردتُ الصُّراخَ فما كانت لي من حنجرة، وأحسستُ لُزوجةَ جلديْهما عند فرجي، ثمّ عادا فاختفيا في كوم الحجر، وصاح شالوم مُبتهجا: «لبّيكَ عزازيل... لبّيكَ عزازيل».

قال قباذ سردار: حين بلغَت جمانة هذا المبلغ من الكلام كان الرّعبُ قد أخذ من نسوة سلميّة مأخذا عظيما، ودارت أعيُنُهنّ كالذي يُغشى عليه من الموت، فحاولنَ القيامَ فالفرار ما وسعهنّ الفرار! ناظَرتُهُنّ مليّا فأشفقتُ عليهنّ. كانت وجوههنّ الصّفراء تنضح رعبا، وعيونهنّ مفتَّحة ما ترمش، وشِفاههنّ يابِسة مزمومة.

حاولن القيامَ فخانتهنّ رُكَب مُرتعشة ودماء بأجسادهنّ بَرَدت وجفّت. ورأيتُ اثنتين منهنّ تنسحبان حبوا، وتتلفّتان مخافة أن يُدركهما عزازيلُ الشرِّ أو ثُعباناه الأَسود والأحمر، أمّا الثّالثة فكانت قَبضتاها تكمُشان التّراب وهي تُشيّعهما بِعينيْ حسرتها، وقد عجزت عن الحبْو مثلهما، وكانت تحتها بقعة بول كبيرة..!

بدا أنّ جمانة لم تَفطن لفرار المرأتيْن فلم تكلّمهما ولم تُكلّمنا عنهما. كان فكرُها قد سرح بعيدا وهوّم فعادت إلينا كَمَن خرّ من السّماء أو هوت به الرّيح ومَضت تقول: «هتف شالوم كما يهتف سيّدٌ لا يشكّ في تنفيذ أوامره قَطُّ: يا هاروت ويا ماروت، يا مُستَحقَّيْ كلّ تبخيس وهوان! آمُرُكما، أنا شالوم بن عاموس ولد راحاب، ورِجْلايَ فوق رقبتكما، أن تَجلِبا إليّ الجانِييْن المربوطيْن في الخارج، فتُمدِّدانهما على المُلاءتين فوق المَذبحَين!». وعندئذ أسرع الغُلامُ إلى حقيبة سيّده فأخرج مُلاءتيْن بِلونَيْ هاروت وماروت وفرشهما وجعل الكلبَ المقتول بينهما وقد اجتمع الذّباب على فرثه ودمه. وقال السيّدُ الأساس وهو ينزل مِن فوق كوم الحجر ماسحًا جُبّتَه مُسوِّيًا عمامته: «أخشى فرارهما يا سيّد العلماء. إنّ حُرّاسي كفيلون بجلبهما». فصاح شالوم غاضبا: «لا تشكّ فيّ يا صبّاح ولا تُراجعني وإلّا تركتُك مع المَرَدَة وذهبتُ، فيُذهبون وربّ يعقوب سمعَك وبصرك... حسنا يا صبّاح، اخرج بِنفسك لترى فتؤمن، وخُذ معك غيرَ الطّاهرة ليطمئنّ قلباكما». برك سيّدي ونكّس رأسَه طالبا الصّفح، وما لبث أن قام فأخذ بيدي فانطلق بي وهو يَضغط كفّي بحنان كأنّما يُهوّن عليّ أو يُواسيني لما فعل بي الأسود العاهر، وخرجنا من غرفة البُرج فكأنّما سقط عن صدري حجرٌ ثقيلٌ. ومشينا حتّى بلغنا مربط حبيب ومريم، فرأيتُهما تائهَي البصر مَخطوفَي الفكر، ورأيتُ بِعينيّ هاتين أغلالَهما

الوثيقة تنحلّ من أيديهما وأرجُلهما وتسقط عنهما فيتّجهان نحو باب البرج ويدخلانه، حتّى إذا رأيا -وربّما لم يَريا- مُلاءتيْن مفروشتين قَصَد حبيب الفرش الأسود ومريم الفرشَ الأحمر فتمدّدا مُستسلمين وأغمضا إغماضتهما الأخيرة، وجلب الغلام حقيبة الأدوات فوضعها بجانب حبيب، وجاء شالوم فجلس القرفصاء وأخذ محقنا وهو إبرة مجوّفة عند طرفها شَفّاط طويل فراح يتحسّس العروق فيَدفع فيها الإبرة ويشفط الدّم، حتّى إذا امتلأ الشفّاطُ أفرغه في قارورة كانت بِجانبه وأعاد الكرّة ثمّ بحث عن عروق أخرى، وحبيب ينتفض كلّ مرّة انتفاضة منكرة دون أن يَفتح عينيه أو يتكلّم، فلمّا أتمّ سحب الدّماء من جسمه جاء بخنجر فشقّ بطنه ونحن ننظر وأخرج أمعاءه فوضعها في إناء أحضره غُلامه، ثمّ شقّ صدرَه فأخرج قلبه ونشر جمجمته فأخرج مخّه وبعد ذلك قام بِيدين ملطّختين وقصد مريم ففعل بها فِعله بِحبيب».

سكتت جمانة تزدرد ريقها فسمعتُ ضُراطا من جهة يساري، ورأيتُ محروسًا بن أماياس يقوم مرتعبا، ثقيل الرّكبتين يجُرّ قائمتيْه جرّا، يُبسمل ويُحوقل، ناظِرا خلفه جاحظ العينين كهارب بلغه الدّرَكُ، حتّى إنّه أخطأ بابَ البرج واصطدم بالحائط فسقط، ثمّ قام وأسرع بالهروب ما أمكنه أن يُسرع. ومثلما حدث مع النساء بدا أنّ جمانة لم تره إذ عادت إلى حديثها من دون أن تكلّمه أو تتكلّم عنه، قالت: «طفق السّاحرُ يدور حول الجثّتين المَفريّتين ومن خلفه غلامه وهو يقول: «على التّيس قُرعتان: قرعة للرّبّ وقرعة لِعزازيل! (*) أصباؤوت آل شداي... تقدّمْ يا حسن فضَعْ يدًا على ذبيحة واذكُر في سرّك كلّ الخطايا التي تريد أن تُغفر لك، ثمّ ضَعْ يدكَ الأخرى

(*) سفر دانيال.

على الذّبيحة الثّانية، واذكُر كلّ الأماني التي تريد أن تَبلُغها، وانفُثْ كلّ اللّعنات التي تريد أن تَضرب بها». تقدّم سيّدي حسن فكان يضع يده على جثّة حبيب مرّةً، ويَخطو فيضعها على جثّة مريم مرّةً أخرى وهو مغمض العينين ذاهب الفكر، يُهمهم بكلام غير مفهوم، ثمّ يزمّ شفتيه ويُكوّر قبضته مُتوعّدًا ويتفل عن يمينه ويساره.

قال قباذ: كنتُ آخذ بِساعد ابني سهل وهو يتملّص منّي يرتجي فرارًا، فما بلغَت جمانة ذلك المبلغ من كلامها إلّا وجسدُه يرتعش كقصبة في مهبّ الرّيح، وما كنتُ مُستطيعا تثبيته ولو بحبال المراسي، فرفسني بِعُنف وولّى لواذا، يسقط، يتعفّر أنفُه بالتّراب فما يَفتأ الرّعبُ أن يُقيمه فيركض مُتلفّتا وراءه حتّى اختفى عنّي، وما بقي لسماع جمانة غيري وامرأة من صُويحباتها تجلس على بقعة بول قد ازدادت اتّساعا. وبدا أنّ جُمانة لم تنتبه إلى فرار سهل، فاستأنفت حديثها: «أوغل شالوم في هذره حتّى صار يَهذي بما لا أحسَب أنّ أحدا فهِم منه مقصدا: عزازيل زنا ببنات البشر فأخذ خطيئته وهرب إلى الصّحراء، وِزرُ عزازيل حمَلته الماعز فصارت قرابين لفدائه، مُذ تيس هارون قديما حتّى تيس الصبّاح ومعزاته... فيا هاروت المظلم، يا ماروت الدّمويّ لا تدَعَا قطرةَ ماء تبلغ الحنيطيْن المُجفّفين، واجعلا روحَ الصبّاح تكتم روحَيْهما ورأيه يَكتم رأييْهما بمثل عمر نوح في البرزخ، ثمّ بعد البرزخ أبد الآبدين... فلمّا أتمّ شالوم عمله وضع بخورًا طيّبًا في مبخرة الشّمعدانات السّبعة فعبقت في المكان رائحة قدسيّة كتمت روائح الدّم والموت، ثمّ طفق وغلامَه يَنهران هاروت وماروت ويأمرانهما بالمغادرة، فقال شالوم: يا سافليْن يا حَقوديْن، يا خادمَي الخطّاء عزازيل!، أنا خادمُ الربّ شالوم بن عاموس ولد السيّدة راحاب، آمركما باسم الحيّ القيّوم المزكّي ربّ جبرائيل

وميكائيل أن تُغادرا هذا المكانَ فورًا، وهذه الأجسادَ فورًا، ولا تعودا إلّا بِأمري... بأمري... بأمري، هيّا ارحلا هيّا... وأخذ سوطًا وانبرى يَضرب الفضاء ويُطارد الهواء فتسمع لفحًا وأزيزًا كأنّ السّوط يضرب لحمًا حيًّا. ثمّ ازداد هياجًا وصار صوتُه زعيقًا: باسم الحيّ القيّوم المزكّي آمركما. «هُو إلاهَاه حَيَا فيٍ قَايَام ليعَالمين...[*]» اذهبا عنّي يا خادمَيْ الخطّاء عزازيل، فإنّي أستجير منكما بالربّ الأكبر: «تَرعَاهُم بِقضيبٍ من حديد وتُحطّمهم كإناء من خزف...[**]»

عند ذلك الحدّ صمتت جمانة لحظات وكأنّي بها تتنفّس الصّعداء ثمّ استطردت قائلةً: فأحسستُ أنّ ضيقا ينزاح عن صدري وثقلا يسقط عن كتِفَيّ، وإذا شالوم وغلامُه يسقُطان على رُكبهما وقد أخذ منهما الإعياءُ كلّ مأخذ، وقال شالوم كَمَن يهنِّئ بانتصار مجيد: «لقد رحلا، فعَلا كلّ ما نريده ورحلا من دون أذيّة». بدا على سيّدي حسن سرور عظيم بفتح مُبين وهتف بِشالوم: «لو تركتَهما في البرج يا حكيم أو قيّدتَهما فيه، إنّه يُناسبهما سكنا، ولَسوف أحتاج إليهما في أمور أخرى». فأجابه شالوم بتأفّف لا مزيد عليه: «لا تُراجعني يا صبّاح فإني أعلم ما لا تعلم، وإنّي مازلت أحتمل منك وأنهاكَ عن مُهلكات. فوَربّ إسحاق ويعقوب لو خرجتُ وتركتُهما معك طرفة عين لَصفعاك صفعة تُذهب عقلك وسمعك وبصرك...»!

قال قباذ: لم تعد جمانة قادرة على الكلام. انهارت تعبا وأسندت رأسَها إلى حجر وأغمضت عينيها، فتفقّدتُ الصّامدة معي على السّماع، البارِكة على بولها فإذا هي جاحِظة العينيَن يابسة الجلد باردة الأطراف، وحينما دفعتُها أتبيّنها سقطت كصنم من

(*) تسبيح مندائي.

(**) داوود/ المزمور2.

حجر، وإذا هي جيفةٌ بلا نبض أو روح، فهتفتُ بِجمانة وأنا أزورّ عن القتيلة وأشير إليها بسبّابتي: «ازددتِ إثما يا مشؤومة بقتل روح بريئة أخرى. لقد ماتت المرأة بين يديك. ماتت رعبا وهي تُنصت إليك»، فسمِعتني جمانة كأن لم تسمع ورمقتني بطرف مِن عينها عاتب غَضيض وقالت: «أتترحّمون على امرأة ماتت إذْ سمِعت، وتَعتبون على امرأة تُكلّم نفسَها وقد عاينت؟ ألا ساء ما تحكمون!».

وحدّثني رفاعة بن الجوشن الكتامي عن مخلاف بن بازيار حديثا جلَلا عن دفائن أئمّتنا بإفريقيّة التي بشّرنا بها السيّدُ في مزمور الأرض النّاطقة، فسمعتُ وفقهتُ لكنّي ما أخذتُ بروايته بل قلتُ له: «أي رفاعة رفع الله ذكرك، إنّك بربريّ مُوَلَّدٌ لسانُك أعجميّ حتّى تعلّمتَ العربيّة على كبر، وتزعم أنك رويتَ عن مخلاف بن بازيار وما علمتُ له لغة غير الفارسيّة، فبِأيّ لغة رويتَ عنه؟ وأين التقيته يوما في حياتك، وقد مات وأنت صبيّ ترعى الشّاء...»، فما أدركتُ منتهى كلامي حتّى قام عنّي وقد احمرّ وجهه من الغضب، فضرب بِجناح بُرنسه وتركني ومضى، وما كنتُ أنوي نقلَ روايته لكنّي حدّثتُ الحصن بن واسول بهذا الأمر فقال لي: «ظلمتَ يا ابن أخي وما عدلتَ، وإنّي لن أكلّمك إلّا أن تعتذر من رفاعة المصدوق، فوالله لقد كنتُ أجلس وإيّاه أمام مخلاف بن بازيار في «الدّعوة خانه» برودبار وقد احتكّ كتفي بِكتفه، وإنّي لأشهد أنّه قد سمع منه وروى عنه كما سمعتُ ورويتُ، فما عاد من هناك إلّا بعد موت مخلاف.» قلتُ: «فما قولك في اختلاف لِسانَيْهما يا شيخ؟» قال: «كان مخلاف يتكلّم سبع لغات، وكان أفصح ما يكون حين يتكلّم العربيّة». فلمّا سمعتُ ذلك عدتُ إلى الرّواية أنقلها، إذ حدّثني رفاعة بن الجوشن الكتاميّ عن مخلاف بن بازيار حديثًا جلَلا عن دفائن أئمّتنا بإفريقيّة فقال: «ألا

إنّه لا تقوم السّاعة حتّى يُعرف ميراث السيّد الأساس، ويكون ميراثه في الغرب حيث تتطلّع عيونه وليس في الشّرق حيث عاش وغاب، فإذا ظهر خنجرُه ومزاميرُه قام الضّالّون يطمسون الحقّ المُبين ويَحرقون القبر ويُتلفون المزامير، وآخرون يَرفضون تسليم الأرض لِورثتها الميامين، فتكون معركة بين الحقّ والباطل يَثأر فيها الخنجرُ الأبلق من المُعاندين والنّابشين لا يَستثني منهم أحدا بَعجًا للبطون وبَترًا للأطراف وتمزيقًا للقلوب، ويُهاجر أصحابُ دعوتنا في ذلك الزّمان إلى إفريقيّة لِيُقيموا دولتنا على أشلاء مُخالفينا، فذلك معنى قول السيّد في مزمور الأرض النّاطقة إنّ ذوي العزم من أتباعه في آخر الزّمان يَحملون قلعة الموت على ظهورهم فيأخذونها إلى الغرب لأنّهم يُصرّون على استرجاع أرض ميراثه، ويجدون بها دفائنَه فتكون قلعة لباطنيّة ذلك الزّمان المتأخّر، وقلاعهم في ذلك الزّمان سراديبُ تحت الأرض، يتحصّنون فيها وتكون منطلقا لغزو بلاد الغرب كُلّه من برقة إلى طانجة، أما قرأتم قوله: «عُتاة من صحبي، عند نهايات الزّمن، يضعون القلعة فوق كواهلهم، ويَسيرون إلى الغرب. تُسَرّ لَقدمهم روحي بعد الوحشة، ويَهُبّ الأبلقُ مثل الذّئب المرتقب!»، ألا إنّه لا تقوم السّاعة حتّى يعود إلى أصحابهما ميراثان مُضَيَّعان، ويُرسل الله الملائكةَ المردَفين، وتقول الصّخرة للباطنيّ: «يا مؤمن هذا ظاهريّ، هذا ضالّ قد اختبأ خلفي تعال فاقتُله». قلنا: «يا حجّة إمامنا. ما الميراثان المضيَّعان؟» فأجابنا مخلاف وعلى رؤوسنا الطّير: «الأوّل ميراث يوشع النّبيّ في كنعان، والثاني ميراث حسن الدّاعي في الشّام وإفريقيّة، فإنّ رجُلا من نسل يوشع بن نون يجمع اليهود حتّى تطأ خيولهم نقائشَ أجدادهم ويأخذون الأرضَ المقدّسة فيأكلون مِن قثّائها وفومها وعدسها وبصلها...

قلنا: «زدنا من علمك يا صاحب الحجّة، فإنّا لنتحرّق إلى أخبار ذلك الزّمان.» فقال مخلاف: «حين يأذن الله بقيامة الباطنيّة ويحين الزّمان، يجتمع رجال من الباقين على دعوة السيّد الأساس فيَذكرون جهاده وأمجاد فدائيّيه وغزارة علمه وغَوْر تأويله، ويستذكرون ما صار إليه النّاسُ من الضّلالة وجهل البواطن والأخذ بالظّواهر...، فيَبكون حتّى تحمرّ مدامعهم وتخضلّ لِحَاهُم ويقولون: «ما عاد للحياة مذاق وما لَنا فيها أَرب لولا انتظار قيامة دعوتنا بِظهور قبر سيّدنا ومزاميره وخنجره، فلعلّ القيامة في زماننا فنمنحها كواهلنا وأعضادنا...» حتّى إذا رأى الأئمّةُ مِن وراء سُجُف الغيب صدق المؤمنين وبُكاءهم وضَرْبهم وُجوهَهم وأدبارَهم أوحوا إليهم: «إنّما تقوم دعوة حسن بعد كلّ هذا الزّمان بِجهدكم وإخلاصكم فاذكُروه يَذكُركم وابحثوا عن ميراثه تجِدوه، وجِدوا ميراثَه تجِدوا من العلم والهداية ما لم يخطر لكم على بال وتكونوا قوما صالحين... وإنّ رجُلا مِن أهل الضّلال يأتيكم بإشارة من الغرب فتتبّعوه...». وكما يَهدي ضَبٌّ قذر في الصّحراء مُسافرا مؤمنا إلى نبع ماء طيّب، فإنّ المهتدين يعرفون ميراث السيّد بِتتبُّع رجل ضالّ مُتعالم مِن أهل إفريقيّة يستخرج المزامير والخنجر ويسعى في سرقتها وحرمان الورثة منها، فإذا بلغ المهتدون تلك الأرض وجدوها زاخرة بكنوز أئمّتنا ودُعاتنا الأوائل، ولكلّ كنز علامات تُرشد إليه لا يستطيع تأويلها إلّا باطنيّ حصيف، فما جمعت أرضٌ من الميراث ما جمعت تلك الأرض، وما حملت أنثى من خير في رحمها مثلما حملت تلك الأرض، فيهتدي فيها العارفون في ذلك الزّمان إلى مواريث سادتنا حسن الصبّاح وعبد الله الصّنعاني وأخيه أبي العبّاس فالِق الرّاس، ويجدون، طوبى لهم، ميراث إمامَيْنا: الحلواني وأبي سفيان،

ويَجدون كتابَ الجنان الأصليّ وسائر مواريث أئمّتنا بعد قيام دولتنا في القيروان والمهديّة... فتُبحرُ سُفُنُهم في بحر من العلم الباطنيّ عميقة أغواره، وتَفيض أنهار من الذّهب والأموال لا عدّ لمبالغها، وتلك إشارة من الأئمّة إلى أهل الهداية في ذلك الزّمان أن يَمتلكوا أرض الميراث بِما تهيّأ لهم من تلك الأموال إن قَبل مُغتصبوها مالا، وبالخناجر إن عاندوا ورفضوا، فإنّ شبرا من تلك الأرض لا يحلّ لأحد منهم وإن ورِثها عن جُدود أو اشتراها بعقود وشهود، أما قرأتم قوْل السيّد في المزمور الخامس: المالُ لِذِي رَغَبِ. والخنجرُ لِلعُنُدِ. والأرضُ لِقلعتِنَا. بِقَبُولٍ أو غَصْبِ؟

٧*مولائي علي مدد*٧

مكتبة
t.me/soramnqraa

(6)

في ذلك اليوم، ومسدّس ميرْزاخان يدفعني من الخلف لم أجد من مهربٍ فامتدّت يدي إلى الباب تُديرُ المفتاحَ في قفله لأُدخِل ثعابين سامّة إلى أطفالي وزوجتي.

ارتعب أبنائي الثلاثة. صرخَتْ مَسرّة مفجوعةً: أبي... أبي، وجرت نحوي وحاولت أن تَبلُغني، لا أدري أكانت تريد أن تُنقذني منهم أم تَحتمي بي، لكنّها انهارت فوق الأريكة قبل أن تصِل إليّ، وظلّت عيناها مُعلَّقتيْن بي. وارتمت زوجتي على عاصم وسعيد فبركت عليهما كدجاجة سدَّ عليها هجومُ العُقاب كلّ مَهرب. صرخَتْ وولولتْ بما لم تأتِ مثله من قبل، وصار وجهُها صورةَ الرّعب الحيّة. ثمّ جمعونا في ركن من الغرفة. وأحاطوا بنا، وكَلَّمنا ذو اللّهجة العربيّة، ميرزاخان القاتل:

- لا رغبة لنا البتّة في إيذائكم. أنتم أهلنا ولا نريد لكم غير السّلامة، ولكنّنا نريد دفْع الأذى عن أنفسنا. سلطات بلدكم تسعى إلى اعتقالنا وقتلنا، ونحن نريد الانسحاب إلى دولةٍ أخرى مُجاورة، عند حدود بلدكم الجنوبيّة، ومِن هُناك تسهل علينا العودة إلى بلدنا. هل تُساعِدون أصدِقاءكم على

النّجاة أم تتركونهم للأذيّة؟

لم يتكلّم منّا أحد. ما كانت لنا ألسنة ولا حناجر. وَلَكَمْ عجِبتُ لِعصابةٍ تُفسّر لِضحاياها برنامج عملها، وتعتذر على ما قرّرَت لهم من الشرّ والأذى. ومع أنّه لم يُجِبْه أحدٌ منّا، ولا اهتمّ بكذِبه، واصَل كلامَه بِحماسِ مَن يُصفَّق لهُ ويُحمَل على الأعناق:

- سنترافق في رحلة ممتعة، نأكل ونشرب. سنشتري حلويّاتٍ وغلالًا، ونروي مُلَحًا وطرائفَ، ونضحك من قلوبنا. تُبلِغوننا الحدود كَرَمًا منكم بسيّارتكم الجميلة، وتعودون مشكورين ومأجورين بِمالٍ أنتم أولى به من المهرّبين...

ازداد الأطفال التصاقًا بأمّهم، وظللنا صامِتين.

بتنا تحت حراسة شديدة مكدَّسين في الصّالون، يقتلنا الخوف وانتظارُ السّوء والمجهول. وفي الهزيع الأخير من اللّيل همّ بي ميرزاخان فأقامني وأشار عليّ بالتوجّه معه إلى غرفةٍ أخرى. وكانت مَسرّة في حجري فتشبّثت بي تمنعني من الذّهاب معه، إذ خمّنت وهو يَحمل مسدّسًا بيمناه أنّه يريد قتلي. فلمّا مدّ يده لإبعادها هجمَتْ عليه كذئبة وعضّته بشراسة، فقفز مبتعِدًا وصاحت صيحة عالية خطر لي أنّ صداها قد بلغ كلّ مخافر المدينة...! وكي يجتنب مواجهة أخرى قد تجعلها تطلق صيحة أعلى في جوف اللّيل الصّامت، حاول إقناعي بأنّه يريد الحديث معي على انفراد مراعاةً لمصلحة الأولاد، وأنّه لا يُريد بي شرًّا أبدًا، لكنّ مسرّة لم تُصدّقه. وتمسّكت بي وأشارت إلى مسدّسه، فأعطاه لِرفيق له وسبقني نحو

الباب مُشيرا إليّ باتّباعه، فانسللتُ من بين يدي ابنتي وأنا أربّت على شعرها وأطمئنُها حتّى تراخت قبضتُها والتحقتُ بِغريمي. وما إن انفرد بي في غرفةٍ أخرى حتّى ألقى بوجهي حفنةَ بارود ولطخة دم:

- سنُفخّخ السيّارة، ونجعلها مرصودةً للانفجار الكامل بِلمسة زرّ إن احتجنا!، فليس من المَقبول عندنا أن نسقط في الاعتقال. إن كانت بك حاجة إلى نفسك وزوجتك وأطفالك فنفّذ أوامرنا بحذافيرها ننجُ معًا. وإن استوقفتنا دوريّات الشّرطة أو الجمارك فكُن هادئًا ودعني أتصرّف بما ينبغي في كلّ موقف: لديّ اللّباقة اللّازمة لِتضليلهم، والمال لإسكاتهم، والرّصاص لإرسالهم إلى الجحيم إن لم يكن من ذلك بدّ... وإن حاولتَ الإبلاغَ عنّا أو خيانتنا ولو بِغمزة عين سنفجّر السيّارة وينتهي أمرُنا جميعًا، وإنّها الشّهادة والجنّة عندنا فنحنُ نحارب في سبيل الله والأئمّة، أمّا أنت فلا تَغنم من الوشاية غير الموت العاجِل ثمّ خزي الآخرة!

سكت عن الكلام إذ سمع همهمة بكاء من الغرفة الأخرى. مشى بِحذر نحو الباب الفاصل بين الغرفتين فأطلّ ككلب حراسةٍ بِعيْن واحدة وأومأ إليّ بِمُوافاته، فأطللتُ على أبنائي لِطمأنتهم بأنّي لا أزال حيًّا. وافترّ ثغري رغم الألم، وجعلتُ على وجهي قناعَ مُهرّج يبتسم، وحاول أبنائي طمأنتي فوضعوا هم أيضًا على وجوههم أقنعة جميلة، وعدتُ مع نكير إلى قبر الحساب:

- كلّ ما عليك هو السياقةُ بهدوء ووثوق. لا تلفت إلينا أنظارَهم بِخوفٍ أو ارتباك...

قاطعتُ كلامه وهو لا يكفّ عن توجيه الأوامر ورسْم المحاذير:

- أَفْعَلُ كلّ ما تريدون، وأسعى ما استطعتُ إلى إبلاغكم مأمَنكم إن أبعدتم أبنائي وزوجتي عن هذا الأمر. أبعدوا النّساءَ والأطفال ودعونا نتصرّف نحن الرجال وحدنا.

- لا تُعلّمنا ما علينا فعلُه. بدأتُ أشمّ رائحة خبثك وخيانتك منذ الآن.

حين ركبنا السيّارة قُبيل الفجر لاحظتُ وجودَ أسلاك في سيّارتي أُخفيت بِأشرطة لاصِقة، فتَوَضَّح لي أنّهم فخّخوها. تلك السيّارة المفخّخة العابِقة بِرائحة الموت دخَلها أبنائي ثلاثتُهم فأجلسوهم في الصفّ الأوسط حول أمّهم، واتّخذتُ مكاني أمام المقود الدّائريّ وأنا أنظر إليه نظرة مَن لم يعرفه من قبل، إذ بدا لي لُغمًا أرضيًّا يوشك على الانفجار. وركب بجانبي ميرزاخان بعد أن استعاد مسدّسه فأخفاه تحت ملابسه بجانب خنجر الصبّاح، أمّا القاتِلان الصّامِتان ذوا البشرة الهنديّة فاستقلّا الكراسي الخلفيّة وهما يُتمتمان بأدعية وأوراد غريبة. وفيما كنتُ على وشك تشغيل المحرّك سمعنا نداءً مُلِحًّا واستغاثةً من منزلي، فقفز ميرزاخان نازِلًا ووجّه المسدّس إليّ، ثمّ استدار فوجّهه نحو نافذة منزلي، وصاح بي:

- مَن أخفيتَ عنّا في المنزل؟ من؟

- إنّها أمّي. عجوز مُسِنّة في الدّور العلويّ. تنام دومًا قبل الغروب.

لم تكفّ أمّي عن المناداة عليّ، ربّما لتطلب منّي ماءً أو طعامًا، وإذ لم أجبها راحت تنزل الدّرج إلى الدّور السّفليّ، فصاح ميرزاخان بِرفيقه وقد نزل من السيّارة:

- اجلبها لتركب معنا!

ثمّ كلّم رفيقه الآخر بِلهجة غريبة وهو يُشير إلى المنزل، فعرفتُ أنّه يأمره هو أيضًا بالعودة إلى المنزل لِجَلب أمّي.

دخل أحدُهما وبقي الآخر عند الباب وقد اتّخذ هيئة المتوثّب، وسمعتُ بالمنزل أصوات تهشّم وصرير، وعرفتُ أنّ الغازي يفتّش منزلي تفتيش جنود هولاكو منازل بغداد، فما عاد إلّا بعد لَأْيٍ يقتاد العجوز وهي تتلفّت حولها باحثةً عنّي سائلة عمّا يجري، وقال بارتياح:

- تمام رفيق. كُلُّو تمام.

أمّا ميرزاخان فقد سخر من إلحاحي، وأصرّ على أخذ أمّي رهينة معنا. فقلتُ له:

- إنّها مريضة. لقد أجرت عمليّة جراحيّة على قلبها منذ بضعة أشهر، وقد يتوقّف عن النّبض بسبب إرهاق أو خوف.

ضحك مرّةً أخرى باستهزاء ولم يُجبني، وصاحبُه يأخذ بيد العجوز يستدرجها إلى السيّارة. فسألَته باستغراب وهي تتفرّس في وجهه وتستعين به لتتبوّأ مقعدها في السيّارة:

- أنت صديق ابني؟ لا أذكر أنّي رأيتك من قبل؟ لكن أين تذهبون كلُّكم في مثل هذه السّاعة؟

أخذتُ بِيدها فسوّيتُ جلوسَها بجانب زوجتي، وإذ اكتظّت بالأجسام الخمسة كراسي الصفّ الأوسط، أخذ الهنديّ الأشنب بِيد ابني البكر وأمره بالتقهقر معه إلى الكراسي الخلفيّة، لكنّه تشبّث بركبة أمّه وصاح به أن يتركه. فقلتُ له ساعِيًا إلى إرفاق كلماتي بإشارات تُفسّرها:

- دعه أرجوك. دعه بجانب أمّه. هكذا أفضل.

في الطّريق، والسيّارة تتحسّس الإسفلتَ البارد وتطوي ظلام الهزيع الأخير من ليلة بِلا آخر، كانت أمّي لا تكفّ عن السّؤال، فتُلِحّ وتُسرف لمعرفة وجهتنا وسبب السّفرة الغريبة وغايتها ومَآلها، ومَن أولئك الذين يُرافقوننا، ولماذا أحدُهم أشنب والآخران بِلا شنب، وأحدهم بقميص والآخران بِسراويل... فكنتُ أُداريها وأطمئنها وأصطنع الهدوء وأتكلّف الضّحك، لكنّها عرفت أنّ في الأمر كذبة، وحدست بحاسّتها السّادسة الغريبة أنّ الأمر ينطوي على خطورة وإن لم تُحدّدها، فصار صبرُها ثورةً وغضبًا، وإذ لم تستطع شتمي أمام أصدقائي وهي تعرف كذبي صبّت جام غضبها على السيّارة والطّريق والظّلام.

حاول الخاطِفون إضفاء بهجة كاذبة على رحلة الموت في سيّارة الموت، حيث الأرواحُ مرتهنة لِلمسة زرّ فأمروني بالتوقّف ليشتروا لنا ولأنفسهم مآكل ومشارب وللأطفال حلويّات وعصائر، لكنْ

لا أحد منّا ذاق شيئًا ممّا اشتروا. ثمّ ساد الهدوء بعد نوم أمّي، وظلّت السيّارة تَغزلُ الأرضَ في صمتٍ رتيب وتجتاز مدنا وقرى حتّى زاد قلقُنا وتوجُّسنا ونحن نتوغّل في المدن الجنوبيّة ونقترب من «بنقردان» الحدوديّة. لم تستوقفنا أيُّ دوريّة أمنيّة، وما صادفتنا غير بعض دوريّات قارّة عند مداخل المدن. كانوا يرون في السيّارة وهي تتمهّل أمامهم أطفالًا ونساءً فلم يشتبهوا بنا ولم يفكّر أحد منهم في تفتيش سيّارتنا أو التّثبّت من هويّات راكبيها. وبِقدر ما كان خوفي يشتدّ ونحن نتوغّل في آخر مدينة حدوديّة عند الضّحى، كان أملي في النّجاة من المغامرة القسريّة المُهلِكة يزداد.

قبل بضعة كيلومترات تفصلنا عن البوّابة الحدوديّة الّتي يمكنني عندها رمْيُ الحِمْل من فوق كتفيّ، مررنا بِسوق السّلع المُهرّبة، السّوق التي طبِقت شهرتها الآفاق ولا تهدأ حركتُها ليلًا ولا نهارًا، وكان عليّ تخفيض السّرعة ولزوم الحذر. وبينما أنا كذلك توقّفت حركة الجولان فجأةً واندلعت معركة مريعة بين مهرّبِين: عصيّ وسلاسل وهراوات وصُراخ ووعيد ودماء... ثمّ أسرع أحدُهم نحو شاحنة رابضة وسط الطّريق مليئة بِسلع مُغطّاة وألقى بجثّته أمام مقودها. وإذا عجلاتُها تصرّ على الإسفلت، وتنطلق بسرعة جنونيّة، فتحرّرت حركة السّير وانسابت، وأمكنني مواصلة طريقي، وأخذت أتدرّج في رفع السّرعة. التحق بِسيّارتي شابٌّ يركب درّاجة ناريّة، بدا أنّه كان طرفًا في المعركة بِجُمّازته المقطّعة وأثر الدّماء على خدّه. كان يريد مطاردة شاحنة السّلع

المهرّبة لكنّ الدرّاجة خذلته. فاقترب منّي وكِلانا على كفّ الرّيح وصاح بي:

- توقّف... توقّف حالًا.

فلكزني ميرزاخان واستحثّني:

- لا تتوقّف. زوّد البنزين. ارفع السّرعة...

لجّ صاحِب الدرّاجة النّاريّة عنادًا، وازداد بِسيّارتي التصاقًا وهو يصرخ:

- أعطني السيّارة لأطارد اللّصّ. لقد هرب بشاحنتي. سأقبض عليه وأعيدها إليك. أدفع لك من المال ما تُريد...

ومدّ يده نحوي وأنا أزوّد السّرعة وأنحرف عنه. فصرخ بي وطفق يسبّني، وحاول أن يَكمش شعري فأَفلَتُّ رأسي بحركةٍ خاطفةٍ في آخر لحظة. ومال ميرزاخان بجسده نحوي حتّى صار صدرُه في حِجْري وصرخ بالشّابّ وهو يُلوّح بالمسدّس:

- ابتعد. ابتعد وإلّا قتلتُك، سأقتلك يا كلب...

بدأت أمّي تصيح وكذلك زوجتي والأطفال. والسيّارة تترنّح وصاحب الدرّاجة النّاريّة يَجِدّ في القبض عليّ أو حَرفِ المقود حتّى يجبرني على التوقّف. وعندئذ اندفع ميرزاخان نحوي مرّةً أخرى، وقد جنّ بالغضب، وأخرج يدَه المسلّحة من شبّاكي ثمّ رأسَه، ما جعلني أصرخ به مُجدّدًا:

- لا... لا... إيّاك أن تفعل!

لكنّه أطلق النّار، وانتهت الملاحقة فورًا. ورأيتُ في المرآة العاكسة شبح درّاجة ناريّة تنزلق على الإسفلت وكتلةً سوداء لِرجل ينقذف بعيدا عنها. صرختُ به:

- قتلتَه؟ هل كان الأمر يستحقّ القتل؟

- لا. أطلقت النّار على العجلة. ألم تسمع صوت انفلاقها؟

كان أسوأ ما في الأمر آنئذ أنّي ما عدتُ وميرزاخان القاتل عدوّين، بل جنديّين في خندق واحد، أنجو بِنجاته وأهلك بِهلاكه، لكنّي سرعان ما انتبهتُ إلى عداوتنا الأزليّة على صياح أمّي وقد وضعت كفّيها على قلبها وتهالكت في حجر زوجتي، فخفّضتُ السّرعة وبدأتُ في الانحياز يمينًا، وقلتُ لميرزاخان:

- عليّ أن أتوقّف. لقد سقطت أمّي في غيبوبة...

لكنّه قال وهو يشير بسبّابته:

- اِمضِ إلى آخر الشّارع. هناك، هناك، لقد وصلنا.

تقدّمت إلى حيث أشار، وبدأتُ في التّوقّف عند آخر الشّارع، فيما ظلّ هو يستحثّني:

- هناك... هناك من فضلك، قبالة المغازة...

توقّفتُ بِحركة عصبيّة فصرّت الفرامل بِصوتٍ مُزعج وصعدت العجلات الأماميّة فوق الرّصيف. كان ذلك هو خطئي الوحيد في قيادة السيّارة منذ انطلاقنا قبل ساعات وقبل مئات الكيلومترات. وإذ استدرتُ خلفي، ألفيتُ زوجتي ترشّ وجهَ أمّي بالماء، وتفكّ أزرار قميصها العلويّة، فأسرعت وسألتُ مترجّلًا

كان يمرّ بِجانبي عن أقرب مَشفى وحالما دلّني قلتُ لميرزاخان بِنبرةٍ جافّةٍ حازمة:

- يجب أن أنقل أمّي إلى المَشفى فورًا. ما عاد يهمّني تهديدك.

- نعم يا صاحبي، نعم. ولكن بعد أن نعبر البوّابة.

كانت في النّاصية الأخرى من الشّارع سيّارةٌ راسية في انتظار القراصنة. ما إن توقّفنا حتّى أرسلت إلينا إشارة ضوئيّة، ونزل الهنديّان فجعلا يأخذان حقائب صغيرة كانت مخبّأة بسيّارتي وينقلانها إلى السيّارة الأخرى. حيّاني الرّجل الجالس أمام مقودها بِرفع رأسه وتمطيط شفتيه فلم أردّ تحيّته، ورأيتُ الهنديّين يركبان وراءه ويُحادثانه بودٍّ وحرارة. كانت عيناي تدوران في كلّ اتّجاه حتّى استقرّتا على دوريّة أمنيّة، فخطر لي أنّ القبض على العصابة ما يزال ممكنًا. وأثناء ذلك نزل ميرزاخان من سيّارتي كما يسقط الحِمْلُ الكريه عن الكاهل، واستدار فجاءني من الجهة الأخرى ثمّ أحنى رأسَه على الشبّاك حتّى زكمت أنفي رائحتُه وأنفاسُه. وقال وهو يتحسّس المسدّس والخنجر من فوق ملابسه:

- شكرا على تعاونك يا رجل. أعطيتَنا كتابَ سيّدنا وسيفَه، وأبلغتنا مَأمننا بِشجاعتك. وما دُمنا قد وعدناك بمكافأة ونحن لا نُخلف وعودَنا فقد وضعنا في سيّارتك حقيبة بِخمسين ألف دولار، فهنيئا لك. سيّارتك ليست مفخَّخة كما تظنّ، والأسلاك التي رأيتَها خداع لا غير. سنعود إليك بِمال كثير لنشتري منك منزلك وقطعة أرضك التي تحوطه!

إنّ مساحتَها ربع هكتار لكنّنا ندفع لك ثمنا مُضاعَفا يَكفيك لشراء منزل أكبر وأرضٍ أوسع في مدينة راقية!

- لا تشكرني على شيء فعلتُه من أجلكم، فما فعلتُ من أجلكم شيئا باختياري. ولكن ما أدراك أنّي أريد بيع منزلي وأرضي؟ لو دفعتَ لي مال الدّنيا فلن أفعل.

نفخ ضَجِرًا، وجمعت نبرتُه بين التحدّي والرّثاء وهو يقول:

- أوف، لن تغنم من عنادك غير فَلق هامتك. تُسمّيه منزلك وتسمّيها أرضك، وإنّما هما ميراثنا الذي سطا عليه آباؤكم.

وضرب بِقبضته على سقف السيّارة بِعصبيّة وانصرف.

كان تهديدًا صريحًا بِقتلي. وكان تخطيطًا لِغَصبي على بيع منزلي وأرضي، وطردِ شعبي وتوطين الباطنيّة، أصحاب الميراث المزعوم. وحالما التحق ميرزخان برفاقه المنتظِرين أمام البوّابة، واندفعت بِسيّارتي بلا تردّد، مغمض العينين، مُسربَلًا بالمهانة نحو الدّوريّة الأمنيّة. وفرملتُ بِجانبهم، فتصارخوا بوجهي، ولكنّي قلتُ لهم وأنا أخلع جناحَ سيّارتي وأنزِلُ عجِلا مُشيرًا بِسبّابتي ولُعابي يتطاير رذاذًا:

- أوقفوا تلك السيّارة. تلك السّيارة السّوداء. اعتقِلوهم. إنّهم عصابة خطيرة...

لم يُكلِّفوا رِقابَهم الفاخرة عناء الالتفات إلى حيث أشير. وصاح بي أحدُهم:

- مَن أنت وماذا تريد؟

سحبتُ من جيبي بطاقة هويّتي، وعيناي متسمّرتان على بوّابة الفرار والجناة يتقدّمون بِخطوات عجِلة، يدمغون جوازاتهم ليمرّوا، رفعتُ بطاقة هويّتي في وجوه رجال الأمن والجمارك هاتفًا:

- هذا أنا. ستعرفون هويّتي على مهَل. أرجوكم أوقفوا السيّارة السّوداء. إنّها تمرّ من البوّابة، تكاد تمرّ إلى البلد الآخر...

لم يهتمّوا إطلاقًا. وأخذ أحدُهم بطاقة هويّتي فشرع يقرؤها ويُقلّبُها وجهًا وقفا ثمّ قال:

- مَن خوّل لك القبض على النّاس يا أستاذ؟ عليك أن تشتكي خصمك أوّلًا وتُثبت مظلوميّتك وتُوقّع على محضر عدليّ، وإن كنت صاحب حقّ فالمحاكم سوف تُنصفك. ولكن لماذا تشتكي ركّابَ السيّارة التي أشرتَ إليها؟

قلتُ وعيناي تُلاحقان أشباح البوّابة فلا أرى لهم أثرًا:

- لا شيء لا شيء، ما عدتُ أشتكي أحدًا.

وما إن قلت ذلك حتّى تلبّستهم عنتريّة مُفاجئة، وصاح بي أحدُهم:

أجبْ عن سؤالنا قبل أن ننزع رقبتك: بماذا تتّهم خصومك؟

- لقد هزؤوا من سيّارتي القديمة، فأردتُ أن تُنبّهوا عليهم حتّى لا يَعودوا إلى السّخرية من سيّارات الآخرين!

أخذتُ بطاقة هويّتي واستدرت بِسيّارتي على عجل فانفلقت حناجرُهم ضحِكًا، وقال أحدُهم وهو يَضرب كفًّا بِكفّ:

- المصيبة أنّه أستاذ! هذا البلَدُ بُنِي على بَوْل كلب!

كانت أمّي تشخر في غيبوبتها البعيدة. انطلقتُ بِسرعة نحو المستشفى، وانهالت عليّ أسئلة أبنائي بعد تحرّرهم يستفسرون عمّا جرى وما يمكن أن يَجري. فقلتُ لهم:

- اطمئنّوا. انتهى الكابوس ولن يتكرّر مرّةً أخرى... سأشرح لكم كلّ شيء لاحِقًا. دعونا أوّلا نسرع بإسعاف جدّتكم.

كانت طمأنةً مِن صنف طمأنة الشّرطة لي كلّ مرّة: تتّشح بالوثوق وتستبطن العجز والخواء، لكنّي وُفِّقت في جعْلهم يكفّون عن الأسئلة.

وما إن دخلتُ بسيّارتي بوّابة المستشفى حتّى تلقّيتُ صفعة قاسية نفضَتني في مقعدي نفضًا: لقد رأيتُ الدرّاجة النّاريّة التي كانت تلاحقني منذ قليل! رأيتُها مُحطّمة موضوعة في صندوق شاحنة راسية، وعرفت أنّ الشّابّ الذي أُطلِقت عليه النّار من سيّارتي قد جيء به إلى هناك، ويعلم الله إن كان حيًّا أو ميتًا، وما من شكّ في أنّ بعضا مِمّن حضروا المطاردة موجودون هناك أيضًا، ومِن الجائز أن يَعرفوا سيّارتي ويَقتلوني، والقتل عند عصابات التّهريب، فيما أعلم، كشَرْبة ماء! تملّكني خوف واضطراب، إذ ما كنتُ وحدي فأغامر بحياتي، وما ذلك بِيسير، ولكنّ الانتقام قد يطال كلّ أفراد عائلتي، وقد تتمّ تصفيتنا جميعًا بِأعصاب باردة في مدينة غريبة لم ندخلها يومًا من أيّام حياتنا. استدرتُ نحو الكرسيّ الخلفيّ. كانت أمّي في غيبوبة أشبه بالاحتضار وما كنت لأضحّي بِسلامتها مهما

بدا الخطر جسيمًا، فعوّلت على الله وركنتُ السيّارة بعيدًا عن باب القسم الاستعجاليّ، وحاولتُ صرفَ وجهي عن وجوه المتطفّلين ونحن ندفع السّرير النقّال من جانب السيّارة حتّى مكتب الطّبيب.

(7)

قال لي مصطفى في مكتبه الفخم بوزارة الدّاخليّة العتيدة:

- أنت مَن حدث لك كلّ ذلك؟ لقد علمتُ القضيّة وقرأتُ اسمك بِناظريّ دون فكري فلم أطابق الاسم على المسمّى. كنتَ شاهدًا على قتل الأجنبيّين فيما أذكر؟

- نعم. حدث القتل الرّهيب أمام عينيّ.

عرفتُ مصطفى زميلًا لي بالجامعة ولم أعرفهُ صديقًا. كان هذا ولم يكن ذاك إذ الأمران مختلِفان فالزّمالة ضرورة والصّداقة خِيار. هو متسلِّقٌ نذل بِتلَوُّن حرباء ودناءة ضبع، فَلم أجعَله صديقًا ولم يجعَلْني، وما كان لي أن أسأل عنه أو أهتمّ لأمره بعد أن فرّقَت زمالَتَنا سُبُل الحياة، حتّى التقيتُه منذ بضعة أشهُرٍ في حفل زفافٍ دُعيتُ إليه. دخل بأبَّهتِه الزّائفة وطوله الفارع فرأيتُ فيه بِناءً خرِبًا طُلِيت واجهتُه وزُيِّنت شُرُفاتُه. عرفني وعرفتُه فسلّم عليّ وجلس بِجانبي وراح يُحدّثني عمّا بلغ من المكانة العالية، ويَأسف من أجلي إذ لم أختر الانضمامَ مثله إلى السّلك الأمنيّ المجيد، فلو فعلتُ لَصِرتُ ضابطًا رفيعًا لا يُدانى...

كان لِقاءً عابِرًا لم أُعرْه اهتمامًا حتّى خطر لي والحشّاشون مِن

خلفي والشّرطةُ فوق رأسي أن أستجيرَ من الرّمضاء بالنّار، فأزوره في مكتبه وأفسّر له قضيّتي بكلّ تفاصيلها علّه يُجيرني أو يجد حلًّا للمشكلة التي تزداد تعقيدًا كلّ يوم ...

عاد مصطفى بعد لَأْيٍ ليقول كلمات مقتضبة:

- كانا مُواطِنَيْن يمنيّين، فلمْ يُسأل عنهما تقريبًا.

- نعم. أحدهما يُسمّى عبد الأعلى، وكنيته الأقرع، والآخر يُكنّى الأفطس. ورغم جرائمهما كانت قتلتهما الدّامية تُثير الرّثاء.

سكت سكوت اللّامبالي. كأنّه قد ندم على الانجرار إلى الحديث في أمر لا يهمّه، فخشيت أن يستأذن للمغادرة أو يأمرني بها قبل أن أتكلّم معه فيما جئتُ من أجله فاستطردت قائلًا:

- ينهبون كنوزنا الأثريّة ويتصارعون عليها ونحن ننظر... لكنّي ما جئتُك اليوم من أجل تذكّر الآلام القديمة، فقد جَدّت حوادث أخرى أكثر خطورة لا بدّ لكم من معرفتها واتّخاذ احتياطات ضروريّة، فهم بحسَبِ ما أخبروني بِهِ عائدون إليّ.

قصصتُ عليه مغامرة اللّيلة الأخيرة واحتجاز عائلتي وزعْمَ تفخيخ سيّارتي، وتهريب الجُناة مسروقات أثريّة في حقائب، وبلوغ والدتي تُخوم الموت... وحدّثتُه عن رغبتهم في شراء منزلي بالغصب أو طردي منه وربّما قتلي إن رفضتُ البيع... فسمعني بلا اهتمام، ولم يَقل أبخس ما يقوله النّاس في مثل تلك الحال: «الحمد لله على

سلامتك» أو «المهمّ أنّك الآن بِخير»، بل رفع رأسه فرمقني بِنظرةٍ ناريّةٍ حين ذكرتُ له إطلاق النّار على عجلة الدرّاجة النّاريّة:

- أطلقتَ عليه النّار؟ يا لَمُصيبتك! حتّى لو كنتَ رجلَ شرطة، بل لو كنتَ وزير الدّاخليّة ما كنتَ مُخوَّلًا لإطلاق النّار عليه!

- قلتُ لك إنّه أطلق النّار على العجلة.

- الأمران سيّان. كانت الدرّاجة بأقصى سرعتها، وإطلاقك النّار على عجلتها آنئذٍ هو قتل مُتعمّد بِتخطيط وتصميم.

- قلتُ لك أيضًا إنّ مَن كان يمتلك السّلاح وأطلق النّار هو السفّاح ميرزاخان، وكُنت مُجبرًا على الرّكوب معه.

- الأمران سيّان. كنتَ تقود به السيّارة بسرعة جنونيّة عوض أن تتوقّف لتُنهي المُطاردة المُميتة، ثمّ أطلق المجرم النّارَ مِن حِجرك من دون أن تفعل شيئًا لِمَنعه.

دَلَق السّطل البارد على رأسي ووقف مُنهِيًا اللقاء، فعرفتُ أنّي قد لففتُ حبلًا حول عنقي، وقفزتُ باختياري في هوّة تُحطّم عظمي. وقبل أن أغادر رمى إليّ ورقة وأمرني أن أوقّعها، فإذا هي استدعاءٌ لي من أجل الحضور في اليوم الموالي أمام الفرقة العدليّة للتحقيق معي، والتزامٌ منّي بالامتناع عن مغادرة منزلي. فسألتُه بِقلب واجِف:

- أيَّ تحقيقات تعني سيّد مصطفى؟

ضرب كفًّا بِكفٍّ مُعبِّرًا عن استغراب شديد:

- هل تظنّ أنّك سوف تفلت من جريمتك بالتّخابث وادّعاء

الجهل؟ إن كان الشّابّ قد مات فقد قتلتَه بدم بارد، وإن لم يمت فقد شرعتَ في القتل وأردتَه.

وقّعتُ الورقة ودوّن باهتمام رقمَ هاتفي وعنوان منزلي وعنوان مقرّ عملي، وهممتُ بالمغادرة خائبًا مخزيًّا، لكنّي تذكّرتُ أمرًا آخر جئتُ لأخبر عنه لكنّي نسيته فاستدرتُ نحو مصطفى وقلت له:

- نسيتُ أن أخبرك أنّ الجناة وضعوا في سيّارتي حقيبة فيها خمسون ألفَ دولار اعتبروها ثمن أتعابي. لم أعدّ المبلغ لكنّهم قالوا إنّها خمسون ألفًا.

انتفض فوق كرسيّه وانتصب واقِفًا:

- خمسون ألفَ دولار؟ هذا ما قلتَه؟ لا أظنّ أنّك تكذب. أنت أستاذ محترم ولا تكذب.

- أجل. حقيبة سوداء قال لي ميرزاخان إنّ بها خمسين ألفًا.

- أنت لا تجهل القانون. تلك أموال جريمة، حُكمُها المصادرة لفائدة الخزينة العامّة... أعني لفائدة الدّولة. لا تقل إنّك تصرّفت فيها أو أنفقتَ بعضها.

- ما عددتُها ولا لمستُها. مازالت في الحقيبة كما تركوها.

- أين هي الآن؟ أين تُخبّئها؟ ولكنّك لم تلمسها، ما يعني أنّها مازالت في السيّارة، والسيّارة في الحقيبة.

- قلتُ إنّها مازالت في الحقيبة، والحقيبة في السيّارة.

- اجلبها لي فورًا وأنا أقوم بالإجراءات القانونيّة لتنزيلها في

الخزينة العامّة. أين ركنتَ الحقيبة؟ في المرآب السُّفليّ؟ أوه، أعني السيّارة... انتظرْ. سأذهب معك إلى الحقيبة، أعني إلى المرآب لأجلب الحقيبة...

كان أشدّ لهفة من ضبع جائع يرى جيفة تُنهَش أمامه! حتّى خُيِّل إليّ وهلةً أنّه ضبع حقيقيّ ورأيتُ أنيابَه الحادّة مِن وراء تكشيرة بشِعة. وسرعان ما أغلق مكتبه وخرج معي لِجلب الصرّة التي نزلت عليه من السّماء. لقد بدا للضّبع أنّ أمعاءَ جيفةٍ ما تزال ساخِنة طريّة وُضِعت من أجله في حقيبة، وأنّ أحدًا قد ينهشها قبله ويَفرّ بها، فأخذ الحقيبة في حضنه يتملّكه شعور غامر بالفرح والانتصار. ثمّ قال لي ونحن عائدان إلى مكتبه: مكتبة سُر مَن قرأ

- أنا فخور بِزمالتنا القديمة وبِصداقتنا مستقبلًا. أنت رجل شريف وفي منتهى النّزاهة ورِفعة الأخلاق. أعتذر إليك عمّا بدر منّي آنفا من اتّهامٍ لك، فأنت فوق كلّ الظّنون السيّئة. أعني اتّهامي لك بِقتل الشابّ المتهوّر الذي طاردك بِدرّاجته النّاريّة. اعتبِرْ أنّي لم أقل لك شيئًا، والالتزام الذي وقّعتَه سأمزّقه حالا، ولن تُستدعى لِأيّ تحقيق.

نظر إليّ متطاوِسا كأنّما قدّم لي خدمة لا تُقدَّر بثمن. فأجهضتُ كذبتَه بالتّجاهل. لم أجامله بكلمةِ شكرٍ واحدة، ولا أشعرتُه بأنّ ما منّ به عليّ قد يعني لي شيئًا، ما جعله يُسهب قائلًا:

- اسمعْ يا أستاذي، أنت كما قلتُ لك رجلٌ شريف وفي منتهى النّزاهة، فلا تجعلْ خطأً غير مقصود يُفسد سمعتك ويسيء

إليك، لذلك من واجبي أن أنبّهك وأنصحك، وعليك أن تسمعني وتعمل بِنصيحتي: هذه الأموال المحجوزة سرٌّ من أسرار القضيّة، وأداة من أدوات البحث فيها، فاحذرْ أن تذكر أمرها لأحد. إنّ أرقامها التّسلسليّة مثلا تُفيدنا في معرفة البنك الذي سُحبت منه واسم الشّخص الذي سحبها، والبصمات التي ارتسمت عليها تُعيّن لنا آخر الأشخاص الذين لمسوها... وثمّة أوجُهٌ أخرى يطول شرحها تجعل الأموال المحجوزة سرًّا من أسرار البحث في هذه القضيّة المعقّدة، لذلك أشدّد عليك في الامتناع عن ذكر خبرها لأحد، حتّى لزوجتك وأبنائك وأخلص أصحابك.

كنتُ أرى نيّة السّرقة واضحة بِأجلى صورة في كلّ حركاته وسكناته وثنايا صمته وكلامه، فما كان يَنوي مطلقًا إيداع المال في الخزينة العامّة بل في خزنته الخاصّة، ومع ذلك عزّيتُ نفسي بأنّي بلّغتُ الأمانة للمؤتمَن عليها، وليس عليّ جُناح إن سكِر فاسد بِمال زكاتي عوض أن يشتري به قوتًا لصغاره.

ودّعتُه ببرود وانصرفتُ قانعًا من الغنيمة بالإياب، فقد خلّصني الله على الأقلّ من إفك الفاسد وطغيانه، إذ كان ينوي توريطي في قضيّة قتل ملفّقة قد تُكلّفني ما بقي من عمري ردْمًا في السّجون. قصدتُ سيّارتي وأردت تشغيلها فلم تشتغل. فتحتُ غطاء المحرّك لِتفقّده والتحق بي حارِس المرآب ولبث يجتهد لِمعرفة سبب العطب. وبعد زهاء نصف ساعة حانت منّي التفاتة فرأيتُه. كان يحمِل

الحقيبة السّوداء بِيُمناه ويمشي بِخطوات متكبّرة. لا بُدّ أنّه أتمّ عَدّ المال واستمتع بذلك، حتّى إذا ظنّ أنّي قد غادرتُ وارتاح من ظلّي، تأبّط حَرامه الأسود ونزل إلى سيّارته، لكنّه التفت من وراء نظّارته الكاذِبة فرآني. لا شكّ عندي في أنّه شعر بِوخز في جلده وانقباض في قلبه. أحيانًا يكون للشّماتة طعم الحلاوة كأنّما خرجَت هي أيضًا من بطن نحلة! وفي تلك اللّحظات التي سرعان ما طواها الزّمان تذوّقتُ عسلَ الشّماتة! توقّف هنيهةً على وقْع المفاجأة، ارتبك، نظر يمينًا فشمالًا نظرات بلا معنى، ثمّ تدارك بعد لأيٍ، فحرّك ساقيه وأوسع خطوه ليوحي إليّ أنّ رحيلي وبقائي عنده سيّان. وأنّ ذلك لا يعنيه ولا يَهتك له سترًا، لكنّ نظراته المسروقة السّفليّة الشّزراء ظلّت تفضحه. ثمّ ركب سيّارته وهمّ بالمغادرة ورأيتُها بالفعل تتحرّك لكنّها سرعان ما توقّفت بِفرملة قاسية ونزل منها وقصدني كأنّما انتبه إليّ لِتوّه، وقد ترك الحقيبة في السيّارة وجلب معه وجهه الكاذبَ الممسوخ، فبادرني ضاحِكًا ملء شفتيه الخشبيّتين:

- أوه، سيّارتك تعطّبت. يُقال إنّ الشّرفاء حظّهم قليل.

كنتُ أقرأ ما يجول بفكره التّافه المسطّح، ولا شكّ في أنّه كان يقول في سرّه: «لولا غباؤك لاشتريتَ بأموال الباطنيّة أجود أنواع السيّارات، ولَبقي لك من مالهم ما يكفيك لزيارة خمّارات باريس وتذوّق أجمل نسائها...»، أمّا لسانُه فقد قال لي:

- لا تُوسّخ يديك وملابسك أستاذي المبجّل. خذها إلى ميكانيكيّ وأرِح دماغك.

جذب من جيبه محفظةً فناولني أوراقًا ماليّة! أي والله ذاك ما فعله ضبع الجيفة! جذب من جيبه محفظةً ناولني منها أوراقًا ماليّة وقال لي:

- خذ مالًا تصلحها به، خذ...

«مِن لحية الأحمق تصنع حبلا لِتربطه به»، ذاك ما قاله فكرُه المسطّح سرًّا. أمّا أنا فأبعدتُ يدَه المنّانة عن شرفي وقلتُ له:

- ما الذي تفعله؟ أتحسب أنّه لا مال لي لإصلاح سيّارتي؟

فكرّر مُلحًّا وهو يحاول دسّ المال في جيبي كأنّما صدّق أنّي قد آخذه نزولًا عند رغبته في التفاخر أو عند طمع النّفس الأمّارة:

- خذ ولا تخجل يا رجل. إنّما أنا صديقك وبِمنزلة أخيك.

لكنّي دفعتُ يده بِحزم وقلتُ بِتأكيد:

- لا تفعل هذا أرجوك. أعِد مالك إلى محفظتك.

رأى في ذلك دليلًا آخر على حمقي، وسَرّه أنّ حُمقي يصبّ دومًا في مصلحته، فأعاد المال إلى جيبه مقتنِعًا بأنّه فعل أكثر ممّا يجب، وبأنّه كان في مستوى رفيعٍ من الشهامة، ولكنّه ليس مسؤولًا عن حمق الآخرين، ثمّ همّ بالمغادرة وقد انكشف لي نصف مؤخّرته، غير أنّه أصرّ على استكمال فضيحته ونزع التبّان تمامًا فقال:

- لا أوافقك الرّأي يا صاحبي في رفضك بيعَ منزلك وأرضك ماداموا يَعرضون عليك ثمنًا مضاعَفًا! غيرك يكاد يموت من أجل فرصةٍ كهذه ومع ذلك لا يَبلغها، وقديمًا قالوا:

يمنح الله الفول لمن لا أضراس له! ما الذي يعجبك في حيّ القمل الذي تسكنه؟ الحظّ يخدمك لتشتري فيلّا راقية في مدينة مرفّهة وأنت ترفض البيع وتصرّ على الخوضِ بساقَيْك في الوحل!

صمت قليلًا وركّز نظره على وجهي ليختبر ردّ فعلي وأردف:

- فكّر في الأمر جيّدًا، وإن اتّصلوا بك مرّةً أخرى فاضبُط لي موعدًا معهم، إذ يمكننا بالتّفاوض حلّ كلّ المشكلات، وما مِن عداوة أبديّة ولا صداقة أبديّة! إن حصل ذلك فأنا مفاوض جيّد ووسيط جيّد، وسوف أجرّهم إلى شراء منزلك بِثمن يُرضيك...

اقشعرّ من الاشمئزاز جلدي وداهمتني رغبة في الغثيان فصرفتُ عنه وجهي حتّى لا أراه مخافة أن تَرميني في السّجون بصقةُ احتقار ما عدتُ قادرًا على كظمها.

﴿متن﴾

نهاني السيّدُ الأساس تقدّس سرّه عن وضع حاشية على ترانيم اللّيل وقال لي: «إنّما تلك عقائد السَّتر».

* مزمور اللّيل والنّهار *

ترانيم اللّيل:

١ـ سنامُ القرآنِ الآيةُ «سُورٌ وله باب،
باطِنه الرحمةُ ظاهرُه عذاب. . .»
رأسُ القرآن الآيةُ «يضع عنهم إصرهُمُ والأغلال. . .»
فيرتاحون مِن ضنَك، من سغَبٍ وعذاب
جوهرُه الآيةُ «أن تعبد ربّك حتّى يأتيك يقين»
مِن بعده لا ترتاب
فإذا استيقنتَ فقد صرتَ حسيبا
ليس عليك مِن بعدُ حساب.

٢ـ الباطنُ مفروغٌ باقٍ والظّاهِر منسوخٌ مُستأنَف،
لا تدع اللّبّ فلن تُشبعك من الدّين القشره
وُضوؤك تجديدُ البيعة، وتيمُّمك عهدٌ لإمامك في زمن الغيبة.

صومُك أن تمسك عن إفشاء السرّ ، فلا تزْنَ بأسرار الدّعوه .
بِلا مال تتزكّى ، بِلا ماء تتوضّأ ، جنّتُك ونارُك في الدّنيا ،
مِن منزلك تُطوّف سبعًا بالكعبه .
صومان هو الصّوم ، وحَجّان هو الحجّ ، والباب عليٌّ ، وأئمّتنا سبعه .

٣. مَراتبُنا ثلاث عالية ، سبْعٌ تابعة ، مجموعها عشره :
فالنّاطق للتّنزيلْ وإمامٌ للتّأويل ، وأساسٌ ليَسُوسَ الأمّه ،
فالشيخُ النّائبْ ، فكِبارُ دُعاة ، فدُعاة للتّبليغ ذوو همّه ،
فرفيق للتّدريب يُعلّم ، وفِدائيٌّ يَضرب تحت السّرّه ،
واللّاصقُ إذ بايع صار لنا ، ومُجيب يتعلّم لِيحوز الرّتبه .

٤. خطوات الدّعوة ستّ ، لقوام الدّين وتمام الحكمة :
فالأُولى أن يتفرّس داعينا ولا يُلقي البذرةَ
في الأرض السّبخه ،
ثمّ استئناس المدعوّين ، فالتّشكيك بالمتشابه ، واستنهاض الفطنه
والتّعليقُ طيُّ السّرّ ، وترْكُ السّوس النّاخِر في الضّرس الخرِبه
يُربَط مِن بعدُ المدعوّ بأيمان ومواثيق قويّه ،
ثمّ يُعلَّم أسرارًا في التّأويل خفيّهْ .

٥ . بين النّاطق والنّاطق دورٌ زمنيّ
تتوالى فيه صوامت ستّة ، والسّابعُ مِن بعدُ نبيّ
ختَم النّطقاء محمّدُ باكرَ إسماعيل

النّاسخُ ما قبله ، والسّابعُ في خطّ عليّ
النّاطقُ لا بدّ له مِن سُوسٍ يَعضده ،
ويُؤوّل منطوقَه في شخصٍ وصيّ
سبعة أدوار مِن آدم حتّى النّاسخ
تتناقض في الظّاهِر ، تتماثل في الطّيّ :
هو الذي في العلياء إلهٌ ، في الأرض إله ،
وهو السّابِق للجوهَر وهو اللّاحق بالأعراض حريّ .
ترانيم النّهار :

٦ ـ حين يقوم الأبلقُ من قبري قيامةَ داعيةٍ منصور ،
وكُنوزُ أئمّتكم تسطعُ من تحت رُغام وصُخور
فقد ذهب اللّيلُ وحلّ نهارٌ وزمانُ ظُهور
طوبى للمدعوّين لعُرس قيامتنا المبرور :
في الشّرق عريسٌ ، في الغرب قِصاعٌ وقُدور
لا يَكتم نفسَه آنئذٍ مَهديٌّ ، ولْيَجهرْ بمقالته من غير فُتور .
في إفريقيّة تجتمعون وتستقوون ، وما فيكم غير شجاع وصَبور
تمتشقون سلاحا يومئذ قذّافات النّار ،
ومَلاذكُم تحت الأرض : جبال وكهوف وحفير .

٧- عربان إفريقيّة تجدونهم عُبّادَ دُنيا ، لا مروءة لا حميّه ،
فاستخلِصوا للدّعوة المُتنفّذين ذوي المناصب مِنهمُ
فبِهم تصير سواعدُكم قويّه
بالدّراهم والخناجر حارِبوهم تُنصَروا
واسترجعوا أرضَ العُهود الفاطميّه
الهجرة الغرّاء يومها فرض عين
فالْحقوا مِن كلّ درب وثنيّه
لهفَ نفسي ليتني يوم الظّهور أكون فيكم
أورِدُ الأعداءَ غُدرانَ المنيّـه
قولوا وأنتم تدخلون: أبا تميم(*) قد رجعنا
أما سمعتَ صهيلَ خيل الفاطميّه؟

﴿حاشية﴾

فاتحة الكلام في ذكر نَهْي السيّد الأساس عن وضع حاشية تشرح ترانيم اللّيل الخمسة من مزمور اللّيل والنّهار، وسببِ ذلك، وما أبلى المؤمنون من بلاءٍ حسنٍ في حفظ أسرار دعوتنا، والله من وراء القصد:

دخلتُ على سيّدي شيخ الجبل وقد اعتزمتُ وضعَ حاشية على مزاميره المقدّسة فابتسم لي إذ عرف مرادي وقال: «أنت ذكيّ

(*) المعزّ بن باديس الصّنهاجي.

وعارف بالبواطن، نِعْمَ الشّارِح أنت، ولكن دع التّرانيم الخمسة الأولى من المزمور السّادس، فتلك عقائد اللّيل لا نُعلنها، واحذر يا عبد الأئمّة على أسرار دعوتنا». وكان سيّدي مغرَمًا بالحساب والأحاجي ويعرف مثل ذلك عنّي، فتكلّمنا في تلك الأبواب ردحًا من زمن ثمّ استأذنتُه في الخروج فقال لي: «إيّاك والعددَ ثلاثين يا عبد الأئمّة فإنّه نحسٌ لا يَعقُبه غير الخسار». ففهمتُ أحجيتَه بلا إبطاء وقلتُ له: «نعم سيّدي. التّرانيم الخمسة الأولى من المزمور السّادس. حاصِلُ خمسة ضارب ستّة يكون ثلاثين، إنّي لا أقربُها ولا أشرح منها كلمةً»، فضرب على كتفي إعجابًا بِفطنتي وقال لي: «خذ عنّي يا غلام وتعلّمْ: إنّ المستهزِئين من قوم صالح الذين عقروا النّاقة كانوا ثلاثين، والفاحِشين من قوم لوط الذين أرادوا أن يفتكّوا ضيفه كانوا ثلاثين، والقرشيّين الذين حاصروا الوصيَّ ليلة هجرة النبيّ كانوا ثلاثين».

وحدّثني من يوثَق بعلمه من شيوخنا أنّ تأويلَ الزّنا بالبهيمة الذي شدّدت الشّريعة الحدَّ على فاعله هو إفشاء أسرار دعوتنا، وهو أن يَقذفَ مؤمنٌ منّا نطفتَنا في غير موضعها ولِمَن لا يُقدّرها ويحفظها، ولذلك كان حكمه القتل للفاعل والمفعول به. فلوْ كان المقصود هو الزّنا الذي نَعرفه فلماذا يكون الحكمُ بالقتل على بَهيمة؟ ولكنّ المقصود جاهِلُ دعوتنا الذي استقبل من دون استحقاقٍ نطفتَنا، فلو أبقيْنا عليه بعد معرفته أسرارنا لَصَار خطرًا يتهدّد دعاتنا وسائر أهل طائفتنا. وقد كان دعاتُنا إن لمسوا من المدعُوّ استجابة وأرادوا إيداعه بعض الأسرار أخذوه بالرّبط الشّديد الحازم، فيقولون له: هذه أسرار مكتومة لا تودَع إلّا في حرز حصين، فهلّا حصّنتَ حرزك لنودع فيه الأسرارَ الجليلة؟ فيسأل: وما تحصين الحرز؟ فيقول الدّاعي: العهد والقسم والمواثيق، فإنّ الله ما أودع الأسرارَ للأنبياء

إلّا بعد عهود ومواثيق، ألم تقرأ قوله تعالى: «وإذ أخذنا من النّبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا»...، ثمّ يضرب للمستجيب موعدًا لأداء القسَم، ويأمره بالتجهّز لذلك العمل الجليل، وتقديم الصّلاة والصّوم والتّوبة.

ومن جليل الأخبار في كتمان الأسرار عند أهل عقيدتنا ما أتاه داعينا الأكبر السيّد دهدار بوعلي أيّامَ شبابه، وخبرُ ذلك أنّ الضّالّ المستبدّ «جاولي سقاوو» كان زمن حكمه خوزستان، قد نُكِب باستقواء عقيدتنا الباطنيّة وانتشارها في البلدان وكثرة معتنقيها وتحصُّنهم في القلاع حتّى إنّ بعضَ قادته النّافذين آمنوا بها وفرّوا من قلعته بخالنجان نحو قلاعنا، فأسرّها في نفسه وقال: «والله إنّ في هذه الدّعوة لَأسرارًا تُلهب حماسَ النّاس حتّى يتفانوا في سبيلها، ولا بدّ لي من هَتْكِ أستارها وسَبْرِ أغوارِها»، فأمر جنودَه أن يأتوه برأس من دُعاة الباطنيّة قد نهل علومها وخاض في أجوافها، فأتوه برجُل من رامَهرمز هو الدّاعية دهدار بوعلي فأمره بكشف أسرار الباطنيّة بين يديه، لكنّه أبى عليه وقال له: «لا ينبغي لي، فإنّما أنا مُستأمَن». فتوعّده قائلًا: «والله ما لَك عندي إن لم تفعل غير الحديد والنّكال». ثمّ أخذه بالعذاب زمنا طويلا وهو يتجلّد مُحتسبًا حتّى عرف أنّه هالك لا محالة، فطلب من حرّاس السّجن أخذه إلى سيّدهم وقال له: «يا سيّدي الوالي، لقد جاءني البارحة هاتف باللّيل يقول لي: أخطأتَ بإهلاك نفسك والخروج عن طاعة صاحب الأمر، وما يُدريك لعلّه يزّكّى أو يفتح الله قلبَه للهداية حين يعرف أسرارَ الباطنيّة؟ فكُفّ عن تعذيبي وأمهلْني ثلاثة أيّام حتّى أتعافى ثمّ أخبرك بِما تريد». وكان للسيّد بذلك تدبير جليل، فقد كان يدعو إلى عقيدتنا في محبسه حتّى آمن نفر من الحرّاس، فأمر أحَدَهم بالذّهاب على عجل إلى

قلعة أصبهان على بعد خمسة فراسخ، وكان قد فتحها داعينا أحمد بن العطاش وصار حاكمها، وأوصاه قائلا: «ائت كبيرَنا أحمد، واطلب منه أن يهبّ بجُنده لنجدتنا وقتْل بُغاة هذه القلعة الظّالمة، فإنّ لي خطّة لِوضع مفاتيحها بين يديه. فَلْيُوافنا رجالُه ليل الجمعة ولْيَتخفّوا تحت بَرج القلعة الجنوبيّ فإنّ المفاتيحَ تُلقى إليهم عند انتصاف اللّيل».
فلمّا كانت اللّيلة الموعودة، طلب السيّد دهدار ملاقاة حاكم القلعة في دار الإمارة متظاهرًا بالوفاء بما وعده من كشف أسرار الباطنيّة فقال له: «أوّل سرّ أخبرك به أنّنا نستحلّ الخمر ونشربه سرّا لكنّنا نُحرّمه أمام الملإ وننكره، ولنا في ذلك سبب لا يُعرف وغاية لا تُدرَك سأفسّرهما لك، فبادرْ فاجعلْ لنا مائدة عامرة بالأطايب وأجود الخمور لنتكلّم عن أسرار الباطنيّة حتّى مطلع الصّبح لا نستثني منها سرًّا، فقد سُمح لي، ولْيحضر مجلسنا اللّيلة من اصطفيتَ من رجالك وقُوّادك، فإنّي مُحدّثكم بكلّ ما تودّون معرفته».

سُرّ الطّاغيةُ سرورًا عظيمًا وأمر بفَرش السّماط في بيت الضّيافة، وكان الحرسيّ الذي يحمل مفاتيح القلعة قد صار أيضا باطنيّا وأعطى البيعة سرّا للسيّد دهدار، فقال له: «إذا انتصف اللّيلُ فانطلق نحو البرج الجنوبيّ واصعده، فإنّك ترى تحت السّور جنودا لله يَطلعون من الأرض متخفّين، فألق المفاتيحَ إليهم، ولكَ منّي البشارة بالجنّة. ولْيكن لباسُك هذه اللّيلة أحمر وكذلك لباس أتباعنا المؤمنين، فإنّ الله سوف يقول لجنوده: اقتلوا كلّ مَن في القلعة إلّا المُحمِّرة». ثمّ إنّ السيّدَ دهدار شرع في صَبّ الخمر بنفسه لحاكم القلعة وقُوّاده وهو يتظاهر بالشّرب ويوهِمُهم بالسُّكر، وبدأ يُحدّثهم عن بواطن يسيرة من عقيدتنا، فيَكتفي بِسُؤالهم وقَدْح أفكارهم ولا يُجيبُهم عنها:

«لنبدأ بكشف أسرار التّنزيل وأسرار الشّريعة ممّا تمُرّون به مرّ الكرام من دون أن تتساءلوا عن شيء منه: ما معنى كهيعص؟ وما معنى ألم؟ وحم؟ أتظنّون أنّها حروف رُكّبت عرضا أو اتّفاقا؟ إنّ في ذلك أسرارًا عظيمة لا تَعلمها غير الباطنيّة المهتدية. ما بال الحائض تَقضي الصّوم ولا تقضي الصّلاة؟ وما بال الغُسل يتوجّب من المنيّ النّظيف ولا يتوجّب من الغائط النّجس؟ ما بال أبواب الجنّة في القرآن ثمانية وأبواب النّار سبعة؟ أتظنّون أنّها أرقام بِلا معنى؟ ولماذا نقرأ في القرآن عن خَزَنَة النّار: عليها تسعة عشر؟ أما كان يمكن أن يُزاد واحد فيصيروا عشرين؟ هل بدأتم في قَدح عقولكم لمعرفة الأسرار؟ اشربوا إذن. اشربوا ليطيب لنا الحديث.»

وَعاد السيّد دهدار يملأ كؤوسا من بعد كؤوس ويقول: «لماذا كانت السّماوات سبْعًا، والكواكب السيّارة سبعةً، وفي رأس الآدميّ سبعة ثقوب: عينان وأذنان ومنخران وفم؟ لا شيء من ذلك كان صدفة أو اتّفاقا. أما سمعتم فِرَقا ضالّة تُسمّينا معشرَ الإسماعيليّة سَبْعيّةً؟ ذلك أنّنا نعرف أسرار الرّقم سبعة!»

وبينما هم كذلك إذ سُمع صياحٌ وقرقعةُ سيوف وصراخ لطلب النّجدة، وخُلّعت أبواب دار الضّيافة فقفز إليها غُزاة اللّيل. وعندئذ جرى أربعة من الحرسيّين فاحتموا وراء دهدار بوعلي وكانوا يلبسون أردية حمراء فما أفلت من القتل غيرهم، ودانت خالنجان لِرجالنا.

وإنّما أوردتُ قصّةَ الدّاعي دهدار ليكون فيها لِشيعتنا نظر وعبرة، ويكون لي بها عذر وحجّة إذ امتنعتُ عن وضع حاشية على خمسة ترانيم من هذا المزمور الخالد. فما ينبغي لي أن أفعل لأنّي مُستأمَن. وقد قلت للسيّد الأساس حين نهاني عن وضع حاشية عليها: «يا سيّدي، إن كان رأيك أنّ ما تضمّنَته ترنيماتك الخَمسة مِمّا لا

ينبغي أن يُقال فلماذا قلتَه؟»، فتبسّم وقال: «إنّما قلتُه رمزا وتورية فلا يفهمه إلّا مَن تبحّر في علومنا، وارتقى مراتب عالية وأولئك لا نُؤتى من قِبَلهم، لكنّ الحاشية ترفع الغطاء الذي أسبلتُه على الطّبق فتجعل طعامَنا بمتناول الذّباب وخشاش الأرض».

فلْتكن لكم بذلك عبرة ولْيكن لي عذر، وأنا واضعٌ بين أيديكم الآن حاشيةً على ترنيمَتَي النّهار:

كان قنبرُ ماء السّماء قد تبحّر في العلم وارتقى مدارج الدّعوة حتّى درس كتابَ البلاغ السّادس وفيه علمُ البواطن التي لا يعلمها غير الأئمّة وقلّةٌ من المصطفين، فحدّثنا يومًا عن حوادث آخر الزّمان وقد أخذه الرّوْعُ، فوعصمة الأئمّة لَكأنّي أسمعه السّاعةَ وأراه ملء السّمع والبصر، قد لبس الصّوف الخشِن، وانتفخت أوداجُه وهو يمسح النّثار عن لحيته الشّيباء ويقول: «يعود محمّد بن إسماعيل آخر الزّمان في بلاد الهند فلا يَكشف عن نفسه حتّى يتخطّى الثّلاثين ويصير في سنّ المسيح يوم رَفْعه، فيقول للنّاس: «لكم البشرى فإنّي أنا هو!»، حتّى إذا ارتاب المرتابون ووضعوا أصابعهم في آذانهم قال: «آيةٌ لكم أنّي أخرج عليكم عن يَميني حسن الصبّاح يأخذ بالمزامير ويمتشق الأبلق، وعن يساري ألبير شمس الدّين يتأبّط كتابَ الجنان، وبين يديّ عبد الله المحتسب يقرأ وصيّته، وأخوه أبو العبّاس فالق الرّاس بسيفه ودرعه، فمَن لم يؤمن بعد ذلك فهو أعمى ولا حاجة لله بإيمانه». فيَجهل الجاهلون مغزى كلامه ويَستهزئ مستهزئون، لكنّ المهتدين يؤمنون بإمامته ويَفهمون تأويلَ كلامه فيهرعون إلى إفريقيّة مهاجرين مُتنادين: الهجرةَ الهجرة، فقد زُفّت الإمامةُ عروسًا لمحمّد بن إسماعيل في الشّرق، ونُصبت لزفافه قصاعُ الأئمّة في الغرب، هلمّوا لقصاع أئمّتكم ...، فيستخرجون مزاميرَ الصبّاح

وخنجره الأبلق، وجنانَ شمس الدّين، ووصيّة أبي عبد الله الدّاعي، وسيف أخيه أبي العبّاس... ومواريث أخرى كثيرة ممّا أورثنا الأئمّة، فيَسطع النّور وتظهر حقائق الدّين، ويقول لهم الإمام محمّد بن إسماعيل: «لا يستقيم آخر هذه الأمّة إلّا بما استقام به أوّلها: تَضربون في أرض إفريقيّة فتَبذرون كما بذر أبو سفيان والحلوانيّ بين البتر والبرانس، فتحصدون زرْعَكم كما حصد عبد الله في كتامة، فتَجعلون لكم في القيروان وما وراءها دولة، وإنّي ألتحق بكم لأستلم الكرْم أوان نضوجه وأقتل بكم مَن خالف أو حاد... ألا قد حان زمان الظهور وانقشع ليلٌ وطلع نهار، وصارت التقيّة تحت قدمَيّ، فلا يتخفّينّ بعد اليوم باطنيّ إلّا لعنتُه...»، فيقوم النّاسُ إلى إفريقيّة حفاةً أو منتعلين قيامةَ بَني صِهيُون إلى أرض كنعان، فيأخذونها غصبًا ويطردون منها خليطا فاسدًا من عربان هلال وسُليم ومِن بربر الكاهنة، قد تناسلوا فيها تناسُل جرذان الجبل، ويُستَرجع في تلك الأيّام ميراث أئمّتنا»».

وفيما قنبر ماء السّماء يحدّثنا هتف رجلٌ لا أعرفه كان يسمعه معنا: «يا سيّدنا، أخبرنا كَمْ يكون من الزّمان بين قيامة بني إسرائيل بالمقدس وقيامة بني الصبّاح بإفريقيّة؟»، فقال: «كمثل عددكم الآن وأنتم تسمعونني، كلّ رأس منكم بِسنة، لا يزيد الحسابُ ولا ينقص»، فانقلب الرّجل يعُدّ النّاسَ وصاح: «أئنّا لَسِتّون رجلا وثلاثة رجال».

وسألتُ قنبرا ماء السّماء في غير ذلك الموضع مع نفر من أتباعنا عمّا يُسفك من دماء في آخر الزّمان للقضاء على أهل الجوْر والضّلالة، قال:«لقد سألتموني عن أمور عظام، وأخبار تَشيب لها رؤوس الولدان، فإنّ دماءَ أهل الضّلالة لتَنفذ في الأرض سَرَبا مقدار عشرين ذراعا، وأوّلُ دماءٍ تَشخُب في هذا الأمر مِن الأوداج

هي دماءُ نابشي قبر السيّد الأساس، وأوّل عظام تُكسّر عظامهم.» وسكت قنبر فقلنا: «وأيّ من الدّماء يا سيّدنا وأي؟»، قال: «ثمّ تدفَق بدماء مُخالفينا جداولُ وأنهار، لكنّ أوّلاها بالسّفك دماءُ الغاصب النبّاش!»، قلنا: «لعلّك تَعني الأعور الدجّال؟»، قال: «بل أشدّ منه رجسًا. هو رجل يَغصب أرضَ الأئمّة الموشومة بدفائنهم، يظهر فيها تُراثُنا وكتابُ مزاميرنا وخنجرُنا لكنّه يرفض إعادتها إلى الورَثة أو بيعَها، ويظنّ أنّ دولةَ الأرض أشدّ من الله بأسًا، أو أنّ هروبه يَعصمه من غضب الأئمّة كما ظنّ ابنُ نوح ساعة الفيضان أنّ الجبل العالي يَعصمه من الماء».

وقال شيوخنا: أوّل ما كُتب من الهجرة على المهتدين الهجرةُ إلى يثرب نهض إليها أصحاب النبيّ، ثمّ إلى الكوفة قام إليها أصحاب عليّ، وآخر ما يُكتَب عليهم الهجرةُ إلى إفريقيّة على عقيدة حسن الصبّاح، فتكون بدرٌ أخرى وتكون أحد، وتُحاصَر ثقيف ويُطرَد بنو النّضير، ويَجد المهاجِرون الإسماعيليّون بإفريقيّة أنصارًا وأتباعًا مغلوبين، فيَصير لهم بالمهاجرين ظَهرٌ، فيرمون جبّة السّتر ويخرجون برؤوس حاسرة وزنود عارية، ويجعلون لهم «جماعت خانه» يُصلّون فيها ويجتمعون، وتَحرُم عليهم بعد ذلك التقيّة حرمةَ التولّي يوم الزّحف، وتكون الهجرة فرض عين لا عذر لأحد في تركها، حتّى إنّ الرّجل لَتكون له أمّ كسيحة عمياء لو تركها لَماتت في مَبركها جوعًا، فيستأذن الدّعاة في التّخلّف عن إفريقيّة فيقولون له: إن كنتَ تؤمن بالله والأئمّة فاتركْها للكلاب وانهضْ مُهاجرًا... فيَخلع يديها وهي تتمسّك بإزاره ويقوم مُهاجِرًا!

٧*مولايَ علي مدد*٧

(8)

«الباطنيّة ظهرت بيننا»، بِكلّ التّناقض الذي تحمله هذه الجملة بين مبتدئها وخبرها! يروغون بين الدّروب، ويتسرّبون كالماء الجاري. يستترون لكنّهم ظاهرون ويَظهرون في مَقام السّتر. تراهم حتّى تكاد تلمسهم، فإذا ظننتَ أنّك لمستَهم أدركتَ أنّك لم ترَهم البتّة، تُمسك بهم كما تَكمش الماء وتَراهم كما تُبصر السّراب. تقيّتُهم كَلَا تقيّة. إن مَحَوْا فكأنّما أَثبَتوا، كما يجُرّ ثعلب من ورائه ذيلَه الكثّ لِيمحوَ أثر أقدامه فيمحوَ أثر الأقدام ويُثبت أثر الذّيل. ينتقلون في مدينتنا وقُرانا شاهِرين وجوهَهم الغريبة. تراهم مثنى وثُلاث ورُباع، يتكلّمون، يتسارّون، يغزوننا كغرباء ويعيشون بيننا كأبناء بلدٍ، ورُبّما نصبوا موائد طعامهم فوق صدورنا وجلسوا فاكِهين.

سرعان ما بدأت تظهر في مَساربنا وطرقاتنا آثار أقدامهم الغليظة وذيولهم الكثّة: أبلغ فلّاحون كُثرٌ عن أعمال حَفرٍ مجهولةٍ حدثت في مَزارعهم ليلًا، حفر دقيق في أماكن مَقصودةٍ مُنتقاة بِآلاتٍ صغيرةٍ ناجِعة، مثل عمليّاتٍ جراحيّةٍ عالية الدّقّة. وبعضُ الأهالي تفطّنوا إلى أعمال حَفرٍ ليليّة أثناء حدوثها فأسرع الجُناة إلى الانسحاب، لكنّهم في مَواطن أخرى اشتبكوا مع الأهالي وأجبروهم على التّراجع فنالوا

متّسَعًا لِرفْع آلاتهم وجَمْع ما استخرجوا من غنائم أثريّةٍ. وفضلًا عن ذلك شُوهدت بعضُ الوجوه الغريبة في الجبال التي تفصل مدينتنا عن أريافها وقُراها، وأخبر رُعاةُ أغنامٍ وشبّانُ أنشطةٍ كَشفيّةٍ عن آثار مَواقد نيرانٍ في الكهوف، وعن أشباحٍ يَرونها أحيانًا كسرابٍ بعيدٍ عند الوديان السّحيقة أو القمم العالية. ولقد صار الرّعاة وشباب الكشّافة يخشون المغامرة بالولوج إلى أعماق الجبال، وحتّى إلى غابات السّفوح التي كانت مرتعهم منذ الطّفولة. وبعضهم يعتقد أنّ الجنّ سكنها، والجنّ كافرٌ ظَلّامٌ لا تُؤمَن جيرتُه.

حوادث كثيرةٌ جرت بيننا فصارت أحاديثَ ثمّ نُسيت، لكنّ حكاية سحنون أثارت لغطًا كثيرًا وحيرةً حتّى صارت لغزًا تبارى الجميعُ إلى حلّه: يَعرف الجميع صدقَ سحنون، وهو شابٌّ مُكافحٌ يتعقّب رزقَه من أبوابٍ كثيرةٍ، فلمّا كان في الغابة يجمع أكواز الصّنوبر لِبيْعها صادف ثلاثة شبّانٍ غرباء يُمارسون تدريباتٍ عسكريّةً قاسيةً من دون أن يفطِنوا إلى تسلّله حتّى ذلك العمق من الغابة، فسمِعهم يرطنون بِلغةٍ غريبةٍ، ويتدرّبون بِحماسٍ فيّاضٍ كأنّ حربًا ستندلع بعد ساعةٍ، حتّى إذا فطنوا إليه همّوا به كأنّما يُريدون قتلَه، لكنّهم عادوا فتكلّموا، وزعق أحدُهم بِصاحِبَيْه وانصرفوا مُسرِعين. شعر سحنون بالغضب وهو يرى غرباء ينتهكون مدينته، فمدينته مثل بيته الحميم، وجبالها وغاباتها حديقته الخلفيّة. ولم يكن سحنون جبانًا ولا رعديدًا فتبعهم وسعى إلى معرفة وِجهتهم واكتناهِ سرّهم، لكنّهم أوسعوا خَطوهم وصار مَشيُهم خببًا، ونظروا إليه من تحت قبّعاتهم نظرات وعيدٍ، وبعد يومين كان سحنون يرعى شُويهاته

في سُهوب «مرق اللّيل» فالتقاهم يصطادون الأرانب والحجل ببندقيّتين حديثتين لم يرَ مثيلًا لهما في كلّ أنحاء «رقّادة» و«عبيدة»، فالتحق بهم، رغم سعيهم إلى الازورار عنه، وصرخ بهم غاضبًا من دخولهم مناطق عشيرته للصّيد بغير استئذانٍ، فأعلموه بِلكْنة تكشف غربَتهم أنّهم يمتلكون تراخيص للصّيد منحتهم الدّولةُ إيّاها بِحكم القانون. وإذ طلب منهم إطلاعه على التّراخيص رفضوا:

- هَزا مو شأنك. وأنت مو رجل كانون!

هكذا تكلّم أحدُهم، فيما همّ به المسلّح الآخر لِتخويفه، فما كان منه إلّا أن أنذرهم بالمغادرة قبل أن يدعو أبناء عمومته لتلقينهم درسًا قاسِيًا، فانسحبوا غاضِبين، وعاد عنهم وهو يدعو الله ألّا يرى وجوههم النّحسات مرّةً أخرى، لكنّه ما لبث أن التقاهم في اليوم التّالي بالمسجد الكبير، يجلسون إلى ساريةٍ، ينظرون إلى المصلّين ولا يُصلّون معهم، فعرف أنّ وراءهم سرًّا خطيرًا وأزمع معرفة حقيقة أمرهم. ثمّ إنّه حاصرهم بعد الصّلاة مع مجموعةٍ من أصحابه وفتّشوهم، فوجدوا في جيوبهم خراطيش من عياراتٍ مختلفةٍ ومصحَفيْن صغيريْن تبيّن أنّهما محرَّفان: آيات مبتورة وأخرى مبتدَعة، وكلام مبهَم ذو معانٍ مبطَّنةٍ لا يتضمّنه القرآن. واندلعت خصومةٌ فكشّروا عن عدوانيّةٍ شديدةٍ واستعدادٍ للقتل والإجرام، واستطاع ثلاثتُهم الانسحاب، فجاءت سيّارةٌ مجهولةٌ وأخذتهم قبل حضور الشّرطة. وحدث لغطٌ كثيرٌ وجاء موظّفون من وزارة

الشّؤون الدّينيّة فاستلموا المصحَفيْن المحرَّفَين وحجز رجال الشّرطة الخراطيش، ولم يظهر الأجانب الثّلاثة بعد ذلك.

هاتفني الضّابط مصطفى، وهو يظنّ بي حمقًا، لِيغطّي سوأته، زاعِمًا أنّه أودع مبلغ الخمسين ألف دولار في الخزينة العامّة بكلّ أمانةٍ ومسؤوليّةٍ، فأبلغتُه توجُّسي والنّاسَ جميعًا في مدينتي وقُراها مِن وجوهٍ غريبةٍ تحوم حولنا، ترتع بين الجبال والجوامع والشوارع، وتحفر حقولنا ليلًا وحدائق منازلنا لتسرق آثارنا. فقال الضّابط الكبير بِثقةٍ عاليةٍ:

- لا تظنّ أنّ شيئًا من ذلك يخفى عنّا. لدينا معلوماتٌ استخباريّةٌ عن دخول بضع مئاتٍ من الأشخاص لأسبابٍ مُريبةٍ غير المُصرَّح بها، وبعضُهم بهويّاتٍ مزيَّفةٍ، لكنّنا نتتبّعهم عن كثبٍ. لا تخَف شيئًا، وإيّاك أن تنشر الذّعرَ بين النّاس. الوضع تحت السّيطرة، ونحن هنا!

كنتُ أعلم أنّه يتطاوس كذبًا، فأردتُ أن أزيده توضيحًا:

- أتعلمون أنّ لِوُفود الغرباء المشبوهين علاقةً بِما حدث لي؟ إنّها هجرةٌ مقدّسةٌ تَجمع بين الحجّ والنُّصرة والجهاد، تمنحُها القداسةُ خطورةً بالِغةً.

- ظننّا في البداية أنّ جماعة البُهرة أرسلوا فدائيّين للانتقام من الخوجة الحشّاشين الذين قتلوا صاحِبَيْهم، لكنّ كثرة الوافدين جعلتنا نُرجّح احتمالاتٍ أخرى. من فضلك كفّ عن الأسئلة. هذا أمرٌ لا يعني غير الجهات الأمنيّة.

لكنّ الأمرَ كان يعنيني أكثر ممّا يَعنيهم. أنا الذي وُضع المسدّس عند صدغي وكانت عائلتي منذورةً للذّبح في تلك اللّيلة. فقلتُ له:

- يبدو أنّك لم تفهمني. قلتُ لك إنّها هجرةٌ مقدّسةٌ، كهجرة اليهود إلى فلسطين في صورة أورشليم التّاريخيّة، أو غزو الصّليبيّين أرض المشرق للاستيطان في «مهد المسيح». هذه هجرةٌ مقدّسةٌ أخرى إلى أرضٍ موعودٍ بها، هجرةٌ أمَرت بها تعاليم وكُتُبٌ أقدس عند أصحابها من التّوراة والإنجيل والقرآن...

- نحن نعرف ما علينا أن نفعل. طاب يومكَ أستاذي.

قطع عليّ كلامي وأنهى المكالمة كهاربٍ من قبضةٍ خنقت رقبته.

لا أحد يستطيع ربْط هذه الأحداث المتنافرة وفهمها أكثر منّي: رأس المشكلة حسن الصبّاح الذي تمطّى وتثاءب بعد ألف عامٍ، فمزّق كَفَنَه وحطّم قبره واندفع خارِجًا بِكلّ أحقاده. ثمّ ارتمى عليّ وأخذ بِخناقي مُدّعِيًا أنّي اغتصبتُ أرض أئمّته الفاطميّين، وأنّ عليّ إخلاءَ منزلي فورًا، وعلى أهل مدينتي وقُراها إخلاء منازلهم ومزارعهم ليستوطنها شتاتُ شعبه.

رأتني أمّي مهمومًا شارِدَ الذّهن وكانت ذاتَ بصيرةٍ حين تدلهِمّ مِن حولي الخُطوب، فدَنت منّي ووضعت على رأسي يدًا حانِيةً وقالت:

- صار مقامك في منزلك أو منزلي خطِرًا عليك، ولا بدّ لك أن تغيّر سكنك وتهجر الجامعة وتختفي حيث لا يعلم عنك أحدٌ خبرًا!

كانت أمّي ذات بصيرةٍ ونبوءةٍ حين تدلهمّ من حولي الخطوب، ولذلك حفَرت كلماتُها بِقلبي حَفرًا عميقًا حتّى إذا نظرتُ إليها نظرة استفهامٍ وحيرةٍ، شرَحت لي رأيَها:

- بيتُ خالك في ريفٍ بعيدٍ، وفيه متّسعٌ ومَنَعةٌ.

- وما فائدة اختفائي وأنتم هنا تَطالكم أيديهم. سيأخذونكم رهائن لإجباري على الحضور إليهم وربّما آذوكم.

قالت أمّي واضِعةً نفسَها بِروحها المعطاء قربانًا من أجلي:

- خذ زوجتك وأبناءك واذهبْ هناك في حماية الله وستره، أمّا أنا فلا حاجة بهم إليّ ولن يبلغوا منّي شيئًا.

- بل ترحلين معنا أميمتي، لن أقطع خطوةً واحِدةً في تلك الطّريق من دونك. سأخابر خالي أوّلًا ثمّ ننظر بعد ذلك في الأمر.

صار أبنائي يخافون مِن حظيرة منزلي الجديد. كانت في ما مضى مرتَعًا لِلَعِبهم، فغدت بُؤرة شرٍّ ومسكنَ شيطانٍ. ما إن يخرج إليها أحدُهم ليلًا أو يُطِلّ عليها من شُبّاكٍ حتّى يرتدّ مفزوعًا زاعِمًا أنّه رأى أشباحًا أو سمِع أصواتًا! أمّا زوجتي فقد بدأ ذهنها يعمل بِطاقته القصوى وهي ترى أبناءها يَذْوُون خوفًا ويَنامون كلّ ليلةٍ على رعبٍ، فبحثت بحْثَ العَجول الحائر عن

أيّ حلٍّ يَطرد الخوفَ المُعشّش في صدورنا أو يُخفّف من وطأته. وبعد نظرٍ وفكرٍ قالت لي بِحماسٍ بدا لي جزعًا مخذولًا يلبس جبّةَ الادّعاء:

- لا بدّ من استدعاء شيخٍ عليمٍ على بَركةٍ، يقرأ القرآن في منزلنا ويطرد الجانّ والشّياطين والأرواحَ الشرّيرة. أنت تعرف برَكةَ الشّيخ بدَوي.

ثمّ زمّت شفتيها وضيّقت عينيها، وأضافت بِوثوق مَن اكتشف الحقيقة لِتوّه:

- تحت منزلنا قبور موتى وسراديب دفائن قديمةٍ، وتلك الأجواف المُظلمة الموحشة صارت مساكن للجنّ، وها هي تخرج علينا ليلًا فنسمع ضجيجها ونرى أشباحَها.

القرآن عند زوجتي مهربٌ من كلّ الأعداء وترياقٌ من كلّ الأدواء، فإن تكلّم أحدٌ مُستشهِدًا بآيةٍ قرآنيّةٍ حتّى إن أخرجها من سياقها أو لَوى عنقَها صدّقت ما قاله فورًا وطأطأت رأسَها بخضوعٍ شديدٍ، ولذلك كثيرًا ما دفعت أموالًا لُمشعوذين ودجّالين يتلون آياتٍ في غير مواضعها ويُشوّهون مقاصدها لتُزيّن تُرّهاتهم وأدرانَ مقاصدهم. ولا عجب وهي تُصغي في البرامج التّلفزيّة إلى شيوخٍ أفّاقين يُعلّمونها أنّ كلّ نظريّات العلم الحديث في الكمّ والميكانيكا والفلك والطّبّ والفيزياء النّوويّة وهندسة الجينات وعلوم التّشريح وانشطار الذرّة واندماجها... موجودةٌ في القرآن لكنّنا جهِلنا تفسيره، ويقترح أولئك الشّيوخ تفاسير جديدةً باطنيّةً غريبةً، تكون

بعيدةً عن السّياق ولا تحتملها اللّغة ولا يَقبلُها صاحِبُ نصٍّ على نصّه، فتتقبّلها زوجتي بحماسٍ مادامت تُمجّد القرآن وتنتصر له من العلماء الكفّار الذين يدّعون أنّهم أصحاب السّبق العلميّ. والقرآن في نظرها أمجد كتب السّحر، وبِه يمكن خوضُ المعارك مع كائنات العالم السّفليّ، وقهرُ الجانّ الكافر ومصارعة الأرواح الشرّيرة وطَرد شمهورش وطارش.

دخل الشيخُ منزلَنا حذرًا يكاد يمشي على رؤوس أصابعه، ينظر يمنةً ويسرةً كأنّما يخشى أن يُلدَغ أو يُتخطَّف. ثمّ شرع يُلقي أسئلةً يستكشف بها أرضَ المعركة، وزوجتي تُجيبه بيقينٍ وتتحرّى الصّواب كطالبٍ مجتهدٍ يجتاز اختبارًا مصيريًّا:

- هل تسقط أشياء من مكانها بلا سببٍ؟

- نعم. يحدث دومًا.

- هل تختفي أشياء فلا تعرفون أين اختفت؟

- نعم. وقد نجدها بعد ذلك حيث بحثنا طويلًا ولم تكن، وقد لا نجدها مطلقًا.

- هل صِرتُما تتشاجران لأتفه الأسباب؟

- نعم. لأتفه الأسباب.

نظرَت إليّ نظرة شماتةٍ، كمطلّقةٍ حاقِدةٍ تفتعل تهمةً كيديّةً ترمي بها مطلّقها لإحراجه أمام القاضي! فنظرتُ إليها نظرة عتابٍ واستفهامٍ، إذ ما كانت واحِدة من التّنعيمات الثّلاث التي أجابت بها

الشّيخَ صادِقةً ولا بِمحلّها، لكنّها أبت إلّا أن تُجيبه بِما يريد سماعه وكلّها امتنانٌ لحضوره.

- هل تشعران ويشعر الأطفالُ بانقباضٍ دائمٍ، وضيقٍ ونفورٍ من البيت؟

- نعم. هذا بالضّبط ما نشعر به جميعًا!

- هل تسمعون أصواتًا، وبالأخصّ في الظّلام، لا تعرفون مصدرها؟

- نعم. كلّ ليلةٍ، وذلك ما زادني حرصًا على استدعائك.

- هل يخاف الأطفال وهم ينظرون إلى اتّجاه معيّنٍ أو مكان مّا؟

- نعم. حين ينظرون نحو حظيرة الأشغال.

- بيتكم مسكونٌ ولا شكّ، وقد تكاثرت فيه عشائر من الجنّ وتناسلت حتّى ملأت أركانه، فماذا كنتم تنتظرون لِطرْدها؟

- لهذا دعوناك يا شيخي، ومثلك يوفي ويَكفي.

- لا بدّ لنا مِن تحصين أنفسنا أوّلًا، فقد اشتدّوا واستقووا، وما أظنّ أنّهم يَرضون بالخروج طوعًا، وربّما قتَّلونا فور بدْئنا بِطردهم!

ارتعشت زوجتي والتصقت بي وهي تتفل على يسارها وتستعيذ فيما استطرد الشّيخ قائلًا:

- هاتي إناءً به ماءٌ طاهرٌ، واجلِبي ما قد طلبتُ من ملحٍ خشِنٍ وبَخورٍ.

وإذ فعلَت، وضع سبّابته في الماء وقرّب منه فمَه حتّى صار يتنفّس فيه ثمّ بدأ يقرأ:

- الذين قال لهم النّاسُ إنّ النّاسَ قد جمعوا لكم فاخْشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبُنا الله ونِعْم الوكيل. فانقلبوا بِنعمة من الله وفضل لم يَمسسهم سوءٌ.. لم يمسسهم سوءٌ.. لم يمسسهم سوءٌ..

وحِفظًا من كلّ شيطانٍ ماردٍ... وحِفظًا من كلّ شيطانٍ ماردٍ... لا يسّمّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذَفون من كلّ جانبٍ ... يُقذَفون من كلّ جانبٍ... يُقذَفون من كلّ جانبٍ... يُقذَفون ... يُقذفون... يُقذَفون...

إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ... ليس لك عليهم سلطانٌ، وكفى بِربّك وكيلا...

وأخذ الشيخُ بعد ذلك يَغرف من الماء الذي تقدّس بِتلاواته، فيَصبّ على رأس كلٍّ منّا بِيده، وصبّ أيضًا على رأسه حتّى تبلّلت كتِفاه ثمّ شرب منه وأمرنا بالشّرب وقال:

- الآن صرنا منهم بِمنَعةٍ، فلا سبيلَ لهم إلى إيذائنا، فلْنشرَعْ في طردهم.

نظرت إلى زوجتي فوجدتُ وجهها شاحبًا مصفرًّا وما كان لي أن أسعفها بِشيءٍ وقد منحت الشّيخَ المُخيف عقلَها ووجدانَها وهو يقول:

- لن أترك لهم في المنزل كلّه غير دائرةٍ واحدةٍ يَهربون إليها ويَجتمعون فيها دِنسةٍ بِلا بخور ولا ملح ولا قرآن.

وأعقب كلامه بأن أخذ قطعة فحمٍ فرسم أمام المنزل قريبًا من شجرة السّفرجل دائرةً كبيرةً ثمّ وضع بخورًا في المدخنة فتصاعد منها دخانٌ ذو رائحةٍ غريبةٍ كما تعالى صوته في المكان:

- يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السّماوات والأرض فانفُذوا لا تَنفذون إلّا بِسلطان... لا تنفذون إلّا بِسلطان... إلّا بسلطان...

كان يتلو الآيات المختارة وهو يجول بين الغرف والأروقة يُطلِق بخورًا وينثر ملحًا، ويَكنُس عشائر الجانّ من كلّ مكانٍ يمرّ به، ثمّ احتدّت نبرتُه وزاد حماسُه فجعل يَكمش الملحَ فيَضرب به الحيطان والزّوايا والأبوابَ والنّوافذ. جال المنزلَ كلّه بتركيزٍ وأناةٍ، ثمّ الحديقةَ الواسعة وحظيرةَ المنزل الجديد، فما ترك مكانًا إلّا غمره ملحًا وبخورًا وتِلاوةً:

- أناشدكم بالعهد الذي أخذه عليكم سليمان أن تخرجوا من هذا المحلّ ولا تؤذوا أحدًا، أَوْفُوا بِعهدكم لِسليمان وإلّا حرّقتُكم بالنّار كما حرّقكم عيسى بن مريم.

قال ذلك بعد أن طاف المنزل كلّه وعاد إلى الدّائرة التي رسمها بالفحم:

- ما بقي لكم من مكانٍ تجتمعون فيه غير هذا. إنّي واثِق أنّكم هنا، وليس أمامكم غير مغادرة المنزل أو الحرق على

يديّ بِنقْضكم ميثاقَ سليمان. «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان... ليس لك عليهم سلطان...».

وأَخْرج من جيبه علبة ثقابٍ قد رسم عليها طلاسم، وجاء من تحت السّفرجلة بِحزمة قشٍّ كبيرةٍ كان قد طلب من زوجتي تجهيزها منذ اليوم السّابق فجعَلها بجانب الدّائرة، ولوّح بالولّاعة مُهدِّدًا:

- هذا ما منحني عيسى ابنُ مريم من السّلطان عليكم، هذا ما منحني سليمان بن داود، اخرجوا قبل أن أحرّقكم جميعًا.

وقَرَنَ قوله بأن أشعل النّارَ في حزمة القشّ، فتصاعد اللّهب وارتفع الدّخان وتتالت طقطقات الأعواد وهي تحترق وهو لا ينفكّ يُردّد:

- اخرجوا فورًا، أقول لكم اخرجوا، بسُلطان الله الذي منحه أنبياءَهُ وأولياءَهُ الصّالحين ورجاله المهتدين اخرجوا، واجعلونا نراكم لنصدّق خروجَكم...

وفي غمرة هياجه وصُراخه ظهرت ضفدعة تقفز في اتّجاه باب السّور، فجرى نحوها حتّى أدركها، ومشى خلفها وقد امتلأ وجهه بآيات الغبطة والرّضا:

- ها هو ملِكهم قد تجسّد. إنّه يُغادر. الله أكبر، أنشدك الله يا ابن الجانّ أن تغادر منزلنا!

وأومأ إليّ أن افتح باب السّور، فأسرعت زوجتي تفتحه على

مصراعيه. لم يكن الجنّيّ يقود سيّارة ضخمةً بل كان يقفز على أربعٍ، وكان حجمه أصغر من قبضة اليد، ورغم ذلك فتحت له زوجتي بابًا على مصراعيه يزيد عرضه على ثلاثة أمتار، فمهما كان حجمه صغيرًا يظلّ جنّيًّا، بل هو ملِكُهم بِشهادة الشّيخ العارِف..!

ظلّت الضّفدعة تقفز هاربةً والشّيخ يتبعها ويستحثّها مغتبِطًا، ويُقرّب منها حزمة القشّ المشتعلة فيتسارع قفزُها على إيقاع تعاويذه:

- أعوذ بالله من شرّ الشياطين والجانّ، ومن شرّ كلّ معلومٍ ومجهولٍ، ومن شرّ ما يخرج باللّيل ويكمن بالنّهار، وشرّ ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شرّ كلّ دابّةٍ هو آخِذٌ بناصيتها... مِن شرّ ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شرّ كلّ دابّةٍ هو آخِذٌ بناصيتها...

ثمّ قفزت الضفدعة خارج السّور فابتسم الشّيخ راضيًا وتهالك على آجرّة يمسح عرقَه لاهِثًا:

- الحمد لله، فقد كان الجنّ ممتثلين وقد رأيتُما أنّهم بدؤوا بالخروج حين هممتُ بِحرقهم، ولا بدّ لنا الآن بعد ترهيبهم من استرضائهم، حتّى يُنهوا الخروج من دون مضرّةٍ ولا يُفكّروا بالنّكث أو الثّأر. أحضرا ذبيحةً من ذوات الأربع كامِلة الخَلق لا عيبَ فيها، فإنّ الجنّ قد تجسّد في حيوانٍ ذي أربعٍ لِيدلّنا على القربان الذي يَطلبه. هل لكما في جديٍ أو خروفٍ؟

قالت زوجتي ممتنّةً وقد بدأت الدّماء تصعد إلى وجهها الأصفر المرتعب:

- أجل يا شيخ، نمنحكَ الآن ثمنَه فاجْلِبْه واذْبَحه بِنفسك...

ولم تمرّ غير ساعةٍ حتّى كان جديٌ أسود قد دفع حياتَه في حربٍ بين الإنس والجانّ لا تعنيه، وأخذ يتخبّط مُسلِمًا الرّوح في الدّائرة المرسومة بالفحم.

ما إن استوى اللحمُ مشويًّا ومطبوخًا ومصليًّا، حتّى تربّع الشّيخ بِموضع الصّدارة مُرخِيًا حزام سرواله، وأقعيْنا من حوله كالأيتام. وأخذت زوجتي تستفسر فلا يبخل عليها بأجوبته الطّويلة حتّى لَيأخذه الحماس فيكفّ عن الأكل ويتفرّغ لِنشر علومه الغزيرة قائلًا:

- الجنّ لا يهتمّون بالذّهب المكنوز ولا يحرسونه فلا تصدّقي المشعوذين. أنا أقول لكِ الحقيقة، إذ لم يَثبت بِقرآنٍ ولا حديث أنّ الجنّ يَنقدون بعضَهم مالًا أو ذهبًا، ولكنّ الكنوز وسائر الدّفائن توضَع عادةً في حفرةٍ أو سردابٍ يكون مظلِمًا رطبًا، وذلك هو المكان الذي يفضّله الجنّ سَكَنًا، فهُم يَطلبون المكان ولا تهمّهم الدّفينة.

- يُقال سيّدي إنّ دافِني الكنوز وجثث الملوك والزّعماء يُجرون طقوسًا معقَّدةً لاستدعاء جانّ يحرسون ذخائرَهم كي لا تُنهَب وجثثَ موتاهم كي لا تُنبَش؟

- نعم، إنّهم يُجرون طقوسًا سحريّةً لاستجلاب الجانّ حتّى يسكن الحُفرَ أو القبور التي وضعوا فيها ما وضعوا، فإذا حاول أحدٌ نبْشَها آذاه الجنّ السّاكن فيها دِفاعًا عن مَسكنه. ولذلك يجتهدون في جَعْل المَدفَن على الهيئة التي يريدها الجانّ لإغرائهم بالقدوم إليه والإقامة فيه، ومِن وجوه

اجتهادهم جَعْل جيوبٍ على جوانب المدفن وفي أسفله، لأنّ الجانّ يحبّ الثّقوبَ الضيّقة المظلمة، أمّا النّابِشون فإنّهم يُجرون طقوسًا أخرى لاسترضاء مستوطنيه وطمأنتهم، وتَبليغهم أنّ مَسكنهم ليس هدفًا وأنّه لا يُراد تخريبُه أو الاستيلاء عليه.

رأت زوجتي بعد خطّة الشّيخ والجدي ضرورةَ فصل أرض الحظيرة عن منزل سكننا بِسورٍ عالٍ لا باب له، فخرجتُ صباحَ اليوم التّالي أشتري إسمنتًا وآجرًّا وكلَّ ما يلزم لتشييد سورٍ منيعٍ كأسوار قِلاع الباطنيّة! كان صاحبُ محلّ موادّ البناء صديقًا قديمًا، ظريفًا، حاضرَ النّكتة والدّعابة، فانفرد بي في مكتبه للحديث واحتساء القهوة، وقضّى عمّالُه زُهاء ساعتَين بين غدوٍّ ورواحٍ من محلّه إلى منزلي لإيصال السّلع المطلوبة، ولَشدّ ما أثار استغرابي أنّ الصّديق القديم كان يعرف عنّي كلَّ شيءٍ. ولقد حدّثني عن ذلك بفخرٍ قائلًا:

- أنا عمدة المدينة، العمدة الذي لم تُعيّنْه الحكومة، أعرف عن كلّ ساكنٍ بهذه المدينة صغائره وكبائره.

فلمّا دفعتُ له مالَه وهممتُ بالمغادرة عند الضّحى قال لي:

- أظنّ أنّك تحتاج إلى عمّالِ بناءٍ. إن شئتَ نصيحةً منّي أرشدتك إلى عامل بناءٍ مقتدرٍ ومعه مُساعِدٌ نشِطٌ.

- تُعفيني من مشقّة البحث إن فعلتَ، وأنأى بنفسي عن المتحيّلين والغشّاشين.

عمِل الرّجُلان يومَهما الأوّل بِهمّةٍ ونشاطٍ، فلمّا كان المساء طلبا منّي الإذن لهما بالمبيت في الحظيرة لاستئناف العمل باكرًا في اليوم التالي. ولقد حاولتُ ثَنيهما عن ذلك، لكنّي رأيتُ من شدّة إلحاحهما ما جعلني أتركهما وما أرادا. مرّت ثلاثة أيّامٍ والسّور يعلو وإن بِنسقٍ بطيءٍ، وظننتُ أنّ كلّ آجرّةٍ ترتفع ستكون بلسمًا لِقلوبٍ أرهقها الخوف، فإذا أطفالي يزدادون رعبًا في كلّ ليلةٍ، زاعمين سماع أصواتٍ ورؤيةَ أشباحٍ، وهو أمرٌ أنكره العامِلان وسخِرا منه، فلمّا كانت اللّيلةُ الثّالثة سمعتُ الأصوات بنفسي، لكنّها لم تكن من جانب الحظيرة، بل من الجانب الآخر، وراء مَسكني، من جهة منزل جاري عمّار! وإذ فتحتُ شبّاك الغرفة الخلفيّ في ذلك الهزيع الأخير من اللّيل، استبَنتُ شبحيْن يحفران أرض حديقتي! فهتفتُ من دون تفكير في خطورة ما أفعل:

- مَن هناك؟ مَن؟

لم أكد أنهي سؤالي المقتضب حتّى اندفع أحدُهما بِلَمح البصر نحو شبّاكي المفتوح فأعْجَلَني عن غلْقه واستوى بِقفزةٍ واحدةٍ بِجانبي، داخل الغرفة، آخِذًا بخناقي. وعندئذٍ التَقى وجهانا وتناظرت أعيُنُنا فإذا هو عامِلُ البناء الذي يشتغل عندي! قلتُ مُحاذرًا أن تستفيق زوجتي وقد أمكنها في ذلك الهزيع الأخير أن تنال غفوةً بعد طول سهادٍ:

- ما الّذي كنت تفعله هناك؟ وكيف تقفز إلى غرفتي كاللّصّ؟

وضع مسدّسًا عند جنبي وقال بصوتٍ خافتٍ:

- اخرج معي، هيّا، لا أريد ترويع أبنائك.

قادني نحو صاحبه فتبيّن أنّه البنّاء الذي يشتغل معه. أيّ حظٍّ لي يا إلهي مع البنّائين بعد كلّ ما جرى لي مع حطّاب من قبلُ؟ كان يحمل آلة حفرٍ ويقف بجانب هوّةٍ ضيّقةٍ وسحيقةٍ وبين يديه قفّةٌ مليئةٌ بآثارٍ حجريّةٍ وفخّاريّةٍ. وكان يكلّم أحدًا بالهاتف همسًا، يزفّ إليه البشرى مغمورًا بالفرح:

- مَن كان يصدّق؟ مخطوطات «جنان»(*) الأصليّة كما تركها السيّد الحجّة البير(**) شمس الدّين... ها هي ذي تحت معطفي.

أعاد الهاتف إلى جيبه ثمّ توجّه إليّ:

- اللّيلة أكملنا ما جئنا من أجله وسنُغادر. عمِلنا عندك ثلاثة أيّام وقد أوشك الجدار على بلوغ غايته، ولا نطلب منك أجرًا. لِيكن عملُنا ثمن ما تكرّمتَ به علينا من طعامٍ. لكنّي أريد أن أسألك: كم تريد ثمنًا لأرضك ومنزلك؟ أعني ربع الهكتار الذي شيّدتَ عليه منزلك وأقمتَ حظيرة منزلٍ آخر؟!

كان واضِحا أنّهم أفرادٌ من العصابة ذاتها وجدوا طريقًا ملتويةً لدخول منزلي والتنقيب في أرضي، فنجحوا في خداعي وتمكّنوا من

(*) كتاب إسماعيلّي مقدّس يُنسَب إلى ألبير شمس الدّين وزاد عليه الدُّعاةُ الهنود جيلاً بعد جيل، وترجمة عنوانه عن السّنسكريتيّة «المَعرفة»، وهو يَحوي أناشيد دينيّة وأدبًا تعبّديًا وتأمّليًّا لطائفة الخوجة النّزاريّين.

(**) رتبة دينيّة للتّشريف عند النّزاريّة الهنديّة تشبه تسمية شيخ أو داعية.

استخراج ما جاؤوا من أجله. لبثتُ أنظر إليهما صامتًا غير مصدّقٍ. ولم أستفق من وقع المفاجأة إلّا بعد أن أعاد عليّ سؤالَه بإلحاحٍ ثمّ بِغضبٍ، فاندفعتُ بِوجهه مستشيطًا:

- ثمنًا لأرضي؟ لستُما بنّاءيْن إذن؟ خدعتماني وخدعني مَن نصحني بتشغيلكما، مَن أنتما بحقّ الله؟ بل من أنتم؟

- أخبرَك صاحِبي عند البوّابة الحدوديّة أنّنا مهتمّون بشراء منزلك وأن لا خيار لك في ذلك.

- صاحبك؟ تعني ميرزاخان؟

- أجل. ميرزاخان الذي أوصلتَه إلى البوّابة الحدوديّة بِسيّارتك. لقد وعدك بأن ندفع لك ثمنًا مُجزيًا، يكفيك لشراء هكتارين من الأرض في مكانٍ آخر.

- ولكنّي لا أريد البيع. لا يهمّني المبلغ الذي تدفعونه. لن أبيع وكفى.

- لا بدّ لك من البيع، فإمّا أن تمتثل فندفع لك مالًا، أو تعاند فتدفع لنا روحك. اختَرْ ما بدا لك، لكنّنا في كلّ حالٍ سنسترجع منك أرضنا.

كان صاحبه الذي اقتادني من غرفة نومي يلزم الصّمتَ، حتّى فاجأني باندفاعةٍ سريعةٍ نحوي، غاضِبًا مسكونًا بالشرّ. دفعني نحو جذع شجرةٍ فارتطمتُ به، وأخذ بِخناقي يرجّني رجًّا منكرًا:

- ماذا تقول يا كلب؟ لن تبيع؟ هل تظنّ أنّنا نستشيرك أو

نشحذ منك؟

شدّد قبضته على رقبتي، وسمعتُ بين أسنانه صرير الحقد وهو يُهدّدني:

- وعصمة الأئمّة أفلق رأسك بطلقةٍ واحدةٍ وأشرب من دمك. سنَعُود إليك قريبًا، ونَجْلِبُ لك مالًا يُجزيك وعقدًا تُوقّعه، فإن رفضتَ منحناك طلقةً ترديك وكفنًا تلبسه!

مع آخر كلمةٍ نطقها سمعنا أصواتًا داخل المنزل. وبدا أنّ أفرادًا من عائلتي قد استفاقوا وتفطّنوا إلى غيابي، فأرهف الغازِيان سمعًا وهمّا بالمغادرة، لكنّ أحدهما التفت إليّ وقال:

- لن تنال شيئًا من إخبار الشّرطة، فلا أحد يردعنا عمّا نريد، وإرادة الله وأئمّتِه أعظم منكم ومن دولتكم.

كغُبار ريح السّموم يَنفذ حسن الصبّاحُ في خياشيمي. كسُمٍّ ناقعٍ يسري تحت جلدي! حُمّ القضاء وما بقي غير التّسليم بنهايةٍ لم أخترْها، أبيع فيها أرضي لأنقذ فروةَ رأسي.

جنّ جنون زوجتي إذ سمعت وقع خطواتٍ بجانب غرفة نومها وأفاقت فلم تجِدني. جرت نحو غرفة أمّي لعلمها أنّي أنام آخر اللّيل بجانبها حين يخطر لي فلم تجدني. ولولت ولطمت فأفاقت أمّي فزِعة وهرعت تتدحرج وراء عكّازها، ونطّ الأطفال من أسرّتهم مُرتعِبين. وفي غمرة هرجهم ومَرجهم دخلتُ عليهم رَثًّا مغبرًّا فصرخوا وازدادوا فزعًا. فقلتُ وأنا أشير إليهم بِكلتا يديّ أن يهدؤوا:

- خطفوني مرّةً أخرى ثمّ تركوني. صارت المسألة لعبةً لا غير. اهدؤوا. انتهى الأمرُ على خيرٍ، وقد غادروا. إن هي إلّا لعبةٌ.

صباحَ اليوم التّالي قلتُ لأمّي:

- ما بقي لنا غير ما هَدتْكِ إليه بصيرتك: بيت أخيك في الرّيف، ولا نُعلِم بِذلك إنسيًّا.

قالت:

- نعم بُنيّ حفظك الله. لنترك هذه المدينة الخانقة المرعبة، فإنّ في أرض الله أمانًا وَسَعَةً.

(9)

مكتبة
t.me/soramnqraa

كَنَسْرٍ حادّ البصر عند قمّةٍ شمّاء، يمكنني من مخبئي رؤية رفيف جناح الفراشة وسماع دبيب النّملة. مِن فوق هذه الأرض المحدودبة الخضراء بربوع باجة المعطاء حيث منزل خالي، أسرّح البصرَ بين الحقول المترامية، ومنازل الفلّاحين الريفيّة المتباعِدة حتّى يرتدّ البصر حسيرًا. أُشبّه هذا الاتّساع اللّامحدود ببحرٍ لجُّيٍّ، أكون فيه رأسَ أخطبوطٍ ضخمٍ يَرصدُ ما حوله، يحتال، يخطّط، ويُناور لِيغنم فرائس وينجو من أعداء. ولا بدّ للرّأس من أذرعٍ طويلةٍ حسّاسةٍ تلتقط كلّ نبضٍ حيٍّ وكلّ تموّجٍ في الماء. وبذلك يستطيع إجراء حساباتٍ صحيحةٍ لا تُغفِل شيئًا من الظّروف المُحيطة، وأوّل أذرعي لالتقاط الأخطار مِن حولي هو جاري عمّار، فَبِفضْلِه يمكنني من مخبئي البعيد في الرّيف القصيّ أن أرى ما على وجوه جيراني من الأسف والحيرة لانقصاف عمري مبكّرًا:

- يا لطيف هذا المرض القاتل الذي لا دواء له صار يَطحن النّاسَ طحْنًا...
- مازال أبناؤه الثلاثة صغارًا، وليس أوجع للطّفل من اليتم. اسألوني أنا.

ما كان لي من خيارٍ غير السريّة المطلقة. فالحشّاشون قد صاروا كلابًا مسعورةً من خلفي، وسوف يبحثون عنّي في كلّ مكانٍ، ولقطع رجائهم وتوجيه أنظارهم إلى سراب بعيدٍ قلتُ لجِاري عمّار وما كذبتُ عليه من قبل قطّ:

- علِمتُ أنّي مصابٌ بالمرض الخبيث، وعليّ السّفر فورًا إلى فرنسا لاستئصال الورم بعمليّةٍ جراحيّةٍ دقيقةٍ. لا أدري إن كنتُ سأعود على ساقيّ أم في كفني، ولهذا أصرّت زوجتي على مصاحبتي مع أمّي وأبنائي، فإن قُدّر لي الموتُ يكونوا على الأقلّ من حولي.

جاري عمّار طيّبٌ ورقيقٌ. أسِف لِحالي حتّى تحدّر دمعُه وحضنني بحرقةٍ وتمنّى لي شفاءً عاجلًا وعَوْدًا ميمونًا. لكنّه رغم طيبته لا يمسك لسانَه ولا يكتم ممّا في نفسه شيئًا، حتّى إنّي لا أشكّ أبدًا في أنّ خبر مرضي وسفري قد صار مضغةً بين الأفواه.

فرح خالي لَمقدمي وأطلق في الفضاء خرطوشةً داويةً كان يريد أن يُشفعها بِثانيةٍ فثالثةٍ لولا أنّي زعقتُ به غاضِبًا:

- ما الذي تفعله؟ أهذه بوادر السرّيّة التي وعدتَني بها؟

فأجابني ضاحِكًا مِن وراء أسنانه الصّفراء بِبَلاهته المعهودة:

- لديّ البندقيّة سيّدة هذه الجبال والأودية. فلن يبلغك أحدٌ بِجواري وإن بقيتَ العمر كلّه.

والحقّ أنّي قمتُ بترتيباتٍ كثيرةٍ تضمن سريّة وجودي في

بيت خالي حتّى ينتهي هذا الكابوس المُخيف بالقبض على الجناة أو رحيلهم، أو بأيّ نهايةٍ أخرى غير متوقّعةٍ، ومن تلك الترتيبات أنّي أعدمتُ كلّ الشّرائح الإلكترونيّة لِهواتفنا الجوّالة حتّى لا أترك سبيلًا إلى تتبُّعِنا، وكتمتُ أمرَ رحيلنا عن كلّ الأقارب، وما تركت لِمَن يسأل عنّا غير الحيرة والتّخمين. وما إن بلغتُ منزل خالي حتّى خلوتُ بابنه وهو شابٌّ جاوز العشرين فشرحتُ له القصّة، وأخبرتُه أنّي سوف أحتاج إليه في بعض شؤوني فهزّ رأسه وتبسّم بِفخرٍ وقال لي:

- لستُ مقتنعًا بِوجاهة ما تفعل، وأنت تخاطر بمكانتك العلميّة ومستقبلك، بل بحياتك ومستقبل أطفالك، من أجل دراسة تاريخ حشّاشٍ قاتلٍ، ولكنّك منّي وأنا منك، أقاتل من أجلك مظلومًا أو ظالِمًا، ويمكنك التّعويل عليّ في كلّ ما تراه.

ثمّ أخذ سيّارتي فركنها في إصطبلٍ خلفيٍّ ووضع عليها غطاءً بلاستيكيًّا كبيرًا ثمّ جعل عليه أحمالًا من القشّ والتّبن، ونهض إلى حوْش جدّه القديم المهجور يُنظّفه حتّى يلعب فيه أبنائي دون أن يَظهروا للمارّ من الطّريق أو حتّى لِزائر المنزل.

في اللّيل وأنا أحدّث زوجتي عن بيتٍ من الحطب في طرف حقل خالي، كان قد غطّاه بالقشّ وفرشه بجلود الغنم، قلتُ لها:

- يكنُفه عبَقُ الغبار، ودافئٌ من دون تكييفٍ اصطناعيٍّ. لديّ رغبةٌ في الاختلاء هناك لقراءة المزمور السّابع. أكاد أجزم أنّ

الصبّاح قد ختم مزاميره بِمسائل مثيرةٍ، لكنّي كلّما تهيّأتُ لقراءة هذه الخواتيم اللّعينة حدثَت مصاعبُ منعتني حتّى صرتُ أتهيّب مسكَ أوراقها فكيف بقراءتها. نعم، لقد صرتُ أخشى نبوءات الصبّاح المخيفة وحضوره الطّاغي كَواقِفٍ بالهراوة عند رأسي.

- لولا إصراري على نَسْخه وأنت تُثبّطني لَسطا عليه الجُناة ولم تترك لنفسك فرصة الاطّلاع على ما فيه.

يحلو لِزوجتي أن تمتدح نفسَها بِما لم تفعل، فكيف وقد فعلَت! لكنّها في تلك المرّة كانت تستأهل المديحَ حقًّا. والاعترافُ بالحقّ فضيلةٌ. ولذلك قلتُ لها:

- أنا مَدينٌ حقًّا لِشجاعتك. كانت مهلة الأيّام الثّمانية تلاحقني، وما أنهيتُ قراءة المزمور السّادس إلّا بانقضاءِ المهلة، وكنتُ أنوي والأسف يعصرني أن أسلّمهم الرّقاع من دون الاطّلاع على المزمور الأخير.

كنتَ تظنّ أنّهم سوف يكتشفون عمليّة النّسخ، وأنت تتعامل مع جهلةٍ خرجوا لِتوّهم من عصور الانحطاط.

لا أتّفق معك في هذا الرّأي، إنّهم متعلّمون، زاروا البلدان وتعلّموا اللّغات، وليسوا غرباء عن ثقافة عصرهم وعلومه، ولقد قرأتُ في بعض المجلّات المختصّة أنّ الشّرطة الجنائيّة تستطيع معرفة ما إذا كانت وثائقُ ورقيّةٌ مّا قد نُسِخت، لأنّ الماسِحَ الضّوئيّ يترك عليها أثرًا غير مَرئيٍّ.

ران صمتٌ قصيرٌ تبادلنا خلاله نظرات الرّضا والامتنان، ثمّ قلت:

- ما رأيُك لو أعهدُ لسفيان ابن خالي بالذّهاب إلى منزل صديقتك لإحضار النّسخة. إنّ الفرصة سانحةٌ لأقرأ المزمور المتبقّي، ولا ندري ما يكون بعد اليوم.

ظلّت تنظر إليّ نظرةً عميقةً مِن دون أن تتكلّم. وإذ بدا لي أنّها تريد أن تقول شيئًا تبسّمتُ لها مُشجّعًا، لكنّها ظلّت تتأمّل وجهي بصمتٍ، فحرفتُ عنها نظري، وابتعدتُ خطوتين ثمّ استطردت قائلًا:

- صديقتكِ لا تعرف سفيان، ولن تُناوله الأمانة إن لم تطلبي منها ذلك. سأجلب لك الآن هاتفه لتكلّميها عنه قبل خروجه. هذا ما يجدر بك أن تفعلي.

حين نظرتُ إليها مرّةً أخرى كانت ما تزال تتأمّلني من دون أن ترفع عنّي عينيها. ولم تلبث أن اقتربَت منّي وقالت:

- لديّ مفاجأةٌ أخرى من أجلك: أنا لم أنسخ المزمور السّابع فحسب، بل كلّ المزامير التي كانت وقتئذٍ عندك. نسختُ الخمسةَ كلّها قبل أن يسلبها منك جماعة الخوجة!

ضربتُ بقبضتي على الطّاولة غير مصدِّقٍ. كانت المفاجأة أكبر من قدرتي على تصديقها. إنّها نصرٌ عظيمٌ في خضمّ هزائمي المتتابعة. ومن شدّة دهشتي سألت زوجتي لأتأكّد:

- حقًّا؟ فعلتِ ذلك حقًّا؟ هذا رائعٌ، لم يخطر ببالي في الأيّام الثّمانية أنّ هذا ممكنٌ. هذا أعظم ما فعلتِه من أجلي.

حضنتُها وقبّلتُها غير مصدّقٍ أنّ الإرثَ الذي ظننتُه ضاع منّي إلى الأبد ما تزال نسخةٌ منه بِحوزتي. وعندئذٍ دخل عليّ شيطانُ النّكد ليُذكّرني بأنّي لا أمتلك غير نسخةٍ مصوّرةٍ، أمّا الرّقائق الأصليّة ذات القيمة الحقيقيّة فقد ضاعت إلى الأبد. وحدّثني الوسواس الخنّاس بأنّ النّسخة التي أمتلكها مبتورةٌ، فقد أحرق الأقرعُ المزموريْن الأوّليْن منذ البداية ولن يُبعَثا من رمادهما أبدًا، لكنّ أيًّا من تلك الوساوس لم يُفسد فرحتي العارمة بأنّي ما أزال أمتلك نسخًا من خمسة مزامير كاملةٍ مشفوعةً بحواشيها مُصَدَّرةً بِرسومها الرّمزيّة الغريبة.

حين خرج سفيان ذات صباحٍ مكلّفًا بمهمّةٍ ثقيلةٍ لجِلب «الأمانة»، كانت قد مرّت عليّ أربعة أيّام بِمنزل خالي، وبدا لي أنّ خطّة اختبائي ناجحةٌ، وأنّي صرتُ بِمَأمنٍ. ولقد ناداني بعد أن شغّل محرّك السيّارة واستعدّ للانطلاق، فناولني هاتِفًا قديمًا وهو يقول: «هذا هاتف أمّي رحمها الله». قلتُ: «رحمها الله»، ثمّ مسحتُ على وجهي خاشِعًا، وأردف قائلًا: «ما زلتُ أشحن بطّاريته وأملأ رصيدَه بالمال وأحافظ عليه. سأتركه عندك اليومَ وطيلة الأيّام القادِمة حتّى يمكننا التّخابُر عند الحاجة». فأخذتُه شاكِرًا، وكرّرتُ رجائي منه أن يَقصد أيضًا منزل جاري عمّار ومنزل صديقي عبد العزيز ثمّ الكليّةَ، فيزعم السّؤالَ عنّي بعد غيبتي المفاجئة وانقطاع

خطوطي الهاتفيّة، حتّى يتسقّط الأخبار ويعرف ما حدث من بعدي.

عاد سفيان مساءً وقد جلب «الأمانة» من صديقة زوجتي، لكنّه ألقى بِقلبي خوفًا شديدًا وهمًّا ثقيلًا، فالحشّاشون يبحثون عنّي في كلّ مكانٍ. وما مِن موطئٍ كنتُ أرتاده إلّا تركوا فيه آثار أقدامهم وحقدِهم ومسدّساتِهم، كما يُعيّن خنزيرٌ بِبَوْله مناطقَ نفوذه. لم يكونوا من قبل بِمثل ذلك الإصرار على تتبُّعي. لكن يبدو أنّ الوضع تغيّر، حتّى إنّهم اعتبروا جاري عمّارًا متآمِرًا لإخفائي، وفتّشوا منزله وضربوه على رأسه إلى أن أُغمي عليه. ولمَّا أقسم لهم بِأيْمانه وسذاجته أنّه لا يعرف عنّي غيرَ إصابتي بِمرضٍ خطيرٍ وسَفري إلى فرنسا للتّداوي، أخبروه وهم يُكذّبون روايتَه أنّ جواز سفري لم يمُرّ بِسجلّات أيّ مطارٍ. وهو ما جعل سفيان يسألني وقد أحسّ أنّه دخل معركةً غير متكافئةٍ:

- كيف عرفوا أنّ جواز سفرك لم يُدمَغ في أيّ مطارٍ؟ ثمّة أطرافٌ عليا تَسنُدهم.

- لعلّهم قالوا ذلك كذِبًا لِحَمْل عمّار على إرشادهم إلى مخبئي.

حدّثني سفيان أيضًا بِما ذكَر له زميلي عبد العزيز من دخول شخصيْن غريبيْن للسّؤال عنّي داخل حرم الجامعة. فقاطعتُ كلامه غير مصدّقٍ:

- داخل الجامعة؟ لعلّك تعني حولها أو أمامها أو قريبا منها؟

- بل داخلَها، عند مدرج قسم التاريخ والآثار. هنالك حاول

الأساتذة مع جمْعٍ من الطّلبة محاصرتهما والقبض عليهما، وآل الأمرُ إلى اشتباكٍ عنيفٍ أنهاه أحدُ الغازِييْن حين مالت الكفّة بِجذب مسدّسٍ وإطلاق النّار فوق الرّؤوس! ثمّ انسحب ورفيقه خارج الكليّة فركِبا سيّارةً كانت راسيةً في انتظارهما ولاذا بالفرار مع سائقها.

قلتُ مشدوهًا:

- الأمرُ اختلف كثيرًا في هذه الأيّام الأربعة. يبدو أنّ الجناة قد أصدروا القرار الأخير بإعدامي. ألا ترى أنّ ما حدث يكشف عن رغبةٍ أكيدةٍ في القتل وليس في المناورة والابتزاز؟

- ويوجد ما هو أسوأ.

رفعتُ عينيّ مستفسِرًا فرأيتُ حرجه الشّديدَ وإحباطه وهو يقول:

- يؤسفني أن أصبّ على رأسك كلّ هذه الأخبار السيّئة دفعةً واحِدةً، لكنّ عليّ مُصارحتك وتحذيرك.

أكلتني الحيرة ونخرني سوسٌ قتّالٌ. قتلتني مُجاملاته البارِدة حتّى قال وهو يُدخل كفَّه في جيبٍ خفيٍّ بسرواله:

- البارحة عاد الجناةُ إلى جارك عمّار.

وأَتْبَعَ قوله بأن أخرج من جيبه ورقةً مطويّةً وقذفها إليّ. التقطتُها وفتحتُها فقفزَت إلى عينيّ لطخةٌ من الدّم في وسطها، ورذاذٌ منه في كلّ أنحائها! رميْتها بِحركةٍ سريعةٍ لاواعيةٍ كما يَرمي أحدٌ جمرةً مشتعِلةً التقطها خطأً، وقفزتُ إلى الوراء. تسمّرتُ

لحظاتٍ حتّى أدركتُ ما جرى واستعدتُ زمامي فانحنيتُ على الورقة وأخذتُها مُتوجِّسًا: «نسختَ المزامير ثمّ كذبتَ وفجرتَ فلعنة الله على الكاذبين. إن كانت لك في حياتك رغبةٌ فناولْنا نسخةً من المزموريْن الأوّلين اللّذيْن عدِمْناهما حتّى يكتمل الكتابُ عندنا، وإن لم تفعل فقد هلكتَ ومِتّ مِيتةً جاهليّةً!». قرأتُها وأعدتُ قراءتها ثمّ طويتُها ذاهِلًا، وكان طيُّها إيذانًا لسفيان باستئناف كلامه:

- قال جارك عمّار إنّ كاتِب الورقة أخبره بأنّ اسمه مورزو ... مورزوغان في ما أظنّ، وقد زعم له أنّك تعرفه جيّدًا، وبعد كتابتها جذب خنجرا من حزامه فشلط زندَه حتّى انفجر دمُه فصبغ به الورقة!

لزِمتُ صمتي وذهولي، وبدا لي أنّه ما مِن كلامٍ يمكن أن يُقال. تابع سفيان كلامَه:

- هذا سلوكُ مجرمٍ حقيقيٍّ من أعتى المجرمين. أنصحك بالامتثال لِطلبهم. امنَحْهم نسخةً من الفقرتين المطلوبتين فإنّ حياتَك أهمّ مِن أيّ شيءٍ آخر.
- نعم. أنتَ على حقٍّ. ولكنّهم يطلبون مستحيلًا، فكيف أُعطيهم ما لا أملك؟
- ولكنّي جلبتُ لك نسخةً من الكتاب من عند صديقة زوجتك!

كان عليّ أن أعود إلى بداية القصّة لأسرُد على سفيان ذكرياتٍ مؤلمةً وددتُ نسيانها، فقد صار الشّابُّ كاتِم سرّي وصار عيني

وذراعي، ولا بدّ أن يفهم كلّ التّفاصيل حتّى يعرف كيفيّة التّصرّف عند حدوث أخطارٍ. قلتُ له:

- يا سفيان جعلك الله إسفينًا في نعش عدوّك، إنّي حين استخرجتُ الرّقاقات من القبر القديم أخفيْتُها في منزل أمّي، في مستودعٍ آمنٍ ريثما أسافر لحضور مؤتمرٍ علميٍّ، فلمّا عدتُ أخذتُ منها المزموريْن الأوّليْن لأبدأ بقراءتهما فإذا استكملتُهما أعدتهما إلى المخبإ وأخذتُ غيرَهما، لكنّ عصابة البُهرة فاجأتني، فما إن عدتُ إلى منزلي والمزموران في حقيبتي حتّى وجدتُهم قد خلعوا باب منزلي ففتّشوه، وإذ لم يجِدوا ما يطلبون كمنوا فيه بانتظاري. وعِصابة البُهرة المُستعلِية غيرُ عصابة الخوجة التي تطاردني الآن، فالبُهرة يَكرهون الصبّاح ويروْنَه مارِقًا مُحرِّفًا، وكانوا يسعون إلى الحصول على مزاميره لِإتلافها، فلمّا فاجأوني ووجدوا رقائق المزموريْن في حقيبتي بادروا بِحرْقها وأنا مقيّد اليدين والسّاقين مشدودٌ إلى كرسيٍّ أنتظر القتل، لكنّهم إذ يئِسوا من كشْفي مخبأَ المزامير الخمسة الباقية اتّفق معي قائدُهم عبد الأعلى الذي لقّبتُه الأقرع على إمهالي ثمانية أيّامٍ حتّى أُتِمّ قراءتَها لأغراضي العلميّة ثمّ أسلّمهم إيّاها ليُعدموها، حتّى إذا حان الموعد والتقيتُهم وجدتُ رجُلَي البُهرة مكتوفيْن في حالٍ رثّةٍ وقد وقف على رأسَيْهما ميرزاخان وصاحِباه يتفنّنون في تعذيبهما، وعرفتُ أنّ العصابة الجديدة مِن طائفة الخوجة، وهم باطنيّةٌ نزاريّةٌ يَعُدُّون حسنًا الصبّاح حجّة الإمام وأساسَ التّأويل في عصره،

ويسعون إلى استرجاع المزامير إرثًا مقدَّسًا لطائفتهم، فأخذوا منّي المزامير الخمسةَ التي جلبتُها تنفيذًا للاتّفاق الذي ذكرتُ لك، وشهِدتُ أمامهم بِما أقرّ به الأقرعُ وصاحِبُه وهو أنّ المزموريْن الأوّلين قد تمّ حرقُهما أمام عينيّ، فلمّا حصلوا منّي على المزامير الخمسة واستيأسوا من الاثنين الباقييْن قتلوا رجُلَي البُهرة، ومِن قبلُ قتَل اثنان مِنْهُما صاحِبَهما إذ اتّهماه بالخيانة، وزكمتني رائحة الدّماء ومَشاهد الفظاعة حتّى أغمي عليّ، فما أفقتُ إلّا بعد يومٍ أو بعض يومٍ وقد نقلوني إلى مكانٍ آخر سجنوني فيه أيّامًا يُسمّونه «عِليّ جي كامندر».

أمسكتُ قليلًا، إذ أوجعتني الذّكرياتُ الأليمة، وسألتُه راجِيًا أن يكون قد فهم ما جرى فيُعفيني ممّا لا أحتمل:

- هل فهمتَ القصّة يا سفيان؟ هل اتّضحَت الصّورة؟ إذن أحسبك عرفتَ أنّهم يطلبون منّي ما لا أملك، ويرومون منّي مستحيلًا.

- أكملْ من فضلك أكمِلْ. إنّي أشبك الخيوط كنسّاجٍ، وأصُفُّ اللّبِنات كبنّاءٍ.

- أجل أجل، واصل النّسج والبناء، وسجّل في ذاكرتك أنّي إذ أعجلتني مهلة الأيّام الثّمانية ولم أكمل قراءة المزمور الأخير ذكرتُ ذلك لزوجتي ليلة ميعادي مع العصابة فقالت: «أنا آخذ رقاقات المزمور السّابع فجرًا إلى منزل صديقتي فهي تملك آلةً ناسخةً، ويمكنني هناك أن أستخرج نسخةً أخفيها

عندها وأعود قبل شروق الشّمس»، لكنّها إمعانًا في خدمتي نسخت في ذلك الصّباح المزامير الخمسة كلّها، وهي النّسخ التي جلبتَها بِنفسك الآن من بيت صديقتها. وفي المقابل اكتشف جماعة الخوجة، معتمِدين على الآثار التي تركها الماسِحُ الضّوئيّ، أنّ الرّقائق التي سلّمتُهم إيّاها قد نُسِخت، وذهب في ظنّهم أنّي نسختُها كلّها عندما استخرجتُها من القبر، ولا أحد يمكنه إقناعهم الآن أنّي نسختُ المزامير الخمسة التي يمتلكونها مِن دون الاثنين اللّذين يفتقدونهما، وهم يعُدّون المزاميرَ إرثًا مقدَّسًا لا يسمحون بِضياع حرفٍ منه فكيف بِمزمورَيْن كامِليْن مع حاشيتَيْهما؟

تهالكتُ إعياءً. سكتُّ وأنا أتصبّب عرقًا، وصوتي يتهدّج ويتقطّع. وقال سفيان:

- القصّة أعقد ممّا ظننتُ. فما كنتُ أعرف أنّك تُحارب عصابتين مختلِفتي العقائد والأهداف، تجرّ كلّ واحِدةٍ خلفَها إرثًا من الأحقاد والدّماء، وهؤلاء لن يصدّقوا حقًّا أنّ النَّسخَ قد حدث في زمنٍ لاحقٍ بعد أن حُرق المزموران الأوّلان، فكيف العمل الآن؟

ظلّ سؤالُه معلّقًا في غياب جوابٍ ممكنٍ، لكنّي رجوتُه أن يكتمَ عن أهلي خبر رسالة الدّم، ومزّقتُها إرَبًا ثمّ نثرتُها في طريقنا ونحن عائدان من الحقل إلى المنزل، يتلفّت كلٌّ منّا خلسةً عن يمينٍ وشمالٍ راجِيًا أن يُخفيَ خوفه عن الآخر.

في اليوم التالي لم أخرج من غرفتي إلّا بعد الظّهر، حين التحقتُ بخالي لمشاركته جنيَ الزّيتون. وجدتُه قد وضع المَفارِشَ والسّلالمَ تحت شجرةٍ وارِفةٍ تهالكَت بِحِملها على السّور الخارجيّ ووقف تحتها وقد غاص نصفُه الأعلى في أغصانها المتدلّية، فما كان يبدو من قامته المَديدة غير عمودَيْه النّحيلين. لم أكَد أبلُغه مُتّئِدًا حتّى بادرني بالكلام من غير أن يراني، ولم يُفاجئني ذلك، فخالي لا يَكتفي بخَمْس حواسّ كسائر النّاس، وكثيرًا ما يفخر بأنّ والِده كان يشبّهه، بِسبب حاسّة شمّه القويّة، بِكلب الطّرائد، فتضحك منه أمّي وتقول له: «ما رأيتُ أحدًا غيرك يَفخر بأنّه يشبه الكلبَ!». قال لي بِنبرةٍ ساخِرةٍ من غير أن يستديرَ نحوي:

- جئتَ لتُعينني إذَن؟ وماذا تعرف عن جنْي الزّيتون يا ابن جدران الآجرِّ والطّرقات المبلَّطة؟

فأجبته مازِحًا مُتظاهِرًا بالتّحدّي:

- الآن تعرف شدّةَ بلائي، لك أسفل الزّيتونة ولي أعلاها، والمَفارِشُ حكَمٌ بيننا.

قلتُ ذلك وأنا أنِطّ بين أغصان الزّيتونة وأبدأ الجَنيَ، فلم أزل أنتقل في الشجرة الكبيرة من غصنٍ إلى آخر، وخالي يغنّي ويشاغب حتّى أَدخل على قلبي سرورًا وأَسقط عن كتفيّ حِملًا. وإنّا لكذلك بين لهوٍ وجدٍّ إذ سمعنا فجأةً هدير محرّك سيّارةٍ قد اقتربت.

أرهفتُ سمعي وتسارعت دقّات قلبي. واقترب الهديرُ وتوقّفت السيّارة أمام باب السّور، ثمّ رجّ سمعي وقلبي صوتُ خبطٍ على

الباب! كانت الشجرة قريبةً من الباب ما جعل خالي يُشير إليّ بالنّزول ودخول المنزل بسرعةٍ، لكنّي طلبتُ منه بالإشارة أيضًا أن يتركني هناك، فالشّجرة كثيفةٌ لا يُرى ما بِداخلها. اتّجه نحو الباب فألفى به سوءًا ونذيرًا، غير أنّه بكلّ حالٍ لم يكن مُسدّسَ ميرزاخان. كانت سيّارة القادمين معروفةً لا يُخطئها النّاظر، لكنّ مصطفى، سارق الخمسين ألف دولار، أصرّ على التّعريف بنفسه وبِأصحابه، وتناهى إليّ صوتُه المتعجرف: «نحن الشّرطة»!

لم أسمع من خالي كلمةً. كان الأسلم في مثل ذلك الموقف أن يَكبت كرهَه ورغبتَه في البُصاق وإلقاء قنبلةٍ، وأن يقول بِودٍّ مصطنع: «أهلًا وسهلًا. يشرّفني حضوركم. هل لي أن أخدم حضراتكم بشيءٍ؟» لكنّه لم ينبس بكلمةٍ. ربّما كان متفاجئًا مأخوذًا، وربّما تكلّم بصوتٍ خفيضٍ لم أسمعه. ومهما يكن من أمرٍ فقد عاد الصّوت المتعجرف إلى الاهتزاز كسلكٍ صدئٍ:

- أودّ لقاء ابن أختك حالًّا لأمرٍ عاجلٍ يهمّ حياتَه ومستقبلَه. أعرف أنّه هنا فلا تحاولْ خداعي!

اندفع خالي بالكلام وقد استعاد رباطة جأشه وصرامتَه في المواقف الحاسِمة:

- ابنُ أختي له منزلٌ معلومٌ يسكنه، وكلّيّةٌ في مدينتكم يُدرّس بها، فلِماذا جئتَ تسأل عنه هنا في أقصى الأرض؟

أعلم أنّه هنا، وكنتُ أعلم قبل أن يجيء أنّه كان ينوي المجيء! كنتَ تستدرجُه وتُؤمّنه لِيأتي إلى منزلك ويختبئ عندك. آه تذكّرت،

كنتَ تعِده بذبح خروفٍ سمينٍ يوم مجيئه فهل وفيتَ بوعدك؟ أم كذبتَ عليه كما تكذب الآن عليّ!

كانت لهجة التهكّم مُستفِزّةً وقِحةً، أشعرتني بالذّلّ وبالشفقة العميقة على خالي الطيّب. وقد اضطرّ إلى التّسليم قائلًا:

- كنتَ تتجسّس على هواتف النّاس إذَن؟ كنتَ تُخالف القانون وأنت مستأمَنٌ على تنفيذه.

- بالعكس يا جدّي، فأنا لا أخالف القانون مُطلقًا. خُذ مثلًا أنّي توقّعتُ أن تُنكر وجودَ صاحِبي عندك وألّا تسمح لي بدخول منزلك، فجلبتُ معي إذنًا بالتّفتيش يُخوّل لي دخول غرفة نومك وإخراج سيّارته من تحت التّبن والقشّ حيث أخفيتموها!

- إذنًا بالتّفتيش؟!هل هذا ما قلتَه؟ إذنًا بالتّفتيش؟

قالها خالي بتهكّمٍ وسخريةٍ مُحاوِلًا أن يَكيل للباغي من بضاعته، ثمّ أردف:

- نحن أيضًا، معشر البسطاء، نعرف القانون سيادة الضّابط. ليس ابن أختي مُلاحَقًا من قِبَل العدالة أو مفتَّشًا عنه. فأيُّ وكيلِ نيابةٍ يَمنَحُك إذنًا بتفتيش محلّي بحثًا عن شخصٍ غير مُفتَّشٍ عنه؟ آه، لعلّك أخذتَ إذنًا بالتّفتيش عن شخصٍ آخر في مكانٍ آخر فزوّرتَ الأسماء والعناوين!

اشتدّ توتّري في تلك اللّحظات إذ توقّعتُ أن يهرع مصطفى ومُرافقوه إلى قوّة عضلاتهم، بعدما بالغ خالي في تحدّيهم، لكنّ سارق

الخمسين ألف ظلّ محافِظًا على برودة أعصابه، مُشهِرًا سلاحًا من السّخرية الفظّة. حتّى إنّي سمعتُ ضحكته الهازئة الخبيثة وهو يُجيب:

- ظننتَه إذنًا بالتّفتيش عن ابن أختك؟ لا، لا. إنّه صديقي وزميلي القديم في الدّراسة، فلا يَليق أن أفعل به ذلك. ما لديّ هو إذنٌ بالتّفتيش عن المخدّرات التي تُروّجُها مع ابنك! ليس هذا كلامي، لكنّ مخبرين موثوقًا بهم قد شهِدوا أنّكما تتّجران بالمخدّرات نقلًا وخزنًا وترويجًا، ويُمكنني الآن، وأنا واثقٌ ممّا أقول، أن أستخرج مخدّراتٍ من بيتك، وأثبت عليكما حالة التلبّس، ولا أغادر إلّا وأنتما موثوقان بالأكبال في مؤخّرة السيّارة!

هذا هو مصطفى بِوجهه السّافر القبيح، يسهل عليه دوس الجميع لبلوغ غايته. إن تمادى خالي في الردّ عليه فلَسوْف يدسّ المجرم مخدّرات في بيته أثناء التّفتيش ويزعم أنّه وجدها، فيَقوده بسببي إلى جبٍّ مهلكٍ. ولكي لا يحدث شيءٌ من ذلك قفزتُ من أعلى الشجرة فاستويْت على الأرض وهتفتُ بصوتٍ عالٍ:

- مَن؟ الضّابط مصطفى؟ إنّه صديقي يا خالي. دعه يدخل.

التحقتُ بهما فسلّمتُ على مصطفى، وبي من الاضطرار ما بمروّض الأفاعي البائس إذ يُجبر على تقبيل ثعبانٍ لِجمع ملاليم المتفرّجين، ثمّ ألقيتُ التحيّة على شرطيّين معه لم يتركا مقعدَيهما في السيّارة، لكنّهما على أشدّ الاستعداد لاعتقال بريءٍ وشهادة زورٍ.

وحالما دلف معي مصطفى إلى البستان قال:

- أريد التكلّمَ معك في أمرٍ مهمٍّ. كان لا بدّ لي أن ألتقيك.

دخل خالي المنزل لجِلب شاي وماءٍ، رغم أنّه لم يزل ومصطفى يتبادلان نظرات كرهٍ وتحدٍّ، ومضيتُ مع ضيفي الثّقيل إلى ظلّ شجرة الزّيتون وهو يدوس الحَبّ الأسْود الثّمينَ من دون اكتراثٍ ثمّ قال:

- جماعة ميرزاخان غاضِبون منك جدًّا، وإن لم تسعَ بكلّ جدٍّ إلى استرضائهم فإنّهم قاتِلوك، ولن ينفعك هذا الفرار الصّبيانيّ. لقد توسّطتُ لك عندهم بِما بيننا من زمالةٍ قديمةٍ وصحبةٍ، وطلبتُ منهم إمهالَك فرصةً أخيرةً حتّى أتكلّم معك. يقولون إنّك سلّمتَهم من كتاب جدّهم خمسة أجزاء وخبّأتَ عنهم اثنين...

- ليس الأمر كما تظنّ، فالحقيقة أنّ...

قاطعني بلهجة استغرابٍ شديدٍ:

- بِربّك مادمتَ قد سلّمتَهم خمسة أجزاء، فلِماذا تعرّض نفسك للقتل من أجل الجزأين الباقيين؟ لا تَنسَ أنّه كتاب جدّهم، وأنت استوليْت عليه، وهذا عملٌ شائنٌ. لستُ غير فاعل خيرٍ، أريد التوسّط لِيأخذوا متاعَهم وتحقن دمك.

رأيتُه قرصانًا نذلًا سرق لِتوّه نياشين عاليةً زيّن بها كتفيه وادّعى الانتماء إلى وطنٍ. كنت أعلم أنّ وساطته مدفوعة الأجر، وأنّه ما فعل ذلك إلّا تكسُّبًا. لكن كيف استطاع التعرّف عليهم؟ وكيف فاوضهم للحصول على المال وهو مطالَب بالقبض عليهم؟ قلتُ له:

- أيّها الضّابط، إنّ مَن تتوسّط لهم عندي مجرمون قتلةٌ، وإرهابيّون عالميّون، يجدر بك القبض عليهم وبذل أقصى

جهودك في ذلك، عوض التوسّط لهم لِغايات لا أعلمها. وما يريدون أخذه منّي، وقد أخذوه رغمًا عنّي، هو تراثُ بلادنا وكنزٌ من كنوزها الأثريّة وليس كتابَ جدّهم...

قال مصطفى وهو يَمسح بِكفِّه اليمنى نيشانَ كتفه اليسرى كأنّما يُذكّرني بِمقامه العالي:

- لماذا تجعل الحبّة قبّةً وتسعى إلى حتفك بِظلفك؟ هات الجزأيْن الباقييْن وأنا أضمن سلامتك. ولْنذهبْ بهما إلى أقرب محلّ نسخٍ فآخذ لِهذا الميرزاغام نسخةً ملعونةً وتعود إلى منزلك آمِنًا مطمئنًّا.

بذلتُ لمصطفى أيْمانًا مُغلّظةً أنّي لا أمتلك نسخةً من المزموريْن الأوّلين، لكنّه ظلّ يَحدجُني بِطرف عينيه غير مُصدِّقٍ البتّة، ثمّ قاطع كلامي صارِخًا بي:

- مِن أيّ طينةٍ أنت بِربّك؟ لو كانوا يَضربون أخطبوطًا لَصار جاهِزًا للطّبخ، ولو أنّ مكانك ثعبانًا لَتقيّأ سمَّه، أمّا أنت!... يا مُلهِمَ الصّبر!

نفخ وحوقل وضرب جبهته، ثمّ استدار نحوي بِتصميمٍ جديدٍ وقال:

- حسنًا، حسنًا. ها إنّي وإيّاهم قد أذعنّا لِمشيئتك. لِنمُرّ إلى الفصل الأخير: كم تريد ثمنًا للجزأين الملعونين؟ سأدفع لك ثمنهما الآن.

هذا كلّ ما يهمّ مصطفى. الثّمن وحسابات الرّبح، فما توسّط للعصابة في الأمر إلّا لِينال عمولةً ثقيلةً. عرفتُ آنئذٍ أنّي بلغتُ وإيّاه زقاقًا مسدودًا، وأن لا فائدة من النّقاش بعد ذلك، لكنّه ترك معركةً صغيرةً لِيفتح عليّ حربًا كبرى، إذ قال لي مُقطِّعًا ألفاظه ساعِيًا إلى جعْلها أشدّ إيلامًا:

- إن كان المال لا يهمّك كما تدّعي، فلِماذا بعْتَهُمْ أرضك ومنزلك بِضعف الثّمن؟ هل يستحقّ منزلك ثلاثمائة ألف دينارٍ؟

صفعني على غير توقّعٍ بِما لم أحسب أن يُقال لي يومًا. هتفتُ به:

- ما الذي تقوله؟ تزعم أنّي بعتُ منزلي للعصابة؟

ردّ بِوثوقٍ شديدٍ:

- المال في حسابك البنكيّ، والمالِكون الجدد استبدلوا مغاليقَ الأبواب. فلا تكذب عليّ يا رجل!

كانت الضّربةُ أشدّ من قدرتي على التحمّل. حدستُ أنّ مصطفى قد صار رأسَ الأفعى المسمّاة خوجة، وأنّه بِما اكتسب من علاقات وما دُفِع له من مالٍ قد رشا موظّفين فاسدين فزيّفوا عقودًا وتواقيع وباعوا منزلي للعصابة من غير علمي، فلمّا خرجتُ منه إلى منزل خالي سطوا عليه فغيّروا أقفالَه، واستبَقوا طعْني القانونيّ في العقد المزيّف فوضعوا المبلغ الذي حدّدوه في حسابي البنكيّ ليكون حجّةً على صحّة البيع.

كان سفيان قادِمًا إلينا مع أبيه نحو شجرة الزّيتون فاعترضتُه صائحًا:

- هات مفتاحَ سيّارتك يا سفيان، هات المفتاح.

مدّه إليّ مستغرِبًا، وسألني خالي وهو يرمق مصطفى ويلعن أولاد الحرام:

- ماذا ستفعل؟ قل لي أوّلًا، هل أذهب معك؟

كان قلقه عليّ يستحقّ أن أعود إليه وأشرح له الأمر، لكنّي تركتُهم ومضيتُ أجري، شغّلتُ محرّك السيّارة وأطلقتُها كما يُطلق البارود من ماسورةٍ، فلم أترك لخالي فرصةً ليسأل مرّةً أخرى، ولم يسمع غير ترديدي: «سأعود... سأعود». وقبل أن أبتعد كثيرًا رأيتُه في المرآة العاكسة يبرك أرضًا ويضرب فخذيه بكلتا يديه، ومحرّك السيّارة يشخر بقوّةٍ لا يأبه لآلام أحدٍ. نسيت كلّ الاحتياطات التي اتّخذتُها وخرجتُ لا ألوي على شيءٍ مجنونًا بالألم محمولًا على أجنحة الغضب. وكان عليّ أن أسير بتلك السّرعة المجنونة أكثر من ساعةٍ لأبلغ منزلي. وقد انطلقت مغامرتي بِحظّ سيّء، فالإبرة المعطّبة على لوحة القيادة لا تُسعفني بمعرفة مقدار البنزين الذي يَحويه الخزّان، ولم يكن في جيبي على ما أذكر ملّيمٌ واحدٌ.

حين دخلتُ مدينتي مررتُ ببنك الاتّحاد فخطر لي النّزول لكشف حسابي البنكيّ، إذ ادّعى مصطفى أنّي نزّلتُ فيه ثمن منزلي وأرضي، وهناك كانت الطّامّة، ولم يعد الإنكار ممكنًا: مبلغٌ عظيمٌ من المال لم أكن أحلم يومًا بامتلاكه ولا علم لي به، ومعه مبلغ جرايتي التي لم أسحبها بعد. استفسرتُ الموظّف عن تاريخ تنزيل المبلغ فإذا الكارثة قد حصلت منذ شهرٍ كاملٍ. قدّرت أنّ أوّل ما

يجب القيام به هو مَنع تسجيل العقد في إدارة الملكيّة العقّاريّة وإلّا صار عقدًا باتًّا. سحبتُ مبلغًا من جرايتي وملأتُ خزّان السيّارة وانطلقتُ نحو إدارة الملكيّة العقّاريّة فكانت صاعِقةٌ أخرى في انتظار دماغي المرتجّ: لقد تمّ تسجيل العقد تسجيلًا باتًّا بلا أيّة شبهةٍ أو إخلالٍ قانونيٍّ، والشّارِية امرأةٌ من نفطة اسمُها حفيظة بنت الحاج سالم النوّي! امرأة من نفطة؟ يا لَحظّي ويا لسخرية الأقدار. كانت المسرحيّة التي أتقمّص بطولتها مأساةً فانقلبت ملهاةً. وصار بها ممّا يضحك أكثر ممّا يُبكي. والله ما عرفتُ من نفطة مدى حياتي رجلًا ولا امرأةً، كبيرًا ولا صغيرًا، ولا عرفتُ تلك المدينة إلّا خبرًا في كتب التّاريخ أو مُتون الشّعر:

فإذا نزلتَ بِنفطة فاقصِدْ بها ... أهلَ الوفا والجود والإحسان
واحاتُها وافت بِوافر دقلة ... ومراتع للغيد والغزلان!

قرّرتُ أن أتوجّه إلى بيتي فأخلع المغاليق الجديدة وأدخله. أتسلّح بسكاكين المطبخ وأكمن فيه منتظرًا، فوالله ما دَخَله أحدٌ إلّا بعجتُ كرشه. قرّرتُ ذلك وعدتُ إلى قيادة السيّارة. رأسي يرتجّ والحرارة تَقلي جلدي ولحمي حتّى ارتخت مفاصلي وصارت حركاتي واهنةً رعناء. بينما أنا كذلك إذ سدّ عليّ الطّريق صندوقٌ ضخمٌ، ذو عجلاتٍ تداخلت صورته وتراقصت مع صورة حمارٍ. ضغطتُ على دوّاسة الفرامل بعنفٍ، فصرّت العجلات على الإسفلت السّاخن وانقلبت عربةُ الخضار المجرورة وتبعثرت الخضر والغلال. وصاح بالسّباب الفاحش صاحِبُ العربة وهو ينهض من سقطته، وتجمّع من حولنا النّاسُ بمثل لمح البصر كأنّما انشقّت عنهم الأرض.

وضعتُ رأسي على المقود مستسلمًا لِقدري غير آبهٍ بِما يكون، وتركتُ للنّاس فرصة كيل الشّتائم للسّائق الكلب المتهوّر الذي لا تهمّه سلامة النّاس. لا أدري إلى أيّ نهايةٍ سيّئةٍ كان الأمر آيلًا لولا تدخّل صاحب مقهًى مجاورٍ ساءته حالي، فأحيانًا يُصادفك حيث لم تحتسب أخٌ لم تلِدْه أمّك. صرف الرّجل المتطفّلين وهدّأ صاحب الخضار فنأى به عن اللّجوء إلى الشرطة، لاسيّما بعدما أعطيتُه مالًا لتعويض ما تلِف من بضاعته واعتذر إليه ألمي واضطرابي. وكانت سيّارتي قد سدّت جانبًا من الطّريق فركبها صاحبُ المقهى وركنها في مكانٍ مناسبٍ ثمّ أخذ بِيدي فقادني نحو مقهاه وقال لي:

- تعال حضرة الأستاذ لتجلس في المقهى وترتاح قليلًا، أنت لا تعرفني أمّا أنا فأذكرك جيّدًا. لقد حضرتُ لديكم بالجامعة أثناء مناقشة ابني رسالةَ التخرّج وكنتَ ضمن لجنة التّقييم. ولا أنسى إعجابكَ بِعمله وامتداحَك إيّاه...، اجلسْ هنا من فضلك. سأجلب لك عصيرًا. هدّئ أعصابك ولا تعُدْ إلى القيادة الآن.

بعد نصف ساعةٍ زالت الغمامة عن عينيّ وصرتُ أرى ما حولي، فتحدّثتُ مع صاحب المقهى وشكرتُه، لكنّي لم أمتلك أعصابي وأَعْيَتْني السّيطرة على ارتعاشة مفاصلي. وإذ أيقنتُ أنّ قيادة السيّارة بعد كلّ ما حدث في ذلك اليوم مغامرةٌ قد لا تُحمَد عقباها، قصدتُ محلّ هاتفٍ عموميٍّ مجاورٍ وكلّمتُ سفيان. أعلمتُه بِمكاني وبأنّي تعرّضتُ لِوعكةٍ صحيّةٍ مُفاجئةٍ ولا أستطيع القيادة، وطلبتُ منه موافاتي دون إعلام أحدٍ بالخبر، وجلستُ منتظرًا.

(10)

كانت أُولى بركات حصولي على هاتفٍ من عند سفيان أن خابرتُ به صديقي عبد العزيز، لضماني أنّ الشّريحة غير مسجّلةٍ باسمي، فتكلّمنا عن المكان الذي من المحتمل أن يكون فيه قبرُ حبيبٍ ومريم، وأبدى مثلي اهتمامًا شديدًا بكشف هذا اللّغز، ثمّ ما لبث أن جاءني إلى باجة لنتناقش في الأمر على رويّةٍ، لكنّه حين اختلى بي لم نتكلّم في ما التقينا من أجله، فقد انحرفت بوصلتُنا في ذلك اليوم، وحدث بيننا ما لم يكن في الحسبان.

كان خالي وابنُه سفيان قد التحقا بالعُمّال لجَني الزّيتون قبل وصول عبد العزيز، فخرجتُ لأفتح له البابَ مُحاذِرًا وما فتحتُه قبل ذلك لأحدٍ، وأدخلتُه المنزل بحفاوةٍ، والتحقت بنا زوجتي إلى الصّالون فوضعت بين أيدينا كوبيْن من القهوة وطبقَ مرطّباتٍ وهي تمتدح صداقتنا التي لا تنفصم عُراها في السرّاء ولا الضّرّاء. ثمّ تركَتنا في أفضل حالٍ من الانسجام والودّ وانصرفت إلى شؤون المطبخ، فما مرّت غير دقائق حتّى سمعَت أصوات شرورنا وزعيق غضبنا، فهرولَت نحونا غير مصدّقةٍ ما تسمع:

- ما كان لك أن تُخبر مدير المتحف بأمر الرّقاقات حتّى

تستشيرني. كيف تقرّر أمرًا يخصّني من دون إذني؟!

- ليست هذه الرّقاعُ أمرًا يخصّك، بل هي ثروةٌ وطنيّةٌ أراك تُتلفها. حتّى إن كانت تخصّك، فأيّ ضَيْرٍ في تمكين المتحف الوطنيّ من نسخة تحفظ الذّاكرة؟

- أقرّر ذلك بِنفسي وأفعله حينما أشاء...

- الحشّاشون يطاردونك في كلّ مكانٍ، وقد سلبوكَ الرّقائق الأصليّة التي لا تُقدَّر بِثمنٍ. وما بقيت لك ولنا وللوطن المنكوب غير نسخةٍ مصوّرةٍ ومبتورةٍ قد ينتزعونها منك في أيّ لحظةٍ... أترى في شيءٍ ممّا فعلتَه ذرّةً من صوابٍ؟

قمتُ حانِقًا وقد انتابني غضبٌ عارمٌ وزوجتي ترمقني بِنظراتٍ عاتبةٍ وتأسف أمام عبد العزيز لِتطاوُلي. ثمّ قالت في مسعًى إلى التّوفيق بين الرّاعي وصاحب المرعى بعد أن شردت الغنم وفتكت بها الذّئاب:

- لا أرى من بأسٍ في ما فعله السيّد عبد العزيز. أنا أكفل لكما طبع نسخةٍ أخرى بسريّةٍ تامّةٍ فتأخذانها إلى المتحف الوطنيّ. ما مِن سببٍ لِخلافكما فكيف بالغضب والزّعيق؟!

انزعجتُ لِقصور فهمهما وظنّهما أنّ مشكلتي هي العجز عن توفير نسخةٍ أخرى. فقلتُ لهما ساعيًا إلى توضيح رأيي الحقيقيّ:

- مِن شأن دخول طرف ثالثٍ في الصّراع حول هذه الرّقاع الملعونة أن يجعل الأمرَ أشدّ تعقيدًا. ولست أشكّ في أنّ القائمين على المتحف الوطنيّ سيشتكونني ويَسعوْن إلى

تجريمي لأنّني لم أسلّمهم الرّقائق الأصليّة منذ حصولي عليها، وسيُخوّنونني لِنقص مزمورين منها ولا يصدّقون أنّني فقَدتُهُما. في المقابل سيعتقد جماعةُ الخوجة أنّ المزموريْن المفقوديْن موجودان في المتحف أو أنّ نسخةً منهما على الأقلّ موجودةٌ هناك، وسيندلع صراعٌ آخر قد يُحرَق فيه المتحف أو يُدمّر أو تتمّ تصفية القائمين عليه...

قاطعني عبد العزيز مُعاندًا:

- إن هي إلّا أوهامٌ تعشّش في رأسك، وأعذارٌ تختلقها. أخبرتُك أنّ مدير المتحف صديقي، وسيكون الأمر بيننا وديًّا بلا تعقيداتٍ إداريّةٍ.

لم تنقصني اللّباقة في يومٍ من الأيّام، ولاسيّما مع أستاذي عبد العزيز الذي أكنّ له احترامًا كبيرًا، وأدين له بِنصف ما حُزت من العلم، غير أنّي أكره أن يتدخّل أحدٌ في شؤوني أو يتّخذ قراراتٍ تخصّني، وعبد العزيز اتّفق مع مدير المتحف على تسليمه شيئًا بِحوزتي، فلم يترك لي خيارًا وحشرني في زاوية المضطرّ. وإنّي لأفكّر في كلّ ذلك وأستشيط غضبًا إذ رنّ الهاتف في جيبي، وإذا هي مكالمةٌ من هاتفٍ قارٍّ، وما بقيت تستعمل الهواتف القارّة بعد طفرة الجوّال غيرُ المؤسّسات الحكوميّة. عرفتُ ما وراء المكالمة فالتفتُّ إلى عبد العزيز وقد اشتدّ حنقي:

- منحتَ إدارةَ المتحف رقمَ هاتفي؟ هذا ما فعلتَه بِقرارٍ منك؟ انتظِرْ منّي تشريفك إذَن.

فتحتُ الخطّ وخفّضتُ مستوى الصّوت حتّى لا يستطيع سماع الطّرف الآخر، فعلّق بي سمعَه وبصرَه وأنا أتكلّم:

- رقائق الحشّاشين؟ لا أعرف ما تتكلّم عنه. لعلّك أخطأتَ الرّقم المطلوب. اسمي الذي ذكرتَ صحيحٌ، نعم هذا هو اسمي، لكنّي لا أمتلك هذا الذي تتحدّث عنه...

- الأستاذ عبد العزيز مَزيودات؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم...

كان عبد العزيز يتآكل غضبًا، ولولا وجود زوجتي لَخطف منّي الهاتفَ وضرب به الجدار، لكنّه لم يفعل فاستطردت قائلًا:

- لِتكنْ مدير المتحف أو مدير النّازا، لا تكلّمني بهذا الأسلوب ولا تهدّدني! فما اقترضتُ منك شيئًا ولا عرفتُك يومًا ولا أريد أن أعرفك...

- .....

- حسنًا، حسنًا، هذا أفضل ما تفعله، اذهبْ إلى المخفر لتشتكيني وتسجّل محضرًا. وخُذ معك صديقك الذي أخبرك الخبر، هذا المزيودات الذي تحدّثتَ عنه، ليستكمل أمام الشّرطة شهادةَ الزّور. اقطع المكالمة فورًا، واذهب إلى الشّرطة...

لو تكلّم عبد العزيز في تلك اللّحظات لأشعل عود ثقابٍ يحرق كلّ ما بيننا، لكنّه استقبل الصّفعة بصمتٍ وتسليم ما جعلني أميل بعد ذلك إلى الهدوء، وقد انتابني شعورٌ بأنّي ثأرتُ لِنفسي. ظلّ صامتًا شارد النّظرات يُقلّب عينيه في كلّ مكانٍ عدا وجهي، وبدأت

فقاقيع غضبي تتلاشى، فأحسستُ أنّي فعلتُ أكثر ممّا كان يجدر بي، ثمّ بدأتُ في لوم نفسي. حتّى إذا أدركت زوجتي تحوّل مشاعري وقد خبرتني وعركتني أكثر ممّا عركتني السّنون، تدخّلت بِما يُناسب في الوقت المناسب:

- سيّد عبد العزيز، مازال تدارك الخطإ ممكنًا. كلّمْ صاحبك مدير المتحف ولْيكن ما حصل سوء فهمٍ أو خطأً غير مقصودٍ. لمْ يَزَلْ زوجي يحبّ المتاحف، وسيظلّ يرتادها، ولن يُمانع في منح المتحف الوطنيّ نسخةً من المزامير.

نظر إليّ ليختبر ردّ فعلي أو يفهم رأيي في ما قالت زوجتي. والحقُّ أنّ رأيها قد بَدَا لي مَخرجًا معقولًا، فليس من الصّالح ولا اللّائق استعانة إدارة المتحف بالشّرطة عليّ، وربّما اتّخذت المسألة صبغةً عدليّةً ووجّهوا إليّ مرّةً أخرى تهمة الاستيلاء على لقيةٍ أثريّةٍ، أو انتهاك حرمة موتى، ففي وطني الهُمام يمكن أن تُحاكَم عشرين مرّةً من أجل تهمةٍ واحدةٍ إن خطَر لأعوان شرطةٍ أن يتقاذفوك بين المَخافر والمحاكم. رأى عبد العزيز في صمتي تسليمًا ورضًى، وكان رغم غضبه وشعوره بالإهانة حريصًا على إبعاد الحبل الذي أدنيْتُه بِسوء تقديري من رقبتي، فأخذ هاتفه وشرع يكلّم صاحبَه بلباقةٍ لا تُعوزه في الغضب أو الانبساط، حتّى أصلح ما أفسدتُ، وذكر له أنّي لا أملك من رقاع المزامير غير نسخةٍ مبتورةٍ وأنّ عصابة الحشّاشين لم تزل تترصّدنا، ولذلك عليه المجيء بنفسه إلى باجة مرفوقًا بأفرادٍ من طاقم الحماية لأخذ الأمانة. وحالما انتهت المُكالمة تقدّمتُ نحو

أستاذي الجليل فحضنتُه من دون أن أنبس بكلمةٍ، ثمّ جلسنا على الأريكة وهو يربّت على فخذي ولا يكلّمني، وكان ذلك إيذانًا لزوجتي بإعداد فناجين أخرى من القهوة لتعويض قهوتنا التي بردت ولم نرتشف منها شيئًا.

* * *

وجدتُ مديرَ المتحف كيّسًا لبِقًا، ذا ثقافةٍ واسعةٍ ودرايةٍ بِمجال عمله، وقد ابتدر بأسئلةٍ دقيقةٍ كما يضع طبيبٌ ماهرٌ إصبعه في مواضع تكشف المرض، فحدّثتُه عن المزامير، عن متونها وحواشيها ورسومها الغريبة، وأسهب عبدُ العزيز في ذكر قيمتها التّاريخيّة وأثرها التّوثيقيّ لِعصرٍ كان يعجّ بالفتن والصّراعات، وما تزال جوانبُ منه مجهولةً وجيوبٌ منه مظلمةً. فلمّا سكت قلتُ للسيّد فاروق:

- أرى أنّ للمزامير قيمةً أخرى أشدّ خطرًا وإثارةً هي «راهِنيّتها»، فإنّ الصبّاح قد استشرف منذ ألف عامٍ ما يجري اليوم من وقائع، وهو يتكلّم بالرّمز عن أشخاصٍ وأمكنةٍ وأحداثٍ، ويُوجّه إلى أتباعه اليوم من الحشّاشين وصايا وأوامر بالحذر من هذا وقتل ذاك، كأنّه حاضرٌ بيننا.

اهتزّ فاروق لِكلامي وقفز من مقعده، ضرب الحائط بقبضته ثمّ قال وقد بلغ من الانفعال أقصاه:

- هذا مثيرٌ جدًّا. لقد اكتشفنا إذَن نوستراداموس الشّرق! لطالما اهتممتُ بدراسة ذوي المواهب الخارقة: مواهب التّنبّؤ بالمستقبل، والتّخاطر عن بعدٍ، والحدس، والاستبصار...،

لقد درستُ الباراسايكولوجي في روسيا، وشغفتُ به أيّما شغفٍ، لكنّي لم أجد في بلدي تشجيعًا ولا مساندةً.

- الباراسايكولوجي! إنّه مجالٌ معرفيٌّ مثيرٌ، ولكنّ العلماء لا يعترفون به، ويعتبرونه من العلوم الزّائفة.

- بسبب جهلهم ونظرتهم السّطحيّة. فالقدرات الخارقة هي مواهب ومهاراتٌ موجودةٌ في الجينوم البشريّ، لكنّها معطّلةٌ وتحتاج إلى حَفْزٍ قويٍّ لإثارتها. لو استثمر الإنسان القدرات الفطريّة الكامنة فيه، ولو حرّر قُواه المعطّلَة لامتلك إمكاناتٍ جبّارةً...

طغى على السيّد فاروق حماسٌ جامحٌ، وخرج ماردُ جدَله من قمقم وقاره، لكنّ الأستاذَ عبدَ العزيزِ لجم اندفاعه قائلًا:

- أعتقد مثلك أنّ للإنسان مخزونَ طاقاتٍ غير مكتشَفةٍ ولا مستغَلّةٍ، لكنّي أراها داخل حدود الممكن العقليّ، أمّا الصبّاح فيلجأ إلى السّحر ويزعم استحضار الجانّ وتسخير هاروت وماروت، وتلك ادّعاءاتٌ غير علميّةٍ.

قلتُ مُوجِّهًا كلامي إلى عبد العزيز:

- لو قرأنا المزاميرَ قراءةً مجرَّدةً لَقلنا إنّها تخرّقات كذّابٍ، لكنّنا شَهِدنا ورأينا. لقد أبلَغَته طقوسُه الغريبة نُبوءاتٍ صحيحةً، فتحدّث عنّا وعن أيّامنا حتّى لنحسب أنّه بيننا، ووجّه إلى أتباعه أوامرَ كأنّما كتبها البارحة، أمّا لعناتُهُ فقد أصابت أهدافَها كصواريخ عالية الدقّة، وذلك مصدر غرابةٍ، وأيّ غرابةٍ!

ازداد فاروق حماسًا إذ وجد في كلامي سنَدًا لرأيه فقال:

- السّحر علمٌ جليلٌ ابتذله الدّخلاء والمحتالون حتّى جعلوه رديفَ الشّعوذة والكذب وما هو كذلك. السّحر الحقيقيّ علمٌ لا يتقنه إلّا ذوو المواهب، وهو في مُبتدَئه فعاليّةٌ قويّةٌ يُوظّف فيها شخصٌ قدراتٍ ذاتيّةً أعلى من الحواسّ الخمس لإنجاز أفعالٍ تتجاوز قوانين الفيزياء...

قاطعه عبدُ العزيز بشدّةٍ:

- هذا هو جوهر الاختلاف بيننا. قدرات الأشخاص العالية لا تخرق عندي قوانين الطّبيعة الثّابتة ولا تتجاوزها، فلا يعدو الأمر تعلُّمًا من أجل تحفيز طاقاتٍ متروكةٍ.

كان فاروق جالسًا فقام. اقترب من عبد العزيز خطوتين، ورمقه بِخيبة ظنٍّ ورثاءٍ، بعدئذٍ عاد نحو الأريكة فهمّ بالجلوس ثمّ أحجم، وما لبِث أن اتّخذ على الأرضيّة الرّخاميّة وضْعَ الأربعاء وطفق يسأله ساخرًا وهو لا يرفع عنه بصرَه:

- أهذا كلّ ما أمكن لك استنتاجه من نبوءاتٍ فذّةٍ عمرها ألف عامٍ؟ المواهب الخارقة مجرّد تعلُّمٍ تلمذيٍّ إذَن؟

بدا لي في تلك الوهلة أنّه لولا مَهابة الأستاذ عبد العزيز ورِفعة قدره لَصفعه فاروق أو قذفه بمنفضة السّجائر، إذ كيف له أن يسفّه الباراسايكولوجي الذي اغترب فاروق من أجله سنواتٍ عديدةً لدراسته في الصّقيع الرّوسيّ؟ ازددتُ تركيزًا في متابعة النقاش، وجلسَت زوجتي على كرسيٍّ والطّبق بين يديها وقد غفلت عن إعادته

إلى المطبخ، والتحق بنا ابني فظلّ يُنصت بانتباهٍ على غير عادته، وقال السيّد عبد العزيز بنبرةٍ خفيضةٍ كأنّما خشِي حقًّا أن يُقذَف بمنفضة السّجائر:

- اسمحْ لي أن أوضّح رأيي بسرد قصّةٍ حقيقيّةٍ: فإنّ صحفيًّا اندهش أمام صاحب مهارةٍ في الحساب يُجري عمليّات ضربٍ لأعدادٍ ضخمةٍ يقترحها عليه الحاضرون ويُصرّح بالنّتيجة في سرعةٍ قصوى ودقّةٍ لا تَحيد، فكتب الصّحفيّ عن الأمر مذهولًا، واعتبره إعجازًا، لكنّه عاين الموهبةَ بعد ذلك لدى أشخاصٍ آخرين وعرف أنّها مهارةٌ تمّت تنميتها بالتّدريب، فشرع يتعلّمها ويتدرّب عليها حتّى صار يحوز المرتبة الأولى في مسابقات الحساب الذّهني.

لا أتكلّم عن مثل هؤلاء يا أستاذ فلا تَحرف الموضوع ولا تُبسّطه إلى هذا الحدّ. إنّي أتكلّم عن أشخاصٍ تَحدُث عندهم طَفرةٌ روحيّةٌ وعقليّةٌ جبّارةٌ، تجعلهم يَأتون أفعالًا أو يُعلنون نبوءاتٍ لا يمكن تفسيرُها تفسيرًا حسّيًّا ولا حتّى عقليًّا...

تدخّلتُ كرجلِ تحكيمٍ أميٍّ مُوجِّهًا كلامي إلى فاروق:

- مُحاوركَ أوضح رأيَه بمثالٍ، فأوضح لنا رأيك مثله.

- يمكنني أن أسرد لكم قصصًا كثيرةً. أحدّثكم مثلًا عن مشيل نوسترادام الذي تعرفونه باسم نوسترادامس، ومن أخباره أنّه التقى يومًا راهبًا مغمورًا لا شأن له، يعمل مُربّي خنازير، فركع أمامه بخشوعٍ وتقديسٍ وخاطبه بلفظ

«قداستكم»، وهو لفظ يُخاطَب به بابا الكنيسة الكاثوليكيّة. ولقد صار مربّي الخنازير ذاك في يومٍ من الأيّام بابا الكنيسة الملقَّب «سيكتوس الخامس»! إنّ العقل البشري يرى في لمحاتٍ خاطفةٍ غير متوقَّعةٍ حدثًا مستقبليًّا كما تُرى لمعة برقٍ، وأصحاب المواهب الخارقة يمتلكون القدرة على خطْف اللّمعة وفهمها...

جديرٌ بالذّكر أيضًا أنّ نوسترادام في رسالته إلى الملك هنري الثاني الذي كان مُلكُه يقوم على سلطة الكنيسة المقدّسة، كلّمه عن خطورة سنة ألفٍ وسبعمائة واثنين وتسعين، وعدّها بداية عهدٍ جديدٍ، وبعد مرور أكثر من مائتي سنةٍ على وفاة نوسترادام، قامت الثورة الفرنسيّة على المَلَكِيّة والكنيسة، وأُعلنت الجمهوريّة، في السّنة التي حذّر منها، فكانت فاتحة انهيار سلطة الكنيسة في فرنسا، وفي أوروبا كلّها. هل تعلمون كيف مات نوسترادام؟ كان يعلم موعد موته بدقّةٍ فقبل يومٍ واحدٍ...

دخل أحدُ رجال الحراسة الذين قَدِموا مع السيّد فاروق وظلّوا في السيّارة أمام المنزل، فناوله هاتفه الجوّال قائلًا:

- هاتفك لم يكفّ عن الرّنين، لا أدري إن كنتَ تركته عمدًا أم نسيتَه.

أخذ الهاتف وانتصب واقفًا وهو يعتذر منه:

- طالت الجلسة وغفلتُ عن مرور الوقت. لعلّكم ضجرتم من الانتظار؟ حسنًا، اجلب الصّندوق المحصّن وعُد إليّ لنأخذ الأمانة إلى السيّارة.

***

رحّب بي السيّد فاروق في مكتبه الفخم، وشُغِل رجالُه بِنسخ المزامير الخمسة. وشُغِلتُ بمراقبتهم، أمّا الأستاذ عبد العزيز فكان متلهّفًا إلى جولةٍ بين أروقة المتحف. فاقترب من السيّد فاروق وسأله:

- هل يوجد بالمتحف شيءٌ من آثار الصبّاح؟

- وهل ترك المغول شيئًا من آثار الصبّاح؟ لقد أحرقوا القلعة بِما فيها وجعلوها رمادًا. يُقال إنّه كانت بِألُموت مكتبةٌ ضخمةٌ ضمّت نفائس ذلك العصر، ولكن كان دأبُ المغول كلّما استولوا على مدينةٍ أن يحرصوا كلّ الحرص على تدمير مكتباتها...

ظلّ عبد العزيز ينتظر جوابَ مدير المتحف عن سؤاله غير آبهٍ باستطراداته ولا متحمّسٍ إلى جدلٍ آخر معه، فأجابه مضطرًّا:

- قد تجد لوحاتٍ ومنمنماتٍ غير ذات أهميّةٍ. اتّجه يسارًا حيث آثار الشّرق القديم.

أنهى الموظّفون نسخ المزامير وأعادوا إليّ نسختي فدسستُها في محفظتي متلطِّفًا، ثمّ خطر لي أن ألحق بالأستاذ عبد العزيز بحثًا عن شيءٍ من آثار حسن الصبّاح. وبعدما طال بي التّطواف وكاد السّأم ينتابني وجدتُ أستاذي واقفًا أمام لوحةٍ معلّقةٍ على جدارٍ يتأمّلها بذهولٍ شديدٍ، وهي مُنمنمةٌ فارسيّةٌ بدا لي أنّها كانت في الأصل رسمًا توضيحيًّا في كتابٍ، فتمّ نسخُها وتكبيرها ثمّ وُضعت في إطارٍ خشبيٍّ جميلٍ وعُلِّقت على الجدار. وجدتُها تعبق بِروح ذلك العصر،

تكاد تُطلِق من حولها روائحَه وطُعومَه وأنفاسَه، مجسّدةً واقعة اغتيال الحشّاشين الوزيرَ السّلجوقيَّ نظام الملك.

تُصوّر المنمنمة نظامَ الملك جالِسًا على سريرٍ محمولٍ قد أخذ به أربعة رجالٍ، ومِن ورائه رجُلان آخران يمشيان في الموكب، ربّما كانا من حاشية الوزير، أمّا الحشّاشُ القاتِل فتُظهره الصورة وقد اعترض الموكب واندفع نحو الوزير وغرز الخنجرَ في بطنه. لم أر الرّسمَ، على جماله، بالدّقّة المطلوبة. فكلّ الشّخوص في المشهد يلبسون لباسًا واحِدًا تقريبًا، وبينهم الوزير المحمول على سرير الملك والعبيد الذين يَحملون السّرير! كان في رأيي رسمَ هواةٍ لا غير، ففي اللّحظةِ الحاسمة، لحظةَ غُرِس الخنجر في بطن نظام الملك، لم يتحرّك خدمُه ولا حاشيتُه لِفعْل شيءٍ من أجله وظلّوا يحملون به السّرير ويمشون برصانةٍ كأنّما يُقدّمونه ذبيحةً للحشّاش، بل إنّ القتيل أيضًا لم يفعل شيئًا للدّفاع عن نفسه، وهو ما جعلني أزداد يقينًا من أنّه رسْمُ هواةٍ لا غير، ففي لحظة الطّعن الرّهيبة لم تكن يداه، بِدفاعٍ غريزيٍّ، ممدودتَين نحو القاتل لِدَفعه أو حَرْف يديْه ونصله، بل منفرجتين عن يمينٍ وشمالٍ كأنّما يقول للجاني تفضّل بِقتلي. كان عبد العزيز بِجانبي ساكنًا كتمثالٍ من صخرٍ ثمّ انتفض فجأةً كَمَن أصابه مسٌّ من جنونٍ وهتف مناديًا فاروق صارِخًا مُلِحًّا، فهرع إليه واستدارت نحونا من كلّ الأروقة عُيونٌ ورِقابٌ وهو يُردّد:

- أنزِلوا هذه اللّوحة، أنزِلوها فورًا. إنّها رسالةٌ أخرى إلى الحشّاشين...، سيأتي ميرزاخان لأخذها!

تملّكنا جزع شديدٌ، وأمر السيّد فاروق موظَّفيه بإنزال اللّوحة وأخذها إلى مكتبه، فانطلقوا بها وعبد العزيز يمشي بينهم، يحمل معهم، يذُبُّ عن اللّوحة، وينظر إلى جنبيْه كأنّما يخشى أن تتخطّفها الجنّ، حتّى إذا انغلق علينا الباب وانصرف الموظّفون، تهالك على كرسيٍّ يمسح جبهته وما لبث أن اندفع بالكلام:

- متحفك مفخّخٌ سيّد فاروق. أنت تنقل، من دون أن تدري، رسائل الحشّاشين القدماء إلى أتباعهم المعاصرين. أؤكّد لك أنّ ميرزاخان سيزورك قريبًا لاسترداد ميراثه!

- ماذا تقول أستاذي؟ هل تظنّ أنّ هذه اللّوحة تحمل رموزًا سرّيّةً؟

- أجل. وصايا وأوامر وتوجيهاتٍ. لو كان بالمتحف مختصٌّ في تحليل الرّموز لَمَا علّقتموها يومًا. ثمّة لوحة أخرى يجب إنزالُها فورًا، تلك التي تُصوّر قلعة ألُموت عند آخر الرّواق.

ذهبَ بعض الموظّفين لإنزال اللّوحة الأخرى، ودنوتُ مع فاروق من الأستاذ عبد العزيز فعلّقنا به أعيُنًا مستفهِمةً، فقال:

- هذه المنمنمة رسمها باطنيٌّ فارسيٌّ لِتخليد اغتيال الوزير نظام الملك، وقد كان ذلك الاغتيالُ أجلّ مَفاخرهم، وأيضًا لإبلاغ أفكار الحشّاشين ووصاياهم. انظرا جيّدًا. لا أحد من خدَم نظام الملك أو حاشيته بادر إلى الدّفاع عنه، لأنّهم حشّاشون تسلّلوا بالمكر حتّى صاروا مِن حوله، وفي ذلك رسالةٌ إلى أتباعهم عبر العصور حتّى يتقنوا فنون التسلّل

بين صفوف العدوّ ليتمكّنوا منه... انظرا أيضًا إلى لباس القاتل تجداه مثل سائر ألبسة المحيطين بالوزير، وما تِلك إلّا توصيةٌ بإتقان فنّ التّخفّي. ولأنّ الباطنيّة تنعت خصومها دومًا بالبغي والطّغيان لتبرير أعمالها، ها هي اللّوحةُ تُصوّر الوزيرَ نظامَ الملك الذي عُرف بِصلاحه وعدله وإنجازاته طاغِيًا مستبِدًّا يُحمَل فوق سريرٍ على أكتاف النّاس...، انظرا إلى يدَيْ نظام الملك عند الطّعن الرّهيب. إنّهما لا تُدافعان عنه بل تنفرجان بعيدًا عن بطنه، وذلك حسب زعم الباطنيّة عمل هاروت وماروت، فهُم يمارسون قبل القتل سحرًا غامِضًا لاستدعاء كائناتٍ غير مرئيّةٍ تُساعدهم في إخضاع عدوّهم ونَحره، والرّسّام هنا ينقل الوصيّة إلى الأتباع: لا تغفلوا عن طقوسنا السّحريّة قبل إنجاز مهمّاتكم فإنّها تشلّ عدوّكم وتُعجزه عن مقاومتكم...

ظلّ عبد العزيز يشرح من المنمنمة ما لم يخطر لنا ببالٍ، فازددتُ إيمانًا بما للباطنيّة من قدراتٍ جمّةٍ في اعتماد الرّموز للدّعوة والإبلاغ، وهو ما جعل أفكارَهم تنتشر كثيرًا رغم خضوعهم للقمع الشّديد المستمرّ، حتّى إذا دخل الموظّفون باللّوحة الأخرى وقد انتزعوها لتوّهم هرعتُ لِرؤيتها لعلّي أهتدي بنفسي إلى أسرارها. كانت منمنمةً قديمةً ذات طابعٍ فارسيٍّ أيضًا تُشبه بألوانها وخطوطها ووجوهها لوحةَ اغتيال نظام الملك، وهي تُصوّر قلعة ألَموت الشّهيرة بِأبهى حلّةٍ مِن جهة بوّابتها، وأمامها طريقٌ طويلةٌ صاعدةٌ متعرّجةٌ، قد اكتظّت بالنّاس بين ماشٍ وراكبٍ وكلّهم متّجهون

لِدخول القلعة، وعند الباب رجُلان واقفان، ربّما للتأكّد من هويّة القادمين، وفوق السّور والأبراج حرّاسٌ مسلّحون. بدا لي الرّسم غريبًا، فألُموت قلعةٌ عسكريّةٌ لا يدخلها غير أفرادٍ معروفين مسموح لهم، وليست مدينةً مفتوحةً للنّازحين. فهل يُصوّر الرّسمُ إحدى مَوْجات اللّجوء إلى القلعة الأمّ من باطنيّةٍ هُزموا في قلاعٍ أخرى؟ إن كان الأمر كذلك فما وجه الخطورة فيها حتّى يأمرَ الأستاذ عبد العزيز بِإنزالها فورًا؟ لم أزل أتأمّل الرّسمَ المشحون بالألغاز حتّى وقعَت على كتفي كفٌّ ثقيلةٌ، وقال عبد العزيز وهو يضع أصابعه على الرّسم يتتبّع خطوطه وألوانَه:

- هذه دعوة إلى أتباع الباطنيّة للهجرة إلى أرض الغلَبة. فحين تستطيع جماعة منهم السّيطرة على قلعةٍ أو حصنٍ، تصبح الهجرة إلى هناك فرضَ عيْنٍ على كلّ باطنيٍّ مُستطيعٍ. وليس المقصود بالقلعة في هذا الرّسم ألموت تحديدًا، ولكن كلّ أرضٍ تغلب عليها الباطنيّة أو تحكمها. فإن استطاع ميرزاخان مثلًا أن يغلب على قطعةٍ من هذا الوطن، ولو بِمساحة جلد ثورٍ، فسوف تَهطل عليه الباطنيّة من كلّ مكانٍ ونُرمَى في البحر. قد تبدو هذه اللّوحةُ جماليّةً لِمُحِبّ الرّسم، وتوثيقيّةً لدارس التّاريخ، لكنّ الهدف الحقيقيّ من إنجازها هو إبلاغ فكرةٍ دعائيّةٍ ونَقل أوامر ووصايا. ففي الإسماعيليّة المعاصِرة ظهرت فِرَقٌ أقليّةٌ تدعو أتباعها إلى التّعايش مع مجتمعاتها ونبْذ الأفكار الحربيّة، وإزاء ذلك تصلح هذه اللّوحة برهانًا أصوليًّا لدى ميرزاخان وأمثاله

لإثبات أفكارهم من قبيل البراءة، ودار الكفر، والهجرة، والجهاد...

ظلّ عبد العزيز يشرح لنا بِحماسٍ غامرٍ رموزَ المنمنمة الفارسيّة حتّى رنّ هاتفه، فقطع حديثَه وهو يمسحُ عرقه، وشُغِل بمكالمةٍ بدا أنّها ذات أهميّةٍ شديدةٍ:

- على جدران المَباني الحكوميّة؟ كيف تقول إنّها غامِضة، ألَمْ تُكتَب بالعربيّة؟

- ....

- مَن فهِمَ منها دلالاتٍ بالتّهديد؟ هل بينكم خبيرٌ في قراءة الرّموز؟

- ....

- حسنًا حسنًا، أنا قادمٌ فورًا.

أسرع عبد العزيز نحو سيّارته، فمشيتُ خلفه لأستفسره لكنّه كان شديد العجلة فَلَمْ يتوقّف ليشرح لي فحوى المكالمة، واكتفى بأن التفت إليّ وقال لي:

- السيّد فاروق سيتكفّل بإعادتك إلى منزل خالك في سيّارةٍ مخفورةٍ، أمّا أنا فعليّ أن أغادر فورًا. لقد ظهرت كتاباتٌ غريبةٌ ورموزٌ على جدران المَباني الحكوميّة في قلب العاصمة...

قلتُ له وقد بلغ العتبةَ خارِجًا:

- ولكنّنا لم نتكلّم في المسألة التي التقينا من أجلها، أعني الأمكنة التي من المحتمَل أن نجد فيها قبر حبيبٍ ومريم.

- سنتكلّم عن ذلك في وقتٍ لاحقٍ.

لم أدرِ بعد ذلك إن كان يكلّمني أو يكلّم نفسَه إذ سمعتُه يقول وهو يبتعد عنّي:

- لا أحدَ غيرهم فعلها. خرجوا إذَن من مرحلة التقيّة ودخلوا طوْر الظّهور. خرجوا من عقيدة اللّيل إلى عقيدة النّهار، وصاروا يطمعون في التّمكين والغلَبة.

أمر فاروق موظّفيه بأخذ اللّوحتيْن إلى المخزن السّفليّ وشدّد عليهم في ما يخصّ غلق الباب الحديديّ واتّخاذ الاحتياطات اللّازمة، وظلّ يذرع مكتبه ذهابًا وإيابًا برهةً ثُمّ وقف قبالتي وقال لي:

- أتعتقد أنّ الحشّاشين يقومون في بلدنا كما تنبّأ حسن الصبّاح؟ أنتَ قرأتَ كتابَه ويمكن أن يكون رأيُك في المسألة صائبًا. هل يمكن أن يجعلوا من أرضنا الطيّبة قلعة ألموت جديدةً للقتل والإرهاب والغيلة؟

بِماذا يمكن أن أجيبَه؟ كانت جمجمتي كوزًا من الزّبدة القديمة العفِنة، فلم أجد بُدًّا من القول:

- ما عدتُ قادرًا على الوثوق بشيءٍ. قد أشكّ اليوم في الرّياضيّات وأصدّق الشّعوذات، فلا تسألْني عن شيءٍ.

- ماذا تعني؟ التجأتُ إليك لأهتدي فلا تزدني ضياعًا.

- فكّرْ معي مثلًا في مسألة اللّعنة، لقد زعم حسن الصبّاح أنّه أَوْدع قبرَه لعنةً أبديّةً، فلا ينبشه أحدٌ إلّا يُقتَل أو يُبتَر أو

يَفقد أمنه. وما كنت أصدّق هذا الأمر لولا أنّي رأيتُ دلائلَ صدقه أمام عينيّ حين قُتِل حطّابُ وبُتِرت ذراع صاحبه، ثُمّ ذُبِح أمامي عبدُ الأعلى وصاحِبُه الأفطس وهُما اللّذان أحرقا القبرَ. وقال الصبّاح أيضًا إنّ خنجره سوف يُنفّذ اللّعنة، وقد مُزّق كُلُّ أولئك بالخنجر نفسه، أمّا أنا فقد فقدتُ أمني منذ دخولي القبر، ومازلتُ مُطارَدًا منذورًا للقتل... إنّ عقلي لا يُؤمن بعلاقةٍ منطقيّةٍ بين الطّقوس التي مارسها الصبّاحُ مع ساحِرهِ شالوم بن عاموس وسمّياها لعنةً، والأحداثِ السيّئة المترادفة التي لاحقت النّابشين كلّهم، لكنّ عيني رأت، وقلبي يُصدّق ذلك ويرتعب.

كان السيّد فاروق يصغي إليّ من دون أن تبدو عليه علامات الفزع، فغبطتُه على بعض اليقين الذي غنِمَه من الباراسايكولوجي. ثمّ إنّه قال لي:

- لا تتمسّكْ بالعقلانيّة الفجّة فإنّها تقودُ إلى الجهل المتعالِم! ما فعله الصبّاحُ ليس بشعوذةٍ، فذلك ما نُسمّيه قانونَ الجذب: حين تُفكّر كثيرًا بأمرٍ سيءٍ فإنّه يحصل، أمّا المشاعِر الانتصاريّة فتجلب النّجاح. إن كان الشّخصُ العاديّ قادِرًا على استجلاب أحداثٍ بِتفكيره فيها أو خوفه منها، فكيف بِرجلٍ كحسن الصبّاح قد شهِد له مُعاصِروه بِقوّةٍ روحيّةٍ خارقةٍ وشِدّة تأثيرٍ ومركزيّةِ جذبٍ؟ إنّما كان يكفيه أن يضع أمامه المالَ الذي يُريد إحلالَ اللّعنة فيه، فينظر إليه بتركيزٍ شديدٍ، ويُفكّر بأنّ شرًّا وبيلًا سيحلّ بكلّ من

يمسُّه، فيحدث ذلك لاحِقًا وفق قانون الجذب الذي كلّمتُكَ عنه.

كنتُ آمل أن يُكذِّب فاروق أسطورة اللّعنة، فإذا هو يَزيدُني هلعًا واضطرابًا، ويعود بي إلى الحديث عن الخنجر: «ياخنجري القتّالُ يا باعِجَ البطون...». حين هجمَ به القاتِلُ من الخوجة على البُهريّيْن المَوثوقيْن المرتعِبيْن كنتُ حاضِرًا، ورأيتُ مِن وراء غمامة عينيّ أمرًا عجبًا: فالخنجر في تلك اللّحظات لم يكن نصلًا من حديدٍ، بل انقلب كلبًا عقورًا ذا تكشيرةٍ مُرعِبةٍ تَكشف أنيابًا كأسنان المنشار، ويسيل من فمه لُعابٌ مخلوطٌ بالدّم! هذا والله ما كان عليه خنجر الصبّاح في لحظة الهجوم الرّهيبة، وقد رأيتُه كذلك أمام عينيّ، وأنا مستعدّ للشّهادة على ذلك أمام محكمة الله في السّماوات العلى.

عاد فاروق إلى الكلام، لكنّ قشعريرة جلدي ما تركت لي رغبةً في الإصغاء إليه، سمعته يقول وأنا أشيحُ عنه بوجهي:

- أتعلم كيف يستطيع أولئك الأمّيّون من الخوجة تأويلَ المزامير والرّسوم المعقّدة وإشارات المَدافن من دون أن يكون أحدُهم قد درسَ علمَ الإشارات أو عرف عنه شيئًا؟

لم أُجب على سؤاله. كنتُ مشغولًا بالتّفكير في الخنجر واللّعنة، وكفّي تتحسّس بطني بإشفاقٍ ورِثاءٍ، فلمّا رأى سكوتي حمل عبء الإجابة عن سُؤاله بِنفسه:

- نُسمّي ذلك علْمَ التّخاطُر، فحين تُحبّ أحدًا حبًّا عميقًا خالِصًا ويكون بعيدًا عنك، فإنّ روحكَ تلتقط بِطريقةٍ

مُبهَمَةٍ الألمَ الذي يحسّ به والخطر الذي يتعرّض له مهما شطّ عنك ونأى، والدّلائلُ على ذلك تتكرّر كلّ يومٍ بين أمّهاتٍ انقبضت أرواحهنّ وانخرطن في موجات بكاءٍ بِلا سببٍ حين كان أبناؤهنّ الأباعِدُ يتعرّضون لأذًى. وحين تؤمن إيمانًا راسخًا بِأفكار زعيمٍ أو نبيٍّ أو إمامٍ أو حتّى مشعوذٍ وتكون مستعدًّا لطاعته والخضوع له، فإنّ عقلك الباطن يلتقط أوامِره ووصاياه من دون لقاءٍ مباشرٍ بينكما مهما كانت غامِضةً أو مُشفَّرةً، فإذا كلّمك إمامُكَ بالرّمز أو أمرك، مثلما فعل الصبّاحُ في مزاميره، فإنّ أشدّ الرّموز تعقيدًا تكون أمام عقلك الباطن بسيطةً واضحةً! أؤكّد لك أنّ مؤمنًا بالصبّاح مِن طائفة الخوجة لم يدخل المدرسة يومًا يمكنه عند سماع مزمورٍ من هذه المزامير أن يُفسّره ويفهم مقاصِده أفضل مِمّا يُفسّره عالِمُ إشاراتٍ تخرّج من أعتى الجامِعات! إنّ تخاطُر المشاعر والأفكار عن بُعدٍ أمرٌ شديد التّعقيد، يكشف عظمة العقل البشريّ وقدرتَه على الإدراك خارج نظام الحواسّ.

* مزمور يوم الفصل والميقات *

١. وزَغُ الحيطان تسلّل بين شقوق القَلعة
دخل على الناس منازلهم.
جاء يقول: لقد حلّ اليومُ الآخر، قامت للنّاس قيامتُهم
ما مِن تكليفٍ بعده يُرهقهم، كلّ الشّهوات تُباحُ لهم.
ثَلَم الفُسّاق بنا ثَلْمًا،
كسروا جناحيّ وخدعوني حين أمِنتُ لهم.
ما أهلَكَ رجُلٌ نسْلَه مثلي،
ويْلٌ لي مِن أبناء عمومتنا، والويْلُ لهم.

٢. قبْل تمام المائة الخامسة أتانا النّاموس الأقدرُ
شالومُ السّاحرُ، علّامُ الغيب.
لا شُلّت يدُه، ولا غُلّت، يُحيي ويُميتُ بِلا ريب،
قال: ابنُ ضُبارة لا يُقتَل، نحسٌ دمُه
لكنّي أغيّبُه في أسفل جُبّ

في شعبان الواغل(*) ، في برج مهجورٍ خرِبِ
فعل النّابغةُ الفذّ أفاعيلَ الرّبّ :
جفّف ماءً من تحت الجلد ،
وسحب نُخاعًا هشّا مِن عظم صَلب .
أخرج مُخّا من جمجمةٍ ،
وفراثةَ كرش ، ودِماءً من قلب .
صار الجسدان يَباسا ، كقديدٍ أو قصب
نَقلهما إلى البرزخ قِشرًا منزوعَ اللّبّ .

٣. روحي وروحه قد تدافعتا بِعنف
قبل إنشاء الخليقة في بروج خالده ،
وصار فرضًا أنّني أنفيه أو ينفي وجودي
بالخناجر حربُنا ، لا بالعقول النّاطقه
قبري يُشيَّد قال شالوم على قبريْهما
وهنا على وهن ، وتلك منّي القاضيه
جسدي وروحي يُركسانه أسفلي
وعقيدتي ستكون دوما غالِبه
سأكون فوقه أن تناله قطرةٌ
وسأحرف النبّاشَ عنه بالنّقود القاتِله .

(*) تسمية قديمة لشهر شعبان القَمريّ

٤. تُعرَف أسرارُ المزمور السّابع في أيّام الميقات المعدوده
عند خواتيم سُبات الجاني في البرزخ
وبِضِئْضِئِه الآبِقةُ المفضوحه،
لا يلبث أحدُهما في البرزخ بعد الميقات وإن يوما
أو ساعات معدوده،
إمّا أن يبلغ جلدَهما ماءٌ فيقومان
أو الموتُ الآخِر حتّى الدّينونة.
يا خشية قلبي من أيّام مشؤومه:
قبري مفتوحٌ مِن فوقهما
والأمطارُ دِلاءٌ مسكوبه.
هرَجٌ في تلك الأيام ومرَج،
قتلٌ، ودماءٌ مسفوكه

٥. يا شالوم بِحقّ الطّور وموسى، جفّفْهما أبد الدّهر
فلا يرَجعان لِناسوت(*)
قال السّاحِرُ ليس بِأمري أنفث في العقد
فأنا تبَعٌ، أسمع هاروتَ وماروتْ
وقضى ربُّكَ ألّا يبلُغ أحدٌ مبلَغ نوحٍ
دونه كلّ الخلق يموتْ

(*) ناسوت: الطّبيعة البشريّة/ الوضع البشريّ

ألفًا إلّا خمسين يعيشان في البرزخ،
حيّيْن ميْتيْن، بِلا ماء أو قوت
قلتُ: اللّهمّ مماتًا لا رجعةَ بعده يا ديّانَ الملكوت
تبسّم شالومُ وما دأبُه، قال:
تقبّلْ منه فإنّه عبدُكَ أصباؤوتَ إلهي... أصباؤوت

٦. «مِن فم التّنين والوحش والنّبيّ الكاذب ذي السّفاهات،
ثلاث أرواح نجسات،
شبْه ضفادع، صانِعة آيات...»(*)
كذا رتّل شالوم القادر بخشوع
خبرَ المعركة العظمى «هرمجدون»، مِن كتب التّوراة
أخبرني عن الكذّاب النّبّاش المُتعالم
إذ يعرف سرَّ المزمور السّابع قبل فوات،
يُدرك قربَ قيامتنا، يعرف سرَّ الميقات
يُلهِمُه الشّيطانُ السّعيَ إلى إنفاذ الماء
وإعادة نبْض حياةٍ في هُبَل ومَناة.
ويخوض عُتاةٌ، هُم منّي وأنا منهم، معركةَ الفصل،
ويُدهَسُ نابِشُ قبري دهْسَ الحيّات.

(*) سفر الرّؤيا.

٧ـ المطرُ الوافرُ يسّاقط زخّاتٍ زخّات،
لكنّه مشؤوم لا يحمل خيرات،
فبري المنْهوب ستملؤه بالنّحس مياهٌ مُزجاة
والعلْجُ الأمردُ قد عرف السرَّ،
وأقعى ينتظرُ النّهزات
مَن يضمَن لي قتلَه في الأيّام الخطِرات
أضمن صكّ الغفران له ونعيمَ الجنّات!
تلك الأيّامُ العُظمى لقيامتكم أهلَ الباطن،
وابنُ ضُبارة ينزع آخر نزعات
فليُركَسْ في قبره من دون قُطيرة ماء حتّى يفوت الميقات.

﴿حاشية﴾

حدّثني أبو الفتح السّرميني قال: اجتمع إليّ نفرٌ من الإسماعليّين الهُداة في «الدّعوة خانه» بحلب حين كنتُ رئيسَها، فتذاكرنا المقالات الجديدة والمزامير الهادية، حتّى سألوني عن قول السيّد في مزمور الفصل والميقات «ويلٌ لي من أبناء عمومتنا والويلُ لهم»، فقلتُ لهم: «أولئك هم القرامطة. كانوا إسماعيليّين مُهتدين حتّى ضلّلهم حمدانُ قرمط»، قالوا: فَفيمَ ضلالُهم يا سيّدنا؟، قلتُ لهم: إنّ كُتُب البلاغات عند الإسماعيليّين ستّة هي التي ورثناها عن السّلف الأخيار والمعلّمين

الصّادقين، وفيها لنا تمام الهداية والعرفان، فعمد القرامطة إلى ابتداع ثلاثة أخرى تجنح إلى الغلوّ حتّى تبلغ الضّلالَ والكفر، زادها حمدان قرمط وعبدان الدّاعية ويحيى بن زكرويه، فزعموا أنّ ما جاء به النبيّ محمّد من الشّريعة كان للعوامّ الموسومين بالجهل، فأوثقهم الله بالعبادات، وأرهق أجسادَهم بالصّلاة والصّيام وسائر العبادات كما توثق البهائم بالقيود، ثمّ زادهم تقييدًا بالتّحريم فمنَع عن أجسادهم شهواتها...، أمّا المصطفون الّذين يتبعون الأئمّة ويبلغون غاية العرفان فلا يحتاجون إلى العبادات ولا يُوثَقون بالتّحريم، وبذلك تقوم قيامتُهم فيَدخلون طورَ الجزاء، إذ يسقط عنهم التّكليف ويُعفَون من رهَق العبادات وتُباحُ لهم المتع والشّهوات، أمّا القيامة التي جاء بها التّنزيل فهي عندهم تشبيهٌ للعوامّ وتصويرٌ على قدر أفهامهم لكن لا حقيقة لها.

سكت أبو الفتح السّرميني برهةً ثمّ قال: «لكأنّ سائليّ في حلب كانوا يرون على ظهر الغيب ما يحدث في ألَموت، فإنْ هو إلّا بعضُ يوم حتّى هلّ علينا الدّاعيةُ دهدار بوعليّ مبعوثًا من السيّد حسن الأساس برسالة إلينا، فلمّا خلوتُ به في «الدّعوة خانه» وجدتُه على غير ما أعرفه فقلتُ له: «والله يا دهدار ما رأيتُك حتّى أنكرتُك، فأفصِحْ أصلحك الله عمّا وراءك». قال: «تركتُ ألَموت تغلي كالمرجل، وقد قتَل السيّدُ الأساس ابنه البكرَ حسينا مع رجال ممّن كنّا نحسبهم من خيرة دُعاتنا فإذا هم قرامطة قد اندسّوا بيننا وخدعونا، وكادوا يثورون بنا فيُقتّلوننا ويأخذون ألَموت..». ضربتُ رأسي بكلتا يديّ وقلت: «يا شفاعة الأئمّة! أيَقتل ابنَه وهو ساعدُه الذي يَضرب به؟. فمَن من الدّعاة قد قتل؟». قال: «منهم مَن تعرف ومنهم من تجهل، فَمِمَّن تعرف حسينُ الدّنبوندي وزيد بن حسني وهلال القزويني، وكانت

خطّتهم قتلَ السيّد الأساس ورجال دولته والاستيلاء على القلعة» قلتُ: «اجلسْ بِربّك اجلسْ، وأخبرني القصّة منذ مبتدئها». فجلس دهدار وشرب ماءً واستعاذ وحوقل ثمّ قال: «كان مبتدأ الفتنة وقوع فأر في خابية الزّيت، إذ جاء القلعَةَ زيدٌ بن حسني الذي كان يطارده حاكِمُ الريّ، فادّعى البراءةَ من القرامطة، وزعَم سلامةَ عقيدته وأنّه على رأي السيّد الأساس وهدايته، ثمّ أبلى بلاءً ونصح نصحًا جعله ينال عنده مكانةً رفيعةً، فلمّا رأى الخبيثُ اطمئنانَ السيّد إليه بدأ في الدّعوة لنفسه تحت السّتر والكتمان فكسب في القلعة أنصارًا وتابعين، وكان ممّن انقلب على عقبيْه واستجاب له سرًّا الأعرجُ اللّئيمُ حسينُ الدّنبوندي الذي كنّا نظنُّه واحِدًا منّا، فقد خان عهدَه وإمامه ثمّ ظلّ رغمَ ذلك صديقَ الأستاذ حسين الصبّاح وموضع ثقته، وإنّه لكذلك إذ طلب منه يومًا أن يصحبه إلى قوهستان لملاقاة سيّد قلعتها حسين القايني، فأظهر فرحًا وأضمر شرًّا، وأسرع إلى سيّده زيد بن حسني يقول: «إنّ حسينا الصبّاح طلب منّي أن أصحبه غدًا إلى قوهستان لملاقاة القايني، ولابدّ لنا من المبيت عنده، فلَأَعْلُوَنّه بسيفي وهو نائم فلَأقْتُلَنّه، ثمّ أتّهم به الأستاذَ حسينا فلَعلّي أبلُغ مَقتلَه بسيف أبيه، فإنّ الصبّاحَ يَخشى أن يُقال «غَلبت عليه مُحاباةُ ابنه فتركه يقتُل أصحابَه»، فإن نحن جرّدنا الصبّاح من الحُسيْنَيْن أوشكنا أن ندوسه بنعالنا»... فلمّا كان الهزيعُ الأخير من اللّيلة الموعودة قام الدّنبوندي إلى مُضيِّفه الذي أشبعه ودفّأه فضربه ضربة ظنّها القاضية، لكنّه خار خُوارا وارتمى نحو رقبته، فعاجله بثانية طرحته أرضًا وثالثة أجهزت عليه. وقبل أن ينتبه الجاني لما حوله خرج الأستاذُ حسين من الغرفة المجاورة فضرب ظهرَه بعمود من حطب ضربةً قذَفت الخنجر بعيدًا عنهما واشتبكا من دون سلاح حتّى قام أهلُ الدّار واجتمع

عليهما النّاس، وكلّ منهما يتّهم الآخر بدم القتيل، فأرسلهما دُعاة قوهستان محروسيْن إلى السيّد في ألموت. وهناك زعم الدّنبوندي أنّ الأستاذ حسينا كان يخطّط لخلافة أبيه، ورأى أنّ القايني ينافسه في ذلك فقرّر قتله، وأنّهما ما قصدا قوهستان إلّا لتلك الغاية، وزعم أنّ الأستاذَ حُسينا هو الذي قَتل، أمّا هو فقد رافقه لمساعدته في الهرب.

أمر السيّد وقد الْتَبَس عليه القَرارُ بحبْسهما حتّى ينظر في أمرهما مع أصحاب الشورى الثّلاثة، وهم مُحدِّثكَ صاحبُ الميمنة دهدار بوعليّ الأردستاني، وصاحب الميسرة الحسن بن آدم القصراني، وصاحبُ المقدّمة كيابا جعفر. وكانت للدّنبوندي امرأة قويّة حازمة، أرادت أن تستبق قرار المجلس بإنقاذ زوجها، وقد علمَت أنّه محكومٌ عليه بالقتل لا محالة إذا ما التأم المجلس، فأسرعت إلى القرمطيّ زيد بن حسني تطلب منه إرسالَ رجاله لإنقاذ صاحبه وتهريبه من محبسه، فزعم أنّه لا يستطيع، وإنّما أراد التّضحية بصاحبه لأنّه إن عمَد إلى تهريبه تلبّست التّهمةُ الهاربَ وأفلت الأستاذُ حسين. ولقد تهيّب مجلسُنا الحكمَ بِالقتل، لكنّ السيّدَ الأساسَ أصرّ عليه ذلك وضُرِبت رقبتا الرّجُليْن، حتّى إذا استيقنت المرأة من هلاك زوجها أسرعت إلى السيّد الأساس تُحدّثه بكلّ ما تعرف عن زيد بن حسني وقرامطته المتخفّين، فقَبض عليهم القائد كيابا جعفر، واستنطقهم تحت السّياط والأسياخ المحمَّرة، فعلم أنّ ابنَ السيّد قُتل بمؤامرة لا علم له بها، وأسوأ ما فيها أنّ أباه قد أمر بقتْله، فقال السيّد متوعِّدًا قرامطةَ الغدر توعُّدَ الموجوع من خيانة الأقربين:

«كسرَ الكذّابون جناحيّ وخدعوني حين أمِنتُ لهم،

ما أهلَك رجُلٌ نسْله مثلي،

ويْلٌ لي مِن أبناء عمومتنا، والويْلُ لهم.»

وكان السيّد إذا تحدّث عن زيد بن حسني سمّاه وزغ الحيطان، وهو الذي قال عنه:

«وزَغُ الحيطان تسلّل بين شقوق القلعة

دخل على النّاس منازلَهم

ثَلَم الفاسِقُ فينا ثلْمًا، ضلّل عُبّادًا، ضيَّعهم.»

قال أبو الفتح السّرميني: قلتُ للسيّد دهدار بوعليّ وقد فتنني بحديثه: والله يا كبيرَ الدّعاة إنّك لخزنة أسرار ووعاء أخبار، وقد كنتُ أيّامَ حَصْر السيّد في ألموت داعيًا في الشّام، فما سمعتُ من الأخبار غير نتف، فأخبِرْني كيف استطاع بستّين رجلًا، قُوت أحدهم ثلاث تمرات في اليوم وجُرعة لبن، أن يهزم جيش السّلاجقة الكبير يقوده المسعور أرسلان تاش؟ فإنّ من أخبار سيّدنا لَمَا يَشيبُ منه الوِلْدان...، فتنهّد دهدار وقال: كانت والله أيّام جَهد وبلاء والسّلاجقة يَحصروننا والمنجنيقاتُ تقذفنا بالحجارة والكبريت، حتّى خرج علينا السيّد الأساسُ ونحن في درَك العَناء مستبشرًا تُضيء الشّمس من وجهه وقال: «أيّها المهتدون بَخ بَخ، لقد زارني الإمامُ المستنصر في مَنامي الصّادق فأبلغكم سلامَه وقال لكم: لا تَهنوا ولا تحزنوا فأنتم الأعلون بصدقكم، وقريبًا تُنصَروا وتَقَرّ أعينُكم». فما أنهى السيّدُ كلامَه إلّا وقد غمرتنا حميّةُ مَن رأى الله جَهرةً وبلغ النّصرَ عيانًا، فقُمنا يُهنّئ بعضُنا بعضًا، ونهضنا إلى عَدُوّنا نراه الهباءَ والعِهْنَ المنفوش. وكان السيّدُ في ليلة المنام تلك قد أُلهِم ما يَفعل بعد أَن مرّت علينا ثلاثةُ أشهُر في درَك الحصار، فأمر قائدَه كيابا جعفر بالاجتهاد في إخراج امرأة من القلعة لِحمْل رسالة. فقال له كيابا: «نعم سيّدي،

لديّ خطّة لمثل هذه الحال». ودعا فدائيّة سجدت بين يدي السيّد وبكت، فأقامها ممتدحًا إيمانها، ثمّ وضع يده على رأسها وقرأ أورادًا، وقال لها: «ملائكة الله تأخذ بيدك حتّى تُبلغك قلعة كركدوه، فادخلي على صاحِبها الرّئيس المظفّر، وأخبريه أنّ حسنا الصبّاح حجّة إمامه يقول له: إنّ كيابا جعفر سيّد الفرسان قد أتى الفاجرة السّلجوقيّة تسعين يومًا وليلة مِن قُبُل فما بلغ منها ما يبلغ الرّجُل من كسْر المرأة وحمْلها على الانصياع، فلوْ أتيتَها يا مظفّر من دُبُر ليلة واحدة لكسَرتَها وأرحتَ كيابا». فلمّا بلغت المبعوثةُ مَقصدها، وسمِع منها الرّئيس المظفّر ذلك بكى وقال: «ويْلي، لقد شغلتني شؤونُ قلعتي وتخلّفتُ عن نصرتك يا سيّدي، وها إنّك بعثتَ في تذكيري وحثّي، ووالله ما نسيت ولا جبُنتُ، فلآتينّهم كما أمرتَني من دُبر آناءَ ليلٍ بهيم، ولأبعثرنّ جمْعَهم حتّى لا يَسأل والدٌ منهم عن ولده». فلمّا كانَ يومٌ كتبه الله في علم الغيب عنده وما عَلمه السّلاجقة، ندب المظفّر جيشه للخروج فكانوا ثلاثمائة رجل، ساروا متخفّين، ثمّ كمنوا بِليلٍ قريبًا من جيش أرسلان، وأرسلوا الطّلائع والعيون، ففاجؤوهم في غيبوبة الظّلام وأمعنوا فيهم حتّى قتّل السّلاجقةُ بعضُهم بعضًا، وداس بعضُهم رقابَ بعض، وذُبّحوا كراديسَ وأكداسًا، وفرّ مَن بقي منهم على قيد الحياة، ولا هَمّ لأحدٍ غير فروة رأسه، والباطنيّةُ مِن ورائهم تحُزّ الرّقاب وتأخذ المتاع.

٧*مولاي علي مدد*٧

(11)

كانت حاشيةً شيّقةً زاخرةً بأحداثٍ متلاطمةٍ، لكنّي لم أستطع مواصلة القراءة. حاولتُ إلزام نفسي بذلك نزولًا عند مقتضيات البحث الأكاديميّ، إذ لا بدّ للدّارس من الاطّلاع على النّصوص قبل وضع تفاسير أو إصدار أحكامٍ نقديّةٍ، ولكنّي رغم وجاهة هذا الرّأي رميتُ الرّقائق وقمتُ مضطربًا قد تملّكني شعورٌ بأنّي لا أعرف نفسي وأنّي لستُ سيّدها ولا سيّد مصيري. ما عادت تعنيني الأحداثُ والقصص القديمة التي يرويها صاحبُ الحاشية، وما عادت تعنيني مآلاتُها ولا خواتيمها، فالطّوفان قد داهم بيتي، وصار مآلي سيّئًا وقد تكون خاتمتي الذّبح على قارعة الطّريق. نعم، ما ظلّ يعنيني من قراءة المزامير غيرُ التقاط الرّسائل المشفّرة التي يرسلها الصبّاح، والاحتياط من تهديداتٍ مُخيفةٍ ما فتِئ يُطاردُني بها مُوجِّهًا سبّابة الإدانة نحوي... «لن أكون مضطرًّا إلى قراءة حاشيةٍ حتّى أفهم مقاصدك يا صبّاح. ما عادت بي حاجةٌ إلى تُرجُمان بيني وبينك، فقد عرفتُك وعرفتَني، عركتُك وعركتَني، وصرنا عدُوّيْن لدوديْن على مسافة ألف عامٍ بِحساب الزّمان وآلاف الكيلومترات بحساب المكان! فرغم كلّ تلك الأبعاد قفزتَ من مرقدك لتأخذ

بخناقي، وأجّرتَ بالوعود أيادي آثمة لتبطش بي، وها إنّي وإيّاك برأسيْن حاسِريْن ووجهيْن مكشوفيْن بعد أن انسدّت أمامي سبُلُ الفرار، فاستدرتُ نحوك مكشّرًا كقِطٍّ حُصِر في زاويةٍ. إنّي أراك يا صبّاحُ وأسمعك، وأعرف أنّك تراني وتسمعني وتُلازمني مثل قرين من الجنّ تُحصي عليّ أنفاسي وحركاتي وسكناتي! سمعتُك تنعتُني بالعلج الأمرد وتُحرّض أتباعك على قتلي. لا ينقصنا في هذا الزّمان الإرهابيّون القساةُ، فمِن أين خرجتَ علينا تصبّ ماءً عكِرًا على أوحالنا الزّلِقة وزيتًا ساخِنًا على نارنا الملتهِبة؟ لا ينقصنا الإرهابيّون القساةُ فلا تبتئسْ يا صبّاح. إنّا نسمعهم كلّ يوم يُحرّضون على القتل مثلك، يقولون: اقتُلوا ذلك العلجَ أو فجّروا ذلك البناء ولكم عشرة آلاف دولار. أمّا أنت فأكثر منهم كرمًا، وعدتَ قاتلي بصكّ الغفران ونعيم الجنان... لستُ علجًا وما جئتُ من بلدٍ غريبٍ. هذه أرضي وأرض جدودي، فلِماذا يا ابنَ الريّ البعيد، يا ابنَ قزوين الموحِشة، يا ابنَ جبال الدّيلم الغَبراء قذفتَ بِجثّتك إلى أرض جدّي ذاتَ هزيع أخيرٍ من ليلٍ حين كان نائمًا، فزعمتَ أنّك مالكها، وجئتَ اليومَ تُورّث نسلك سُحتًا؟ ومَن هؤلاء الأفّاكون الدّمويّون الذين تُحرّضهم عليّ؟ تَلكُزهم بِوعيدٍ وتلوّح لهم بِسرابٍ حتّى تدفعهم إلى الهجرة، ولَشَدّ ما أثار دهشتي خوفُك من قيامة حبيب بن أوس ومريم المكتومة لأنّ قيامتهما تطمس قيامتكم وتُفسد مخطّطاتك...».

رغم بلاغة الصبّاح الطّافِحة بالعسل والحنظل فلا أعتقد أنّه قد آمن حقًّا برجعة القتيليْن جسدًا، إذ تشاءم من قتْلهما جهرةً

بضرب عنقيهما فاحتال لِتضليل الأقدار وإيهامها أنّه ما قتل، وعمَد إلى إهلاكهما بِطريقة لم يُسبَقْ إليها، تحت طقوس فظيعة من السّحر الأسود، والأرجح عندي أنّ مصدرَ خوف الصبّاح هو بَعْثهما الروحيّ، فهو يَخشى عودة فكرٍ حرّ متسامح يجمع ولا يُفرّق.

حذّر الصبّاحُ أتباعه منّي تحذيرًا شديدًا في مزموره الأخير، وأمرهم بالمبادرة إلى قتلي لأنّي علمتُ سرّ الميقات حسب زعمه. الميقات؟ القتيلان حبيب ومريم مازالا في نظر الصبّاح في العدوة الوسطى بين الحياة والموت، وهي حال يُسمّيها البرزخ. البرزخ إذن حال موقوتة، لا يزيد مَداها الأقصى عن عمر نوح وهو ألفٌ إلّا خمسين عامًا، وعند بلوغ هذا المدى ينتهي الميقاتُ في يومٍ مضبوطٍ وفي ساعةٍ مضبوطةٍ، فإن بلغ الماءُ جثّتي حبيب ومريم قبل نهاية الميقات انبعثا وعاد إليهما عنفوانُ الرّوح ووهجُ الفكر، وإن فاتَهما الميقات ومرّ يوم الفصل الحاسم ولم يبلغْهما ماء انتهت عُدوةُ البرزخ وماتا موْتهما النّهائيّ فغلبت على الشّرق روحُ الصبّاح وفكرُه أبدَ الآبِدين، وذاك معنى قيامته التي بشّرهم بها...، هذا ما أثبته الصبّاح في مزمور يوم الفصل والميقات، وظلّ يؤكّده لأتباعه، مُشدِّدا عليهم بِالتزام اليقظة حتّى لا يحصل المكروه في الأيّام الأخيرة، إذ سيظهر عِلْجٌ أمرد فيعرف السرّ ويُحاول إنفاذ الماء إلى المغدوريْن في برزخهما.

الأيّام الأخيرة؟ برقت بِذهني فكرة وضّاءة، فعدتُ إلى المزمور السّابع العجيب أبحث عمّا يدعمها أو يدحضها، وشرعتُ في تفحُّصه كلِمةً كلِمة، واستشعار الخطورة الكامنة في كلّ لفظٍ أو

جملة. وَجَدْتُ في المزمور إشارات إلى أنّ الميقات الّذي يعنيه الصبّاح قد يكون أيّامنا هذه! الميقات عنده أيّامُ هرج ومرج وقتلٍ بإفريقيّة، وما مِن هرجٍ قد حدث يومًا في بلدي أكثر ممّا يحدث أيّامَ هذه الثّورة التي لا يَعرف أحدٌ خاتمتها والرّصاصُ يحصد الرّؤوسَ الحاسِرة.

كان عليّ إجراء حساب دقيق لمعرفة الميقات، لكنّ الصبّاح لم يُسعفْني بذكر تاريخ مضبوط يمكنني اعتمادُه لإجراء الحساب، فهل فعل ذلك قَصدًا للتّضليل؟ لقد تمّ تحنيط المغدوريْن حسب ما ورد في المزمور السّابع «قبْل تمام المائة الخامسة»، ولكن قبل تمامها بيوْمٍ أم بعشْرِ سنوات؟ إي نعم، حدث ذلك في شهر شعبان وهو الشّهرُ الثّامِنُ من السّنة، ولكن ما الفائدةُ من معرفة الشّهر ما دمتُ لا أعرف السنة؟ حين ظننتُ أنّي أوشك على هتك سرّ الصبّاح راوغني ببراعةٍ، وأطلق ضحكةً ساخِرة! حسنًا، هنالك دلائلُ أخرى لمعرفة سرّ الميقات. فالمطر لم يكفّ عن الهَطْلِ منذ أسبوع، ومصلحة الأرصاد الجويّة ما فتئت تُحذّرنا من فيضانات عارمة، وذلك مِصداق قول الصبّاح في التّرنيمة الأخيرة إذ يتحدّث عن أيّام الميقات: «المطر الوافِرُ يتساقط زخّات زخّات!» وهو يصف قوّة الهطل في هذه الأيّام: «... والأمطارُ دِلاءٌ مسكوبه». أمّا قبرُه الذي أزالَ رجالُ الشّرطة الجنائيّة سقفَه وتركوه مفتوحا تحت الأمطار الهاطِلة، فإنّ الصبّاحَ يراه رأيَ الغيب على تلك الحال أيّامَ الميقات: «قبري المنْهوب ستملؤه بالنّحس مياهٌ مُزجاة»!

ظللتُ أراجع المزمورَ السّابع مذهولًا، فسواء كان الصبّاحُ نبِيًّا

أم مجنونًا، عبقرِيًّا أم مخطوفًا، يَهديه إيمانُه أم يُوجّهه شيطانُه... فإنّه في كلّ حال لم يكن رجُلًا عادِيًّا، ولم يُخلَق من طين من حمإٍ مسنون! لقد انبهر الدّارسون طويلًا بأعمال فِدائيّيه وشدّة إخلاصهم وطاعتهم، حتّى إذا عجزوا عن تفسير ذلك اعتبروهم مرتزقة مأجورين أو مخدوعين غيّبهم الحشيشُ عن وعيهم، فأضاعوا بذلك فرصتهم لمعرفة السرّ العميق الكامِن في شخصيّة شيخ الجبل وقوّته الرّوحيّة الهائلة، وقدرته على السّيطرة على العقول والقلوب!

كان ممّا استنتجتُه أيضًا أنّ أتباع الصبّاح، أعني ميرزاخان وجماعة الخوجة، قد أرسلوا المزامير إلى قادتهم في كراتشي أو بومباي، أو أيِّ مكان آخر لا أَعلَمُه، ففسّروا وتأوّلوا، ووجّهوا إليهم الأوامر بقَتلي فورًا، ولِذلك جنّ جنونهم في الأيّام الأخيرة، فدخلوا على جاري عمّار منزله وسعوا إلى حَمْله على الاعتراف بمخبئي وضربوه بوحشيّة، ولم يُوقّروا شيْبَتَه حتّى أُغمِي عليه وظنّوا أنّه مات، ثمّ اقتحموا الجامِعةَ وجَدّوا في طلبي فاشتبَه بأمرهم طلّابي وبعضُ الأساتذة من زملائي، وحاصروهم وتكاتفوا للقبض عليهم، ولَوْلَا إطلاقُهم النّارَ فوق الرّؤوس لما خرجوا سالمين. وبلغ التّصميمُ على قتلي بِميرزاخان أن بعث إليّ رسالة مُروِّعة قَطَع عُروقَ زنده ليُهرق عليها من دمه الحارّ! إنّهم يبحثون عنّي كالمجانين في كلّ مكان، يقتلهم الخوف من أن أُفسد حلمَ جدّهم في القيامة بعد أن داستهم الجيوش منذ قرونٍ، فعرفوا السّبيَ والهوان والتقيّة آملين في قيامتهم الموعودة.

صرتُ أعرف سرَّ تكالبهم في البحث عنّي، لقد عرفوا من المزمور السّابع سرّ الفصل والميقات، وقرؤوا تحذير إمامهم منّي:

... الكذّاب النّبّاش المُتعالم
إذ يعرف سرَّ المزمور السّابع قبل فوات،
يُدركُ قربَ قيامتنا، يعرف سرَّ الميقات
يُلهِمُـه الشّيطانُ السّعيَ إلى إنفاذ الماء
وإعادة نبْض حياةٍ في هُبَل ومَناة!
يخوض عُتاةٌ، هُم منّي وأنا منهم، معركةَ الفصل،
ويُدهَسُ نابِشُ قبري دهْسَ الحيّات!

مكتبة
t.me/soramnqraa

لماذا يُبدي الصبّاحُ كلّ هذا الخوف من شخصي الضّعيف، ويعتقد في قدرتي على إبطال سحره وإنفاذ الماء إلى الجسديْن المقبورين قبل يوم الفصل؟ فحتّى إن كنتُ واثِقًا من أنّ هذه الأيّام هي الميقاتُ الموعود، فإنّي لا أعرف مكان دفن المغدوريْن، وبذلك أظلّ نمرًا منزوع المخالب والأنياب. قلتُ لنفسي: لقد قرأتُ المزامير بسرعةٍ تُضعف تركيزي وتُعجزني عن التقاط المعاني الخفيّة، لكنّي أذكر إشارات في المتون وفي الحواشي حول مَدفنهما، فلعلّي إن عدتُ إلى جمع تلك الإشارات وتحليلها عرفتُ اللّغزَ العَصيَّ.

عدتُ إلى المزمور السّابع أتفحّصُه مرّةً أخرى، فقد صار حمّالَ ألغازٍ لا تنتهي عجائبُه، حمّالَ ألغامٍ لا تنقضي مكائدُه، ثمّ انتقلت إلى قراءة سائر المزامير بنظَرٍ فاحِصٍ وفكرٍ ثاقبٍ، فبدَا لي منها ما لم أُدرِكْه مِن قبلُ: إنّها مثل جاسوسٍ خطرٍ كلّما ضغط عليه المحقّقون

جاد باعترافاتٍ جديدة، وكان عليّ أن أعود إلى جَلْد جاسوسي مرّات كثيرة لأعرف كلّ خباياه! وبعد ساعة مِن الجلد، أدلت المزامير باعترافٍ أوّل صريح حول مدفن المغدورَيْن: «قبري يُشيَّد قال شالوم على قبريْهما، وهنا على وهن، وتلك منّي القاضيه...»، ما أوضح هذا الاعتراف لو أنّني فهمتُه فهمًا مُباشِرًا بالمعنى الفيزيائيّ، ولم أجنح إلى التّرميز الذي قادني بعيدًا. إنّه توصيفٌ ماديّ مُباشر: لقد دفن الصبّاحُ غريمَيْه عميقًا، وترك فوق قَبْرَيْهما عُمقًا تُرابيًّا يُشيَّد فيه قبرُه لاحِقًا، وعلى صحّة هذا الافتراض دلائل متواتِرة أوّلُها قوْلُه: «قبري مفتوحٌ مِن فوقهما والأمطارُ دِلاءٌ مسكوبه»، ذلك أنّ المحقّقين الجنائيّين الذين جاؤوا لِمعاينة قبر الصبّاح أزالوا سقفَه، وتركوه مفتوحًا، فكأنّ صاحب المزامير يَصِفُه وهو يَراه عبر الزّمن وكلّه خشيةٌ من أن يمتلئ في هذه الأيّام التي يَنعتُها بالخَطِرات بِماء الأمطار المستمرّة في الهَطْل، فيتسرّب البللُ إلى الجثّتين المحنَّطتين في القبر الآخر أسفله.

لبثت أتمعّن المزاميرَ، ألتقط الإشارات وأجمع الاعترافات: في مزمور الوصيّة يُحدّد شيخ الجبل لِنائبه ووصيّه بزرك أوميد مقاييس القبر المرجُوّ لِدَفن حبيب ومريم: «احفرْ يا بزرك حتّى تغبرّ اللّحيةُ ... سبعةَ أمتار بِتمام!»، فلماذا يكون قبرٌ بِعمْق سبعة أمتار لولا أنّ الصبّاحَ كان ينوي ترْكَ حيِّز لِقبر آخر فوقه؟ ثمّ إنّه يُفسّر بعد ذلك البُعد الرّمزي والمدلولَ السّحريّ لهذا العمل، وهو أنّه يُؤدّي إلى خَنق أفكارهما تحت أفكاره! وها إنّ الشّرق بعد أمجاده، يرزح منذ عشرة قرونٍ تحت فكر صاحب الجبل الحاقد المتحجّر. أنهيتُ جمْعَ

اعترافات يعضُد بعضُها بعضًا، وقد عدَدتها كافِيةً، ففاجأني المزمور السّابعُ العجيب وأنا أكاد أحفظه عن ظهر قلب باعتراف آخر أكثر وضوحًا وانكشافًا:

«سأكون فوقك أن تنالك قطرةٌ،

وسأحرف النبّاشَ عنك بالنّقود القاتِلة!».

ظللتُ أتلو التّرنيمة وأستعيد الذّكرى مِن قاع الألم والمحنة: عاد حطّاب وصاحِبُه عامِلا البناء إلى القبر لِنبْشه بعد أن أغلظا لي قولًا واتّهماني بالاستيلاء على كنز ذهبيّ. أرادا البحثَ عن دليلٍ كافٍ لإدانتي من أجل حَصْري في الزّاوية وابتزازي، فوجدا في القبر نقيشةً لم أكن قد انتبهتُ إليها تدُلّ على مكانِ مكنوزٍ ثمينٍ يبعد سبعة أمتار عن القبر، واستطاع المؤوِّلون تفسير الرّمز، فأسرعَ البنّاءان المنكودان إلى استقدام صاحِبيْن يستعينان بهما ذات ليلة من ليالي الشّيطان، واستطاعوا بُلوغ الأرَب واستخراج الكنز، لكنّهم ما كادوا يحصلون عليه حتّى اختلفوا حول القسمة واندلعت بينهم معركة قاصمة. وبدا أنّ حطّابًا قد أبطن الغدر إذ أخفى تحت ملابسه خنجر الصبّاح الذي كان قد أخذه منّي لِيبيعه، فاستخرجه ليبطش بِغريمه لكنّ كيده ارتدّ إلى نحره وبَعج الخنجرُ بطنه وشَقّ صدره، وبُتِرت يد صديقه الذي صار بعد ظهور الكنز الملعون عدوًّا لدودًا.

ها إنّ مزامير المعجِزات قد تكلّمت عن أسرار تلك اللّيلة الرّهيبة قبل حدوثها بمئات السّنين، لقد عمد الصبّاح إلى وضع

الكنز قريبًا من قبره والإشارة إليه بِنقيشة ليحرف النبّاشين عن القبر الأسفل، إذ المألوف من بعضِ أصحاب المدافِن القديمة أنّهم يجعلون مكنوزات الميت عميقًا تحت قبره، أمّا الصبّاح فلم يرد أن يُواصل النبّاشون الحفرَ تحت قبره، فجعل لهم كنزًا يبعد عن القبر سبعة أمتار ودلّ عليه بِنقيشة سهلة التّأويل حتّى يَحرفهم عن قبر المغدورِيْن، لكنّ كنزه لم يكن ثوابًا ولا جائزةً لأحد، فقد أودع فيه اللّعنة فجعله قاتِلًا مشؤومًا، وذلك قولُه لِحبيب: وسأحرف النبّاش عنك بالنّقود القاتِلة!

إنّ المزامير تحمل ولا شكّ إشارات إلى أتباع الصبّاح تغمز إلى مكان دَفْن غريمَيْه، وهو يقول لهم: الْزموا أشدّ الحذر وكونوا يقِظين. إنّ قبرَ المُحنَّطَيْن مُخفًى تحت قبري، وفي أيّام الميقات الخطِرات النّحِسات سيَهطلُ المطر غزيرًا ويكون قبري مفتوحًا، فاحذروا أن يبلغ الماءُ الجثّتين فيقوم فيكم حبيب ومريم يطمسان قيامتَنا وينسفان عقيدتنا... والخطر الأكبر يأتيكم من علج أمرد نبّاش متعالِم يسكنه الشّيطان، سوف يطّلع على المزامير ويعرف أسرارنا، وسوف يسعى إلى إنفاذ الماء إلى الصّنميْن لينفخ فيهما الرّوحَ ويُبطِل سحْري وتدبيري، فاستَبِقوا فعلتَه واقْتلوه!

كانت تلك الأيّامُ ببلدي أيّام هرج ومرج كما أسماها الصبّاحُ، فقد ثار النّاسُ على ذوي المال وذوي السّلطان، وانطلقوا في الشّوارع سُيولًا لا تُردُّ، يأخذون ما أَمكَنهم ويُدمّرون ما استعصى أخذه، وينتقمون لأنفسهم بعد كلّ ما عانوا من الخصاصة والتّبخيس.

صارت الشّوارعُ في بلدي ساحات كرّ وفرّ بين المتظاهِرين وقوّات حفظ النّظام، واعتلى القنّاصةُ السّطوحَ يتصيّدون النُّشطاءَ ويُطلقون النّار، فواجههم المتظاهرون بِما طالت أيديهم من الحجارة والعصيّ، وراحوا يُضرمون النّيرانَ في المباني الحكوميّة. وسقط قتلى كثُرٌ بين الفريقيْن، ونزَفت دماؤُهم على إسفلت الطّريق، ثمّ لفظوا أنفاسهم الأخيرة على أسِرّة المستشفيات البارِدة...

كان عليّ في تلك الأجواء المخيفة أن أترك دِفءَ مخبئي وأتسلّل بين الرّصاص والبارود لأداء رسالتي! فقد غلب على ظنّي أنّ الزّمانَ قد بلغ الميقاتَ الموعود، وأنّني الرّجُلُ المرصود لتلك المهمّة القدَريّة. كم مرّ من الزّمان في انتظار هذا الموعد الحاسم؟ كلّ ذلك التّاريخ كان يَرصدني، أنا العبد الّذي لا يملك من أمره شيئًا، لِفعْلٍ عظيم يُحدّد مسار الشّرق ومصيرَه، وعليّ أن أنهض بِما رُصِدتُ من أجله أو أموت دونه، مع أنّ لزوم مخبَئي لا يعصمني من القتل، وميرزاخان مع عصابته من مُخنجِرة آخر الزّمان يتشمّمون ريحي ويتقفّون أثر ظلّي، وقد يقتحمون عليّ مضجعي في أيّ لحظة، فليس المنزل النّائي أكثر حرمةً عندهم من الكليّة، وقد اقتحموها بِمسدّساتهم كرُعاة البقر وأطلقوا النّارَ بين أروقتها. قرّرتُ أن أعودَ إلى منزلي في تلك اللّيلة بِأيّ طريقةٍ، وألجَ قبرَ الصبّاح بِمعولي فأحفر جوفه نزولًا حتّى أنقب القبرَ السّفليّ ويغمره ماء المطر دافِقًا بالبعث والحياة! قرّرتُ أن أفعل ذلك في تلك اللّيلة، فالدّلائل تُشير إلى أنّنا قد بلغنا أيّام الميقات، وصار الإرجاءُ مُنذِرًا بالخيبة، لكنّ الطّريق إلى منزلي قد صار شائكًا ملغومًا، وعليّ أن أقطعه بين مزالق وكمائن خطِرة.

أَبيْتُ أن آخذ سيّارة سفيان في تلك الرّحلة التي قد تكون بلا عودة، فقصدتُ المستودع القديمَ بمنزل خالي، وأخرجتُ سيّارتي من مخبئها بين أكوام القشّ والتّبن، وأرسيْتُها في الممرّ المؤدّي إلى باب السّور! غسلتُها بعناية وتفقّدتُ ماء تبريدها وزيت محرّكها. رأيتُها فرسَ سباقٍ تتهيّأ للعودة إلى المضمار بعد عَطالة قسريّة، فكأنّي بها تصهل تصهل، وتضرب بسنابكها الأرضَ. مرّرتُ كفّي على سقفها حانِيًا وقلتُ لها: يا فرسي الغرّاء يا عزّي وفخري، هذا اليوم يومك. نصرُكِ هو نصري وخذلانك خذلاني. اليوم أغزو بك أعالي أَلُموت، وأحطّم عقائدَ كركدوه ولمسر وشاه دز. سنقطع يا فرسي طريقًا موحشة بين قنّاصةِ حاكمٍ يَزجُر شعبَه، وفُتوّات شعبٍ يتمرّد على حاكِمه، وقنّاصة ميرزاخان الحشّاش يحرسون قبورَ الخرافة والسّحر الأسود...، سنقطع طرقًا وعرةً فشُقّي بنا الظّلمات فإنّي مُرخٍ عنانك:

شـققتُ به الظّلماءَ أُدني عنانَه فيَطغَى، وأرخيه مرارًا فيلعبُ
وأصرع أيَّ الوحش قفّيْتُه به وأنزلُ عنـه مثلَه حين أركبُ!

رآني سفيانُ أجهّز فرسَ الوغى وأدندن في أذنيها بِشعْر، فأسرع إليّ مُستفسِرًا ومِن ورائه خالي جزِعًا. سألني:

- ماذا تفعل؟ هل تنوي الخروجَ في هذه الظّروف العصيبة؟

قلتُ له:

- أجل يا سفيان. تعِبتُ من الإناخة والمقام، وسأخرج لِمُواجهتهم.

ردّ غاضبًا بما لم يُكلّمني به ولا اجترأ به عليّ من قبل:

- أيّ جنون أصابك؟ تُواجه عصابة القتلة؟ هكذا وحيدًا بيديْن عزلاويْن؟

وعندئذ تدخّل خالي فقال بأعصابٍ هادئةٍ، وعلى شفتيه بسمة رضى:

- نعم. إن كنتَ ابنَ أبيك فاخرج إليهم وواجِهْ. والله ما أعجبني فرارك ولا اختباؤك، ولكنّي خشيتُ أن تقولَ جبُن خالي وخاف عاقِبة اختبائي عنده!

راقت لي صراحتُه فذاك هو خالي الّذي أعرف: قشرة لطيفة تُغطّي طبْعًا حادًّا مُدبّبًا.

قلتُ له بارتياح:

- سأكون كما تريد. عرفتُ أخيرًا مَقتلَهم وسأضرب عند المَقْتَل.

ازداد سفيان توتّرًا وهو يرى انحياز أبيه إلى رأيي. لم يشأ مناقشته، لكنّه وجد متنفَّسًا في الصّراخ بي، فجذب كتفي وجعل وجهي يناظر وجهه وقال:

- قل لي ماذا تريد أن تفعل؟ لن أدعك تخرج حتّى أفهم كلّ شيء، فما فعلنا ما فعلنا حتّى ترمي نفسك أخيرًا بِلا ثمن.

ثمّ خطف مفاتيح السيّارة من يدي، وبدا مُصمِّمًا على منعي لكنّ خالي تجاهله وقال مُفاخِرًا:

- لقد بلغتُ من العمر ما تعلم، ووالله ما فررتُ مِن أحدٍ قطّ وإن كان كلبًا عقورًا!

- أعِد إليّ مفاتيح السيّارة، هاتها من فضلك.

خطَر لي في تلك اللّحظات وأنا ألمسُ منه حبًّا صادقًا أن أصارحه بما استقرّ عليه عزمي، فما كان لي سفيان مذ عرف قضيّتي إلّا عونًا وسندًا. أخذتُ بيده جانبًا وأخبرته بعجالةٍ خبرَ حبيب بن أوس ومريم المكتومة، وحدّثتُه عن شالوم بن عاموس، وعن دفن المغدورَيْن بعمق سبعة أمتارٍ تحت قبر الصبّاح. أخبرته عن حلول الفصل والميقات، وضرورةِ صبّ الماء على الجثّتَيْن قبل فوات الأوان لوأد قيامة الحشّاشين وفكّ السحر الأسود الّذي يكبّل الشرق منذ ألف عام.

سمعني من دون حماس وقد عذرتُه، فليس مَنْ سمع كمن رأى، وظلّ يعتقد أنّ كلّ تلك المسائل لا تستحقّ منّي المغامرة بحياتي، وقال لي:

- لكنّ منزلك قد بيع، وتمّ تغيير أقفاله. لعلّك نسيت حفيظة بنت الحاج سالم النوّي.

- ما نسيت ذلك وسأناضل لاسترجاع منزلي حتّى آخر رمق من حياتي، لكنّ ذلك سيكون في الوقت المُناسب. أمّا اللّيلةَ فَيكفيني أن أتخطّى سياجَهُ لأبلغ حديقتَه فما بي حاجةٌ إلى دخول الغرف.

- إن كنتَ مُصِرًّا فانتظِرْني حتّى أعود. سأخرج لِتشمُّمِ أخبار

العصابة وتقييم الأخطار. سأقصد مدينتكم وألتقي عمّارا وعبد العزيز، ثمّ أعود من دون إبطاءٍ.

لم ينتظر جوابي. قام إلى سيّارته يتفقّدها ويُجهّزها للرّحلة، ثمّ دخل غرفته فغيّر ملابسه على عجَل، وحيّاني وهو يخرج مُطمئِنًّا لِموافقتي على مقترَحٍ لم يستشِرني فيه، لكنّي زدتُه اطمئنانًا بِهَزّ رأسي وأنا أشيّعه بِعينين حائرتين، وما كان لي غير الموافقة على رأيه، فقد كان نابِعًا من حبّه لي وخوفه عليّ، ولمّا انطلق خارِجًا سمِعتُ أحدَ أصدقائه يدعوه عند الباب. حتّى إذا سلّما وتكلّما، وعرف أنّه خارجٌ لِتوّه إلى وجهةٍ بعيدة قال له:

- أظنّ أنّك ستمرّ بِمركز المدينة.

- نعم، طبعًا. سأمرّ من هناك.

- خذني معك إذن فأبلِغْني مَقصدي ثمّ واصِلْ طريقك. لي شأن هناك أودّ قضاءه.

رحّب سفيان بالرّفقة القصيرة وقال له:

- اركبْ من فضلك، اركب. سأنطلق فورًا.

بلغت السّاعةُ الثّانيةَ بعد الزّوال، وكنتُ أنوي الخروج آنئذ مُتخفّيًا لزيارة صديقي عبد العزيز في منزله وقضاء الأمسية معه قبل أن أنطلق ليلًا لتنفيذ ما عزمتُ عليه، فأقصد منزلَ جاري عمّار مُستبِقًا أوانَ حظر التجوّل، وأكمن هناك حتّى يسري أوانُ الحظر ويشبع النّاسُ خوفًا، وعندما يكون الهزيعُ الأخيرُ من اللّيل أتسلّق

السّورَ الفاصِل بين منزل عمّار ومنزلي، فأقذف بِجثّتي إلى الجهة الأخرى آمِلًا ألّا يفطن لِحركتي أحدُ القنّاصة من فوق السّطوح فيُرديني قتيلًا، ولا شيء أدعى إلى القتل في ليلة الطّوارئ مِن تسلّق شخصٍ مشبوه سياجًا بِعُلوّ ثلاثة أمتار للقفز من منزل إلى آخر.. ذاك ما كنتُ قد عزمتُ عليه حتّى جاء سفيانُ يُربك خُطّتي ويُلقي على كتفيّ أثقالًا من المخاوف والمَحاذير، ووجدتُني إظهارًا لامتناني له أوافق على لزوم البيت حتّى عودته من رحلة تشمُّم الأخبار واستكشاف المخاطر. إي نعم في رأيه وجاهةٌ لا تَخفى، لكنّ في رأيي وجاهةً أوْكَد وواجبًا أعلمتُه به.

كنتُ أنوي المرور إلى منزل صديقي عبد العزيز عشيّةً للاستعانة به في تفسير الرّسوم المشفَّرة المُرفَقة بالمزامير، وقد تبيّن مِن تأويلنا الرّسمَيْن الأوّليْن أنّهما ينطويان على تعليمات سريّة تركها الصبّاح ببصيرة ثاقِبة لِعصابته من الخوجة الفداويّة. أذكُر تمامًا ولا أنسى ما حييت أمرًا مُذهِلًا جرى أمام عينيّ، فحين اختطفتني عصابة الخوجة وصفتُ لهم رسمًا لم يَروْه، كنتُ قد اطّلعتُ عليه وأحرقَته جماعة البُهرة، ففهموا معانيه فورًا، وإذا هو حَمّال أوامر وأسرار، وعرفوا، وأنا مستغرِب مذهول، أنّ واحدًا منهم، ما كانوا يشُكّون فيه، قد خدعهم، وأنّه جاسوس مندسّ بينهم، فما إن فتّشوه حتّى وجدوا دليل إدانته بِلا ريب وقتلوه أمام ناظِريّ! أربكني التفكير في ذلك وقلتُ في نفسي: «لو كان عبد العزيز بِجانبي في هذه الأيّام الصّعبة، وهو مُؤوِّلٌ بارع، لأمكنني إدراكُ أوامر الصبّاح السريّة

والاحتياط ممّا يُدبّر لي ميرزاخان وجماعتُه وما ينوون اقترافه ببلدي، أمّا الآن فقد فات أوانٌ كثيرٌ وأهدرتُ فُرصَ التّوقّي والهجوم كِلَيْهِما، وقد بلغَت الأحداثُ المقدَّرة نهايتها، فإن كان من بين الرسوم ما يُستفاد منه بعدُ، فهو السّابع الأخير الّذي لا بدّ أنّه يُوجّه أتباعَ الصبّاح إلى ما يجب عليهم فعلُه عند حلول الميقات، وربّما ما يزال ممكنًا الاستفادة من الرّسم السّادس أيضًا، أمّا ما سبقهما فقد عفَت عليه الأحداثُ المتسارِعة.»

صار من المستحيل أن ألتقي عبد العزيز في المهلة القليلة الباقية لأستَقرِئه الرّسميْن، إذ وعدتُ سفيان بلزوم المنزل حتّى يعود، وكان من الصّعب، في تقديري، أن يرجع قبل الغروب، فيكون قد حان وقت خروجي مسابقًا الزمن، وعَليّ أن أقود السيّارة زهاء ساعة حتّى أبلُغ مدينة سكَني، وأن أسبق ميعاد حظر التجوّل اللّيليّ، وألّا أُغفِل من حسابي ما قد يعترضني في الطّريق من تعطيلات بسبب انتشار دوريّات الجيش والشّرطة للمراقبة والتّفتيش. أخرجتُ الرّقاقات فبحثتُ عن الرّسميْن السّابع ثمّ السّادس. ووضعتُهما في جيبي وأردتُ الخلوة بين الأشجار في الحقل الواسع للنّظر فيهما بإمعانٍ وتدبُّرٍ، لكنّي لم أستطع التقدّم في الحقل خطوةً واحدةً، فقد حوّلته الأمطار إلى برك ومستنقعات، وما كان في وسعي التقدّمُ من دون أن تغوص ساقاي في الوحل حتّى لو تحرّفتُ بين البِرك، فرجعت لألوذ بالشرفة. أردتُ إعادة النّظر في الرّسميْن بإمعانٍ وتدبُّرٍ، مُستحضِرًا ما جدّ من الأحداث في الأيّام الأخيرة، مُسلَّحًا

بالأدوات المعرفيّة الّتي استخدمها أستاذي عبد العزيز، لعلّي أهتدي إلى شيءٍ من التّأويل يُساعدني في ما سأقدم عليه في السّاعات التّالية من عملٍ خطيرٍ قد يُلقي بي إلى الهلَكة.

ما كدتُ أستقرُّ بالشّرفة حتّى رنّ الهاتف بِجيبي واهتزّ، وكنتُ قد نسيت أمره، فارتعشتُ بارتعاشته كأنّما لكز الصبّاحُ جنبي. كان المتّصل هو سفيان وما مضى على خروجه غير ربع ساعة. فتحتُ خطّ المكالمة فتدفّق إلى أذني سيل من أوامر متلاطمة:

- أُخرُج من المنزل حالًّا قبل أن يُدركوك. اخرُجْ حالًّا. إنّهم يُطارِدونني الآن... أريد أن أهرب أبعد ما أستطيع، ما أستطيع... لأُبعدهم في أثري وأترك لك فرصةً للهروب...

قطعتُ كلامَه الممزَّق:

- احذر السّرعة يا سفيان، والمطرَ النّازِل وبللَ الطّريق... أيّ مكان بلغتَ الآن؟ هل ألحق لِنجدتك؟

لم يُجب عن سُؤال من أسئلتي، وظلّ يُصوّر لي أطوار الملاحقة كمشهد من فيلمٍ مُثيرٍ:

- سيّارتان اثنتان كانتا تَرصُدان منزلَنا، واحِدة للعصابة يقودها ذاك الذي... نعم ذاك، أعني الميرزا، وأخرى للشّرطة... أتسمعني؟ الأخرى للشرطة يقودها... ماذا تُسمّونه؟ أعني مَن استولى على الخمسين ألف... ومعه أعوانُه. رأوني خارِجًا. هتف الميرزا باسمك، ظنّك تركب معي... هربتُ بسرعة. هاهو يُطاردني... يُطاردونني...

لم أعد إلى مقاطعته. وما كان ليسمعني لو قاطعتُه. كنتُ أسمع صرير عجلاتٍ على الإسفلت وزعيقًا وصُراخًا. ربّما هم المارّة يرمون جثثهم على الأرصفة قُبيْل دَهمهم. يا إلهي، زعيق وصراخ كأنّما يأتيني من جوف بئر:

- هتفوا باسمك، وأمرونا بالتّوقّف فأوغلت هربًا. اشتبهوا بصاحبي وظنّوا أنّك تركب معي. أتسمعُني؟ أُخرُج من الباب الخلفيّ واتّجِه غربًا...

صرختُ به وقد نفد صبري:

- توقّف فورًا، توقّف، هروبك أخطر من انتظارهم. سيطلقون عليك النّار أو تنقلب السيّارة. أرجوكَ توقّف...

لم يقل بعد ذلك شيئًا. انقطعت المكالمة، وعاد الهاتفُ المحموم قطعةَ معدن بارِدة.

أكبرتُ شهامة سفيان ورثيتُ له. ربّما انتقم منه الأوغادُ لِفراره، ورُبّما استقرّت رصاصةٌ في أمّ رأسه. قمتُ واثقًا ممتلِئًا باليقين. ولسان حالي يقول: «آن أوانُ الفصل ولن تكون في وطني قيامةٌ لأحقادكم.» قمتُ إلى فرسي مُسرَجَة ريّانة شبعانة فركِبتُها، واتّجهتُ بها إلى الباب الخلفيّ نزولًا عند وصيّة سفيان. سرّحتُ نظري في أرجاء الحقل الواسع الجميل قبل مغادرته فربّما لا أراه مرّة أخرى. لم أرَ في الأنحاء خالي ولا أحدَ أبنائه ولا حتّى أحدَ العمّال. أردتُ أن أودّع أحدًا قبل خروجي حتّى لا أكون كخارِجٍ من مقبرة، ولكنّي لم أصادِفْ أحدًا، وما كان لي أن أدخلَ المنزلَ لتوديع زوجتي وأبنائي

فيُمسكون بِتلابيبي ويَبكون مِن خلفي. خرجتُ من دون وداعٍ، فلمّا اجتزتُ البابَ الخارجيّ وبلغتُ الطّريق ضغطتُ مزوّد السّرعة أدعَس الحقدَ والكراهيّة، وكان المطر الهاطِل يغسل كلّ شيء من حولي ويُشعِرني بطهارة الأرض والشّجر والنّاس، ونقاوة الهواء وصفاءِ البصر والبصيرة. قرّرتُ المضيّ فورًا إلى منزل صديقي عبد العزيز. كنتُ منذ الصّباح قد عقدت العزم على قضاء أمسية ذلك اليوم عنده للاستعانة به في تأويل رسوم شيخ الجبل وفهم مقاصده لو لا أن تعنَّتَ سفيان واستبقاني ريثما يكشف المستجدّات والمخاطر، ولكنّنا نقرّر أمرًا وتشاء المقادير أمرًا آخر، أو نُغيّر قرارنا من أجل أحبّتنا فلا تغيّر المقادير قرارها من أجل أحد.

﴿حاشية﴾

حدّثني سهل بن قباذ قال: بلغ أبي قباذُ بن المرزبان من العلم بالبواطن ما جعله قِبلة كلّ مستعلِم ومُستفتٍ، فلم تكن الطّريق إلى رودبار تخلو من راكب إليه أو راجع من عنده، ولقد شهدتُ وأنا بين يديه وصولَ قوم من أطراف قزوين يستفتونه، فأقبل عليهم يتفرّس ملامحهم وكان بِعينيه عند شيخوخته عشى، فعرف لهم مكانًا في قلبه وما عرف لهم صورةً في ذهنه. قال: «إنّي لأشمّ فيكم من الرّيح ما شمّ يعقوب! فمِن أيّ البلاد أنتم؟»، قالوا: «نعْم الأبُ الرّؤوم والسيّد الألوف. نحن من قزوين». قال: «فمِن أيّ قزوين؟»، قالوا: «مِن رازميان»، قال: «نِعم البلد قزوين، ونِعم الأهلُ أهلُ رازميان، وخير رازميان أرضُ داربند، فلعلّكم من داربند العطِرة جئتُم تُذكّرونني بسواد مفرقي إذ ابيضّت المَفارق»، قالوا وهم يتناظرون ويَعجَبون: «فإنّا والله لكذلك يا ذا البصيرة، وما في داربند إلّا مَن يذكرك ويلهج باسمك»، فتنهّد عميقًا وشرع يتكلّم كمن يُحدّث نفسه: «أتيتُها داعية وما فيها إسماعيليّ واحد، ففتح الله عليّ فتحًا مُبينًا، وخرجتُ منها بعد خمس وما فيها غيرُ إسماعيليّ عارِف. ألا مَن أراد أن يُكرَم ويُنصَر فليشُدّ رحالَه إلى داربند»، ثمّ قال لهم: «سَلُوا ما بدا لكم، فإنّي لا أكتُمكم ولا أكذِبكم، وأَحْدوكم حدْو الإبل سواء السّبيل»، قالوا: «لقد أشكل علينا شيء من مزمور الفصل والميقات، وذلك قول السيّد في لَعْن حبيب بن أوس: «روحي وروحُه قد تدافعتا

بِعنف/قبل إنشاء الخليقة في بُروج خالده»، فهل كانت لأرواحنا حياة قبل أن تكتسي أجسادَنا؟ وهل كانت في مكان آخر قبل أن تكون هنا؟ ثمّ أكانت تَعقِل من دون جسد فتُصالح وتُخاصم؟». فسكت أبي طويلًا حتّى قلنا إنّه لن يتكلّم، ثمّ تكلّم حتّى ظننّاه لن يسكت، قال: «اعلموا أنّ الله خلق أرواح البشر كلّهم مُذ خَلَق روح آدم، ثمّ جعل لهم الجنّة في بروج عالية، وآتاهم من النّعماء ما لا يُصدَّعون عنه ولا يُنزِفون، وهُناك تعارفت الأرواح، فمنها ما ائتلف وتحابب، ومنها ما اختلف وتنافر، فلمّا قضى الله على آدم الخطيئة وأوطأه أرض العذاب قال للأرواح: «انزلوا إلى الأرض بعضُكم لِبعضٍ عدوّ ولكم في الأرض مُستقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين»، فما انفكّت تَهيم مُذ ذاك الزّمن البعيد منتظرة أن تكتسي أجسادَها في مَواعيد خلْق الأجساد. وقد كان مِن خبر التّنافُر الذي تحاكاه كلّ سكّان البروج الخالدة، بين روحَيْ حجّة زماننا والضّالّ حبيب بن أوس ما أخبَرنا به الرّاسخون في العلم والكتاب مِن أنّ السيّدَ في الجنّة وهو روح خالِصة كان اسمُه ديه خودا، وكان حكيمًا مُقتصِدًا، يَنأى عن التهتّك وكثرة الاستمتاع رغم وفرة كلّ شيء في جنّات لا عينَ رأت ولا أذنَ سمِعت ولا خطرت لذّاتُها على قلب بشر. وذات يوم قدّره الله في علم الغيب وردَ الرّوحُ ديه خودا ليشرب من ماء الكوثر، وكان ماؤها أشدّ بياضًا من اللّبن وأحلى مَذاقًا من العسل، ومِن حولها أباريق مبثوثة من الذّهب والفضّة وزرابيّ مفروشة من سُندُسٍ وإستبرق، فإنّه لَهُناك بين صَحب وأحبّة يشكر ربّه على النّعماء، ويستسيغ من الكوثر لَذّة الشّارِبين حتّى سمعوا لغطًا منكَرًا ما عرفوه مِن قبلُ ولا تَلغطُه أرواحُ الجنّة، فتطلّعوا لِرؤية القادِم ذي السّفاهة في موضع لا يرتادُه السّفهاء، وإذ أبطأ في

الظّهور، قال لهم روحُ السيّد: «تدخل عليكم الحوضَ مِن وراء هذه السّدرة روحٌ شقيّة آن لها أن تُلعَن، ضالّة مُضِلّة، يخرج من ضِئْضِئها قومٌ سوف يَمرُقون من إيمانهم، وسوف يُفسدون ولا يُصلحون»، فما أتمّ السيّدُ كلامه إلّا وقد خرج عليهم حبيب بن أوس بن ضُبارة وهو روحٌ ذات لوثة سوداء، يمشي في الجنّة مَرحًا ويُصعّر خدّه، ومِن حوله مُراؤون مثله، فأومأ إلى السيّد وصَحبه أن يبتعدوا وهو يقول: «إن رأيتُموني أردُ الحوضَ فاصدُروا جميعًا، فما أنتم غير رِعاء، وقد اعتَدتُم الشُّربَ من عين تسنيم وعين سلسبيل، فما الذي أصعَدَكم اليومَ إلى الكوثر في السّماء السّابعة فعكّرتُم مزاجي؟». قال له السيّد الرّوح ديه خودا: «أيّها المتغطرسُ الكذّاب، ما أنتَ غير لصّ زنيم، وهذه الجوهرة الثّمينة التي تتباهى بها قد سرقتَها البارِحة من بيتي!». فصرخت به روحُ حبيب بن أوس، وكانت أوّلَ روح تصرخ في الجنّة، ويبدر منها رفَثٌ وفُسوق: «كذبتَ مِن قائل، واتّهمتَ بالباطل، وتطاولَ عنُقُك من غير طائل، فأين يكون بيتك؟». قال: «ذاك الذي سطوْتَ عليه البارحة في عِلّيّين»، قال: «تَشهَد الأرواحُ أنّي ما دخلتُ عِلّيّين قطّ، فقَصري الكبير في دار المقامة بالسّماء الخامسة. أمّا أنتَ يا ديه خودا فأولى بك أن تسكُن في سِجّين أو في وادي الويْل وتشرب من عين يَحموم!». وأصرّ السيّد على استرجاع جوهرته ولجَّ اللّصّ في الإنكار، واستقوى في الباطل بِما أسبغ الله عليه من قوّة واقتدار، واختصما حول الجوهرة حتّى عمد الجاني إلى كسْرها، فتلك في الدّنيا مريم المكتومة سرقها حبيب وكسرها وأوردها حتفها، أمّا الجاني فما أتمّ فعلته وزَها بنفسه وكسر الجوهرة حتّى أشرف عليه مالِكُ كبيرُ الزّبانية فقال له: «قد سرقتَ وكذبتَ، ثمّ فَجرتَ

واعتديتَ، ألا إنّ مردَّك الدّركُ الأسفلُ من الأرض في حياتك الأولى، والدّركُ الأسفل من جهنّم في آخرتك»، فكان مَصيره من الدّنيا أن قبَرَه السيّدُ مع الخاطِئة في الدّرك الأسفل من أرضٍ غير معلومة بإفريقيّة البعيدة.

انتهى حديث سهل بن قباذ عن أبيه قباذ بن المرزبان وما حدّثَ به أهلَ داربند قزوين.

وكنتُ أنا، مُصنّف الحاشية على المزامير، قد أتيتُ كبيرَ المُحدّثين مخلافا بن بازيار، أسأل عمّا أشكل من المزمور السّابع فقال لي: «أَوَ إنّكَ لتكتب حاشية على المزامير يا ابنَ أخي؟» قلت: «أي والله، بهداية الله وتوفيق الأئمّة وبركتك»، قال: «أفعلمتَ أنّ أحدًا قد ناوَأَكَ في هذا الأمر، فكَتب حاشية أخرى؟» قلت: «اللّهمّ لا» فقال لي: «هي إذن حاشيتُك التي تظهر بإفريقيّة آخر الزّمان فطوبى لك صاحب الاسم المخلَّد. إنّ أتباعَنا النّزاريّة العاضّين على عقيدتنا بالنّواجذ ينهضون آخر الزّمان لِمعركة «هرمجدون» المجيدة، ويَجدون في مَزامير السيّد وحاشيتك ما يَكشف لهم معالم الطّريق ويُقوّيهم، فإنّهم إذ يَملكون إفريقيّة يملكون بها الأرضَ كلَّها».

٧*مولاي علي مدد*٧

(12)

حين بلغتُ منزل صديقي عبد العزيز وهممتُ بدقّ جرسه رنّ الهاتِف في جيْبي. شنّف أذنيّ أجمل رنين بعد ما يربو عن ساعة من الانتظار الثّقيل هرسَت قلبي وأعصابي. فأسرعتُ إلى فتح خطّ المكالمة بِأصابع مرتعِشة. وبادرني سفيانُ بِسيل من الأسئلة:

- هل أنت بِخير؟ هل غادرتَ المنزل؟ وهل داهموه؟

قلتُ مُتنفّسًا الصّعداء وأنا أسمع صوته:

- أنا بِخير. خرجتُ بِسُرعة حين كلّمتَني، وقد علِمتُ أنّهم لم يُداهموا المنزل. سألوا عنّي ولم يداهموه.

- ماذا تعني. ألمْ يُؤذوا أحدًا؟

- لم أزل على اتّصال بزوجتي لِطمأنتهم والاطمئنان عليهم، وقد أخبرتني أنّ الضّابط مصطفى قد جاء المنزل وحده، يائسًا من وجودي فيه، فتكلّم مع خالي وأغراه بحَملي على اللّجوء إليه حتّى يَحقن دمي من العصابة.

- أمّا أنا فلم أستطع الاتّصال بِوالدي. هاتِفه مغلق وليس مِن دأبه أن يُغلقه.

لم تُسعفني حكمةٌ تحثّ على الصّبر فأذكرها له، ولا حتّى حكمة للتّفاؤل خيرًا، فانتظرتُ حتّى استأنف كلامه:

- استسلمتُ لهم حين بدؤوا بإطلاق النّار، لكنّي كنتُ قد أخذتُهم بعيدًا لأتيحَ لك فرصة للهرب من منزلنا. شُبِّه لهم صديقي، فظنّوا أنّك تركب بجانبي وتكالبوا للقبض عليك، لكنّهم غضِبوا جدًّا ولطموا وجهَيْنا بِحنَق إذ عرفوا أنّهم وقعوا في مقلبٍ. وأنت؟ ماذا فعلت؟
- بعد رحلةٍ طويلةٍ بلغتُ الآن منزل عبد العزيز.
- يقول جارُك عمّار إنّ دخولَك منزلك صار كدخول الجمل في سَمِّ الخِيَاطِ! القنّاصة اعتلوْا سطوح المنازل المُجاورة، وقد رأى عمّار أشخاصًا غرباء يُركّبون كاميرات دقيقة على سور منزلك. ونهجُ ابن شرف يَذرعه منذ أيّام ذوو سحنات غريبة سمراء مندوبة يتفرّسون في وجوه المارّين ويَطلبون الاستظهار ببطاقة الهويّة مِمّن أرادوا... لماذا يُراقبون منزلك بكلّ هذا الاهتمام فتُصِرّ على دخوله بكلّ هذا العزم؟

كان المطر يتهاطل، والبردُ يشتدّ في سكينة الغروب. أوى النّاس إلى منازلهم مُبكِرين، لكنّي كنتُ أسمع من بعيدٍ رجْعَ هتافات المتظاهِرين، وأحيانًا دويَّ رصاص أو أصوات فرقعاتٍ، كانت تُشيع جوًّا ثقيلًا من الرّهبة والخوف، وما بقِيَتْ غير ساعات قليلة على بدء سريان حظر التّجوّل في ليلة أخرى طويلة ثقيلة. هتف سفيان مُجدّدًا:

- ألو، أتسمعني؟ أنصحك بكلّ حبّي لك وشفقتي على أبنائك

ألّا تُفكّر في الدّخول إلى منزلك، فإنّ القنّاصة سيصطادونك من السّطوح، وكاميراتهم تُصوّر كلّ ذبابة تدخل منزلك أو تخرج منه. أتعلم؟ أخبرني جارُك عمّار أنّ شابًّا في مقتبل العمر قُتِل منذ يوميْن فوق سور منزلك! أراد منكود الحظّ قطف القليل من البرتقال المُتدلّي من جانب السّور، فما إن اعتلاه مُحاذِرًا حتّى قنصه أحدُهم من بعيد، واستقرّت رصاصة في رأسه!

انتفضتُ صارِخًا، وكاد الهاتف يسقط من يدي:

- قتيل فوق سور منزلي؟ يا لطيف. صار هذا المنزل مقبرةً.
- أليست تلك خطّتك لِدخول المنزل؟ أن تتسلّق السّور فترمي بِنفسك إلى الدّاخل؟ لا ألومك على ما مضى، فما كان لك علم بالكاميرات والحراسة المُشدّدة حين رسمتَ الخطّة، أمّا وقد علمتَ فلا عذر لك في التّهوّر.

وصلتُ إلى منزل عبد العزيز بعد رحلةٍ طويلةٍ مُضنية، فقد سلكتُ طُرُقًا بعيدةً للإفلات من المطاردة، ثمّ تهتُ بين مسالكَ فلاحيّة واضطررت مرّاتٍ إلى العودة على عقبيّ، ومرّاتٍ أخرى إلى التوقّف ردهًا من الزمن لتبريد محرّك السيّارة حتّى استغرقت الرحلةُ أكثر من ثلاث ساعاتٍ، فلمّا فتح لي عبد العزيز الباب لم يستغرب قدومي وكأنّه كان في انتظاري برفقة السيّد فاروق مدير المتحف. كانا يتناظران نظراتٍ مريبةً أوحت إليّ أنّهما يكتمان أمرًا. وسرعان ما استأذن السيّد فاروق للمغادرة، فاتّجه بي عبد العزيز

إلى الصالون وهو يغمرني بالودّ والترحاب. كنتُ قد التقيْته في باجة لنقلّبَ الاحتمالات بشأن مكان وجود قبر حبيب ومريم، لكنْ لم يَرِدْ بخلده ولا بِخَلَدي أن يكون قبرهما تحت قبر الصبّاح في جوف الأرض بِعُمق سبعة أمتار! «عذرًا أستاذي الفاضل، أنت أكثر منّي معرفة بالتّاريخ وبالإشارات والرّموز، لكنّي صاحِب السَّبق في اكتشاف القبر المَكتوم. لقد سبقتُك هذه المرّة، ولديّ من الأدلّة على صحّة توقّعاتي ما يُفحِم كلّ مُجادل...».

استقرّ بنا المجلس، ودغدغت أنوفَنا رائحة القهوة التّركيّة المحَبَّبة، فخطر لي إرجاءُ الحديث عن كشفي المبين إلى يوم آخر، فالأَوْلى عندي أن أبادر بِعَرض الرّسميْن السّابع ثمّ السّادس على بَصيرته لِتفسيرهما لعلّي أهتدي إلى الأوامر السرّيّة التي يُرسلها الصبّاح إلى أتباعه من الخوجة، فيفتح عليّ ذلك خيرًا أو يدرأ عنّي شرًّا وأنا أستعِدّ لِمغامرة قدَريّة تُشير دلائل كثيرة إلى أنّها قد تكون مُهلِكة، فقد رأيتُ منها نُذرًا سوداء وما رأيتُ بشارةً واحِدةً! كنتُ قد وضعتُ الرّسمَيْن المقصوديْن في جيب جُمّازتي بعد أن طويتُ كلّ ورقة منهما طيّات كثيرة لِيَصغُرَ حجمُها، فأخرجتُهُما من جيبي وأنا جالِس قبالة عبد العزيز، وجعلتُ أسرّح كفّي عليهما بِلطفٍ لإزالة أثر الطيّات، وقلتُ له:

- شُغلنا أستاذي بالتّساؤل عن مكان وجود قبر حبيب ومريم، فهل علمتَ عن هذا الأمر شيئًا؟

لا أدري لماذا سألتُه، رغم أنّي قرّرتُ منذ دقائق قليلة ألّا أهتمّ

بشيء معه غير تأويل الرّسمين إن تيسّر ذلك وكان الوقت كافيًا. وسرعان ما تفطّنتُ إلى تسرّعي، وإلى إحراج أستاذي بسؤالي الغبيّ، فأنّى له أن يفكّ طلاسم ألف عام في أيّام معدودة. فأردفتُ لأرفع عنه الحرج، وأوجّه حديثنا الوجهة الّتي أرتئيها:

- لا أظنّ أنّ أمرًا قد حصل في هذه الأيّام، وما لِهذا جئتُك. لدينا ما هو أوْلى بالاهتمام، أعني شرح الرّسميْن الأخيرَيْن من رسوم المزامير، فإنّي أريد الاستعانة بِعلمك وحَدسك.

- ما كُنتُ مشغولًا طيلة الأيّام الفارطة إلّا بِما وعدتُك به من البحث الدّؤوب عن قبر المغدوريْن، وقد قطعتُ في هذه الفترة القصيرة شوطًا طويلًا، وأظنّ أنّ بحثي لن يَطول أكثر مِن أسبوعٍ آخر!

«ليس أكثرَ من أسبوعٍ لكشفِ مغلاقٍ سريّ لم يزل مُوصَدًا منذ ألف عام! كم يُفاجئني هذا الرّجل الفريد بِما لا يَخطر على بالٍ. لكنّ الأسبوعَ الّذي لا يُعدّ في تاريخ الحشّاشين إلّا طرفة عيْن بدا لي زمنًا طويلًا، إذ كنتُ أرى المسألة بِمنظار آخر، فقد كانت تلك الأيّامُ بِظنّي أيّام الميقات، فإمّا أن أُنفِذَ الماءَ إلى جثّة حبيب فيُسقى فكرُه ويَينْع، وإمّا أن يَجِفَّ جفافَه الأخير وينتقل من البرزخ إلى الموت النّهائيّ، لذلك خُيّل إليّ الأسبوع القصير بِمنظار عبد العزيز دهرًا، فإنّي إن فاتني الميقاتُ لا يبقى لاكتشاف القبر غير القيمة الأثريّة الباهِتة، أمّا صَبُّ الماء على الجثّتين في بأوانه فَفيه إبطالُ سِحر عهود الانحطاط وبدايةُ نهضة الشّرق كلّه، وقد رصدني القدرُ لِرَفع يدَيْ

هاروت وماروت عن الشّرق الذّبيح وتحريره من الشرّ والدّم. لم أقل شيئًا من ذلك لِعبد العزيز. تركتُه يَمضي في حديثه وأرجأتُ حديثي. وأنا أقول في نفسي: «نساءٌ كثرٌ من الجيران كُنّ يقُمن بِخَضِّ الحليب، لكنّ الزّبدة الطيّبة ما كانت تطلع إلّا مِن بين يدَي أمّي، وستطلع هذه المَرّة من بين يديّ». استأنف عبد العزيز كلامَه فقال:

- لم يكُن نجاحي بِجُهدٍ فرديّ، فقد ألّفتُ فريقًا مِن غوّاصي اللُّؤلؤ، وما إن جذّفتُ بهم حتّى هبّت ريح مُواتِية، فعثرنا على إشارتين توجيهيّتين مُؤكّدتين ترمُزان إلى قبر حبيب ومريم، وصرنا الآن قاب قوسين من اكتشافه. وقريبًا سنعثر على إشارة التّثبيت.

- ماذا تعني؟

- الإشارات التّوجيهيّة مثلما تعرف هي نقائش توضَع بعيدًا عن الدّفينة، وتَهدي إليها من مكان قَصيّ، أمّا الإشارة التّثبيتيّة فتكون فوق الدّفينة أو قريبة جدًّا منها، فإذا أحسنتَ تأويل الأولى أوصلتك إلى الثّانية وقرّبَتك من الهدف النّهائيّ. مِن بين الإشارات التّوجيهيّة المتواتِرة حول دفائن إفريقيّة رسمُ العصفور الطّائر، والسّهم المنطلِق، والحصان الرّاكض... وهي تُوجّه قارئها إلى دفينةٍ بعيدةٍ، وثمّة إشارات توجيهيّة تكون كلٌّ منها جزءًا من الإشارة التّثبيتيّة الّتي تَهدي إليها، كأن تكون الأولى مِقبضَ جرّة والثّانية جرّة كامِلة بِمقبضها، أو الأولى قيْدَ جمَل والثّانية جملًا مُقيَّدًا، فنَعرف حين نُدرك

الإشارة الثّانية الكامِلة أنّها المقصودة بالأولى النّاقصة، والإشارة النّهائيّة جازمة، تُجعَل عادةً فوق الدفينة بالضّبط مثل: رسْم جرّة مقلوبة، أو سلحفاة تحتها بيضٌ، أو جمل بارِكٌ ورأسه إلى أسفل، أو أفعى منطوية حول نفسها... وقد وجدتُ من ذلك أثناء أنشطتي البحثيّة أصنافًا مختلِفةً».

مهما يكن الإنجاز الّذي بلغتُه فلا قيمة له أمام قامةٍ مديدة كناطِحة سحاب اسمُها عبد العزيز مزيودات! هذا العقلُ الفذّ ذو العلوم المنهمرة الفيّاضة كدفْقٍ ربّانيّ! خُيِّلَ إليّ في تلك اللّحظات وأنا أنظر إلى رأسه ذات الاستدارة غير المتجانِسة أنّ تفاعُلات انشطاريّة واندماجيّة تجري فيها، وأنّ جمجمته قد صُنعت من اليورانيوم المخصّب! أسَرني ككلّ مرّة وألهب فضولي، فأدنيتُ الكرسيّ حتّى صار نفَسُه المُتسارع يلفح نفسي وأرهفتُ سمعي وفكري وهو يستطرد:

- بدأنا البحث في منطقةٍ مكتظّةٍ بالتّراث الإسماعيليّ، وجد فيها النبّاشون من الحشّاشين والمستعلِين من قبلُ قبورًا لِأعلام المذهب الأوّلين مثل أبي عبد الله الدّاعي وأخيه أبي العبّاس. وهي تشمل مجموعة قرى متناثرة مازالت مأهولةً بِعائلات ذات عادات وتقاليد باطنيّة، وإن لم تعُد بعدُ على عقيدة باطنيّة. وهناك وجدنا إشارةً توجيهيّة أولى على صخرة ملساء عند قاعِدة جبل أجرد: سهمًا طويلًا مكسورًا عند وسطه، قد نُقِش بِأسلوب الحفر، وكان حَفرُه عميقًا عُمقًا لافِتًا. انكببتُ عليه يومًا وليلةً حتّى استطعتُ فكّ

طلاسمه: يُشير السّهمُ كما الطّائر إلى بُعد الدّفينة أو المكنوز عن مكان الإشارة، وتأكّد لي ذلك من طوله، أمّا انكساره عند الوسط، فيعني أنّك سوف تجتاز وادِيًا أو مَضيقًا جبلِيًّا وأنت في الطّريق إلى الهدف، وكان ما توقّعته صحيحًا، زد على ذلك أنّ السّهمَ قد نُقِش بالحَفر وليس بالنّفر وبين الأمريْن اختلاف لا شكّ فيه، فما يُرسَم بالنّفر يكون بارِزًا على سطح الصّخرة المنقوشة، إذ يَعمد النّاقش إلى حفْر سطح الصّخرة كلّه وترك الرّسم وحده بارِزًا، فإذا كان النّقشُ كذلك دلّ على أنّ الدّفينة في الصّخر، أمّا إن كان الرّسمُ محفورًا فالخبيئة في التّراب كأن تكون في قبرٍ أو حفرةٍ أو سردابٍ.

كان السهمُ المنقوش طويلًا بالقياس إلى رُسوم النّقائش الّتي اعتدتُ دراستَها، إذ بلغ طوله ثلاثين سنتمترًا، ما يعني أنّ الدّفينة تبعد عن ذلك المكان زهاء ستّة كيلومترات، وكان عمق النّقش قد بلغ ثلاثة سنتمترات ونصفًا، وحِساب العُمق يختلف عن حساب الطّول، إذ يعني ذلك أنّ الخبيئة بِعُمق سبعة أمتار! مَضينا في الاتّجاه الّذي يُشير إليه السّهم، تجاوزنا وادِيًا عند مضيق جبليّ خفيض، وعلى مسافة ستّة كيلومترات كانت تنتشر دواوير سكنيّة صغيرة تنتمي إلى عروشٍ قبليّةٍ قديمةٍ عند سفوح جبالٍ واطِئة تآكلت من الحتّ. هناك، خطرت لي فكرة ملأتني حماسًا وأعجب بها أعضاء الفريق فمضيْنا في إنجازها. قلتُ لهم: «إنّ سكّان هذه الدّواوير يَعرفون أرضَهم وبيئَتهم كما يَعرف أحدُنا كفَّ يده، فإن رصدنا مكافأة ماليّة لِمَن يدلّنا على نقيشة صخريّة كفينا أنفسنا مشقّةً

واجتنبنا إهدار وقتٍ ثمينٍ». كتبنا إذن إعلانًا وعلّقنا منه نُسَخًا على سور المدرسة وباب المستشفى وحيطان المحطّة، وسرعان ما توافد علينا المُرشِدون بين صادقٍ وكاذبٍ، واضطُررنا إلى دفع أموال من غير مقابل لاسترضاء كَذَبةٍ من الأهالي، وتجنُّب إثارة ما يُفسد علينا عملَنا بين مَضاربهم، لكنّ أحدَ الرّعاة قدِم إلينا في اليوم التّالي مِن غير طمع فأخذنا إلى الوجهة الصّحيحة ودلّنا على النّقيشة. وكانت الإشارة عميقة الإلغاز بعيدة الغور، وقد استعنتُ بِأعضاء الفريق وأمكنني فكّ طلاسمها.

سكت عبد العزيز هنيهة وظلّت عيناي مُعلَّقتين بشفتيه مُنتظِرًا استطراده لكنّه عوض ذلك قال:

- عذرًا، فقد استزلّني الحماسُ وتكلّمتُ قبلك. قلتَ لي بالهاتف إنّك إذ درستَ مزامير الصبّاح وتأوّلتَها، أمكنَك تخمين مكان قبر حبيب ومريم المكتومة. إن كنتَ فعلتَ، وما ذلك بِيَسير، فقد مهّدتَ لنا طُرقًا وأعفيتَنا من مشقّةٍ، فاذكُر لي ما عرفتَ.

كنتُ في غاية الحماس لِمعرفة الأسرار الّتي اكتشفها صديقي عبد العزيز، فانزعجتُ جدًّا إذ قطع حديثَه وحَرَف الكلام. وقلتُ له:

- أكمِل حديثك. أكمِل من فضلك، وسأتكلّم بعدك. ماذا وجدتم في النّقيشة الثّانية؟ هل كانت إشارةَ تثبيت؟

- لا، كانت إشارةَ توجيهٍ أيضًا، لكنّها ولا شكّ أكثر قُربًا من الهدف. حالما وجدناها صوّرها أعضاء الفريق بِهواتفهم

النّقّالة وطلبوا إمهالهم ثلاثة أيّام لتفسيرها، لكنّي أنهيتُ تأويلها منذ اليوم الأوّل، وها إنّي مضطرّ إلى دفع ضريبة العمل ضمن فريقٍ، وخسارة يومين في انتظارهم، لو أنفقناهما في البحث لعرفتُ المكان المقصود، لكنّ غدًا لِناظره قريب.

- حدّثْني عن الإشارة من فضلك. قلتَ إنّها عميقة الإلغاز، وإنّك تأوّلتَها في يومٍ واحدٍ.

ضحك عبد العزيز وقال من غير أن تغيب عنه سيماء الخيلاء والفخر الّتي ما لبِسها أحدٌ إلّا شانَته، أمّا هو فتليق به وتصبح أجمل مآثره:

- تحتاج أحيانًا إلى معرفة بسيطة جدًّا لِتفكّ بها أحجية معقّدة. هل تعرف قصّة التّلازم الغريب بين العقرب وخنفساء الأرض؟

- أجل. قصّة الحبّ اللّدود. لا أحد يجهلها. نحن نسمّيه خادم العقرب، فهو يُلازمها ويقاسمُها الجحرَ والطعام، لكنّها قد تفتك به في أيّ وقت.

- إنّها لا تفتك به، لكنّها تجني عليه، فإنّ النّاسَ يحفرون جحرها لِقتلها فيقتلونه معها، وقد يَجني هو عليها، ذلك أنّ النّاسَ إذا لاحظوا وجود خنفساء الأرض السّوداء في منطقة مّا، علِموا أنّها مأهولة بالعقارب أيضًا فحذِروا منها وبحثوا عنها لقتلها.

انتابني ضيقٌ والكلامُ بيننا ينحو نحْوًا ما أردتُه، وأنا أسابق

الزّمن لِتفسير الرّسمَيْن قبل أن أنطلق إلى قدري. فقلتُ بِتبرُّمٍ لا يَخفى:

- أسألك وصفَ النّقيشة وتفسيرها فتُحدّثني عن العقرب والخنفساء!

- رويدك يا صاحِبي، فما حدّثتُك إلّا عن النّقيشة لوْ تدري، فإنّ صاحِبها استعاد في رموزه قصّة التّلازم بين العقرب والخنفساء للإشارة إلى أنّ الدّفينة تتألّف من عنصريْن مُتلازِمين، وهذا ما جعلني أرجّح جدًّا أنّ المُتلازِمَيْن المَقصودَيْن هما حبيب ومريم!

صارت دقّاتُ قلبي ضَرْبَ مَطارق في صدغيّ، واقشعرّ جلدي وأنا أسمع عبد العزيز يتكلّم عن نقيشة الجبل كأنّما يصف الرّسمَ السّابع من المزامير الذي لم يَرَه بعد: العقرب وخنفساء الأرض! ورآني صامِتًا مذهولًا فواصل حديثَه:

- كانت النّقيشة بِأسلوب الحَفر على حجر شديد الصّلابة: مستطيلان متراكبان كأنّهما قبران. في المستطيل الأعلى نقشُ عِمامةٍ مشدودةٍ كأحسن ما تُشَدّ عمامة عند ارتدائها، وفي مقدّمتها جوهرة جميلة، ما يَعني أنّ الجزءَ الأعلى من الدّفينة ذو علاقة بِرجل دين أو علم أو سلطة، وقد جعل النّاقِشُ رسمَ العمامة من دون رأسٍ، لأنّ مِن شأن الإشارة التّوجيهيّة أن تكون غير مكتملة على أن تُكمّلها الإشارة التّثبيتيّة الّتي تُوضَع رأسًا فوق الخبيئة...

أردتُ أن أصرخ، أن أقفز، فقد كانت معجزة خارقة لا تقلّ عن معجزات الأنبياء تحدث مِلْء سمعي وبصري! لكنّي تسمّرتُ في مكاني. واخشوشب جسدي، وازددتُ بهتةً وذُهولًا وعبد العزيز يواصل قائلًا:

- أمّا في المستطيل السّفليّ فَرسمٌ لِذيل عقرب بِحلقاته السّتّ وإبرة السمّ، وبجانبه سيقان خنفساء، ثلاثة أزواج مجموعها ستّة. وهي مثلما أسلفتُ إشارة توجيهيّة ناقصة، سوف تكتمل بالرّسم التثبيتيّ الّذي نحن بِصدد البحث عنه. وأرجّح أن يكتمل رسمُ العمامة بالرّأس الّذي يرتديها، وأن يكتملَ ذيلُ العقرب وسيقان الخنفساء بِعقرب وخنفساء تامّيْن، وتكون تلك النّقيشة فوق الدّفينة أو حِذوها.

لم أستطع بعد ذلك صبرًا. هتفتُ به:

- الرّأسُ المُعَمّم والعقرب والخنفساء! كأنّك تصف الرّسمَ السّابع في مزامير الصبّاح. ها هي النّسخة بين يديّ. تعال فانظُرْ.

كان عبد العزيز في أتمّ حالات الاستثارة، حتّى لَيُخشى عليه من الجنون حقًّا. أخذ يُقلّب الرّسم الموشوم منذ ألف عام، الرّسم الّذي افتتح به الصبّاح مزموره الأخير وأسماه يومَ الفصلِ والميقات، وقوامه مُستطيلان مُتراكِبان. في العُلويّ منهما رأسُ رجُلٍ مُعمَّم ومُلتَحٍ، وبِمُقدّمة عمامته جوهرة، وفي المستطيل الأسفل رَسْمُ عقربٍ ترفع ذيلَها بِحلقاته الستّ وشوكته السامّة، وبجانبها

الخنفساء الخادم ذو الأرجل الستّ، ومِن حول المستطيلين سوطٌ مقبضه عند أسفل الرّسم وظفيرتُه الجلديّة تلتفّ ذات يمين وشِمال. وفيما كان الصّمتُ مُخيِّمًا والذّهول، صاح عبد العزيز فجأةً، وهو يضع أنملة سبّابته على السّوط:

- هل ترى الآن ما كنتُ أحذّرك منه؟ ها هو يأمرهم بالدّفاع المستميت عن القبْريْن. لطالما كان السّوط أداةَ ردعٍ وأداة قتل أيضًا.

- ماذا تَعني؟

- أوف. الرّسمُ صار شديد الوضوح وقد تأوّلتُه مذ كان غير مكتملٍ، فعمّ تسأل بعدُ؟ المستطيل الأعلى هو قبر الصبّاح. تلك عمامة هيبته، وهذه لحية إمامته، وفي المقدّمة جوهرة سلطانه، والمستطيل الأسفل قبر حبيب ومريم، أشار إليهما بالعقرب والخنفساء المُتلازِميْن اللّدودين اللّذين ما يفتأ أحدُهما أن يكون سببًا في مقتل الآخر، أو يتسبّبان معًا في مقتلهما، فقد جنى حبيب على مريم إذ جعلها تخرج عن طوْع أبيها وعقيدة أهلها، وجنت عليه إذ بذلت له حبَّها وقبلت بالهروب معه...، جنَى كلٌّ منهما على الآخر، وتسبّب كلّ منهما في مقتل الآخر، كما يجني العقرب والخنفساء أحدهما على الآخر بسبب تلازمهما.

- هذا بالضّبط ما تأوّلتُه من المزامير، وما كنتُ أنوي إخبارَك به: قبرُ المغدوريْن قد تمّ حفره عميقًا في الأرض، وفي زمن

لاحِقٍ دُفِن الصبّاح في قبر آخر فوق قبرهما. لقد وجدتُ في وصيّة الصبّاح إلى نائبه بزرك أوميد وهو يأمره بِدفن المغدورَيْن قوله: «احفر يا بزرك احفرْ حتّى تغبرّ اللّحيةُ سبعة أمتار بتمام»، فَلِمَ جعل قبرَهما بِهذا العمق لولا أنّه كان يَنوي جعل قبر آخر فوقَه؟

انتصب عبد العزيز واقفًا وهتف بي:

- سبعة أمتار؟ هذا بالضّبط ما تدلّ عليه النّقيشة! كانت بِأسلوب الحفر بِعمق ثلاثة سنتمترات ونصف، ومُعادلة العُمق في النّقائش التّوجيهيّة هي أنّ كلّ سنتيمتر في عمق النّقش على الحجر يُعادله مِتران في عمق الخبيئة بالأرض.

- ثمّة أدلّة أخرى من المزامير على وجود قبر المغدورَيْن تحت قبر الصبّاح لم يعد من فائدة في ذكرها مادام الأمر قد توضّح بِلا ريب. ولكن أتعلم لِمِ فعل ذلك؟ قرأتُ في المزامير أنّ سحَرةً مُقتدرين أنذروه نحسًا وسوءَ طالع إن سفك دمَهما، فاحتال للأمر وعمَد إلى فعلٍ أعانه عليه هاروت وماروت ولم يُسبَق إليه: جفّفوهما من الدماء والماء، واستخرجوا أعضاءهما الدّاخليّة النّديّة، ودفنوهما بتلك الحال، مُعتقدين أنّ ذلك ليس قتلًا، لأنّ الجسد الجافّ يظلّ على صورته ولا يفسد، وهكذا نُقِلا إلى حياة البرزخ، فهُما في مكانة وسطى بين الموت والحياة. فعلوا ذلك في أجواء رهيبة من السّحر الأسود، تخلّلته أفعالٌ رهيبةٌ مثل سفك دماء كلب، والزّنا

بامرأة حائض... وقد جعلوا قبر الصبّاح فوقهما لِيخنقهما مدى الزّمان ويَكبت أفكارهما، وتظلّ عقيدتُه أكثرَ غلبَةً وأوسعَ انتشارًا. ولكنْ إن بلغ جثّتيهما المحنّطتين ماءٌ قبل تمام الميقات بُعِثا من البرزخ، وعادت أفكارهما إلى الانتشار، وأظنّ أنّ هذه الأيّام هي أيّامُ الميقات بحسب الدّلائل الّتي بين يديّ.

خُيِّل إليّ وأنا أقصّ على عبد العزيز حكايات العالم السّفليّ، أنّي أرى على ملامحه ما يُشبه رهبةَ طفلٍ، وبدا لي أنّ عينيه تدوران في محجريْهما خوفًا، لكنّي حدست أيضًا أنّه يصطنع ذلك كأنّما يسخر منّي! تفرّستُ فيه مليًّا من دون أن أعرف حقيقته وهو يقول لي:

- لقد أوتوا من خبائث السّحر الأسود ما لم نُؤتَ، وعلِموا منه ما لم نعلم. وكانوا يستحضرون هاروت وماروت فيُليّنون بهما الحديد. ألذلك كان الصبّاح يُحذّر من الاقتراب من قبرهما ويأمر أتباعه بإحضار السّوط الرّادع؟ أكان يخشى أن يعرف أحدٌ السرّ فيُنفذ الماءَ إلى قبرهما؟

- ذاك ما كان يخشاه وما حذّر منه، وأنا هو المارق الّذي كان يُحرّض عليه، فقد حدّثهم عنّي في المزمور السّابع، وعرفني أتباعُه فصاروا أكثر تكالُبًا في البحث عنّي وإصرارًا على قتلي!... وذلك ما زادني وُثوقًا من أنّ أيّام الميقات ليست إلّا أيّامنا هذه، وأنّ برزخ حبيب ومريم يوشك أن ينقضي، فقرّرتُ المُضيّ اللّيلةَ مهما كلّفني الأمرُ لإنفاذ الماء إلى الجُثّتيْن

المُحنّطتيْن، وما أحسبني إلّا مُصيبًا بالمجيء إليك هذا المساء، وبجَلْبي الرّسمَ السّابع الفذّ الّذي تأوّلناه، إذ تيّقنتُ من مكان وجود القبر، حتّى أخوض معركتي وأنا واثق بما أفعل.

كان عبد العزيز يتراءى لي بوجوه متضارِبة، فيبدو أحيانًا شديدَ القناعة بما أنا مُقدِمٌ عليه، يصدّق مثلي وجود لعنة الصبّاح وتأثيرها في الأحداث الرّاهنة، ثمّ يبدو لي أحيانًا أخرى هازئًا، يفسّر نوايا الصبّاح ويتأوّل مقاصدَه من دون أن يكون مقتنِعًا بشيء منها، كما يفعل أيّ خبير أكاديميّ. قلتُ له:

- جلبتُ معي أيضًا الرّسم الّذي سبقه. أعني الرّسمَ السّادس. أظنّ أنّ الأحداث لم تتجاوزه، وأنّ به مِن تعليمات الصبّاح ما يمكنني الاستفادة منه في هذه اللّيلة الحاسمة.

قلتُ ذلك وأنا أنشر الورقة في حجره، على فخذيه النّاحِليْن، فأبدى سُرورًا وحَماسًا بِخوض مغامرة تأويليّة جديدة، وسمّر على الورقة عينيه الجاحِظتين وهو يقول:

- أحسّ أنّي غوّاص يخوض الأعماق المجهولة، ويسبر الظّلمات بحثًا عن لآلِئ ثمينة تستأهل كلّ المشاقّ.

ظلّ يتأمّل الرّسمَ بصمت وخشوع. وطال بي الانتظار حتّى انتابني الملل، فقمتُ إلى النّافذة ففتحتُها وتطلّعتُ نحو الشّارع الخالي بأضوائه الكابية. بلغتني أصداء هتافات بعيدة وأصوات فرقعات، وبدا لي أنّ ليلة أخرى من المظاهرات الحامية والكرّ والفرّ

قد بدأت، وأنّ عليّ الانطلاق إلى وجهتي قبل أن تُغلق الطّرقات بالحواجز الأمنيّة والإطارات المشتعلة.

بعد ربع ساعة تنحنح عبد العزيز ونظر بجانبه وهو يَهمّ بالكلام فلم يجدني، وعندئذ تفطّن إلى مغادرتي جانبَه حيث تركني قبل أن يغرق في تأمّلاته، لكنّي سرعان ما عُدت إلى مكاني وانكببتُ مثلَه على الرّسم الذي كدتُ أحفظ خطوطه عن ظهر قلب. فوضع سبّابتَه الرّفيعة على الورقة وشرع يتتبّع الخطوط والأشكال وقال:

- لا بدّ أوّلًا من فهم الظّاهر مثلما يبدو للنّاظر المجرّد...

قلتُ أستعجِلُه:

- نعم. هذه بُحيرة جميلة خصبة وعلى طرفها من الجهة اليمنى طائران بحريّان...

فقطع عليّ كلامي كأنّما يُصلح خطأً فادِحًا وقعتُ فيه:

- لا تقُل إنّهما طائران مائيّان فحسْب، بل حدّدْ صنفهما فإنّ ذلك هامّ جدًّا في التّأويل. هذا طائر الكركيّ ونُسمّيه أيضًا الغرنوق. إنّه أشهر الطّيور المُهاجرة على الكرة الأرضيّة، يقطع كلّ موسم آلاف الكيلومترات ذهابًا وإيّابًا بين شمال الكرة الأرضيّة صيفًا وجنوبها شتاءً، وهو طائر بهيّ المنظر فتَن النّاسَ منذ العصور الغابِرة بِأناقته ورقصاته الجميلة، وما تزال رسومه موشومة على جدران الكهوف الّتي سكنها الإنسانُ البدائيّ... قُلْ كلَّ ما تعرف عن الكركيّ قُل، فإنّ معلومةً لا تُلقي لها بالًا قد تكشف سرّ الرّسم كلّه، وتُوضّح

مَقصَد صاحبه...

بدأتُ أستحضر كلّ ما أعرف عن الغرنوق، لعلّ شيئًا من معلوماتي يكون مُفيدًا لعبد العزيز في تأويلاته الفذّة. قلتُ له:

- أعرف شيئًا ممّا يقوله مُفسِّرو الأحلام عن رؤية الكركيّ في المنام. فبِسبب هجرته البعيدة المشهورة، صار اسمُه كنايةً عن الرّجل الغريب، وصار مضربَ مثَلٍ للغربة، فإن رأى أحدٌ في مَنامه أنّه يَقبض على كركيّ دلّ ذلك على لِقائه شخصًا غريبًا أو حصوله على شيء من غريب، ومَن رأى أنّه يركب كركيًّا فإنّه سوف يتغرّب، ومَن رأى أنّ له فرخَ كركيّ فإنّ ابنَه يتغرّب...

- أحسنتَ قولًا. فالمقصود بالكراكي في هذا الرّسم أشخاصٌ غرباء. اُنظر أعلى الرّسم. ذاك سرب من الكراكي قادِم من بعيد، فالكراكي إذن ليست بنات هذه البحيرة، وإنّما هي وافِدة إليها.

سرّني أنّ عبد العزيز استثمر كلامي وهو يشرع في تأويلاته، وخطرت بِبالي معلومة أخرى هامّة عن الغرانيق فاندفعتُ أتكلّم:

- هل لاحظتَ كيف يطير سربُ الغرانيق أعلى الرّسم؟ هذا هو التّشكيل الهندسيّ المُعجِز لِطيران الغرانيق، إذ تتّخذ شكل الرّقم الهنديّ سبعة ٧، على أن يكون رئيسُها في المقدِّمة عند رأس الزّاوية الحادّة. ذلك النّظام أصابَ النّاسَ بالعجب منذ العصور الغابِرة حتّى أمكن للعلماء تفسيرُه أخيرًا بِقوانين

الدّيناميكا الهوائيّة، ومفادها أنّ كلّ طائر يتّخذ موقعًا وراء الآخر مع انزياح جانبيّ صغير لِيستغِلّ التيّار الهوائيّ المُتولِّد من خفقان أجنِحة الطّيور الّتي تسبقه! وقد لاحظ العلماء عند إجراء تجاربهم أنّ كلّ غرنوق يخرج عن ذلك التّشكيل الهندسيّ سرعان ما يتفطّن إلى ثقل العبء الّذي صار عليه، والجهد الإضافي الّذي يبذله فيعود إلى النّظام.

قال عبد العزيز وهو يتتبّع الرّسمَ بِسبّابته ويُمعِن نظرًا:

- أُنظرْ. بعضُ الكراكي وصلت إلى البحيرة وبعضُها الآخر ما يزال قادِمًا. أمّا هذا الثّعبان فهو مستوطِن بِدليل اتّخاذه مسكنًا في جذع الشّجرة الخرِب، وهو يرفع رأسَه ومُقدِّمته كسيّد مُطاع حاكِم بِأمره. هل لاحظت أنّ مسكن الثّعبان مليء بِبيض الكراكي المنقَّط؟ لقد دَفعَت لِصاحب الأرض، ملِك البحيرة، رشوةً أو ضريبةً حتّى يقبَل بِنزولها هناك وعيْشها في كنف مملكته الخصبة ذات الغذاء الوفير. ليست الكراكي طيورًا بلهاء حتّى تظُنّ أنّها أخطأت المكانَ المناسب لِوضع بيضها، فإنّها تُعرَف من بين الطّيور بِحزمها وحذرها وذكائها الشّديد، حتّى إنّها تتناوب على الحراسة ليلًا!

- تتناوب على الحراسة عند النّوم؟ كما يحدث في ثكنةٍ عسكريّةٍ؟

- نعم. وإذا أتمّ أحدُها نوبتَه أيقظ غيرَه! وكلّ حارِس أثناء نوبته يُصوّت تصويتًا خفيفًا حتّى يُفهَم أنّه يقظان! هذه الطّيورُ بالِغة الذّكاء تَدفع للثّعبان حاكِم البُحيرة ما يُرضي

طمعَه لتغنم منه وطنًا جديدًا خصبًا وافِر الخيرات.

قلتُ لعبد العزيز مُحاوِلًا أن أُدلي بِدلوٍ وأعلن رأيًا ولا أكتفي بالسّماع:

- كان على الرسّام أن يختار من الأفاعي لِهذا المشهد أكثرَها خطورةً مثل الكوبرا أو ذات الأجراس، فيدلّ بذلك على سطوتها وحاكميّتها في البحيرة، فلِماذا عمد إلى اختيارٍ غير مُناسب؟ أليس هذا ثعبانَ النّطريق الأبله؟

اشتدّ الحماسُ بأستاذي وقد صار في قلْب معركة التّأويل الكبرى. فضرب بِجُمعه على فخذي وقال:

- إنّه اختيار مقصود لإبلاغ معنى. النّطريق ثعبان الماء، كبير الحجم، مُخيف حين يُرى، لكنّه غير سامّ، طمّاع، وقليل الذّكاء، ما يعني أنّه حاكِم مُخيف لكنّ حقيقته كرتونيّة، إذ يمكن خِداعُه ويمكن استمالتُه بالعطايا والسّيطرة عليه.

انتصبتُ واقِفًا وقد هالتني تفاسير رجل يأتيه الوحيُ ولا ريب! قبّلتُ جبهَتَه الواسعة وقد نزّ منها عرَق الحماس إذ كان يتكلّم. وخُيِّل إليّ أنّ رأسه يتوهّج ويضيء وإن لم تمسسه نار، ففي المزامير الّتي لم يقرأها عبد العزيز بعدُ، أمر الصبّاحُ أتباعَه في هذا الزّمان بالهجرة إلى إفريقيّة لإقامة دولة لهم فيها، وأمرهم في سبيل ذلك أن يدخلوا على أهلها مِن باب أطماعهم، فيدفعوا أموالًا ورشًى لاستمالة حكّامها وشرطتها وأصحاب دواوينها وموظّفيها ووُلاتها وجُباتها... واتّخاذهم مطيّةً حتّى يُسهّلوا عليهم امتلاك الأرض والعمائر...

وذلك ما تأوّله عبد العزيز من الرّسم وهو لم يقرأ ما في المزامير. قال وعيناه تسرحان بين سقف الغرفة وجدرانها ولا تستقِرّان على شيءٍ:

- أرى أنّ الصبّاح يأمر أتباعَه بِهجرةٍ منظّمةٍ إلى بلدٍ ذي خصبٍ ووفرة، وهو يؤكّد عليهم أن يلتزموا نظامًا صارمًا، وأن يطيعوا إمامهم، ولذلك جعل سربَ الكراكي رمزًا لهم، فإنّه لا يعيش بغير قائدٍ، ولا يُخالف فردٌ منه أوامر القائد، ويتحرّك بِأتمّ نظام كما تتحرّك كتيبةٌ عسكريّةٌ، مثلما يُوصي الصبّاحُ أتباعَه بالفطنة والحزم والحذر، فالكركيّ لِشدّة فطنته وحذره لا يقع في شِراك أو حبائل!

سألتُ عبد العزيز وما عدتُ أشكّ في أنّه سيُجيبني عن أعقَد المسائل:

- وما تلك النّقاط الدّائريّة الشّائهة الّتي جعلها الرسّامُ على رقاب الكراكيّ؟

- ذاك قُراد الدّواجن. طُفيليٌّ ضارٌّ يتغذّى مِن دماء غيره، إذ يغزو جسمَ الطّريدة فيلتحم بِجلدها التحامًا لا فكاك منه، ويمتصّ دمها.

سكت قليلًا وسرَحت عيناه. ثم عاد يتكلّم ولا يكترث بِوجودي فما علِمتُ هل يُكلّمني أم يكلّم نفسه:

- الآن علِمتُ تأويلَ القُراد في الرّسم: لقد دفعَت الغرانيقُ بيضَها إلى الثُّعبان من أجل الإقامة والاستيطان، وهي رشاوى كبرى يَكسب بها مُهاجِرو الباطنيّة كِبارَ الحكّام وثعابينهم،

لكنّ مُستوطِنات أخرى في بلد الاستقبال تودّ ابتزاز القادِمين الجدد والاستفادة منهم، أعني مستوطِنات ذات نفوذٍ ضيّقٍ أو قوّةٍ محدودةٍ مثل الشّرطة والموظّفين والجمارك وغيرهم، فالصبّاح يأمر أتباعه المهاجرين بِتبادُل المصالح مع أولئك الطّامعين ومَنْحهم ما يُريدون وإن مصّوا شيئًا مِن دمِهم.

هتفتُ بِعبد العزيز، وقد قادني وإيّاه طريقان مختلِفان إلى تقاطُعٍ واحد:

- القُرادُ الّذي يعنيه الصبّاحُ هو الضّابط مصطفى وأعوانُه الّذين لاحقوا سفيان اليوم مع أفراد العصابة، ولوْ أدركوني معه لَقتلوني. هل كان مصطفى يرضى بِهذا الدّور القذر لولا ما يَقبض مِن أموال ورُشًى، وما يمتصّ كالقراد من رقبة ميرزاخان ورِقاب رؤسائه؟

حين انتبهتُ إلى السّاعة، كانت تُشير إلى الثّامِنة ليلًا وعشرين دقيقة، فانتصبتُ واقِفًا وقلت:

- عليّ الخروج فورًا لأصل إلى منزل عمّار قبل موعد حظر التّجوّل فما مِن سبيل لدخول منزلي غير الجدار الفاصل بينه وبين منزل عمّار، وعليّ تسوُّرُه رغم القنّاصة المتربّصين، وعسى أن يكفيني الله شرّهم.

في تلك اللّحظات المصيريّة الّتي أحتاج فيها إلى مَن يشدّ أزري، كلّمني سفيان لِتوْهيني:

- أين أنت الآن؟ عساك قد غيّرتَ رأيك وبَقيت بمنزل

صديقك حتّى نستوضح الرّؤية.

- لا. أنا خارج لتوّي نحو منزل عمّار لأَبلُغه قبل أوان حظر التجوّل. إن وافيتني هناك فقد تساعدني في اجتياز السّور.

- الحواجز الأمنيّة تزداد كثافةً منذ الغروب ولن تستطيعَ الوصولَ إلى حيّ ابن شرف فكيف بمنزل جارك عمّار؟ وإن بلغتَه أعجَزَك حتمًا اجتياز سور منزلك تحت كاميرات القنّاصة وأنظارهم، وإنّي تنتابني شكوك قويّة في أنّ منزلك يُؤوي، منذ تغيير أقفاله، أفرادَ عصابة الخوجة، وأنّهم يجعلونه قاعدةً لإدارة أنشطتهم، فهلّا فكّرتَ في طريقة أخرى وأجّلتَ الأمرَ إلى يوم آخر؟

قطعتُ كلامَه قائلًا:

- ليس بين يديّ خيارات كثيرة. ما مِن سبيل لاقتحام منزلي غير السّور الفاصل الّذي تعرفه، وأفضل نواحيه لِهذا الأمر النّاحية القِبليّة حيث يتقارب الشجر في حديقة عمّار وتكاد تصبح دَغلًا. ستكون لحظات رهيبة لكنْ لا مناص منها.

- لا تنحصر الخطورة في لحظات التّسوّر، فمنزلك صار فخًّا مُهلِكًا ومَكمَنًا لأفراد عصابة الخوجة الّذين انتهزوا حالةَ الفوضى والانفلات الأمنيّ فاندسّ بعضُهم بين المتظاهرين حتّى صاروا قادةَ مظاهرات، واندسّ بعضُهم الآخرُ في صفوف الشّرطة فصاروا مخبرين يُعتَدُّ بهم أو قنّاصةً من فوق السّطوح. إنّهُم يتلوّنون بكلّ لونٍ ويدفعون إلى الفوضى

والاحتراب، لا يهمّهم غالِبٌ ولا مغلوب، ديدنُهم الفوضى الّتي تخدم أغراضَهم...

سكت سفيان هنيهةً كأنّما يزدرد ريقَه، ولُهاثُه المتسارِعُ لا يكفّ عن لفح أذني ثمّ أردف:

- ... زد على ذلك أنّ المنزل مراقَب بالكاميرات، وهو تحت أنظار القنّاصة المنتشرين فوق السّطوح المجاورة يرصدون كلّ ذبابةٍ تدخله. لقد قلتُ لك إنّ شابًّا قُتل منذ يومين فوق سياج منزلك إذ أراد أن يبلغ شجرة برتقال فيقطف من ثمرها. قُتل المسكينُ بشهادة جارك عمّار قبل أن يقطف برتقالةً واحدةً! وليس مستبعَدًا إن أمكنكَ تخطّي الجدار ودخول منزلك أن تجدهم فيه وأن يقتلوك...

ودّعتُ سفيانَ على عَجلٍ وقطعتُ المكالمة حتّى لا أسمعَ مزيدًا من التّوهين، وقمتُ نحو الباب عازِمًا على الخروج فقام عبد العزيز وتبعني، ثمّ أوسع خطوًا فصار حذوي، وانطلق في تشييعي. اجتزنا العتبة وقطعنا الممرّ المبلّط بالحجر، وما إن توسّطنا الحديقة ذات الأشجار المتقاربة والإضاءة الباهتة حتّى رأيتُ ما أذهب عقلي وفؤادي: ألفيتُ قبالتي رجلًا ملتحِيًا ومُعمَّمًا، يرتدي جبّةً ويحمل عصا! كان حسن الصبّاح يسعى كأنّما انشقّت عنه الأرضُ أو قذفَته من السّماء صاعِقة رعديّة!، وهتف عبد العزيز: «حسن الصبّاحُ قد جاءنا بنفسه». وفي تلك اللّحظة الحاسمة عوض أن أفرّ هاربًا تفلَّتَ منّي نمرٌ استوائيّ وانقذَفتُ نحو غريمي بعينين مغمَضتين

وأعصابٍ محمومة. تلبّستُ صدرَه بقفزة مكينة فسقط على ظهره وركبتُ بطنَه ورحتُ أكيل لكمات عنيفة لوجهه المطروح. لم يقاوم ولم يصرخ وأنا أصبّ عليه نقمتي وغضبي، حتّى خطر لي أن أكفّ عن ضربه من دون أن أترك خناقَه. بدا لي آنئذ أنّ جسدَه يابس كخشبة أو كقطعة من البلاستيك الصّلب. كأنّه ليس جسدًا آدميًّا. وتناهت إلى سمعي ضحكة عارِمة من ورائي، ضحكة يقطعها السّعال كضحكة عبد العزيز، فبدأت قبضتي تتراخى، وأخذ عبدُ العزيز بكتفي يُقيمُني وهو يقول: «بلَغْنا الغايةَ وانتهى الدّرسُ. هذه آخر مرّة أجذب فيها أذنك أيّها التّلميذ الفاشل!».

أجذب أذنك؟ تلميذ فاشل؟ لقد أسمعني عبد العزيز مزيودات مثل هذا الكلام من قبل. وقال لي أيضًا: «سأعيدكَ إلى الفصل لأدرّسك من جديد فأنتَ لم تتعلّم منّي شيئًا»، وعلِمتُ آنئذ وهو يُقيمني عن الجسد الّذي لا روحَ فيه أنّي وقعتُ في فخٍّ، وأنّه قد وضع في طريقنا فزّاعةً لترهيبي. تملّكني غضبٌ استطعتُ كبْتَه، إذ طغى عليه شعور بالعزّة والنّصر جعلني أسكت عن فِعلة عبد العزيز فلا أصرخ في وجهه. استدرتُ نحوه فتهالك عليّ يحضنني وقال لي: «صدّقتَ إذن أنّ الصبّاحَ يمكن أن يقوم بعد أن بلِيت عظامُه ثمّ أُحرِقت، فيهجم عليك ويَثأر منك؟حسنًا، هذا ما يجدر بأستاذ درَسَ العلومَ العقليّة وترقّى في مدارج المعرفة.». عدنا إلى المنزل وأنا في حالٍ سيّئة بعد أن تمرّغتُ في الوحل ونزفَت رُكْبَتي، ووقفتُ قبالته والمفاجأة ماتزال تشلّ تفكيري، ثمّ أطلقتُ عينيَّ النّارِيّتين على حصون وجهه:

- كنتَ تختبرني إذن؟ أردتَ أن تضحكَ منّي وقد فعلتَ.

- كنتُ أختبرك منذ زمن. منذ اليوم الذي هاتفتَني فيه مرتعِبًا لتحدّثني عن اللّعنة التي أودعها الصبّاحُ في قبره وفي خنجره، زاعِمًا أنّ مقتلَ حطّاب بالخنجر دليل على صدق نبوءة الصبّاح، وأنّك مرتعب وتخشى أن تُقتَل به.

- ما زعمتُ شيئًا وما تقوّلتُ. رأيتَ بنفسكَ نبوءاته تتحقّق.

- ما كان لرجل مثلك أن يكفر بالعقل وبقوانين الفيزياء وعلم الأحياء نزولًا عند تخرُّقات مشعوذ مهما كانت براعتُه. كان أوّل درسٍ علّمتُك إيّاه أن يكون ديْدنك إعمالُ العقل، لكنّك رميتَ به عند أوّل مفترق، فآليتُ على نفسي إذ رأيتُك مرتعِبًا أن أتركك في ما أنتَ فيه حتّى أعلّمكَ الدّرسَ من جديد، وأشدّ أذنك شَدّة تجعلك لا تنساه ما حييتَ.

قلتُ له وقد بدأ الشكُّ يعصف بي:

- هل يعني ذلك أنّ تأويلاتك لرسوم الصبّاح وللنّقائش الحجريّة كانت تلاعُبًا بالكلام؟

- لا، لم أقل هذا. لقد ألغز الصبّاحُ بِذكاءٍ وتأوّلتُ مقاصدَه بِنباهةٍ، لكنّ ذلك لا يعني أنّي والصبّاحَ نابغتان مُلهَمان، فالرّموز الّتي تُعتمَد للإشارة إلى مكنوزات أو دفائن هي مواضعات صارت جيلًا بعد جيل محلّ اتّفاق، مثلما صارت الحروف رموزًا لأصوات والكلمات رموزًا لأفعال وأسماء. فَلو قلتَ لشخصٍ لم ير كتابةً طيلة حياته إنّ هذه الخربشات

الّتي تشبه أثر خنفساء على الوحل تدلّ على كلام ذي معنى لتملّكه العجَب الّذي كان يتملّكك وأنت تسمعُني أؤوّلُ رسومَ الصبّاح أو نقائش الباطنيّة.

بدأتُ أنكر نفسي وأنتبه إلى انحراف بوصلتي، لكنّني مضيتُ شوطًا آخر في المكابرة:

- لقد تحقّقت نبوءات الصبّاح أمام عينيكَ كأنّ الرّجلَ يعيش بيننا. رأيتَ ذلك وشهدتَه، مثلما رأيتُ وشهدتُ. كان عقلي يكذّب أو يتردّد، لكنّ قلبي يصدّق...

قلتُ ذلك وأنا أتفرّسُ في وجه عبد العزيز لأرى علامات التّردّد والحيرة، لكنّه واجهني بابتسامةٍ عريضة وعلى مُحيّاه علامات الارتياح والوثوق:

- عن أيّ نبوءات تتكلّم يا صاحبي؟ حين يتكهّنُ مُشعوِذٌ وهو يَستعرض نبوءاته للعام الجديد بأنّ كارثةً ستحدث في البلد، فإنّ كلامَه سوف يجد مِصداقًا في كلّ زلزال أو فيضان أو بركان أو اقتتال عشائريّ أو اغتيال سياسيّ أو انهيارٍ للعُملة... وما أكثر الكوارث إن عدَّدتَ! ولابدّ أن يحدث شيء من ذلك فيصيح الدجّالُ: لقد أنبأتُكم بذلك مِن قبلُ.

إنّ الصبّاحَ يُنبئنا بأنّ قبرَه سوف يُنهَب. فأيُّ غرابةٍ في ذلك؟ لقد كان الملوكُ والزّعماءُ والقادة العسكريّون في القرون الوسطى يَتركون وراءهم أحقادًا كثيرة، ويتوقّعون أن يقوم جرّاءها مناوئون لهم أو موتورون بِنهب قُبورهم وتَدنيسها، فيُوصون أتباعَهم

بإخفاء جثامينهم ودَفنها بعيدًا في فيافي خالية، ثمّ تَركض الخيلُ على مَدافنهم حتّى تُسوّى بالأرض وقد لا تُكشَف إلّا بعد مئات الأعوام. ألا ترى أنّ علماءَ الآثار ينبشون اليومَ قبورَ الفراعِنة الّتي ظلّت طيَّ الخفاء آلاف السّنين؟

قلتُ لعبد العزيز مُحاوِلًا نفْخَ روح التّحدّي في نبرتي المنكسِرة:

- فَما تقولُ في نُبوءة الصبّاح بأنّ خنجرَه هو الّذي سوف يَثأر من نابشي قبره؟

- لقد ترك للنّابِشين سببًا لِجريمة وأداةً لها، فماذا تتوقّعُ بعد ذلك؟ ترك بجانب قبره كنزًا من الدّنانير الذّهبيّة السّلجوقيّة أرشدَ إليه بِنقيشة سَهلة التّأويل، وفي قبره الخنجرُ المسنون. حين تترك في متناول الأطفال قدّاحة الكبريت وآنِيةً مليئةً بِوقودٍ سريع الاشتعال، يُمكنك التنبّؤ بِأنّ حريقًا سيندلِعُ. وما مِن نابش قبور إلّا يريد الاستئثارَ باللُّقية، فإذا كان بِيده خنجرٌ فإنّ أوّلَ ما يُفكِّرُ فيه هو الغدرُ بأصحابه! ثمّ لماذا تفكّر في ما توافق من النّبوءات مع الوقائع، وتُهمل ما كذّبَته الوقائع؟ أما أخبرتَني عن قول الصبّاح إنّ نابش قبره سيُدهَسُ دهسَ الحيّات؟ وإنّه سيُبقَر أو يُبتَر أو يُذبَح؟ وأنتَ أوّل النّابشين أراك سليمًا معافى.

كان ما يزال بِيدي حجرٌ فأردتُ أن أحذِفه إن أصابَ أو لم يُصِبْ:

- والفصلُ والميقاتُ يا أستاذي؟ والحِسابات الصّحيحة لِزمَن

انكشاف قبره؟

- سأقرأ المَزاميرَ بِهُدوءٍ وتمعُّنٍ وأُجيبُكَ عن كلّ تساؤلاتك، فإنْ هي إلّا خُدَعٌ تفعل بِذهنك ما يَفعل السّرابُ بعينيك، وإن التبس عليَّ أمرٌ لن أهرَع إلى الخُرافة، فالأصحُّ عندي أن أُرجِئَه حتّى تُتاحَ لي الأدواتُ العقليّة لِتفسيره...

تهالكتُ على المَقعد ورميْتُ أسلحتي المَثلومةَ الباقِية. نزعتُ السّرجَ عن راحِلتي وما عاد يهُمُّني إنفاذُ الماء إلى الجثّتين المُحَنَّطتين في القبر السّحيق. أيّ مرارة ترسَّبت في حَلق «دون كيشوت» حين عرف أنّه كاد يَهلَك في محاربة طواحين الرّيح؟ ومع الإحساس بالمَرارة انتابتني أيضًا فرحةٌ حقيقيّة، فرحة نائم أرهَقه كابوس شديد حتّى أفاق فجأةً فألفى نفسَه في فراشه الآمِن، فلم يجد ما يقوله غير تأنيب زوجته الّتي غفلت عن إيقاظه وتركَته كلَّ ذلك الوقت تحت هرْس الكابوس. قلت لعبد العزيز:

- فَلِمَ تركتَني أعاني كلَّ ذلك الرّهَق والألَم وقد كنتَ قادِرًا على تنبيهي حين زاغ فكري بِسبب ما سربلَني من الخوف؟

- أردت أن أتركك تتعلّمَ الدّرسَ بِنفسك وأن تَشقى في تحصيله، فكُلّما كانت عصا المُؤدِّب أوجع كان الدّرسُ أرسخ.

سكتَ عبدُ العزيز وسكتُّ، وأغمضتُ عينَيَّ أستمرِئُ طعم الطُّمأنينة، وأستلِذُّ سكينةَ الرّوح وصفاءَ البصيرة ...، أثِق كثيرًا بِما يعتقِدُه أستاذي عبدُ العزيز، ورأيه هو الرّأيُ الّذي كنتُ أعتقِدُه،

وقد كان يجدُر بِي أن أتمسّك به، لولا ما سُلِّطَ عليّ من رعبٍ شديدٍ شلّ تفكيري وضلّل بوْصلتي. كانت رحلةً طويلةً خطِرةً، طوّحَتْ بي في غياهب الأسطورة على مَشارف الجنون، فإذا رحلةُ الوَهم تقود إلى البصيرة، وإذا الخطَل طريقٌ إلى العقل. تذكَّرتُ وأعصابي تزداد ارتِخاءً أنّي جائِعٌ جدًّا، وأنّي أموت تعبًا، وأنّ النُّعاسَ يُثقِلُ جفنيَّ، فدخلتُ مطبَخَ عبد العزيز، مع أنّي لم أدخُلْه من قبل، وشرعت أزدرِدُ ما في ثلّاجته من مآكل، حتّى لحِق بي هناك يقول:

- لم تكن فكرةُ صنْع تمثال للصبّاح ووضْعه في طريقك مِن بنات أفكاري. فاروق النّابلسي هو الّذي اقترح عليّ ذلك وجلَبه مُوظَّفوه من المتحَف، وإلّا مِن أين لي ذلك التّمثالُ الشّائهُ وملابسُ القرون الوسطى؟

ندّت مِن تحت صرير أضراسي كلِمةٌ واحِدة: الوغد! وعدتُ آكُل بِنهَمٍ حتّى خطَرَ بذهني سؤالٌ لا يُمكن تأجيله:

- كيف عرفتُما أنّي عازمٌ اللّيلةَ على العودة إلى منزلي لتلك الغاية، فوضعتُما خطّةً وجلبتما فزّاعة؟

- لقد مرّ بنا سفيان فأخبرنا بالأمر، وترجّانا ألّا ندعك تذهب إلى منزلك الملغوم. حدَّثنا عن المطاردة المثيرة التي نجا من ويلاتها، وعمّا كنت تعتزم من المجيء إليّ لاستقراء الرُّسُوم لولا إلحاحُه عليك للبقاء... وقال لي فاروق وهو عارِفٌ بالباراسايكولوجي وبِعلْم النّفس إنّ هروبَك مِن عدُوِّكَ يَزيدك هلعًا، ويزيد حالَتَك النّفسيّةَ سُوءًا. لابدّ لك مِن

وَقْف الهروب ومُواجهة عدوّك، فتبلُغ آخر حدود الرُّعْبِ ويَسقط عنك الهلع بعد ذلك بلا رجعة وتَمتلِك وجدانكَ، لِذلك فكَّرْنَا في نَصْبِ فزّاعةٍ بِهيئة حسن الصبّاح نستدرجك نحوها.

كنتُ أتأهّب في تلك اللّيلة لِمَتاعِبَ شديدة، وكنتُ مُستَنفَرًا لِدخول منزلي، تجري الرّيحُ مِن تحتي، لكنّي صرتُ بعد ساعةٍ شبعانَ متخَمًا، مُتهالِكًا مُتعَبًا، أكادُ أعجزُ عن جرِّ قدمَيَّ! فاتّجَهتُ نحو غرفة الضّيوف ذات السّرير الفرنسيّ وتهالكتُ عليه. كانت عينايَ قد بدأتا تنغلِقان وفوق رقبتي صخرةٌ ثقيلةٌ، وما كان لي إلّا أن أنامَ أو أقعَ جيفةً. وإذا عبد العزيز يلحقني ويقول:

- أوه. ما بالُك تستعجلُ النّومَ؟ علينا أن ننتظر وصولَ فاروق فهو في الطّريق إلينا لِنُكمِل السّهرةَ حتّى الفجر. إنّ صاحِبَك الصبّاح يدّخر لك هديّةً سيُقدِّمُها إليكَ اللّيلةَ!...

«حيلة أخرى من الوغد فاروق؟!» فكّرتُ في ذلك ولم أقُلْه، وعبد العزيز يستطرد:

- لا تُفكِّرْ في النّوم الآن، فهذه ليلتُكَ الّتي لن تنساها ما حييتَ.

قلتُ مترجّيًا:

- دعْني أَنَلْ غفوةً. وأيقِظْني إن شئتَ حين يصل فاروق.

- وهديّة حسن الصبّاح؟

- اقذفْ بها وجهَه الحقود.

سقطتُ في نوم عميقٍ، عميقٍ جدًّا كأنّه اليقظة! وهناك التقيتُ فاروق النّابلسي. قلتُ له: «هربتُ منك في اليقظة فوجدتُكَ في المَنام. مِن أيّ طينة أنتَ يا رجُلُ؟»، قال: «أتحسب أنّ بين النّوم والصّحْوِ أسوارًا ومَراتيج؟ إنْ بينهما إلّا سطرٌ رقيقٌ قد خُطَّ بِقلَم رصاص. خُذ الممحاةَ، خُذ وامْحُ هذا الحدَّ الكاذب». فعلتُ ذلك، فكَمْ كان السّطرُ مَيْعًا هَباءً! وكَم كانت الممحاةُ ممحاةً! احتضنني فاروق في المنطقة الحدوديّة بين الصّحو والمَنام حيث كانت بوّابةُ قلم الرّصاص الّتي محوتُها وقال لي: «اترك السّرير، بئْس الثّواء إلى الأسرّة، وتعالَ لِنتحدّث... أخبَرَني عبدُ العزيز أنّك ارتعبتَ لرؤية الصبّاح في حديقة المنزل، فسقط عن رقبتكَ نَيرٌ، فقفزتَ إلى رقبته فطرحْتَه أرضًا وأدميتَ وجهَه. ولذلك عاد إليك الآن مستسلِمًا، يَعرض عليكَ متاعكَ الّذي سرقَتْه منكَ الباطنيّة. ها هو يُقرفِصُ عند الباب على استِحْياء بعدَ أن كشفتَ ألاعيبَه، وفي مِخلاته خيرُ ما تتمنّى ... أقسِمُ لك!».

كان الحدُّ الفاصِل قد انتفى بعدَ أن دهَسَتهُ الممحاة جيئةً وذهابًا، فانتهز عبدُ العزيز الفرصةَ وقفز إلينا حيثُ كنّا نغُطُّ في صحْوٍ عميق وقال لي: «إن كنتَ قد شُفيتَ من الصبّاح بعدَ أن أكل عقلكَ، أو طَهُرتَ مِن أدران الوهْم، فاخرُجْ إليه تحتَ جُنح الظّلام واجْلب الهديّةَ المزعومة مِن مِخلاته، واحذَرْ أن يرمي أنشوطةً في رقبتك!» ضحِكتُ حتّى كدتُ أستلقي، كان امتحانًا لا يستحقّ غير السّخرية، مع أنّ ذلك لا يُقال في حقّ عبد العزيز. سألتُه بتهكّم:

– ماذا تقول يا أستاذي؟ هل تظنّ أنّي أخافُ من فزّاعة أو حَمّالة ملابس حتّى إن كان اسمها زعيم الحشّاشين؟

قمتُ ومشيتُ حتّى بلغتُ العتبةَ. كان المطرُ يهطلُ وأصواتُ المظاهرات اللّيليّة البعيدة لا تكفّ عن الهدير. اجتزتُ العتبةَ وخطوتُ، فواجهتني الفزّاعةُ قُبالة الباب. الفزّاعةُ الّتي تركْتُها مُسربَلَةً بالوحل والعار، مطروحةً على ظهرها عند طرف الحديقة ألْفيْتُها مُنتصِبةً أمام الباب أشأمَ مِن عنقاء أهلِ الرّسّ!

علِمتُ أنّه فِعْلُ فاروق، فقد أقامها وقرّبها وهو يَعلَم أنّ الفزّاعة إن سقطت لا تقوم:

أَرَبٌّ يَبُـولُ الثُّعْلُبان بِرأسـه؟ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

وقفتُ أتأمّلُها وأعجَبُ لِبراعة تَصميمها. كانت تتدلّى عند جنْبها مِخلاةٌ، فلمّا أزحت غِطاءها المُسبَل عليها رأيتُ فيها ورقةً هممتُ بِأخْذها، ثمّ خطر لي أن آخذَ المِخلاةَ كلَّها، فأسبلتُ عليها غطاءَها مِثلما كان وهممتُ بِنزْعها عن الكتف اليابسة لولا أن خطر لي أخذ الفزّاعة كلّها! التحَمتُ بِحسن الصبّاح، فجعلتُ ساعِدًا عند ظهره وآخر تحت مؤخِّرته وحملتُه. كان المسكينُ مهزولًا لِفرطِ ما عانى من الجوع والعزلة والخوف في قلعة ألَموت الجدباء. حملتُه واستدرتُ عائدًا ودخلتُ به المنزل، فأمكنني تأمّل حسن البائس تحت ضوء المصباح الكهربائيّ، ورغم كلّ سيّئاته فقد آلمني أن أراه بِمثل تلك الهيئة الرثّة. كان مبلَّلًا تقطر أسمالُه مِن عشرين موضِعًا، وقد عبثت الرّياحُ العاوِية بِلحيته الكثّة وعِمامته التّقيّة، لكنّ عينيه مازالتا تَبعثان بريقًا مُؤثِّرًا ككلّ القادَة المَرهوبين...، تصايح فاروق وعبد العزيز إعجابًا، إذ لم يدُر بِخلدهما أنْ أسحَب الصبّاحَ كدُبٍّ

قطبيّ حتّى أدخُل به عليهما. لم أهتمّ بهما، بل انفردتُ بِفريستي أفحصها، ثمّ أزلتُ عن المخلاة غطاءها وأخرجتُ الورقةَ الّتي وُضِعَتْ فيها، فإذا هي جافّة لم يبلغها البللُ رغم كلّ الهطْل الّذي لم يتوقّف منذ ساعات، فعلمتُ أنّ الورقةَ قد وُضِعت منذ زمنٍ وجيز. وضعها في المخلاة فاروق النّابلسي وهو داخِلٌ إلينا قبل قليل. أخذتُها من غير حماس، إذ ليس من طبعي الطمع في مرغوبٍ أو الذُّعر من مرهوبٍ، نشرتُ طيَّها وقرّبتُها مِن عينيّ فإذا هي تتضمّن استدعاءً لي من أجل المثول أمام فرقةٍ عسكريّة للتّحقيق! بهتُّ ونفضني الهلع إلى حدٍّ لم أعرف له مثيلًا حتّى حين كان الخنجر الأبلق قاب قوسين من بطني. قفزتُ آنئذٍ من غياهب النّوم إلى مِنبَر الصّحو شاهِرًا حنجرتي ولساني، وأردتُ أن أصرخ بفاروق وعبد العزيز عسى أن يتكلّما ويُفسّرا لي ما أرى، لكنّي لم أستطع كلامًا. هل يَبرد اللّسانُ وتجِفُّ الحنجرة فيَعجزان عن الكلام حتّى بعد اجتياز الخطّ الفاصل بين الصّحو والمَنام؟ ثمّ تكلّم فاروق بعد لَأْيٍ مِن فوق تلّة صحْوه العالية:

- هذه هديّة الصبّاح إليك. لقد باعك رؤوس أتباعه، والشّرطة العسكريّة تدعوك لتشهد عليهم.

ازددتُ بهتةً وازدادت حُنجرتي جفافًا، لكنّ عينيّ كانتا تُلحفان في السؤال، فضرب فاروق على كتفي وقال:

- لقد داهمَتْ فرقةٌ من الجيش الوطنيّ منزلكَ البارحة. فاجؤوا عصابة الخوجة وقبضوا عليهم.

- حقًّا؟ الجيشُ داهم منزلي؟ أأنتَ مَن أوعزْتَ إليهم بذلك؟

- نعم. أخبرني عبدُ العزيز بِما تجمّع لديك ولدى سفيان من معلومات عن استقرار أفرادٍ من الحشّاشين بِمنزلك، ربّما كانوا قادَتَهم، وإحاطته بِقنّاصةٍ وبِكاميرات مُراقبة، فقصدْتُ الثكنة إذ ما عاد لي مِن ثقةٍ بِغير الجيش الوطنيّ. أرادوا أن يصطحبوا ربَّ المنزل عند المداهمة وسألوني عنك فأخبرتُهم أنّك بباجة، بِأحد أريافها القصِيّة، فطلبوا منّي اصطحابَهم واستجبت. كانت ليلةً ليلاء يا صاحبي.

سكت فاروق فجأةً غيرَ مُبالٍ بِجفاف حنجرتي وجُحوظ عينيّ، وتكلّم عبدُ العزيز فقال بِلهجةٍ ساخِرةٍ:

- قبضوا عليهم واعترفوا وأفصحوا عن شركائهم ووُضِعت الأكبالُ في مَعاصمهم من دون صَبِّ ماءٍ على جثّتَي حبيب ومَريم، ومن دون إبطالِ السّحر القديم.

قرصَتني تلميحاتُه لكنّي لم أهتمّ. كان كلّ همّي أن أستفسِر من فاروق عمّا حصل فقال:

- فوجِئ الجُناةُ بالجنود يَقفزون مِن فوق السّور من الجهات الأربعة. أمّا القنّاصةُ فوق السّطوح فلم يُطلقوا النّار ليقينهم من أنّ المواجهة مع الجيش ستكون قاصِمةً لظُهورهم. وداخِلَ منزلك، حاول ذاك الّذي سَمّى نفسَه ميرزا أن يطلق النّار لكنّه سرعان ما رمى المسدّس إذ أيقن أن لا جدوى مِن ذلك، واستسلم معه هنديّان أشنبان، فيما عمد رابِعُهم

ذو اللّحية الكثّة الّذي يسمّونه جايا إلى إطلاق النّار على رأسه، ثمّ استخرج الجيشُ وثائقهم مع مسدّسات وذخيرة من حفرة في الحديقة دلّوهم على مكانها، واتّضح أنّ الأسماءَ الّتي أدلوا بها أوّل الأمر مزيّفة.

في الثّكنة العسكريّة سمّوا شركاءَ لهم مِن أجانب رافقوهم ومِن أبناء الوطن الّذين تعاملوا معهم، أحدهم صاحبك مصطفى الّذي زيّف وثائق إداريّة حتّى سهّل لهم امتلاك منازل وأراضيَ منها منزلك وأرضك. وأنتَ مدعُوٌّ غدًا للمُثول في الثّكنة العسكريّة والشّهادة على تعامله مع العصابة الأجنبيّة، واستيلائه على الخمسين ألف دولار الّتي حدّثتَ عنها عبد العزيز. لقد أخبرتُهم بكلّ ما أعرف عنه، وأظنّ أنّه صار الآن رهنَ الاعتقال...

سمعتُه ذاهِلًا كأنّي أتابع أطوارَ شريطٍ سينمائيّ عجائبيّ. تساءلتُ في سرّي: متى حدث كلّ ذلك؟ وكيف جرت كلُّ تلك الوقائع من دون أن أدري وقد كنتُ أظُنُّ أنّي حامِلُ لواء مُقارعة الباطنيّة؟ وجدتُ العُذرَ لِنفسي وما لُمْتُها، فقد غرِقتُ في سُبات اليقظة، وتهتُ زمنًا في دياجير الخرافة، وتوهّمتُ ما لا يكون حين كانت الأحداث تجري بشكلٍ مُغايرٍ! وبينما أنا أجادل نفسي قال فاروق وهو يهمّ بالقيام: «لكنّ أمرًا عجبًا رأيتُه من الباطنيّة ولم أدرِكْ مغزاه، فعندما داهموا منزلك ألفيناهم قد وضعوا غطاءً بلاستيكيًّا كبيرًا فوق قبر زعيمهم رغم أنّ القبر فارِغ ومُحترِق، فلِمَ كانوا حريصين على حفظه من البلل بِماء المطر؟»

صباحَ اليوم التّالي هرعتُ إلى منزلي قبل أن أقصد الثكنة العسكريّة. كنتُ مسرورًا جدًّا بِعودتي إليه كمُرحَّلٍ عن وطنه قد عاد بعد عقْدٍ من الطّرد والتّهجير. أردتُ فتحَ باب السّور فلم ينفع المفتاحُ القديمُ للقُفل الجديد، ورأيتُ أمام منزل أحد الجيران قِطَعًا من الآجرّ فأسرعتُ بإحضارها، وجعلتُ بعضَها فوق بعضٍ حتّى أمكنني اعتلاء السُّور والقفز نحو الداخل. كانت أبواب الغُرف مُخَلَّعةً وتحت السفرجلة آثار دماء. لبثت أجول بين غُرف المنزل وأروقته أقبّل هذا الجدارَ أو تلك السّارية، ثمّ خرجتُ إلى الحديقة واتّجهتُ إلى غرفة المُعِدّات فأخرجتُ قضيبًا حديديًّا طويلًا ثخينًا، ومطرقةً ثقيلةً وقصدْتُ قبرَ الصبّاح. أردتُ القيام بالعمل الأخير الّذي لابدّ منه: أن أعرف إن كان تفسيري للمزامير صائبًا، وإن كانت تأويلات عبد العزيز للنّقائش صائبةً أيضًا. فإن كنّا قد أحسنّا التّفسيرَ والتّأويل لن ألبث أن أجد تحت قبر الصبّاح تجويفًا فارغًا هو قبر حبيب بن أوس ومريم المكتومة. سوف أُسأَل كثيرًا في الأوساط الأكاديميّة عن هذا الأمر ولا بدّ لي من معرفة مدى صحّته. نزلتُ القبرَ فثبّتُّ القضيبَ في تربته، وجعلت أضربُه بالمطرقة ضربًا قويًّا متتابِعًا فينغرز رويدًا رويدًا حتّى كانت ضربةٌ مكينة أحسستُ بعدها أنّ القضيبَ يدخل منطقةً فارِغةً فيَمضي بسهولةٍ وسرعةٍ، فلمّا شفَعْتُها بأخرى سقط القضيبُ وبقي الثّقبُ الأسودُ فاغِرًا كبلعومٍ مفترِس.

قرّبتُ منه وجهي علّي أستبينُ شيئًا وراء سواد الثّقب فزكمت

أنفي رائحةٌ نفّاذة أحسستُ لسْعَها في دماغي حتّى إنّي ترنّحتُ، وخشيتُ أن يُغمى عليّ فوضعتُ مرفقيّ على جانِبَي القبر وقفزتُ خارِجًا.

بعد مُداهمة الجيش منزلي صارت القصّةُ علنيّة وعُلِّقَت على حبالِ الغسيل فوق كلّ بيت. صار النّاسُ يتحاكوْنها بِألف لسان وألف رواية: زعموا أنّ الجيشَ الوطنيّ قد اكتشف سراديبَ وأنفاقًا طويلة واسِعة تحت الأرض، بِعمْق سبعين مترًا، وأنّها المَحَجّ السرّيّ لِطائفة الحشّاشين وفيها قبرُ زعيمهم حسنُ الصبّاح الّذي صُنِع تابوتُه من الذّهب الخالص... وقيل إنّ الحشّاشين يَنزلون إلى سراديبهم بإجراء طقوسٍ سحريّة فتنشقّ الأرضُ لِنُزولهم وتنشقّ بعد ذلك لِخروجهم... وفي تلك الأقبية النديّة بجوف الأرض يُمارسون طقوسَ حَجِّهم وعباداتهم الغريبة فيَطوفون حول القبر سبْعًا، ويَرمون الجمرات، لكنّ أهمّ طقسٍ عندهم هو ذبْحُ الأطفال فوق القبر، لذلك هم لا يتورّعون قبل نزولهم أرضًا عن خطْف أيّ طفلٍ في طريقهم حتّى يجعلوه ذبيحةً لِزعيمهم...

قيل أيضًا إنّ زعيمَ القتّالين كان صديقَ ذي القرنيْن وصِهْرَ الفرعوْن الأكبر، وإنّه قد دُفِن من دون أن يموت، إذ خطر له أن يأمر يومًا أتباعه بعد أن عاش خمسمئة سنة: أُدفنوني فورًا فقد سئِمتُ من وجوهكم!!

وزعم البعض أنّ الجنود فتحوا قبرَه منذ أيّام فوجدوا جثّتَه سليمةً طريّةً كأنّه استلقى منذ ساعة لِينالَ قيلولة، وسمِعوا صوتًا

يقول: «أُخرُجوا عنّي، أما قلتُ لكم إنّي قد سئمتُ وجوهكم!» فارتعب الجنود وأغلقوا عليه وفرّوا. لكنّ جنودًا آخرين استخفّوا واستهتروا، فجاؤوا في اليوم التّالي لتصوير القبر وإجراء المَسح والقياسات وعندئذ وجدوا جثمانَ الشّيخ قد انقلب جثمان طفلٍ في نحو الرّابعة من عمره... «حتّى في قبره مازال زعيمُ القتّالين صِهرُ الفرعوْن الأكبر يَصنع المعجزات جاعلًا جُثَّته الهرِمة فتِيّةً بِريعان طفولتها...»

قلتُ لفاروق وعبد العزيز وأنا أضرب كفًّا بِكفٍّ:

- يبدو أنّ قصّةَ الصبّاح لن تنتهي أبدًا. إنّه ينبعث كلَّ مرّة من رماده كطائر الفينيق!

فزمّ عبدُ العزيز شفتيه كعادته حين يُبدي أسفًا بالِغًا ووضع يدَه على كتفي وهو يقول:

- ليس الصبّاحُ هو الّذي عاد فتِيًّا في القبر، ولكِنّها أسطورتُه قد عادت إلى طفولتها وإلى بداياتها في عقول النّاس وقُلوبهم، ولَسوف تتجدّد مرّةً أخرى وتكتسي ثوبًا أكثر أسطَرةً وأبعد تخييلًا وأوغل في الخرافة! فهكذا كانت طوال التّاريخ تُبنى الأساطيرُ وتتطوّر: كلُّ جيل يَزيدُها تنميقًا ويُضيفُ إليها فُصولًا أكثر غرابةً.أؤكّد لك أنّه بعد مئة عام سيكتب أحدُ أحفادك روايةً أخرى عن قيامة الحشّاشين، وستكون أكثر تشويقًا وإمتاعًا بِقَدر ما تُجرّد الصبّاح من آدميّته البسيطة، وترفعه إلى مقام الآلهة أو تُركِسُه في مقام الشّياطين.

الهادي التيمومي

 روائي وكاتب تونسي وُلِد سنة 1968 بِقرية نصرالله مِن ولاية القيروان، حيث زاول تعليمه الابتدائي ثمّ الثانوي حتّى حصوله على شهادة الباكالوريا في شعبة الآداب، ثمّ زاول تعليمه الجامعي بِدار المعلّمين العليا بِسوسة، ضمن تخصّص اللّغة العربيّة وآدابها، ويعمل حاليًّا موظّفًا بوزارة البيئة بتونس.

 من إصداراته الروائيّة:

- **ملح قرطاج، حكاية من العالم السّفليّ**، عن دار الجنوب للنّشر، سلسلة «عيون المعاصرة»، تونس 2013.
- **يسقط الشاه**، عن دار سحر للنّشر والتّوزيع، تونس 2015.
- **الطاووس والغربان أو كليلة ودمنة مرّة أخرى**، عن دار مسكيلياني للنّشر والتّوزيع، تونس 2019.
- **قيامة الحشّاشين**، عن دار مسكيلياني للنّشر والتّوزيع، تونس 2020.

 يصدر له قريبًا:

- **قبّعات متكبّرة**، عن دار مسكيلياني للنّشر والتّوزيع، تونس 2021.

صدَر للمؤلّف نفسه
عن دار مسكيلياني

الطاووس والغربان
(أو كليلة ودمنة مرّة أخرى)
المؤلّف: الهادي التيمومي
البلد: تونس

كُلّما جُنّ العالم احتاج إلى عُقلائه وذوي الرأي فيه، وكُلّما استنجدت الحياة أنجدها الأدب، فهل ثمّة مثل بيدبا فيلسوفًا ينثر الأمثال والعِبر أمام الملك دبشليم فإذا هي حكمة تسعى؟!

لكتاب «الطاووس والغربان» بَيْدَبَاهُ ودَبْشلِيمُهُ، والحالُ الحال وإن اختلف الزمان، والغاية شبه الغاية، ولكن لا كليلة ولا دمنة، بل مُتسلّق فظّ اسمه «مرجان» أدّبته خنازيره وكلابه التي يُربّي عوض أن يُؤدّبها، واعتنق مذهب «مكيافالي» من دون أن يقرأ له سطرًا واحدًا، هو خيط السرد الناظم ومُحرّك أحداثه، وقبل هذا وذاك هو صورة من صُور السوس إذ يسوس، فينخر جسد البلاد ويُثقل كاهل العباد، والبلاد بلادُنا، ولا عباد سوانا.

رمزي بن رحومة

صدَر مؤخّرًا عن دار مسكيلياني

حفرة إلى السماء

المؤلّف: عبدالله آل عياف

البلد: السعوديّة

«مجهرة» مسكن الأساطير ومقبرة الأحلام، فيها من أساطير الأوّلين والآخرِين وحكايات الجنّ ورؤى الصالحين وقصص القادمين إلى هذا المكان اللغز، قرية كبطن الحوت تبتلع الناس ولا تُعيدهم إلّا في صور ذكرياتٍ أو رموز أحلامٍ ترى فيها الإنسان كالذئب تارةً يأكل لحم أخيه وطورًا يحنو عليه فإذا هو حميم.

وليست مجهرة إلّا صورةً مصغّرةً عن الأرض/ الأمّ، ينشأ منها الإنسان وإليها يعود في دورةٍ أبديّةٍ بين رَحِمَيْنِ: رحمِ البداية ورحمِ النهاية. يغادر الجدّ/ الأصل «سالم الجبر» هذا العالم، لكنّ الكون يأبى الفراغَ والنقصانَ فيُجهض القبرَ في غير وقتٍ بالحفيد/ الفرع «غيث»، في لحظةٍ عجيبةٍ يتقاطع فيها قطبان حُدوديّان هما الموت والحياة ويلتقيان في حفرةٍ واحدةٍ: «حفرة إلى السماء» لا «سالم» فيها سالم ولا «غيث» غيث.

رضا الحسني

نازلة دار الأكابر

المؤلّفة: أميرة غنيم

البلد: تونس

تلتقط هذه الرواية ببراعةٍ منعرجاتٍ مهمّةً من تاريخ تونس المعاصر، بل تاريخها الراهن أحيانا، وفيها يغدو البحث عن السُّلالة وأسرار «البَلْدِيّة» إيذانًا بالبحث عن الذات ومعنى الوطن وتاريخه، بيد أنّه تاريخٌ آخر يكتب من خلال حكايةٍ مُتخيَّلة بطلُها المصلح الكبير الطاهر الحدّاد. وعلى الرغم من أنّ المراجع التاريخيّة لا تذكر شيئًا عن علاقة الحدّاد بالنساء عدا دفاعه المستميت عنهنّ فإنّ صاحبة الرواية تجزم، بقوّة الخيال، أنّه عشق «للاّ زبيدة». لذلك لن يرى القارئ في المستقبل سيرةَ الحدّاد من غير حبيبته زبيدة. وهذا من سحر التخييل الروائيّ وعلى المؤرّخين أن يكذّبوا الروائيّين إن وجدوا سبيلًا إلى وثيقةٍ أو شهادة وأنّى لهم ذلك.

لقد شبّهتُ مرّاتٍ قصّةَ تونس غير المكتوبة بالفسيفساء البديعة لثرائها وفرادتها. وأكبر ظنّي أنّ رواية أميرة غنيم هذه، إذ تروي ببراعةٍ ومعرفةٍ عميقة شيئًا من قصّتنا التونسيّة، ستحتلّ، ولا ريب، موقعا ممتازًا ضمن مدوّنة السرد العربيّ، وهي إذ تعرض علينا قصّتنا تمنح النساء الصوت الأعلى لروايةِ فصولٍ من تاريخ البلاد السرّيّ، أَفَلَسْنَ هُنّ حافظات الذاكرة الحقيقيّة وفاضحات الذكوريّة البائسة؟

شكري المبخوت

عيد ميلاد أسمهان

المؤلّف: إبراهيم جابر إبراهيم

البلد: فلسطين

«الأوهام ضروريّةٌ، وَلعلّها أهمّ من فكرة الأهداف. فكرةُ أن يكون لك هدفٌ في الحياة فكرةٌ مدرسيّةٌ لا أحبّها. أشعر أنّها توضع لعرقلة الأحلام اللّذيذة وجعلِ الحياة أصعبَ ممّا هي عليه في الحقيقة.»

بهذا القول تكشف لنا أسمهان عن ذاتها. إنّها طفلةٌ مضتْ حياتُها بسُرعة الضّوء، فَفُوجِئَت بنفسها تستعدُّ للاحتفال بعيد ميلادها الثّلاثين. طفلةٌ كبيرة تُقاوم جفاف الحقيقة بطقوس وأوهام كثيرة، تُحبّ الشِّعر والفساتين وَالعطور، وتخافُ أن يمضي قطار حياتها نحوَ آخر محطّاته دُون أن يتوقّف عند الحبّ وَلو قليلًا. فهل ستمنحها الحياة فرصة ثانية؟ تقول أسمهان: «من الّذي اخترع مُصطلح الفُرصة الثّانية؟ من المُؤكّد أنّه كان شخصًا يفشلُ في المرّة الأُولى من كُلّ شيء.» وَتضيفُ مُخاطبةً نفسَها: «أنتِ امرأة صغيرة في غابة مَلعونة، والنّاس من حولك ألغامٌ موقوتة.»

لا تعلمُ أسمهان ما إذا كانت هذه الألغام ستنفجرُ داخلها أم بالقُرب منها. وَهذا ما يحدث معنا جميعًا... فمن منَّا يعلمُ متى ينفجرُ النّاس وَأين؟

هذه روايةٌ تحفر مسارها بعيدًا عن القضايا الكليّة والمواضيع الكبرى، وتبني تفاصيلها من تفاصيل الإنسان، إنّها رواية عمّا يحدث داخل الكائن لا حوله.

يحيى العدّاسي

حذاء إسباني

المؤلّف: محمّد عيسى المؤدّب

البلد: تونس

هل انتهت الحرب الأهليّة الإسبانيّة بانتهاء زمن الصّراع والقتال، أم ظلّت أبوابها مشرّعة على المجهول والمنسيّ من آلام الضّحايا واللّاجئين؟ وكيف كانت آثار الحرب أكثر حزنًا وألمًا من سنوات الحرب نفسها؟

بعد ستّ وسبعين سنة تلتقي صحفيّة إسبانيّة بصديق ضابط مشاة البحريّة الإسبانيّة مانويل قريقوري للتقصّي حول حياة الضّابط واللّاجئين الإسبان الذين هربوا من جحيم الحرب ومن مطاردات فرانكو لهم انطلاقا من ميناء كارتاخينا نحو ميناء بنزرت سنة 1939 .

تدور أحداث الرواية في زمن الحرب وما تلاها من تحوّلات ومحن، وفي زمن الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسيّة والحرب العالميّة الثّانية وحرب 48 وما بعدها. وتجري في أرض المعركة بكارتاخينا أو قرطاجنّة الإسبانيّة وفي أرض تونسيّة مُحاصرة بالاستعمار والفقر والخوف، حتّى لكأنّ آثار الحرب الأهليّة الإسبانيّة تتجاور مع حركة المقاومة التونسيّة لتكون رحلة هروب اللّاجئين نحو الحريّة هي الرّحلة نفسها نحو التحرّر من الاستعمار.

شوقي العنيزي

عين حمورابي

المؤلّف: عبداللطيف ولد عبدالله

البلد: الجزائر

«كلّ ما قد يُخفيه الصوت تطلقُه نظرةٌ واحدةٌ»، ومن «عين حمورابي» تنبعث نظراتٌ تتفجّر قصصًا بعضُها عند البطل حقيقةٌ وبعضُها وهمٌ، يفصل بينها خيطٌ رفيعٌ. فتراها تتداخل تداخلًا عجيبًا حتّى يذوب الصوت في صداه والوجه في قفاه، وتتشابك خيوط اللعبة سردًا مربكًا يسائل الإنسان فينا عن جدوى هذه الحياة، وعمّا إذا كان في وسعنا أن نكون بلا تاريخٍ وبلا ذاكرةٍ، أو أن نكون نحن وقد ضاعت أبعاضنا في دروب الوحوش البشريّة؟!

من داخل مكتب التحقيق يسافر بنا البطل في المكان والزمان فيتحوّل الهارب من الموت إلى مهرّب حكاياتٍ يُغوي المحقّق بفتنة السرد، تمامًا مثل شهرزاد، حتّى يؤجّل طوفان الغضب المنتظر خارج الثكنة وسَيْلَ اتّهاماتٍ لا يعرف حقيقتها، بل يتحوّل من هاربٍ من الموت إلى سائرٍ إليه بإرادته.

لقد ردّه الموت مرارًا حين سار إليه، ودفعه دفعًا إلى الحَفر في تاريخٍ فرديٍّ طمسته ذاكرةٌ معطوبةٌ وتاريخٍ جماعيٍّ يحاول هذا إنقاذَه من أيدي العابثين ويتجاهله آخر فيراه تافهًا أمام سطوة المال. وحسنًا فعل الموت، فقد فتح لنا من لذّة القصّ ما قد يُنسي الإنسان بعض أوجاع التاريخ.

رضا الحسني

المائدة الربّانيّة
المؤلّف: دونالد رَي بولوك
البلد: أمريكا
ترجمة: مهدي سليمان

بعد روايته الأولى «شيطان أبد الدّهر» يُواصل دونالد راي بولوك في رواية «المائدة الربّانية»، الكشفَ عن زيف الأساطير المؤسِّسة للحلم الأمريكيّ وإبراز تهافتها من الداخل، مستعينًا في ذلك بذاكرة الذات الجمعيّة، أي تلك الذات التي وعدتها المؤسّسات الرسميّة بالرّفاهِ في السّماءِ مقابل الاستعبادِ في الأرض.

في هذه الرواية، يعود بنا بولوك إلى سنة 1917، السنة التي قرّرت فيها الولايات الأمريكيّة دخول الحرب العالميّة الأولى، ويعرض علينا قصّةَ مزارع وأبنائه الثلاثة، قصّة فقرٍ مُعْلَنٍ مقابل وعودٍ هلاميّة بالرّفاه في الفردوس. ولكن حينما يموتُ الأب، ينتفض الأبناءُ على تلك الأساطير الطهرانيّة، ويتحوّلون إلى لصوص بنوك دمويّين.

يقدّم بولوك صورةً حيّةً ساخرة عن تمزّقاتِ مجتمعٍ يُهرول نحو المكْنَنة، واستعباد العمّال، مُعليًا قيمة التقدّم على حسابِ الطّيّبين الأبرياء المواظبين على ترديد صلواتهم. ويرسم على شاكلة لوحات «جيروم بوش»، مائدتَهُ الربّانية، مائدة تتوّزعُ فوقها أطباقٌ رهيبة تعكسُ شهوةَ مجتمعٍ إلى الهمجيّة والقتل، وانحلالهِ التدريجيّ، فيما تواصل مؤسّساتهُ الرسميّة «طبخَهُ» إيمانيًّا، وتعزّز قبضتها عليهِ.

وليد أحمد الفرشيشي

عنف الدكتاتوريّة

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: فارس يواكيم

دشّن مارتن لوثر عهدًا أبرزُ شعاراته: «الحرّيّة للإنسان المسيحيّ»، لكنّه سرعان ما أُغلق بمجيء جان كالْفِن، الدكتاتور الدّينيّ الذي أوْصد بابَ تأويل الإنجيل بتأويله، وعدَّ كلَّ خروجٍ عنه إجرامًا في حقّ الله والدولة، تمامًا كما يفعل «حُماة الربّ» و»الناطقون باسمه» دومًا، حتّى فاق إرهابُه ما فعلته محاكم التفتيش البابويّة.

لكنّ الفكر الحرّ المؤمن بأنّ الإنسان جوهرُه الحرّيّةُ ينبثق من حين إلى آخر في وجه الدكتاتور ليكشف عورات الفكر الأحاديّ ويعرّي الشرَّ الضارب بعروقه فيه وينادي بسيادة الإنسان على ضميره. كذا شأن سيباستيان كاستيليو، رجل أدرك خطورة كالْفِن وخاض بالعقل ملحمةَ مقاومةِ الأحقاد البشريّة والدفاعِ عن الحقّ في الحرّيّة بعيدًا عن وصاية الكهنة ودَجَلِهم «المقدّس».

كان زفايغ يعي جيّدًا أنّ الحروب تقود العالم إلى الهاوية، فوجد في عددٍ من الشخصيّات التاريخيّة أصواتًا تقنّع بها ليُدين الحربَ والتسلّطَ ويدعو إلى السلام وتحرير الإنسان من كلّ أشكال الديكتاتوريّة، لإيمانٍ عميقٍ في نفسه بأنّ الحرّيّة وحدَها أبديّةٌ لأنّها الأصل وأنّ كلّ عنفٍ إلى زوالٍ لأنّه طارئٌ على الإنسانيّة هجينٌ.

رضا الحسني

من يقطف ثمار التغيير؟

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: فارس يواكيم

التعصّب وحشٌ يدمّر كلّ وفاقٍ، نظامٌ فكريٌّ منغلقٌ يهدّد الإنسانيّةَ جمعاء. هذا أحد مبادئ فلسفة «إيرازموس»، المعلّم المصلح. لكن هل يكتفي المفكّر في الأزمات السياسيّة العنيفة بالانسحاب وراء مكتبه والتزامِ الحياد البارد كي يكون صديق الجميع، أم عليه أن يصدع بموقفه وإن كان في ذلك سيره إلى المحرقة؟ هل يكون التغيير فعلًا معتدلًا ناعمًا تخطّط له جمهوريّةُ العقل في سلامٍ وطمأنينة، أم هو فعل راديكاليّ يجب أن نسمع فيه صوت المطرقة؟

كان هذا جوهر صراعٍ فكريٍّ طاحنٍ بين مفكّرين عظيمين، «بين العقل والعاطفة، بين عقيدة الإنسانيّة والتعصّب الدينيّ، بين العالميّ والمحلّيّ، بين التعدّديّة والأحاديّة»، اهتزّت له أوروبا، لكن «لا القوّة انتصرت [فيه] ولا العدل الشريد». وكان على العالم أن ينتظر قنّاصًا مثل مكيافللي «يقطف ثمار التغيير» ويصوغ من مثاليّة إيرازموس وواقعيّة لوثر تصوّرَه البراغماتيّ للعالم.

في هذا الكتاب يستدعي زفايغ مرحلة حرجة من تاريخ أوروبا، ليقرأ بها الحاضر ويصوغ حُلُمَ الإنسانيّة، عبر العصور المختلفة، في الانتصار للعقل ضدّ التعصّب ونزق الأهواء.

رضا الحسني

التحوّل

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: أشرف القرقني

ما الذي كان يدور في ذهن ستيفان زفايغ وهو يخطُّ آخرَ حرفٍ في رواية «التحوّل»، قبل أن يُنهي حياته في منفاه الاختياريّ بالبرازيل؟ ترى هل كان يكتبُ وصّيتَهُ الأخيرة، مُوَّقِعًا على شهادةِ إدانةٍ مكتومة، شهادة تُدين عالمًا لا يُحرّكه الحبُّ، بل أباطرةُ المال والنفوذ المسعورون؟ أم تراهُ كان يتشوّفُ نهاية ذلك العالم، عالمه هو، بأبشع طريقةٍ ممكنة، وبلاده النمسا تترنّحُ أمام نظامٍ نازيٍّ قادم لابتلاعها؟

في الواقع، لم يُنه زفايغ روايتَهُ أبدًا، وحتّى العنوانُ نفسهُ لم يضعهُ هو، وكأنّنا به يُعلن استسلامهُ أخيرًا أمام وحشيّة الحرب، وتحوّلات عالمِهِ القديم.

إنّ هذه الرواية ليست قصّةً رومانسيّةً حالمة، عن فتاة تتغيّر حياتها رأسًا على عقب، فتتحوّل من موظّفة بسيطة في مكتب بريد، إلى برغيّ ضئيل في آلة جبّارة، أو عن حبيبها الذي دمّرت الحرب آخر حصون الإنسانيّة فيه، بل هي شهادة زفايغ نفسهِ، شهادة مكلومة، اختارَ أن تكون حياتُهُ هي خاتمتها الوحيدة.

وليد أحمد الفرشيشي

فالكونر

المؤلّف: جون شيفر
البلد: أمريكا
ترجمة: محمّد الحباشة

«فالكونر» اسمُ سجنٍ أمريكيّ سيء السمعة، وعنوانُ روايةٍ عنيفة تندرج ضمن ما يُسمّى بـ«أدب الواقعيّة القذرة»، تصدم القارئ بشدّة جرأتها وبما تختزنه من انكسارات ونزوات وأوجاع، وتدعوه إلى التفكير في هشاشة الطبيعة البشريّة بكلّ تناقضاتها...

أستاذ جامعي يُقذف في «فالكونر»، فتنقلب حياته رأسًا على عقب، وتتنازعه مشاعر الإحباط والعبثيّة والاغتراب العميق. يخوض صراعًا مريرًا من أجل صدّ ما يُحاصره من توحّش والمحافظة على آخر ما ظلّ من الإنسانيّة فيه، حتّى إنّ مشهدَ سجينٍ بصدد إطعام الحمام بفُتات الخبز، يجعل «فاراجوت» يمتلئ أملًا بأنّه «سينجو من الجنون»...

يُسافر الروائي الأمريكي جون شيفر بالقارئ إلى عوالم الحياة السجنيّة عبر ما واجهَهُ بطله «فاراجوت» من فظائع وما حمله من أحلام وهموم ووجيعة لا حدود لها. فوراء القضبان، يُمسي الانتظار بلا معنى والمستقبل بلا عنوان. ولا يحافظ على شمعة المعنى، وهو يكاد ينطفئ، غير الماضي البعيد. فهل تُحقّق تلك الذكريات نوعًا من الهروب من عبثيّة الواقع وعدميّة الراهن؟ إنّها مواجهة بين زمنين يقف الكائن البشريّ على الخيط الدقيق الرابط بينهما، وليس تحته سوى الهاوية.

معز زيّود

الهادي التيمومي

قيامة الحشّاشين

يغادر أستاذُ التاريخ أرضَ إفريقيّة في ندوةٍ علميّةٍ باليمن، ويجد فيها فرصةً للقاء أحد شيوخ الباطنيّة وفَهْمِ ما استغلق عليه من كنزٍ أثريٍّ وجدَه في قبرٍ قديمٍ، فإذا الصدمة من السرّ المدفون هائلةٌ: إنّها مزاميرُ شيخ الجبل، ساكن عشّ النسر، حَسَن الصبّاح، ورقائقُه وتعاليمُه ووصاياهُ!

وهكذا يصبح الأستاذُ نابشُ القبر طريدًا يلاحقه هؤلاء لحرق الكنز المشؤوم ويطارده آخرون يبتغون إرثَ سيّدهم المقدّس، ويصرّ هو على كنزه إذ رأى فيه ثروةً وطنيّةً يستكشف من ورائها مناطق غارقةً في الظلمة من تاريخ «فرقة الحشّاشين» أخطر فرقةٍ عرفها العصر الوسيط. وتبدأ رحلة المشاعر المتضاربة: نشوة المُكتشِف يفكّ الطلاسم ورموز المزامير، ورعب الهارب يجدّ في إثره الحشّاشون ورجال الشرطة.

إنّها رواية النّبش في تاريخ فرقةٍ غامضةٍ نُسجت حولها حكاياتٌ شتّى امّحت فيها الحدود بين الواقعيّ والأسطوريّ والتبست الفوارق بين التاريخيّ والعجائبيّ.. رواية تغوص بعين الفنّ بعيدًا واصلةً الماضي بالرّاهن كاشفةً عن أهمّ أسباب غياب نهضة الشّرق.

رضا الحسني

ISBN: 978-9938-24-149-5
9 789938 241495

مكتبة
t.me/soramnqraa